

تأريخ الآداب العربية

من الجاهلية حتى عصر بني أمية

نص المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية

في سنة ١٩١٠ - ١٩١١

المرحوم الأستاذ

كارلوتا لينو

تقديم

الدكتور طه جستان



دار المعارف بمصر

تاريخ الآداب العربية

تاريخ الآداب العربية

من الجاهلية حتى عصر بني أمية

نص

المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية في سنة ١٩١٠ - ١٩١١

المرحوم الأستاذ

كارلونا ليتو

اعتنت بنشرها مريم ناليتو

تقديم

الدكتور طه حسين

الطبعة الثانية



دار المغارف بمصر

تقديم

هذا كتاب في تاريخ الأدب العربي . قرأته كما تعودت أن أقرأ أمثاله من الكتب التي تعرض للأدب العربي وغيره من الآداب الأخرى . ولكني لم أقرأه بعقل وحده ، كما تعودت أن أقرأ كتب التاريخ الأدبي ، وإنما قرأته بعقلي وقلبي وشعوري وبهذه العواطف الكثيرة المختلفة التي تثور في نفس الشيوخ حين يستحضرون أطرافاً من حياتهم في عصر من عصور شبابهم الأول . عواطف هذا الحنين إلى شيء لا سبيل إليه أو إلى أشياء لا سبيل إليها . وعواطف هذا الحب لما لا سبيل إلى بلوغه ولا مطمع في تحقيقه . وعواطف هذا الحزن على هذا الحرمان الذي لا سبيل إلى استدراكه ولا إلى اتقاء ما يثيره في النفس من المفضض واللوعة والأسى .

ثم عواطف الأُنس بتلك الآمال العذاب التي طالما تعلقت بها النفس واثقة مطمئنة ، والتي صدقت ولم تكذب وتحققت ولم تخب ، فلأت القلب غبطة وبهجة وسروراً ، وأعانت على العمل والجهد والكد والنشاط ، وأناحت لكثير من المني أن تتحقق ثم انقضت وانقضت أيامها ، فأصبحت وكأنها حلم رائع رائق مضى مع تلك الليلة الجميلة التي أثارته وأثارت الرضى به ، ثم مضت إلى غير رجعة ومضى معها حلمها ذلك السعيد .

نعم هذا كتاب يتجه إلى العقل لأنه يؤرخ عصراً من عصور الشعر العربي القديم . ولكنه بالقياس إلى وإلى نفر من رفاقي في ذلك الجيل الذي مضى ، يتجه إلى القلب أيضاً لأنه قطعة من شبابنا ، ولأنه يصور لنا لوناً من ألوان تلك الحياة التي كنا نحياها في أول هذا القرن ، والتي لا يحياها الشباب الآن بعد أن تغيرت الحياة المصرية وذهبت معالم تلك الحياة القريبة البعيدة ، وأصبحنا لا نستطيع أن نستحضرها إلا بالذكرى حيناً تتيح لنا الحياة الحاضرة وأعمالها وأثقالها أن نخلو

إلى نفوسنا ونفرغ لذكرياتنا . وما أقل ما تتاح لنا الخلوقة إلى النفوس وما أندر ما يتاح لنا هذا الفراغ إلى الذكريات .

نعم ! وهذا الكتاب لا يتجه إلى هذه الناحية وحدها من نواحي قلوبنا وحياتنا في أول الشباب ، وإنما يتجه إلى ناحية أخرى هي ناحية الحب الرفيع النقي الكريم الذي لا تشوبه نقيصة ولا تتعلق به آفة من هذه الآفات التي تتعاقب بحسب الإنسان للإنسان ، فتفسده أو تشيع فيه ما يحزن ويسوء . ذلك هو حب الشباب الطامع الطامع المتطلع للأستاذ الذي يرضى العاصم والعاصم والمتطلع ، ويخرج النفوس عن أطوارها ويرفعها إلى حيث تستطيع نفوس الشباب أن ترتقى إليه من منازل الإكبار والإعجاب والثقة والاتصال بالمثل العليا ، لا يصدها عن ذلك صداد ، ولا يردّها عنه راد ، ولا يحول بينها وبينه حائل من تلك المعوقات التي تملأ حياة الشباب على اختلافها وتباين أشكائها وألوانها .

هذا كتاب في تاريخ الأدب العربي سمعناه في أول شبابنا في تلك الجامعة المصرية القديمة من أستاذنا الإيطالي العظيم « كارلو فالينو » منذ أربعة وأربعين عاماً .

في ذلك الوقت كنت طالباً في الأزهر أقيم في ذلك الحى الذى وصفته في كتاب الأيام ، والذي زرته منذ حين لأحدث به عهداً ، ولأظهر عليه صديقاً لي من أساتذة « مدريد » ترجم كتاب الأيام وشاقه هذا الحى فأراد أن يراه . فلم نكد نلم به حين ارتفع الضحى من ذلك اليوم حتى رأيت هذين البيتين يترددان في نفسى :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلاً لا أسائلها أعيت جواباً وما بالربع من أحد

نعم ! أشهد لقد أقوت ولقد طال عليها سالف الأمد ، ولقد سألتها فلم تجب ولم أجد فيها أحداً يستطيع أن يجيب . وما أذهب في هذا مذهب الحجاز وإنما هو مذهب الحق الذى يستطيع الناس جميعاً أن يروه إذا ذهبوا إلى هذا الحى ورأوا فيه تلك الأطلال التي عبت بها الزمان ، وأعملها الإنسان ونخل بينها وبين البلى والحراب .

كنت أعيش في ذلك الحى أخرج منه مصباحاً إلى الأزهر فأسمع فيه دروس الأدب من الأستاذ العظيم السيد على المرصني ، وأخرج منه مع المساء إلى الجامعة المصرية فأسمع فيها دروس الأدب من الأستاذ العظيم « كارلو نالينو » . وكانت دروس الأدب تلك التي كنت أسمعها في الأزهر حين يرتفع الضحى تردني إلى حياة الطلاب القدماء الذين كانوا يختلفون إلى العلماء في مساجد البصرة والكوفة وبغداد . وكانت دروس الأدب التي كنت أسمعها في الجامعة حين يقبل المساء تدفعني إلى حياة الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات في روما وباريس وغيرهما من المدن الجامعية الأوروبية الكبرى . فكنت أعيش مع الماضي البعيد وجه النهار ، وأعيش مع الحاضر الأوربي الحديث آخر النهار ، وتشغلي خطوب الحياة المصرية الراكدة الممضة بين ذينك الوقتين . وكان الرفاق يجدون من هذه الحياة مثل ماكنت أجده ، يسعدون حين يعودون إلى الماضي ، ويسعدون حين يدفعون إلى الحياة الغربية التي كانوا يتطلعون إليها ، ويشقون بين ذلك بالركود والجمود .

ويجب أن يتصور القراء من الشباب بالمعاصرين حياة أولئك الشيوخ الشباب من طلاب الأزهر في أول القرن ، حياتهم المادية وحياتهم العقلية أيضاً . وأن يقدرُوا ماكان يملأ قلوب بعضهم من الرضى والغبطة ، وهذا الغرور الحلو البريء الذي كان يمازج نفوسهم تلك الغصة المتواضعة حين كانوا يدفعون من حى الأزهر إلى حى قصر النيل ، وحين كانوا يتحلقون مصبحين حول أعمدة الأزهر متربعين على الحصر البالية ، ثم يجلسون إذا كان المساء إلى أساندهم في غرفات الجامعة لا يتربعون على الحصر وإنما يجلسون على الكراسي إلى تلك الموائد الصغار . وحين كانوا يسمعون من شيوخهم وجه النهار أحاديث الفقه والنحو كما كانت تلقى في تلك الأوقات ، وبأيديهم ملازمهم تلك الحقيقة يتبعون فيها ما يقرأ الشيوخ عليهم من الكتب ويسمعون لما يلقى عليهم الشيوخ من التأويل والتعليل والتحليل ، فيفهمون قليلاً ويعجزون عن فهم كثير مما كانوا يسمعون . فإذا كان المساء جلسوا إلى أساندهم أولئك من الأوربيين فسمعوا منهم أحاديث لا عهد لهم بمثلها تلقى عليهم باللغة العربية الفصحى مع شيء من التواء الألسنة بهذه اللغة ، فتقع تلك الأحاديث من آذانهم موقع الغرابة ومن قلوبهم مواقع الماء من ذى الغلة الصادى ، فإذا خلوا إلى أنفسهم بعد ذلك وازنوا بين ما يسمعون وما يرون أول النهار ،

وما يسمعون وما يرون آخر النهار . فأثارت هذه الموازنة في نفوسهم عواطف وأهواء وميولا أقل ما توصف به أنها كانت تصور لهم هذه الآماد البعيدة إلى أقصى غايات البعد ، بين قديم سقيم ستموه وضاقوا به ، وبين جديد أحبوه ونهالكوا عليه .

رواؤنا كذلك بين شيوخهم أولئك الذين كانوا لا يعربون إلا حين يقرءون في الكتب ، فإذا تكلموا غرقوا وأغرقوا طلابهم في اللغة العامية إلى أذقانهم أو إلى آذانهم ، وبين أساتذتهم أولئك الأوربيين الذين كانوا يعربون حين يقرءون وحين يفسرون وحين يخوضون معهم فيما شاء الله من ألوان الحديث . وكانوا يسألون أنفسهم كيف أتبع هؤلاء الأوربيين ما أتبع لهم من العلم بأسرار اللغة العربية ودقائق آدابها ، وكيف لم يتبع هذا النوع من العلم لشيوخهم أولئك الأجلاء .

وكانت هذه الموازنات تثير في قلوبهم فنونا من التمرد وتدفق نفوسهم إلى ضروب من الثورة والجموح . وكان هذا كله يعرضهم لكثير من الشر . وحسبك أنهم كانوا مقسمين بين الأزهر القديم والجامعة الجديدة .

وكان هذا يجعل حياتهم قلقاً كلها . وأي شيء أجدى على النفوس الشابة من هذا القلق الخصب الذي هو الأساس المتيقن لكل تطور منتج في الحياة العقلية والمادية جميعاً . وما أظن حياة الشباب « المطربشين » الذين كانوا يختلفون إلى الجامعة إلا مشبهة من كثير من الوجوه لحياة زملائهم المعتمدين .

من أجل هذا كله يستطيع القارئ المعاصر أن يقدر ما كان للجامعة المصرية القديمة من أثر بعيد فيما طرأ من تغير خصب على حياة ذلك الجيل من أجيال الشباب .

أما أنا فقد سجلت غير مرة وأسجل الآن أنى مدين بحياتي العقلية كلها للذين الأستاذين العظيمين : سيد علي المرصفي ، الذي كنت أسمع دروسه وجه النهار ، و « كارلو نالينو » الذي كنت أسمع دروسه آخر النهار . أحدهما علمني كيف أقرأ النص العربي القديم وكيف أفهمه وكيف أتمثله في نفسي وكيف أحاول محاكاته . وعلمني الآخر كيف أستنبط الحقائق من ذلك النص ، وكيف ألائم بينها ،

وكيف أصوغها آخر الأمر علماً يقرؤه الناس فيفهمونه ويجدون فيه شيئاً ذا بال .
وكل ما أتبع لى بعد هذين الأستاذين العظميين من الدرس والتحصيل فى مصر
وفى خارج مصر فهو قد أقيم على هذا الأساس الذى تلقينه منهما فى ذلك الطور
الأول من أطوار الشباب . بفضلهما لم أحس الغربى حين أمعنت فى قراءة كتب
الأدب القديم ، وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوربيين فى جامعة باريس ، وحين
أمعنت فى قراءة كتب الأدب الحديث .

فلا غرابة إذا فى أن تكون حياتى كلها برأ بهذين الأستاذين وإكباراً لهما
واعترافاً بفضلهما وشكراً لما أهديا لى من معروف بما أسديا لى من جميل . وشهد
الله ما قرأت فى كتاب قديم ولا حديث ولا حاولت كتابة فى الأدب إلا ذكرت
أحدهما أو كليهما وأرسلت إليهما من أعماق نفسى تحية الحب والإعجاب والشكر
والوفاء .

والذين يقرءون هذا الكتاب الذى أقدمه اليوم إلى القراء المتأدبين يحسن بهم
أن يقرءوا ما كان يدرس لشبابنا فى ذلك الوقت من أدب فى معاهدنا ومدارسنا على
اختلافها ، ليقدروا الفرق الهائل بين ما كان الأستاذ « فالينو » يلقى علينا فى الجامعة ،
وبين ما كان يلقى علينا فى المعاهد والمدارس ، وأثر هذا الفرق فى تطور حياتنا العقلية
وفى تطور تصورنا للأدب العربى قراءة وفهماً وإنتاجاً .

فلأول مرة درس لنا الأدب العربى القديم درساً منظماً ، وأتى فى روعنا أن
الشعر العربى لا يختلف باختلاف فنونه التقليدية مدحاً ورثاء ووصفاً وهجاء ونسيباً
وتشبيهاً فحسب ، وإنما يختلف باختلاف موضوعاته التى قيل فيها وظروفه التى
أحاطت به حين قيل ، والمؤثرات المختلفة التى أثرت فى قائله وفى سامعيه أيضاً .
ولأول مرة أتى فى روعنا ما كان للسياسة من آثار دقيقة عميقة فى نشأة فنون مختلفة من
الشعر العربى فى العصر الإسلامى أيام الخلفاء الراشدين وأيام بنى أمية .

ولأول مرة أتى فى روعنا الفرق بين الشعر التقليدى وبين الشعر الذى استحدثته
السياسة الإسلامية فى العراق ، وبين النسيب التقليدى القديم والغزل
الذى استحدثته النظام الاجتماعى الإسلامى فى الحجاز ، وبين الغزل المحقق الذى

نشأ في حواضر الحجاز والغزل العذرى النقى الذى نشأ في البادية العربية في الحجاز وتجد والعراق .

ولأول مرة عرفنا أن من الممكن أن ندرس الأدب العربى على أساس من الموازنة بينه وبين الآداب القديمة الكبرى ، وأن الحياة الإنسانية تتشابه وتتقارب مهما تختلف ظروفها ومهما يتنوع ما يختلف عليها من الخطوب .

ولأول مرة تعلمنا كيف نحقق هذه الموازنة بين أدبنا القديم والآداب القديمة الأخرى ، ملائمين بين ما ينبغى أن نلائم بينه ومخالفين بين ما ينبغى أن نخالف بينه من الظواهر المتباينة التى يذخر بها التاريخ والتى تؤثر في حياة الناس .

ثم لأول مرة تعلمنا أن الأدب مرآة لحياة العصر الذى ينتج فيه ، لأنه إما أن يكون صدى من أصداؤها ، وإما أن يكون دافعاً من دوافعها ، فهو متصل بها على كل حال وهو مصور لها على كل حال ، ولا سبيل إلى درسه وفقهه إلا إذا درست الحياة التى سبقتة فأنثرت في إنشائه ، والتى عاصرتة فتأثرت به وأثرت فيه ، والتى جاءت في إثر عصره فنلتقت نتائجه وتأثرت بها . فللأدب مظهران إذاً ، مظهره الفردى لأنه لا يستطيع أن يبرأ من الصلة بينه وبين الأدب الذى أنتجه ، ومظهره الاجتماعى لأن هذا الأديب نفسه ليس إلا فرداً من جماعة فحياته لا تتصور ولا تفهم ولا تحقق إلا على أنه متأثر بالجماعة التى يعيش فيها . هو في نفسه ظاهرة اجتماعية فلا يمكن أن يكون أدبه إلا ظاهرة اجتماعية .

كل هذا سمعناه وفهمناه في تلك الدروس التى كان الأستاذ «نالىنو» يلقيها علينا ، حين كان هذا القرن في العاشرة من عمره . وكل هذا كان جديداً بالقياس إلينا في تلك الأيام وبالقياس إلى الأزهرين منا بنوع خاص . فن الطبيعى أن يحدث في نفوسنا أعمق الآثار وأبعدها مدى ، وأن يطبع حياتنا العقلية بطابع النقد الحديث . وليس من شك في أن حقائق التاريخ الأدبى العربى قد تغيرت منذ ذلك الوقت في كثير من أنحائها وفي كثير من تفصيلاتها كذلك .

وليس من شك أيضاً في أن العلماء المصريين كان لهم أعظم الأثر فيما حدث من هذا التغيير ، فهم تعمقوا دراسة الأدب أثناء هذه الأربعين سنة الأخيرة ، فاستكشفوا أشياء لم تكن معروفة في حياة الأدب العربى أثناء القرون الأولى

للهجرة ، وهم قد نشروا آثاراً قديمة لم تكن قد خضعت لبحث العلماء ، فيسروا للباحثين درسها وفقهها واستكشاف ما كانت تخفى من الحقائق ، وهم بعد ذلك قد كسبوا بالدراسات الأدبية المصرية منزلة لها قيمتها الخطيرة في الدراسات العالمية لأدبنا العربي القديم .

كل هذا شيء ليس فيه شك ودلائله تلمس بالأيدى في هذه الكتب القديمة التي نشرت ، وفي هذه الكتب الجديدة التي ألقت ، وفي الدروس الأدبية التي تلقى في جامعاتنا ومعاهدنا المختلفة ، وفي إنتاجنا الأدبي الخالص الذي شغلت بدرسه وعنيته بفقهه ونقله إلى اللغات المختلفة البيئات العلمية في غرب أوروبا وشرقها وفي شمال أمريكا وجنوبها . ولكن هناك شيئاً ليس أقل من هذا ثبوتاً واستقراراً ووضوحاً ، وهو أن دروس الأستاذ « نالينو » في الجامعة المصرية القديمة كانت هي الموجه الأول لنهضتنا العلمية في دراسة الأدب مباشرة أو بالواسطة ، وجهت تلاميذ الأستاذ الذين سمعوا منه فبحثوا وتعمقوا وأحسنوا الفقه ، ثم وجهت أجيالاً من الشباب سمعوا على هؤلاء الطلاب حين أصبحوا أساتذة وقرروا لهم حين أصبحوا مؤلفين »

وكذلك مضى المذهب الحديث في تاريخ الأدب بين الأجيال المتعاقبة من الدارسين والباحثين . وما أعرف للأستاذ « نالينو » نظيراً في التوجيه العميق للنهضة المصرية إلا زميله الأستاذ « سنلانا » الذي أحدث في مصر نهضة خطيرة في دراسة الفلسفة الإسلامية ، وفي الصلة بين هذه الفلسفة وبين الفلسفة اليونانية القديمة .

وقد أتيج للأستاذ « نالينو » من البر به بعد وفاته ما أرجو أن يتاح لزميله . والفضل في نشر هذا الكتاب يرجع قبل كل شيء وقبل كل إنسان إلى ابنته الكريمة الأنسة « ماري نالينو » . فهي التي حفظت آثار والدها العظيم وجدت في إعدادها للنشر ، وظفرت بالمعونة على نشر هذه الآثار في إيطاليا ، فأهدت للعلم والعلماء كنوزاً لا مسيل إلى تقويمها ولا إلى استقصاء آثارها الخطيرة ، فيما أنتج الباحثون من الشرقيين والغربيين وما سيتجون من الدراسات الأدبية العربية على اختلاف موضوعاتها .

وأعدت هذه الدروس للنشر كما تركها الأستاذ لم تغير فيها شيئاً وإنما وفت لأبيها أصدق الوفاء وأجدره بالإكبار والإجلال . ووجدت من دار المعارف للطبع والنشر معونة صادقة على إذاعة هذا الكتاب . فكان للدار والأستاذة « ماري نالينو » فضل أى فضل ، لأنهما بنشر هذا الكتاب قد برّتا بأستاذ جدير بالبر ، وهياتا لشباب المصريين والشرقيين أن يعرفوا أصول نهضتنا الأدبية المعاصرة .

فلهما على جهدهما الخالص لخدمة العلم ، الشكر أجمل ما يكون الشكر ، والثناء أصدق ما يكون الثناء .

أما أنا فلم أمل هذه الصفحات إلا لأسجل برى بأستاذى العظيم ، وشكرى لابتته الكريمة ودار المعارف على ما أتاحت لى من أن أرى لوناً من ألوان حياتى فى طور من أطوار الشباب .

طه حسين

تنبيه

لا يكون هذا الكتاب إلا نص الدروس التي ألقاها المرحوم الأستاذ كارلو نالينو (المتوفى سنة ١٩٣٨) في الجامعة المصرية سنة ١٩١٠ - ١٩١١ دراسية، فقد كان المرحوم ألف نص الدروس باللغة العربية ولكنه كتب الحواشي بالإيطالية بشديد الإيجاز والاختصار، فاعتنيتُ بنقل الحواشي إلى اللغة العربية وأضفتُ إليها ما عثرت عليه من الأخبار المفيدة الموجودة في بعض الكتب التي طُبعت بعد إلقاء هذه الدروس وإنما وضعتُ هذه الإضافات بين نصي مستطيل [] .

ومن الواجبات على أن أشكر الدكتور طه حسين شكراً جزيلاً لإرادته أن يؤسس ذكرى المحبة الخالصة بينه وبين المرحوم بنشر هذا النص غير المطبوع إلى الآن .

مريم نالينو

مقدمة

لما افتتحتُ دروسى فى السنة الفائتة كان أولُ كلامى إهداء شكر خالص حميم صادر عن خفايا قلبى للقائمين بالجامعة المصرية على ما شرفونى به بالدعوة إلى إلقاء محاضرات فى هذا المعهد العالى الذى على حدائنه عهدته أضحى قبلة آمال المُجدِّين فى ترقية هذه الديار الشريفة ومركزاً تحوم حوله قلوب الآخذين بأيدي الأمة المصرية فى سبيل الفوز والتقدم . وكذلك فى هذه السنة ليس لتدريسى افتتاحُ أولى ولا ابتداءُ أخرى من إعادة جزيل الشكر على ما أظاهرة لى دولة الأمير أحمد باشا فؤاد ومجلس إدارة الجامعة من حُسْن الظنِّ بى واستحسان عملى السابق حيث تكرّموا علىّ بتكرار الدعوة فى هذا العام وإن صجر لسانى عن توفية ما يقضيه مثل هذا الشرف من عبارات الشكر والعرفان :

والذى حملنى على تلبية الدعوة مع معرفة قلّة علمى وضعف قُواى بالنسبة إلى خطر الموضوع وجلالته وغلب فى نفسى على الخفاة من النقصان عن نهضت أعباء هذا المنصب والتقصير عن إحسان القيام بمثل هذا التدريس الصعب الوعر أن الجامعة المصرية تدخل هذه السنة فى دور جديد وطور جديد يُرجى منه فضلاً عن ترقية العلم إصلاحُ أحوال التعليم بالقطر المصرى فى المستقبل غير البعيد وتجهيزُ المعلمين الأكفيا لتحسين جميع المدارس الوطنية وجعلها أهلاً لغايتها تلك العليا التى هى مَرَامُ أولى الأفكار السامية والأميال العالية أعنى تكوين القرائح وتثقيف العقول وتربية النفوس وبتُّ روح الجِدِّ والعمل وإيجاد الرجال الخادعين لوطنهم بهمة وصدق واستقلال . وإن الأفاضل الكرام المعنيين بأمور الجامعة هم كفلاء النجاح وزعماء القلاح .

فلذلك سررت أى سرور وحسبت أنى قد نلت أسمى المنى بوقوفى اليوم بين أيديكم مشتركاً وإن لم أكن كفتاً فى هذا الأمر الجليل والعمل الخطير الذى هو أشرف ما يمتد إليه أعناق الهم وأعظم ما يتنافس فيه نبال الأمم .

قد سبقت أمّتي الإيطالية أيّ سبق جميع الأمم الإفرنجية الأخرى إلى عقد
العهود وتثبيت روابط المحبة والوثام بينها وبين الديار المصرية فكان في القرون الوسطى
تجار البندقية وجنوة وغيرهما من المدن الإيطالية قاصدين مصر أفواجاً مقتحمين
لحج البحر مفرّغين الجهد في توسيع نطاق التجارة فأصبحوا في أثناء أمد مديد
بل أجيال متوالية متفرّدين بالاتجار في الشرق مستبدّين بعلاقات الودّ والسلام
بهذه الأراضي الشريفة . وريّما لم يقتصروا على مقايضة البضائع : ذهبوا بقصص
وحكايات سمعها من القصاصين المصريين وأشاعوها في الأنحاء الإيطالية حتى
اشتهرت فيها فألبسها أدباء أمّتي ثوباً قشيباً في مؤلّفانهم المنظومة
والمنثورة . وكذلك بعض المصوّرين المشهورين من بنى جلدت في القرن الخامس
والسادس عشر ربّما في تصاويرهم المحفوظة الآن في المتاحف رسموا أشعة الأمراء
والسلاطين من دولة المماليك أو صوّروا رجالاً عليهم الحالُ المحلاةُ بكتابات
عربية منقولة ممّا رأوه منقوشاً في الصواني والقناديل وما أشبهها من المصنوعات
المصرية . وإن تصفّحت الكتب العربية في صناعة إنشاء الدواوين (مثل كتاب
تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف للشيخ تقي الدين عبد الرحمن من علماء
القرن الثامن للهجرة أو كتاب صبيح الأعشى للفيلسوف شمس الدين المتوفى سنة ٨٢١ هـ -
١٤١٨ م) وجدتم فيها قوانين رسم مكانة سلاطين دولة المماليك لأرباب الولايات
أي الحكومات الإيطالية . وعلى تمادى الزمن لم تزل هذه العلائق بين وطنكم ووطني
موقوفة على محض المحبة والمسالمة فلا كدّرتها أبداً شرّ العداوة أو سوء الطمع
والغضب ولم يصل أبداً مركبٌ إيطاليّ إلى مرافئ القطر المصريّ إلاّ بصفة
صديق يزور الصديق . فأحسب من أحسن التفاوض لتوثيق علائق الارتباط بين
الأمميين إن بعضنا الإيطاليين دُعينا إلى الاشتراك في هذه النهضة العلمية الجديدة
التي تعود على بلادكم بالنائدة العظمى وتكون سبباً في زيادة رفعة القطر وعزة
الشعب . فأتمنى كلّ التمنى ازدياد المؤلفة والاتفاق وتبادل المحبة والصداقة
على الدوام .

إنّ المواد التي ستلور دروسى عليها هذه السنة ليست في كتاب واحد موضحة
أو في كتب قليلة مدوّنة بل هي في جملة وافرة من المصنّفات الكبيرة والصغيرة في

لغات شتى شرقية وغربية متفرقة فضلاً عما يكون من مبتكرات أفكارى .
فلذلك أرى من المناسب أن أكرر نصيحة قد نصحتها للطلبة عند ابتداء
السنة الدراسية السابقة أعنى أن أحثكم كل الحث على أخذ مذكرات في أثناء
الدرس ثم على تقييدها وترتيبها في منازلكم ببذل الجهد وإنعام النظر فيما قيّدتم لئلا
تنسوا ما سمعتم ولا تحفظوا شيئاً من المسموع إلا فهمتم معناه واستقصيتم فحواه .
وأنتم تعلمون أن التعلم بشيئين : حسن الحفظ وإدمان الفكر في المحفوظ فإن قل
أحدهما قل ونقص المتعلم . وذلك خصوصاً في المدارس بالجامعات التى تنتهى
ما يرمى منها ليس كما فى المدارس الثانوية محض إفادة الطلبة ما سينفعهم في
الحياة العادية من المعارف بل هو هداية الطلاب في طريق النبوغ في الفنون
ونمريتهم على آداب البحث العلمى باستقلال الفكر ودقة الانتقاد السالم . فمشكل
المدرّس بالجامعات كمشكل دليل رافق السائح مدة ما فإما رآهم قادرين على
تدليل عقبات الطريق عارفين بما يجب عليهم من التجهّز لباقي السفر والتحرّز من
أخطار السيّر ودعهم وتركهم لوحدهم داعياً لهم بالطائر الميمون وفيل المرام متمنياً
أن يسهلهم اكتشاف طرق جديدة وسلوك مسالك لم يدخلوها أحد قبلهم وقطع
بقاع لم يسبق إليها غيرهم . كذلك الأسناد بجامعة يختار كل سنة قطعة صغيرة من
فنه ويتحدّر فيها أثناء دروسه ليعرف الطلبة أساليب البحث الدقيق والفحص
العميق التى لا سبيل دونها إلى ترقية العلم وتوسيع حكمة المعارف . فقصارى القول
أن غاية الجامعات ليست فقط أن يصبح الطالب واعياً لما تلقاه عن أسناده من
الفوائد والأخبار بل هى خاصة تدريب ذهن الطالب بإجراء الاعتبار والانتقاد فيما
وعاه ليُضحى بعد ذلك التدريب أهلاً للتدرّج في مراقب الارتقاء العلمى باستقلال
الفكر قادراً على سدّ الخلل الذى ربّما وقع فيه السلف جديراً بالإيجاد فيما اختص به
من العلوم يجوز لطالب المدارس الثانوية الاقتناع بما دونه وبيئته المدرّس أو
بمضمون الكتب القليلة الابتدائية المقررة لتلك المدارس ليكون مقصد التعليم الثانوى
أن يقتبس الشاب قدراً معيناً من المعارف بفنون مخصوصة مناسباً للمقضى القيام
بأمر الحياة العادية العملية . ولكن لا يجوز ذلك لمن طلب العلم بالجامعات التى
غايته القصوى إنما هو تأهيل أخيار الشبان للتوصل إلى أعلى درجة من المهارة

بالبحث العلمي المبدع ولإتقان الوسائل والأسباب المبتغى عليها ستيّر الوطن والعلم والاجتماع الإنساني في سبيل الرقي الدائم والتقدم الزائد . إن عمل الأستاذ بالجامعات كعمل الزراع في حقولهم لأن دروسنا ليست إلا بذور يزر صغير في عقول المستمعين فلا يدرك ذلك البزر ولا ينبت ولا يُعْمى شجرة وارقة مثمرة إن لم يلقحها المتعلم بقوة الحافظة ورياض العقل وإمعان النظر وسعة مطالعة جسم من مصنفات أشهر العلماء على ما دون ذلك من النصب والجهد والعناء والجهد لأنه كما قيل :

بقدر الكد تكتسب المعالي فن طلب العُلا سهر الليالي

وحيث إن حفظ جميع ما سُمع مرة واحدة لشيء مستحيل (ولا يخفى على أحد صحة المثل السائر أن كل علم ليس في القرباس ضاع) . كيف لكم بإعمال الفكر فيما استمعتموه بالجامعة والاستفادة منه بعد ما رجعت إلى منازلكم إن لم تكن لكم كراريس قيّدة فيها خلاصة الدرس ؟ ثم كيف لكم بالتجهز لتأدية الامتحان في آخر السنة إذا كان ما درّس بالجامعة أكثر المادة التي ستُمتحنون فيها ؟ لا بد لكم من احتذاء مثال زملائكم بالجامعات الأوروبية في تقييد مذكرات بسرعة أثناء درس الأستاذ ثم في تكميلها واستخراج نخبها وترتيبها مستعينين بمراجعة ما يتيسر لكم من الكتب المشار إليها في الدرس .

ثم أحرفكم كل التحريض على الاتساع في المطالعة فإنه مما لا غنى عنه لمن يريد الترقى الرحب في أي علم . وهو أيضاً من أعظم الواجبات عليكم خصوصاً في هذا الفن الذي أتشرف بتدريسه هذه السنة لأن شدة الاعتناء بآداب لغتكم الشريفة وتاريخها ليست فقط مسألة علمية بل خلدية جليلة لوطنكم يحق عليكم القيام بها . إن الذي يعين ويصون وحدة أمة هو بالأخص وحدة اللغة والآداب والأخلاق والأميال والأفكار المتوارثة منذ الزمان القديم دون التقطاع وانفصال فإن أغفلت صيانتها انحدرت الأمة إلى ورطة انحطاطها بل إبطال وحدتها . وإن راجعتم كتب تواريخ الغرب أقيمت أن بعض الأمم الإفريقية قد تراكمت عليها الفتن والحروب والبلايا والفساد وقهرها العلو وجعلها في حال شر العبودية سادت من الفناء التام لتمسكها بحفظ آداب لغتها والعناية بتخليد ذكر ما ثر قدمائها العلمية

والأدبيّة. ورُبَّ أمةٍ قد ألقاها تقلّبات الأمور وصروف الدهور في غاية الانحطاط السياسيّ أخذت تُصلح شأنتها الدليل وتعود إلى ما كانت أولاً عليه من العمارة والصّلاح السياسيّ والاستقلال لمّا صارت علماءها مُفترِغين كَنانة جهنّم في البحث العميق عن تاريخها وأحوالها السالفة وفي إحياء آداب لغتها وآثارها ومفاخرها كأنهم بعملهم هذا قد ألقوا روح الحياة في جسم الأمة المنهوك القريب من الموت - فويل لكلّ أمةٍ غلب فيها القُتورُ عن صون كنوزها الأدبيّة وإبقاء ذكر ما لُزها .

سنسمّوني يا صادةُ أسرُدُ في إنشاء دروسٍ عدداً غير قليل من أسماء علماء معتبرين قلّما كانوا أم معاصرين شرقيين أم غربيين فانتقيد أقوالهم وأبدي فكري فيها بالحرية النامة مستحسناً تارةً لآرائهم وراداً تارةً عليها بعد تقديم الاستنادات والدلائل والحجج . وليس غرضي من ذلك الخط من شأن أولئك العلماء الأفاضل والحكماء الأماجد الذين سبقوني في هذه الأبحاث الخطيرة ومهدوا السبيل لمن جاء إثرهم وحلوا محلّهم . كلا . وإنّما غرضي الانتفاع بأعمالهم العلميّة المهيّنة وتقدير فضائلها حقّ القدر واقتداءً بمثالهم في التّسّمي إلى الفحص عن حقائق الأمور قدر ما استطعت ، لأنّه بسبب قلّة الطّبيعة البشريّة بالنسبة إلى جلاله أسرار الكائنات وعظّم المخلوقات ربّما يعرض للباحث القليل الشّأن أن تمسّكه إضافةً شيء ولو يسيراً إلى ما اكتشفه واخترعه السابقون له من الراسخين في العلم . إنّ مثل العلم الذي لا نهاية لسعته كمثال جبل شامخ ذي وعور هائلة وصخور مُرعبة راسٍ في وسط بقاع كادت تكون ممتنعة لا تُقطّع لِمّا فيها من الخشونة والصّلابة فيرتفع ذلك الجبل بخراشيمه إلى فضاء الجوّ ارتفاعاً لا يُحسّد مقداره حتى لا يمكن أحداً أن يرى قمّته . وفي قديم الزمان تجاهد أجراً الناس وأقوامهم في التّقرّب من سفّح الجبل ونجحوا بعد مقاساة متاعب لا تُحصى ثمّ جاء ناسٌ آخر جسورون مثلهم أولو حزم وعزم وأخلوا في السّعي إلى صعود الجبل وتوطئة طريق تسلك في الأحجار والصخور فبعد المشاقّ المهيّدة والزلاّت العديدة تمكّنوا من إنفاذ جزء صغير من المشروع . فتبعهم أجيالٌ آخر وانتفعوا بعمل سلفهم وأصلحوه أحياناً وواصلوا فيه وربّما لم يتقدّموا إلا بعد ترك المسالك المأخوذة المألوفة والرجوع

إلى ما أسفل منها لإيجاد طرق غيرها تكون أهلاً لمشروعهم فترقوا شيئاً يسيراً بعد كثرة الشغل والضلال واليأس وقللوا مسافة ما بينهم وبين القمة المرغوب فيها — هذا مشكلٌ مستعانا إلى الحصول على الحقائق العلمية الغامضة فإن الحقيقة التامة المطلقة هي القمة المقصودة غير المدركة على تزايد تقربنا منها ، والأقدمون يفيدون المتأخرين علماً ويمكنونهم من التوصل إلى ما هو أعلى من منزلتهم ، وكذلك من المرتقبين في سرقاة العلم ممن يعتبر ويشرح من مبحث وجهها ومن يلاحظ ويبين منه وجهها آخر فنقتبس من بنات أفكارهما نوراً على نور .

ومن ذلك يتضح جلياً أن تقدم العلوم النظرية العقلية مرتبط بل متعلق بامتحان آراء السلف واختبار جميع ما يسعنا من تجاربهم ومعارفهم بلغة التحخيص والنظر فيجب علينا أن ننتقد أقوال السابقين لنا انتقاداً صحيحاً سالمًا خالياً عن كل غرض دنيّ وميل شخصي . إن ذلك الانتقاد المقرون بالاجتهاد يفيدنا علماً ويساعدنا على تحسين العمل وهو الذي يسوقنا إلى المقصود سياقة موثوقاً بها . راجعوا يا سادة توار يخ الأعم الشرقية وتأملوا فيها حق التأمل تجدوا أن انحطاط علومهم وسياساتهم إنما ابتداء لما انصرف حكماؤهم عن سبيل الاجتهاد المستقل في العلوم واقتنعوا في المباحث النظرية بالتقليد الذي كما لا يخفى عليكم هو قبول قول الغير دون مطالبته بحجة فمدلوا عن تأليف الكتب المهدية المطولة ملتهجين إلى الاختصار والتلخيص وتصنيف الحواشي اللاغية على المتون والشروح أو التقييد والتقارير الباطلة على ذات الحواشي . ليس لأمة تمدن صحيح ولا تقدم إذا لم يكن فيها رجال مستقلون بالعلوم النظرية مترقون عن رتبة تقليد من سبقهم . فلذلك لا تقتصروا أيها الطلبة على جمع أقوال أساتذتكم وتكريرها بل سرحوا فيها أنظاركم وأعملوا فيها قوة فطنتكم فإن سمعتم ما لا يقنعكم دلياً وبرهاناً فعليكم أن تسألوا أساذكم وتطلبوا منه شرحاً أوسع وأوفى . وحيث إن العصمة لله وحده فلا يسلم إنسان من الخطأ تماماً على جليل قدره وعلو منزلته ووفر علمه وعقله ، ليس من المستحيل أن يزل الأستاذ أحياناً في كلامه أو لا يدرك غاية الوضوح في بيانه فتقودنا إذ ذاك المباحثة إلى كشف القناع عن الغوامض ورفع الحجاب عن كل مبهم مرتاب فيه .

الباب الأول

١ - لفظ الأدب : بحث عن معناه الأصلي وما تفرع منه من المعاني
المستعدة المختلفة . ٢ - تعريف تاريخ الكتاب . ٣ - كيف ينقسم
تاريخ الآداب العربية .

وهذا أو أن الخوض فيما ستدور دروسى عليه :

١ - يجب على من يأخذ فى بيان علم أن يقدم تعريف ذلك العلم ونميين
موضوعه فأبتدى أنا أيضاً بشرح اسم الفن الذى أختصر بتدريسه هذه السنة
وهو تاريخ الآداب العربية .

إن اللغة لكائن حتى فعلى مثل كل حتى تقبل النمو والتجدد والفساد .
وكذلك الألفاظ المفردة فكثيراً ما يطرأ عليها من التغير والانتقال من معنى
إلى آخر حسبما يقتضيه تغير أحوال الأمة الاجتماعية والسياسية والتقدم أو
التقهقر فى الصنائع والعلوم . ومن الألفاظ العربية التى كثر فيها تغير المعنى
الأصلى على تيمادى الزمان وتقلبات العوائد والأفكار والأميال هو لفظ الأدب
حتى إن أحداً من عرب الجاهلية أو القرن الأول من الإسلام أو أخيراً الآن
وسمع اسم الفن المعين لى تدريسه لما فهم من حقيقة موضوعه شيئاً . فلنفحص
عن معنى لفظ الأدب الأصلى ثم عما عرض له من الانحراف عن أصله
والإطلاق والحصر مدة الأجيال التالية لظهور الإسلام إلى عصرنا هذا .

إذا راجعتم القواميس المطولة ما وجدتم فيها لهذا اللفظ تعريفاً كافياً
ولا شرحاً وافياً فلا عجب فى ذلك لأن لغوى العرب عند شغفهم وعنايتهم
المحمودة بلم غريب الألفاظ كثيراً ما أغفلوا إتقان تعريف المفردات

المألوفة كأنها غير حرة بالذكر . فتجلبون مثلاً أن ابن منظور الإفريقي المتوفى بمصر سنة ٨٧١١ / ١٣١١ م لم يقيّد في قاموسه العظيم الجسيم المترجم بكتاب لسان العرب لفظ « الحَرْف » بمعنى الكلمة مع أنه قديم متداول ، ولا أحد من علماء اللغة سجّل في كتبه ذلك اللفظ . بمعنى الشيء البسير والقطعة الصغيرة على كثرة استعماله عند أطراف الكتاب منذ القرن الأول للهجرة النبوية^(١) . أمّا لفظ الأدب فأكثر اللغويين اقتصروا على تعريفه هكذا : « الأدبُ الظُّرفُ وحُسنُ التناول » . وفي المصباح المنير^(٢) لأحمد ابن محمد المقرئ الفيّو المتوفى سنة نيّف وسبعين وسبعمائة ما نصّه : « أدبته أدباً من باب ضرب علّمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق » . قال أبو زيد الأنصاري^(٣) : « الأدب يقع على كلّ رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل » . وقال الأزهري^(٤) نحوه . وقال السيد الشريف عليّ بن محمّد الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ / ١٤١٣ م في كتاب التعريفات^(٥) : « الأدب عبارة عن معرفة ما يُحتَرَز به عن جميع أنواع الخطأ - آداب البحث صناعة نظريّة يستفيد منها الإنسان كيفية المناظرة وشرائطها صيانة له عن الخبط . في البحث وإلزاماً للخصم وإفحامه . كذا في قطب الكيلاني^(٦) . آداب القاضي وهو التزامه لما ندب إليه الشرع من بسط .

(١) راجع J. WEISS, *Die arabischen Nationalgrammatiker und die Lateiner* الألمانية (Z. D. M. G.) Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft 64, 1910, p. 368-374.

(٢) للمصباح المتبرج ١ ص ٦ من طبعه بولاق ١٣١٦ .

(٣) توفى أبو زيد الأنصاري سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ هـ .

(٤) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري المولود سنة ٢٨٢ والمتوفى في ربيع الثاني ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ألف كتاب تهذيب اللغة .

(٥) كتاب التعريفات ص ١٤ من طبعه ليبسك سنة ١٨٤٥ .

(٦) عاش قطب الدين الكيلاني هذا في النصف الثاني من القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) وله شرح على وصاية في آداب البحث لشمس الدين محمد السمرقاني .

العدل ورفع الظلم وترك الميل ٤ - والذي توسع في بيان معنى الأدب من أهل اللغة هو السيد المرتضى الحسيني الزبيدي المتوفى بمصر سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م قال في كتاب تاج العروس^(١) الذي هو أوسع كتب اللغة العربية ألفه بصفة شرح على القاموس للفيروزابادي^(٢) : « (الأدب محرمة) »^(٣) الذي يتأدب به الأديب من الناس سُمي به لأنه يؤدب الناس إلى المحامد وينهاكم عن المقابح وأصل الأدب الدعاء . وقال شيخنا^(٤) ناقلًا عن تقريرات شيوخه الأدب ملكة تعصم من قامت به عما يثيبه . وفي المصباح^(٥) هو تعلم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق . وقال أبو زيد الأنصاري^(٦) الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل . ومثله في التهذيب^(٧) . وفي التوشيح هو استعمال ما يُحمد قولاً وفعلًا أو الأخذ أو الوقوف مع المستحسنات أو تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك . ونقل الخفاجي^(٨) في العناية عن الجواليقي^(٩) في شرح أدب الكاتب الأدب في اللغة حُسن الأخلاق وفعل المكارم وإطلاقة على العلوم العربية مولد حدث في الإسلام . وقال ابن السيد البطليوسي^(١٠) الأدب أدب

(١) ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) محمد بن يعقوب الفيروزابادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م .

(٣) ما بين القوسين هو من القاموس .

(٤) و شيخنا هـ يعني أبا عبد الله محمد بن الطيب الفاسي المولود سنة ١١١٠ هـ بفاس والمتوفى سنة ١١٧٠ هـ بالمدينة .

(٥) يعني المصباح المنير لأحمد بن محمد المقرئ القيوي الذي تقدم ذكره .

(٦) أبو زيد سميد بن أوس الأنصاري المتوفى سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ .

(٧) يعني كتاب تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري الذي تقدم ذكره .

(٨) أحمد بن محمد الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ . فانظر كتابه هـ شفاء الغليل فيما في كلام

العرب من الدخيل هـ ص ٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٩) توفى أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي سنة ٥٣٩ هـ - [وراجع شرحه على أدب

الكاتب لابن قتيبة ص ١٣ من طبعة مصر ١٣٥٠] .

(١٠) ولد ابن السيد البطليوسي سنة ٤٤٤ هـ ومات سنة ٥٢١ هـ أما اسمه ابن السيد فهو بكسر

سين المهملة وياء ساكنة فراجع كتاب وفیات الأصيان لابن خكان ترجمته عدد ٣٥٤ من طبعة فرنجن أو عدد ٣٢٠ من الطبقات المصرية .

النفوس والدرس . والأدب (الظرف) بالفتح (وحسن التناول) وهذا القول شامل لغالب الأقوال المذكورة ولذا اقتصر عليه المصنف « اهـ » .

إنَّ هذا النصَّ على طوله ليس غاية الوضوح ولا يفيدنا ما كان معنى الأدب أصلاً وكيف تفرَّعت منه المعاني المتعددة المشهورة التي ربما لا تُرى بينها علاقةٌ باديةٌ نظروذلك فضلاً عما في شرح المؤلف من الخلل والنقصان فعلياً أن نستخرج من تأليفات العرب النظمية والنثرية شواهداً ونصوصاً نافعة لتوضيح معنى ذلك اللفظ. أصلاً وفرعاً ونوردها مرتبةً ترتيباً تاريخياً دون خلط. القديم بالحديث لتجلو لنا حقيقة الأمر .

لا شك في أنَّ الأدب عند قدماء العرب إنما كان السُّنة^(١) أي طريقة العمل والتصرف التي سنَّها (أي سار فيها) الأوائل فصارت مسلكاً لمن بعدهم أعنى جملة العوائد القديمة الواجبة على الإنسان سيرها حتى رأى عرب الجاهلية . وأنتم تدرون أن علم الأخلاق عندهم إنما كان مراعاة سيرة أسلافهم فيها كانوا يفتخرون كما قال لبيد في معلقته^(٢) : (من بحر الكامل)

إنا إذا التفت المجامع لم يزلنا لوزاز عزيمة جشائها
ومقسَّم يُعطى العشيرة حقها ومُذمَّرُ لحقوقها هضامها
من معشر سننت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها

(١) في السنة انظر : DE LANDBERG, *Etudes sur les dialectes de L'Arabie méridionale* ; Leiden 1901, II, P. 891-893 ; NOELDEKE, *Fluf mo' allaght*, II, Wien 1900, P. 91-92 ; I. GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, Halle 1888-1890, I p. 41 ; II p. 13.

(٢) لوزاز الخشب الذي يشد بها الباب ولوزاز عزيمة لازم لها موكل بها والجشام المتكلف للأمور القائم بها . مفسر : قال الأصمعي : المفسر الذي يضرب بعض حقوق الناس ببعض ليأخذ من هذا ويعطي هذا . وقال أبو عبيدة هو الذي يعصى ولا يُرد . هضام الهضم الذي يتقص قوماً ويعطي قوماً بتدبير . وقد وثق به في ذلك .

أو كما جاء في شعر المتلمس^(١) : (من بحر الطويل)
 وقد كنت ترجو أن أكون لعقبكم زليماً فما أجريت أن أتكلماً
 لأورث يمدى سنة يقتدى بها وأجلدوا عن ذي شبهة إن توهماً

فعلى معنى السنة والعيرة ورد لفظ الأدب في قصيدة لسهم بن حنظلة
 الغنوي^(٢) من الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام : (من
 بحر البسيط).

قد يعلم الناس أنى من خيارهم في الدين ديناً وفي أحسابهم حسباً
 لا يمنع الناس منى ما أردت ولا أعطيهم ما أرادوا حسن ذأ أدباً
 فظاهر أن الأدب هنا هو العيرة والطريقة .

وحيث أن ركن التربية وتشقيف العقول كان عندهم تعليم سنة الأوائل
 أطلقوا الأدب والتأديب على حسن الشيم وتهذيب الأخلاق . ومن هذا الباب
 قول بعض الفزاريين رواه أبو تمام الطائي في حماسته^(٣) : (من بحر البسيط)

(١) ديوان المتلمس المطبوع بليبك سنة ١٩٠٢ م عدد ١ بيت ١٥ - ١٦ وزلم المعلق
 في القوم ليس منهم . أجز شق طرف لسان الفصيل أو الجدى للثلاثين .

(٢) غزالة الأدب لعبد القادر البغدادي ج ٤ ص ١٢٤ من طبعة بولاق ١٢٩٩ والبيت لثاني
 موجود أيضاً في لسان العرب ج ١٩ ص ٢٦٩ .

(شرح البيهقي) الدين السيرة . والحسب ما للإنسان من الشرف والمجد بسبب كثرة آباءه الجيدين
 وبناخهم . وحسن من أفعال المدح أو اللوم مثل حب وبعد وسرور وفهم وبش ، واختلف الفوريون
 في معنى البيت الأخير فهاكم ما جاء في شرحه في كتاب غزالة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر
 ابن عمر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م بمصر (ج ١ ص ١٢٥) « قال التبريزي في شرح
 إصلاح المنطق لابن السكيت يريد أنه يقهر الناس فيعتهم ما يريدون منه ولا يمنونه ما يريد منهم
 لعزته وجعله أدباً حسناً . هذا تفسير أبي محمد . وقال أبو العلاء في معنى هذا البيت كأنه ينكر على نفسه
 أن يعطيه الناس ولا يعطيه ويعتهم . وهو الصواب لأن ما قبله يدل عليه . وإذا فاعل حسن وأدباً
 تميز وأراد حسن لخفف ولقل لأن هذا ما لبس التصجب . وقال الصوار إن الشاعر أنكر على نفسه بأن
 الناس يعطونه ويعتهم ثم قال حسن ذأ أدباً أى ما أحسن هذا الأدب على سبيل الإنكار والتكبر . انتهى » .

(٣) الحاشية ص ٥١٠ - ٥١١ من طبعة بن ١٨٢٨ - ١٨٥١ أوج ٣ ص ٨٧ من طبعة
 بولاق ١٢٩٦ .

أَكْنِيهِ حِينَ أَنْادِيهِ لِأَكْرِمَةٍ وَلَا أَلْقِبُهُ وَالسُّوَاءَ الْقَبَا
كَذَاكَ أَذْبَتُ حَتَّى صَارَ مِنْ خُلُقِي إِنِّي وَجَدْتُ مِلَاكَ الشُّيْعَةِ الْأَدْبَا

ومنه أيضاً قول امرأة من بنى هِزَانَ سَمِعَتْ بِأَمِّ الثَّوَابِ فِي ابْنِ لَهَا عَقْبَهَا^(١) :
(من بحر البسيط.)

أَنْشَا يُمْرِقُ أَثْوَابِي يُودِّبُنِي أَبْعَدَ شَيْبِي عِنْدِي يَبْتَغِي الْأَدْبَا

ومنه أيضاً قول عبد الله بن المخارق الشهير بـنابغة بنى شَيْبَانَ^(٢) من شعراء
عصر الأمويين :

إِنَّ الْغَلَامَ مُطِيعٌ مِنْ يُودِّبُهُ وَلَا يُطِيعُكَ أَذْوَابُ لِسَادِيْبِ

ثم لضيق المعارف عند العرب القدماء (وتعلمون أَنَّ أغلبه العلم بسنة
آبائهم ومكارمهم ومفاسدهم) صارت كلمة الأدب عبارة أيضاً عن المعرفة
بشيء، والتأديب عبارة عن الإخبار بشيء والتعليم، والأديب عبارة عن
المُخْبِر بِأَمْرٍ. ومن هذا الباب ما جاء في الحديث النبوي^(٣) من قول عليّ

= (شرح البهين) الألقاب أعلام تشمر بملح شخص أو ذمه باعتبار مماها الأصل فجاء في القرآن
الشريف في سورة الحجرات : « وَلَا تَنَاهَوْا بِالْأَلْقَابِ » . وفي شعر حريث بن عتاب النبهاني من
معاصري الخلفاء الراشدين : (من بحر البسيط) .

لَا يَرْتَجِي الْخَارَ خَيْرًا فِي يَسْتَم وَلَا مَحَالَةَ مِنْ شَمِّ وَالْقَابِ

واختلفوا في شرح « والسوء » ومنهم من قال إنه مفعول مع لُقِّبَا أي لا ألقبه لقب مع السوء
ومنهم من قال إنه مفعول به كما يقال ما زلت وزيداً حتى فعل كذا أي ما زلت بزيده حتى فعل كذا
ومنهم من قال بالتقديم والتأخير كأن المراد ولا ألقبه ألقب والسوء . وملاك الأمر قوامه الذي يقوم به أي
نظامه وحماده .

(١) كذا في كتاب الحماسة لأبي تمام ص ٣٥٦ من طبعة بَنُ أوج ٢ ص ١٢٤ من طبعة بولاق .
وفي الكامل لمبرد ص ١٣٦ من طبعة ليبسك أوج ١ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤
أَنْشَا يُخْرِقُ أَثْوَابِي وَيُضْرِبُنِي أَبْعَدَ مَتْنِ عِنْدِي يَبْتَغِي الْأَدْبَا

(٢) كتاب الحماسة لبيحري ص ٣٤٠ من طبعة لندن وديوان نابغة بنى شيبان ص ٧٥ من
طبعة مصر ١٣٥١ .

(٣) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ من طبعة مصر ١٣١١ . وقال
السيوطي في كتابه الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (ص ١٣ - ١٤ من طبعة مصر ١٣٠٧ -

ابن أبي طالب حين سمع النبي يخاطب وقد بنى نهج : « يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره . فقال أدبني ربّي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد » .

ومنه أيضاً بيت لمقاتل بن مسعود العبدي رواه البُخترى في حماسته (١) :
(من بحر الطويل)

عَرَفْتُ اللَّيَالِي بُؤْسَهَا وَنَعِيمَهَا وَحَنَكَيَّ صَرَفَ الزَّمَانِ وَأَدَبَا
أَي جَعَلَنِي ذَا نَجْبَةٍ بِالْأُمُورِ . - ومنه قول أبي عطاء أفلح بن يسار السندي (٢)
من شعراء أواخر الدولة الأموية : (من بحر الوافر)
إِذَا أَرْسَلْتَ فِي أَمْرٍ رَسُولًا فَأَنْفِئْهُ وَأَرْسَلْهُ أَدِيبًا
وَلِإِنْ ضَيَّعْتَ ذَاكَ فَلَا تَلُحْهُ عَلَى أَنْ يَكُنْ عَلِيمَ الْغُيُوبَا
فَجَلَى أَنْ الْمَرَادَ بِالْأَدِيبِ الْمُخْبِرُ بِأَمْرِ مَخْصُوصٍ .

هذه كانت معاني لفظ الأدب في زمان الجاهلية والقرن الأول للهجرة لا غير - فلسائل أن يسأل : ما لكل هذه الألفاظ والمعاني من العلاقة بسائر المفردات المشتقة أيضاً من حروف أدب مثل الأذّب وهو العَجَب والأُدْبَة والمَأْدُبَة والمَأْدُبَة التي هي طعام صُنِعَ لدعوة أو حِرْس ومثل أدْبْ يَأْدُبْ أدْباً معناه عَمِلَ مَأْدُبَةً أو دعا فلاناً إلى الطعام ؟ إن علماء اللغة من العرب اجتمعوا على جواب هذا السؤال بما تقدّم ذكره في النص المنقول آنفاً

== بهامش الفتاوى الحديثة لابن حجر الهيتمي (مائمه : (حديث) أدبني ربّي فأحسن تأديبي أبو سعيد ابن السمعي في أدب الإملاء من حديث ابن مسعود والسكري في الأمثال وابن الجوزي في الأحاديث الواهية من حديث علي وقال لا يصح وصحه أبو الفضل بن ناصر قلت وأخرج ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن جده أن أبا بكر قال يا رسول الله لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أحصم منك فمن أدبك ؟ قال أدبني ربّي ونشأت في بني سعد . انتهى .

(١) الحماسة للبُخترى ص ١٥٤ من طبعة لندن - حنكته هذبه .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٨٦ من طبعة بولاق .

من كتاب تاج العروس . فيوافقه مثلاً قول أبي زكرياء يحيى التبريزي في شرحه على كتاب الحماسة لأبي تمام ^(١) : «والأدب اسم لما يفعله الإنسان فيتزین به في الناس . وأصله من الدعاء والأدب يدعو إلى نفسه بحُسْنِه .» وقال عبد القادر البغدادي في كتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ١٢٤ من طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ : «واشتقاقه من شَيْثِين يجوز أن يكون من الأدب وهو العجب ومن الأدب مصدر قولك أدب فلان القوم يَأْدُبُهُمْ إذا دعاهم قال طرفة ^(٢) :

(من بحر الرمل)

نحن في المَشْتَاة ندعو الجفلى لا ترى الأدبَ فينا يَنْتَقِرُ
فإذا كان من الأدب الذى هو العجب فكأنه الشيء الذى يُعْجَبُ منه
لحُسْنِه لأن صاحبه الرجل الذى يُعْجَبُ منه لفضله وإذا كان من الأدب
الذى هو الدعاء فكأنه الشيء الذى يدعو الناس إلى المحامد والفضل فيَنُهَاهم
عن المقايح والجهل .»

بيد أن هذا الاشتقاق ليس بعري من الشك واللبس الشديد لما فيه من
التكلف البعيد عن مقتضى قوانين نمو اللغة الطبيعي وطريقة انتقال معاني
المفردات إلى غيرها . ولكن إذا طلب أحدكم منى إظهار رأيي في حقيقة
الأمر أجبت أنى لا أستطيع إلا إبداء تخمين قد لمع إليه عرضاً في بعض
تصانيفه الأستاذ فلرُس (Vollers) ^(٣) المرحوم ناظر دار الكتب الخديوية
سابقاً . لا يخفى عليكم كثرة ورود لفظ الأدب في أشعار الجاهلية وأن

(١) الحماسة ص ١١١ من طبعة بنّ لوج ٢ ص ٨٧ من طبعة بولاق .

(٢) البيت مروي في الديوان : قصيدة رقم ٥ بيت ٤٦ من طبعة لندن (The Diwan of the six

ancient Arabic poets edited by Ahlwardt, p. 62.) الجفلى قال في المصباح هي أن تدعو الناس إلى طعماك دعوة عامة من غير اختصاص . التمر اختار .

(٣) انظر : VOLLERS, Katalog der islamischen . . Handschriften der Universitäts Biblioth.,

Leipzig 1906, p. 180 n. 1.

معناه أى العادة والملازمة ليس بعيداً عن معنى السنة والأدب . ومع أن جمعة لا يُذكر في كتب اللغة ليس من المحال أن العرب قد جمعه على آداب أعنى على وزن أعفال بتخفيف الهجزة ومد الألف الأولى كما يُجمع بشر على آبار وتُأر على آثار ورأس على آراس ورأى على آراء . وحيث إن حُسن السيرة والأدب إنما كان عند العرب يحفظ ما كانوا توارثوا عن أسلافهم من العوائد المسنحة لعلهم استعملوا لفظ الآداب عبارة عن تلك العوائد أى السنة المحمودة . ثم على تبادى الزمان اشتقوا من ذلك الجمع المتداول اصطلاحاً صيغة جديدة لفرد أعنى الأدب كما اشتقوا نقى والنقى والتقى من اتقى أو تخذ يتخذ تخذاً من اتخذ أو تله يتله تلهاً (أى حار وذهل) من اتله وهلم جرا . فأصبح لفظاً الأدب والآداب (أى الدعاء إلى الطعام) كأنهما قرعان من أصل واحد على عدم علاقة حقيقية بينهما كما اتفق مثلاً للفظي الزور والزور فأولهما عربى محض معناه وسط ، الصدر وقوة العزم والثانى فارسى الأصل معناه الكذب .

وإن التفتنا إلى ما سلّم من التلّف ووصل إلينا من مصنفات القرن الثانى للهجرة وجدنا أن المراد بالأدب لم يزل مقصوراً على طريقة التصرف ولا سيما المحمودة وحسن الأخلاق الناشئ عن حسن التربية والميل إلى المحامد ثم على المعارف سوى ما يتعلق بالدين والشريعة الذى قد اختص به اسم العلم منذ أواسط القرن الأول . ومما يدل على ذلك كُتَيْب لعبد الله بن المقفع ناقل كتاب كيلة ودمنة المتوفى نحو سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م وهو كُتَيْب فى الحكيم والنصائح والأخلاق اسمه كتاب الأدب الصغير نشره حضرة الشيخ طاهر الجزائرى فى مجلة المقتبس سنة ١٣٢٦ هـ ثم طبعه

مستقلاً في المجموعة المسماة برسائل البلغاء^(١). وقال حديثاً الأديب الأريب أحمد بك زكي^(٢) إنَّ عنوان ذلك الكتاب يجوز نقله إلى الفرنسية هكذا : *Le petit savoir faire* ولكني لا أرى تمام الموافقة بين العبارتين العربية والفرنسية وحدَّ ابن المقفع موضوع كتيبته هكذا^(٣) : « قد وضعتُ في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ. حروفاً فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصيغاتها وتجليه أبصارها وإحياء للتفكير وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق إن شاء الله ». فترون من هذا الكلام أنَّ مراد المؤلف جمعُ حِكَمٍ ونصائح وإنَّ الأدبَ عنده قسم من علم الأخلاق العملي. فجاء في ضمن كتابه الأدب والآداب بمعنى طريقة التصرف وخصوصاً الحسنة فقال مثلاً المؤلف ص ٤ : « وعلى العاقل أن يُخصيَ على نفسه مساوئها في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي الآداب فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتاب ٤ »، وقال ص ٧ : « قد يسعى إلى أبواب السلطان أجناس من الناس كثيراً أمَّا الصالح فمدعوٌ وأمَّا الطالح فمقتحمٌ وأمَّا ذو الأدب فطالبٌ وأمَّا من لا أدب له فمختلس ٤ ».

وفي ص ١٢ : « أمورٌ لا تصلح إلاَّ بقرائنها : لا ينفع العقل بغير ورع ولا الحفظ بغير عقل ولا شدة البطش بغير شدة القلب ولا الجمال بغير حلاوة ولا الحسب بغير أدب إلخ ٤ ».

وفي ص ١٥ : « لا يطمعن ذو الكبير في حُسن الثناء ولا العُجب في كثرة

(١) رسائل البلغاء ص ١ - ١٧ من طبعة مصر ١٣٢٦. نقله أيضاً أحمد باشا زكي في سنة ١٣٢٩ هـ بالإسكندرية (ونقله الأستاذ Rencher إلى الألمانية سنة ١٩١٥) .

(٢) AHMED ZEKI BEY, *Mémoire sur les moyens propres à déterminer en Egypte une renaissance des lettres arabes*, Cairo 1910, P. 20.

(٣) رسائل البلغاء ص ٢ من الطبعة المذكورة .

الصديق ولا السبي الأدب في الشرف ولا الشحيح في المَحْمَدة ، وربما جاء الأدب بمعنى حُسن التربية وتعليم مكارم الأخلاق فقال ابن المقفع ص ٧ : « كلام اللبيب وإن كان نَزْرًا أدب عظيم » . وربما جاء أيضا الأدب بمعنى المعارف الدنيوية فقال ص ١٣ : « مَنْ حَاوَلَ الْأُمُور احتاج فيها إلى ستِّ الرأى والتوفيق والفرصة والأعوان والأدب والاجتهاد . ومن أزواج فالرأى والأدب زوج لا يكمل الأدب إلا بالرأى ولا يكمل الرأى بغير الأدب . والأعوان والفرصة زوج إلخ » .

وفي ص ١٥ : « فضل العلم في غير الدين مهلكة وكثرة الأدب في غير رضوان الله ومنفعة الأخيار قاتلة إلى النار » . وأختم إيراد النصوص المنقولة من كتاب ابن المقفع بما ورد في أوّل نفس الكتاب (ص ٢) : « فغاية الناس وحاجاتهم صلاح المعاش والمعاد . والسبيل إلى دركها العقل الصحيح . وأمانة صحة العقل اختبار الأمور بالبصر وتنفيذ البصر بالعزم . وللعقول مسجيات وغرائز بها تقبل الأدب وبالأدب تنمي العقول وتزكو . فكما أَنَّ الحبة المدفونة في الأرض لا تقدر على أَنْ تَخْلَعَ يَبْسَهَا وتُظْهِرَ قُوَّتَهَا وتطلُع فوق الأرض بزُهرتها ونَضْرَتها وريعتها ونَمَاتُهَا إلا بمَعونة الماء الذي يهزُّ إليها في مستودعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت ويُسَخِّدُ لها بإذن الله القوة والحياة فكذلك سليقة^(١) العقل مكنونة في مغزها من القلب لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يعتملها الأدب الذي هو غماؤها وحياتها ولقاحها . وجُلُّ الأدب بالمنطق وكلّ المنطق بالتعلّم ليس منه حرف من حروف معجمه ولا اسم من أنواع أسمائه إلا وهو مرويّ متعلّم مأخوذ عن إمام سابق

(١) سليقة طيبة .

من كلام أو كتاب . اهـ فيلوح أنَّ المراد هنا بالأدب هي المعارف على الإطلاق .

وكذلك لا يخرج عن العرف اللغوي القديم استعمال لفظ الأدب في عنوان الباب الثالث من كتاب الحماسة^(١) لأبي تمام المتوفى سنة ٢٢٨ هـ على أصح الأقوال فإن ذلك الباب يتضمن الأشعار في الحكيم وفي الأخلاق المجموعة من حياء وعفة وإغضاء عن الفخشاء وحسن معاملة الناس ومسامحة الأخطاء وهلم جرا ليكون ذلك كله هداية للناس في سيرتهم . وأنتم تعلمون أنَّ الإمام أبا عبد الله البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م أفرد كتاب الأدب من كتاب الجامع الصحيح^(٢) لعلم الأخلاق العمل وقوانين الأنس فإن مدار الأحاديث النبوية المجموعة في ذلك الكتاب إنما هو ما على الأولاد للوالدين والعناية بالأرامل واليتامى والفقراء ومراعاة حقوق الجيران وطيب الكلام والرفق في كل الأمور ورحمة الناس بالبهاائم وتعاون المؤمنين بعضهم بعضاً وحسن الخلق والسخاء وما يُكره من البخل وما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب وما يُكره من التماذج والنهي عن التحاسد والتدابير والصبر على الأذى والتبسم والضحك والإخاء والحلف والزيارة والحياء والحذر من الغضب والضيغ وما يُستحب من العطاس وما يُكره من التثاؤب وما يُشبه ذلك . وكذلك كتاب الأدب لأبن المعتز الشاعر الشهير المتوفى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م لا يشتمل إلا على الحكيم في الأخلاق . ولكني لا أريد الإطناب في سرد النصوص والشواهد على ذلك لأن استعمال كلمة الأدب

(١) كتاب الحماسة ٤٩٨ - ٥٣٧ من طبعة ابن أوج ٣ ص ٧٥ - ١١٢ من طبعة بولاق .

(٢) صحيح البخاري ٢ ص ٣٩ - ٧١ من طبعة بولاق ١٢٨٩ أوج ٢ ص ١٠٨ - ١٦٥ من

طبعة ليدن .

بمعنى مكارم الأخلاق وحسن الأنس والتصرف معروف لم يزل متداولاً إلى وقتنا هذا ، وهو المسمى عند بعض الكتّاب بأدب النفس .

وفي أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث ابتدأت تتفرع من تلك المعاني الأصلية معانٍ جديدة على طريق الإطلاق والحصر مع بقاء القديمة في عُرْف الناس . وكان سبب ذلك فضلاً عن نمو اللغة الطبيعي ما حصل للعرب من الرقي في سبيل التمدن والتغير في حضارتهم والتجدد في أحوال حياتهم والتقلب في سياستهم منذ اتسعت مملكتهم وامتد سلطانهم على أمم مختلفة الجنس واللغة والدين والعوائد والأميال الدين اختلطوا شيئاً فشيئاً بالمتغلبين عليهم وأثروا في عمارتهم وعلومهم ما لا يخفى على أحد من التأثير العظيم . ولا سيما بعد ما قويت شوكة بني العباس وانتقلت دار الخلافة من دمشق إلى بغداد سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م أعنى إلى المدينة الجديدة الواقعة في وسط تلك الأراضي العراقية التي قد أدرك فيها التمدن الفارسي الساساني أوج عزته ورونقه . فنالت أشرف العجم المراتب العليا عند الخلفاء العباسيين حتى كاد لا يُستوْزَر إلا أكابر أهل الفرس .

قد ذكرنا آنفاً أن العرب أحياناً عبروا بلفظ الأدب عن جملة ما كان لهم من المعارف الدنيوية القليلة . وحفظ هذا المعنى المطلق إلى ما يلي منتصف القرن الرابع حسبما يُستنتج من رسائل إخوان الصفاء . وفيها ما نصّه (١) : «واعلم يا أخى بأن العلوم التي يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس

(١) انظر الرسالة السابعة من القسم الثاني من رسائل إخوان الصفاء ج ١ ص ١٨ - ١٩ من طبعة مجي سنة ١٣٠٥ - ١٣٠٦ . أما تسميتهم أنفسهم بإخوان الصفاء فأصلها عبارة توجت في أول باب الحاشية المطبوعة من كتاب كليله ودنة وذلك لظنهم أن تلك الحكاية مثل ضرب في احتياجنا إلى معاونة إخوان لنا نصحاء وأصدقاء لنا فضلاء متبصرين بأمر الدين علماء بمقائق طريق الأمور لتنجو من الورطة التي وقعنا فيها كلنا بمنية أئينا آدم (اطلب الرسالة الثانية من القسم الأول من رسائلهم ج ١ ص ٥٣ من الطبعة المذكورة) . فقلوا أنفسهم بأولئك الإخوان النصحاء . أما رأيهم هذا في آدم فهو أقرب إلى اعتقادات النصارى منه إلى الدين الإسلامي .

فمنها الرياضية ومنها الشرعية الوضعية ومنها الفلسفية الحقيقية . فالرياضية هي علم الآداب التي وُضع أكثرها لطلب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا وهي تسعة أنواع أولها علم الكتابة والقراءة ومنها علم اللغة والنحو ومنها علم الحساب والمعاملات ومنها علم الشعر والعروض ومنها علم الزجر والفأل وما يشاكله ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما يشاكلها ومنها علم الحرف والصنائع ومنها علم البيع والشري والتجارات أو الحرث والنخل ومنها علم السير والأخبار . - فليس هذا بعيداً عن قول الوزير المشهور الحسن بن سهل المتوفى سنة ٢٣٦ هـ أو ٨٥٠ - ٨٥١ م . قال : الآداب عشرة فثلاثة شهرجانية وثلاثة أنوشروانية وثلاثة عربية وواحدة أُرِيت عليهن . فأما الشهرجانية ^(١) فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصولج . وأما الأنوشروانية ^(٢) فالطب والهندسة والفروسيّة . وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أُرِيت عليهن فمقطعات الحديث والسر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس ^(٣) . فظاهر أنه أراد

(١) الشهارجية أو الشهاريج هم من أشرف الفرس .

(٢) من كسرى أنوشروان الذي كان ملك الفرس من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩ م .

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب للحضري ج ١ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ بهاشم المقتد الفريه لابن عبد ربه [أو ج ١ ص ١٤٠ من طبعة مصر ١٩٢٥] . فنسب جعفر بن محمد البيهقي العلوي (المتوفى سنة ١١٨٢ هـ) مثل هذا القول إلى ذي الرئاسين وهو أبو العباس الفضل بن سهل أخو الحسن بن سهل وتولى وزارة المأمون ومات سنة ٢٠٢ هـ . فهذا نص البيهقي في كتابه مواسم الأدب وأثار العلم والعرب ج ١ ص ٢ - ٣ من طبعة مصر ١٣٢٦ : « وفي سلاسل الذهب للعلامة أمين صفر المندفي قال العلامة جبار الله الزمخشري كان ذو الرئاسين يقول الأدب عشرة أجزاء ثلاثة أنوشروانية لعب الشطرنج والضرب بالعود والضرب بالصولج (في الطبعة بالصولج وهو تحريف) وثلاثة شهرجانية (في الطبعة شهرجانية وهو تحريف) الهندسة والطب والنجوم وثلاثة عربية النحو والشعر وأيام العرب وواحدة وهي السر أراد المحاضرة . » . فراجع أيضاً محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني (المتوفى سنة ٥٠٢ هـ) ج ١ ص ٧٢ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

فمضى الأدب هذا (أعني جملة العلوم والفتن والصنائع والألعاب التي يتميز الإنسان بمعرفتها من سلفة الناس) فارسي تماماً ، فليراجع كتاب المعلمين الجاحظ في كتاب الفصول المختارة من كتب الجاحظ (بهاشم الكامل لميرد) ج ١ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ .

بالآداب جميع الفنون غير الدينية وكل ما كان يصلح على رأى الفرس للظريف الشريف الأصل من المهارة بأنواع الألعاب ورياضة الجسم .

وفى نفس ذلك القرن الثالث ربما حصروا الأدب (بمعنى المعارف والقوانين الضرورية مراعاتها) فى ما تجب معرفته على طبقة مخصصة من الناس . فآلف ابن قتيبة الدينورى اللغوى والمؤرخ والمتأدب الشهير المتوفى سنة ٢٧٦ (وقيل ٢٧٠ أو ٢٧١) كتاباً سماه أدب الكاتب أو أدب الكتاب جمع فيه ما لا غنى عنه لكل كاتب ماهر من العلوم اللغوية . وصنف أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بابن كشاجم المتوفى فى حدود سنة ٣٥٠ (وقيل ٣٦٠) كتاب أدب النديم وهو عبارة عن مجموعة نكت وأبيات ونوادر يليق حفظها وروايتها فى المنادمة ترويحاً للنفوس . ومن ألف كتباً فى أدب الوزراء دون فيها النصائح المفيدة للوزير فى فروع الحكمة العملية والسياسية . ومن ألف التصانيف المترجمة بأدب القاضى شرح فيها قوانين القضاء الشرعى .

قد سبق أن الأدب والآداب أصلاً كانت السيرة أو السنة الحميدة . وفى أواخر القرن الثالث أطلقى هذا المعنى على ما دون الأخلاق دلالة على المنهج الواجب سلوكه فى فن من الفنون والعلوم أو فى عمل من الأعمال . ففى كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م نجد مثلاً باباً فى آداب الحكماء والعلماء وأبواباً موسومة بالأدب فى الحديث والاستماع أو الأدب فى المجالسة أو الأدب فى الماشاة وهلم جراً . ودون الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١م فى كتاب إحياء علوم الدين آداب الأكل وآداب النكاح وآداب الكسب وآداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة وآداب السفر وآداب السماع والتوجه وغير ذلك مما يطول نقله هنا . وآلف محمد بن

على بن طباطبغا المعروف بابن الطُّقْطَقِي كتاباً في التاريخ سمّاه كتاب
الفُخْرِي في الآداب السلطانية والدول الإسلامية^(١) وقال^(٢) إنّه «إنّما هو
موضوع للسياسات والآداب التي يُنتَفَع بها في الحوادث الواقعة والوقائع
الحادثة وفي سياسة الرعيّة وتحصين المملكة وفي إصلاح الأخلاق والسيرة» .
وكثيراً ما صنّفوا مصنّفات في آداب الدرس أي في طريقة التعليم والتعلم .
وكلّكم تدرّون أنّ آداب المريدين هي متاهج طالب الترقّي في مدارج الطرق
الصوفيّة وأنّ آداب البحث هي قوانين المناظرة يسوغ للمتناظرين مراعاتها في
الردّ والقبول .

فلننتقل إلى بيان أصل سائر معاني الأدب . إنّ التّرف والرّفه والنعم
واتّساع الأحوال قد بلغت غايتها في مدن العراق والجزيرة وخصوصاً ببغداد
في أوائل القرن الثالث للهجرة فقد حصل هناك للعرب ما أجاد وصفه ابن
خلدون حيث قال في مقدمته الشهيرة^(٣) : «إنّ الأُمّة إذا تغلّبت وملكّت
ما بأيدي أهل الملّك قبلها كثر رباؤها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون
ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله وديقته وزينته ويذهبون إلى اتّباع مَنْ
قبلهم في عوائدهم وأحوالهم وتصير لتلك النوافل عوائدٌ ضروريّة في تحصيلها
وينزحون مع ذلك إلى رِقّة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية
ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيّب ولُبس
الأنيق وركوب الفاره^(٤) . . . وعلى قدر ملّكهم يكون حظهم من ذلك وترّفهم

(١) ألف ابن الطُّقْطَقِي كتابه في سنة ٨٧٠١ / ١٣٠١ م لفخر الدين عيسى بن إبراهيم
عامل الموصل .

(٢) الفصل الأول من الفخرى ص ١٩ من طبعة غريغزولد بألمانيا سنة ١٨٥٨ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٧ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أوج ١ ص ٣٤٢ من الترجمة
الفرنسية لدى سِلان (De Slane) .

(٤) الفاره الحصان الجارح الملّح .

فيه إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية . . ١٠ هـ . ومن طالع كتاب الأغاني
لأبي الفرج علي الإصصهاني المتوفى سنة ٨٣٥٦ / ٩٦٧ م وكتاب مروج الذهب
للمسعودي المتوفى سنة ٨٣٤٥ / ٩٥٦ م وما يشاكلها من الكتب أو تصفح
دواوين شعراء ذلك العصر عرّف إفراط شغف الناس بالمجالسة والمناذمة
والمحادثة على الشراب في أيام هارون الرشيد والأمين والمأمون ومن تبعهم من
الخلفاء وتلقن قلوب ما بلغه حينئذ قصد الأناقة في كل شيء وفعل والتفنن
في جميع المعارف المستظرفة حتى إن غاية التورية في بعض طبقات الناس
إنما كان الظرف في اللبس والتصرف ورشاقة الكلام ورقة المعاني وحسن
الاستئناس . وإن أردتم الوقوف التام على كنه أولئك المنظرين فراجعوا كتاب
الموشى^(١) لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الأعرابي المعروف بالوشاء
المتوفى سنة ٨٣٢٥ / ٩٣٧ م توصف فيه سُنن الظرف بتفصيل فتجدون فيه
أدواباً في ذكر زى الظرفاء في اللباس المستحسن عند سِرّوات الناس وفي
زى الظراف في الثبّك والنعال والخفاف وفي زيتهم المخصوص في الخواتم
والفضوص وفي زيتهم في التعمّط والطيب الذي من خالفه كان غير مصيب
وفي ذكر زى الظرفاء في الطعام الذي بانوا به من منزلة اللثام وفي ذكر زيتهم
في الشراب الذي يتخبّره ذوو الألباب وفي ذكر الأشياء التي ينطير الظرفاء
من إهذائهم ويرغبون عنها لشناعة أسماها وفي اختيار من ألفاظ الأدباء في
المكاتبات واستحسن من الظرفاء من ملبس المعاتبات وفي ضمّنوه كتبهم من
الأشعار وتكاتب به ذوو الظرف والخطار وفي ضمّنوه كتبهم من السلام
وجعلوه تلوا للشعر والنظام وهلمّ جرّاً .

فإذا لا غرو أن لفظ الأدب عندهم أخذ يعدل عن معنى محض الأخلاق

(١) طبع بليد سنة ١٨٨٧ وبمصر سنة ١٣٢٤ بعنوان كتاب الظرف والظرفاء .

المحمودة الحاصلة من حسن تربية النفوس حتى صار عبارة عن كل ما وجب مراعاته ومعرفة والتحل به على من أراد مجالسة اللطفاء والوجهاء ونعمد جميع أنواع التطرف في أعماله وأفكاره وحديثه . فلهذا لا فرق في كتاب الموشى المذكور بين الظريف والأديب . وخلاصة القول أن المراد بالأدب عند بعض طبقات الناس ببغداد منذ ابتداء القرن الثالث كان إظهار الأخلاق المرضية للجلساء والظرف والأناقة في اللباس والطعام والشراب وسائر أحوال الحياة والأنس والفصاحة وعذوبة الكلام ثم حفظ الأبيات والنكت مع أخذ شيء من كل علم لتوشية الحديث به . فهذا أعنى الأخلاق الحميدة والتطرف والمعارف المستطابة هو معنى الأدب مثلاً في كتاب العقد الفريد لأحمد بن عبد ربّه الأندلسي المتوفى سنة ٥٣٢٨ / ٩٤٠ م كما يلوح من جميع كتابه ونصوصاً من الباب في آداب الحكماء والعلماء ^(١) .

ومن هذا المعنى المجدت العام تفرّع معنيان خاصان مطابقة لاختصاص أميال بعض المتطرفين بنوع معين من الظرف . فإن الذين مالوا إلى ما يلد للعقول وفضلوه على غيره رأوا غاية الظرف في حضور المجالس والمقامات ورواية الأمثال والحكايات والتحدث بالمُلح والنوادر والأخبار وتذكّر القصص والأشعار على ما تجرّ المعادنة من شجون الكلام وذلك مع كراهة كل إطناب مُمل . فإن الإسّام كان عندهم من شرّ العيوب فكثيراً ما جاء التحذير منه في تأليفات القرن الثالث والرابع . وروى مثلاً عن الأشجع السلمي الشاعر في أيام هارون الرشيد أن أنس بن أبي شَيْخٍ النصيري صاحب الوزير جعفر بن يحيى لما عاشه أول مرة طلب منه إنشاد بعض شعره .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٩ من طبعة مصر ١٣٠٥ [وإن أردت المقابلة بصحائف أطباء الأبحري فانظر : *Mohammad Shafic, Analytical Indices [into Kitāb al-Ikāl]* (Calcutta 1935) . أما لفظ الأدب في « فصول في الأدب » (المقد ج ٢ ص ١٨٩-١٩١) وفي « فصول لسرو بن بحر الجاحظ في الأدب » (المقد ج ٢ ص ١٩١) فتناه الحكم .

« قال الأشجع فأنشدته فقال إنك لشاعرٌ فما بمنعك من جعفر بن يحيى فقلت ومن لي بجعفر بن يحيى فقال أنا فقل أبياتاً ولا تطيل فإنه يعمل الإطالة . فقلت لست بمصاحب إطالة فقلت أبياتاً على نحو ما رسم لي »^(١) .
 وفي الباب السابع بعد المائة من كتاب مروج الذهب للمسعودي^(٢) ما نصه :
 « وقد ذكر بعض المحدثين من أهل الأدب أن من الأدب عدم إطالة الحديث من النديم وأن أحلى لحديثه وأحسن لموقعه أن يجتنب منه الأحاديث الطوال ذات المعاني المغلقة^(٣) والألفاظ الحشوية التي افتن باقتصاصها سُمارُ المجلس وتعلق بها النفوس وتحتسى^(٤) على أواخرها الكؤوس فإن ذلك بمجالس القصص أشبه منه بمجالس الخواص . وقد ذكر هذا المعنى فأجاد فيه عبد الله ابن المعتز ووصف ذلك من أوصاف أصحاب الشراب على المعاقرة^(٥) فقال^(٦) :
 (من بحر الخفيف)

بين أقداحهم حديث قصير هو سحرٌ وما سواه كلامٌ

وكان السقا بين الندامى آفات على سطور قيام

فلتفتلهم في المعارف المستظرفة المقرون بالخوف الشديد من المَلِكِ اشتهر في عرفهم أن علم الأدب عبارة عن الملح واللطائف والنكت والأمثال والنوادر والإبيات البريقة والتواريخ وذكر الشيء بالشيء بالاستطراد أو بالمناسبة مع

(١) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ٢٣ من طبعة بولاق سنة ١٢٨٥ راجع A. MEZ, *Abulhasan*, Heidelberg 1902, P. VII-IX.

(٢) مروج الذهب للمسعودي في الباب السابع بعد المائة ج ٦ ص ١٢٢ - ١٢٣ من طبعة باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧ .

(٣) الرسالة المغلفة المحولة من بلد إلى بلد .

(٤) « لَمَسْنَا بِحُسُو وَاحْتَسَى شَرِبَهُ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ » .

(٥) عاقر الخمر آدم من شربه .

(٦) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣ (الباب الخامس في الشراب والتعريات) من طبعة مصر

سنة ١٨٩١ .

مراعاة مقتضى الحال . فقل إن الفرق بين الأديب والعالم أن الأديب من يأخذ من كل شيء أحسنه فيألفه والعالم من يقصد لفن من العلم فيعلمه^(١) . وقال شاعر^(٢) :

أرى العلم نوراً والتأديب حليةً فخذ منهما في رغبة بنصيب
وليس يتم العلم في الناس للفتى إذا لم يكن في علمه بأديب

ولا يخفى عليكم كم كتاب ألف في فن الأدب بهذا المعنى الخاص أعنى في جمع مقطعات الأشعار وطُرف الأخبار وخرائب النوادر ترويحاً للنفوس وتفكيهاً للألباب . وأول من سلك هذا المنهج في التأليف وصار أنموذجاً في ذلك للمتأخرين هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م فإنه في مصنفاته النفيسة الشهيرة يهيم في كل واحد ويجمع بين المنظوم والمنثور والنوادر والفكاهات والأخبار من غير ترتيب واضح مخافة من ملل القارئ . ومن الغريب أن المسعودي^(٣) قال إنه نظم نصابه أحسن نظم . ومن أحسن بيان لمادة التأليفات من ذلك الفن ما قال أبو إسحاق إبراهيم ابن علي الحصري القيرواني المتوفى سنة ٤١٣ وقيل ٤٥٣ في وصف موضوع كتابه المسمى بزهر الآداب وثمر الألباب^(٤) : « هذا كتاب اخترت فيه قطعة كافية من البلاغات في الشعر والخبر والفصول والفقر مما حسن لفظه

(١) انظر إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت ج ١ ص ١٧ من طبعة لندن بمناية الأستاذ مرجليوث (Margoliouth) سنة ١٩٠٧ [إلى ١٩٣١] في النسخة المطبوعة : فيعلمه وهو غلط فأتراه : فيعلمه فقرأ الأستاذ مرجليوث : فيقته .

(٢) إرشاد الإريب ج ١ ص ١٦ .

(٣) مروج الذهب في الباب الأحد والعشرين بعد المائة (ج ٨ ص ٢٤ من الطبعة البارسية المذكورة) .

(٤) زهر الآداب ج ١ ص ٢ - ٤ من الطبعة المصرية سنة ١٢٠٥ [أوج ١ ص ١ - ٣ من طبعة سنة ١٩٢٥] .

ومعناه واستدلّ بفحواه عن مغزاه ولم يكن شاردًا حوشيًا ولا ساقطًا سُوقيًا بل كان جميع ما فيه من ألفاظه ومعانيه كما قال البُحْتَرِيُّ^(١) :

في نظام من البلاغة ما شـ لكُ امرؤ أنه نظامٌ فريدٌ
حُزنٌ مستعمل الكلام اختيارًا وتَجَنُّبٌ ظلمة التعقيد
وركيبن اللفظ القريب فأدرك من به غاية المراد البعيد
ولم أذهب في هذا الاختيار إلى مطولات الأخبار . . وهو كتاب يتصرف
الناظر فيه من نشره إلى شعره ومطبوعه إلى مصنوعه ومحاورته إلى مفاخرته
ومناقضته إلى مساجلته^(٢) وخطابه المُبْهِت إلى جوابه المُسَكِّت وتشبيهاته
المصيبة إلى اختراعاته الغريبة . . وكان السبب الذي دعاني إلى تأليفه وتديّني
إلى تصنيفه ما رأيته من رغبة أبي الفضل العباس بن سليمان أطلال الله مدته
وأدام نعمته في الأدب وإنفاق عمره في الطلب وماليه في الكتب وأن اجتهاده
في ذلك حمله على أن أرتحل إلى المشرق بسببها وأغمض في طلبها باذلاً في
ذلك ماله مستعذباً فيه تعب إلى أن أورد من كلام بلغاء عصره وفصحاء دهره
طرائف طريفة وخرائب غريبة وسألني أن أجمع له من مخزنها كتاباً يكتبني
به عن جملتها وأضيف إلى ذلك من كلام المتقدمين ما قاربه وقارنه وشابهه
ومائله فسارعت إلى مراده وأعنته على اجتهاده وألّفت له هذا الكتاب ليستغني
به عن جميع كتب الآداب إذ كان موثعاً من بديع البديع^(٣) ولآلى

(١) انظر ديوان البُحْتَرِيِّ ج ٣ ص ١٩٥ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ أو ج ١ ص ٢٠٦ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٩ هـ أو ص ٦٩٣ و ٦٩٤ من طبعة بيروت سنة ١٩١١
ومدح البُحْتَرِيِّ (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ) في هذا الشعر محمد بن عبد الملك بن الزيات . الأبيات مروية أيضاً في
إعجاز القرآن للاقلافي ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣١٥ والبيتان الآخران مرويان في كتاب دلائل الإعجاز
لعبد القاهر الجرجاني ص ٣٧٢ من طبعة مصر ١٣٢١ .

(٢) مساجلته : وساجله فاعره وعارضه .

(٣) يعني بديع الزمان أحمد بن الحسين الملقب بالملوك سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٩ م والمتوفى سنة ٢٩٨ هـ ١٠٠٧ م [وفيه انظر النثر الفنى في القرن الرابع لزكى مبارك ج ٢ ص ٢٢٥ إلى ٢٥٦] .

الميكائيل^(١) وشهيد الخوارزمي^(٢) وخرائب صاحب^(٣) ونفيس قابوس^(٤) وشذور
أبي منصور^(٥) . وهذا النوع من الأدب أي أخذ شيء مستظرف وطرائف
وخرائب من كل فن ولا سيما من مقطعات الأشعار ولطائف الأخبار هو المقصود
في أكثر ما جاء في مدح الأدب ومحاسنه وفضيلته في عدة تأليفات مشهورة
مثل كتاب العقد الفريد السابق ذكره وكتاب المحاسن والمساوي لإبراهيم
ابن محمد البيهقي^(٦) من علماء القرن الخامس وكتاب إرشاد الأريب إلى
معرفة الأدب^(٧) لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦/١٢٢٩ وشرح أبي العباس أحمد
ابن عبد المؤمن الشريشي^(٨) - المتوفى سنة ٦١٩/١٢٢٢ على المقامات الحريرية
وكتب أخرى يطول سرد أسماؤها .

أما المعنى الخاص الثاني الملمح إليه فيما تقدم فأصله عند قوم من الظرفاء
فصلوا صناعة الشعر والإنشاء البليغ ودقائق اللغة على سائر أجناس الظرف
فاصطلحوا بلفظ الأدب على جميع الفنون الكتابية المستظرفة لا على مجرد

-
- (١) وهو أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد الميكائيل المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ١٠٣٨ م . [راجع
النثر الفني المذكور آنفاً ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٤] .
- (٢) المراد هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ولد سنة ٣٢٢ هـ ٩٣٥ م ومات سنة
٣٨٣ هـ ٩٩٣ م (وقيل ٣٩٣) [راجع النثر الفني المذكور سابقاً ج ٢ ص ٢٥٩ إل ٢٧٦] .
- (٣) يعني صاحب بن عباد ولد سنة ٣٢٤ هـ ٩٣٦ م (وقيل ٣٢٦) وتوفى سنة ٣٨٠ هـ
٩٩٥ م [انظر النثر الفني ج ٢ ص ٢٤٣ - ٢٥] .
- (٤) وهو شمس المالك قابوس وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٢ م [انظر النثر الفني ج ٢
ص ٢٧٧ - ٢٨٩] .
- (٥) وهو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ولد سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١ م ومات سنة ٤٢٩ هـ
١٠٣٨ م [انظر النثر الفني ج ٢ ص ١٧٩ - ١٩٠] .
- (٦) راجع كتاب المحاسن ج ١ ص ٢٠١ وج ٢ ص ٧٤ - ٧٥ من طبع مصر سنة ١٣٢٥ هـ
١٩٠٦ م [وراجع أيضاً ج ٢ ص ٧٥ - ٩٢] .
- (٧) إرشاد الأريب ج ١ ص ١٣ - ٢٧ من الطبعة الريدية .
- (٨) شرح للمقامات الحريرية للشريشي في آخر المقامة الثامنة والثلاثين (ج ٢ ص ١٨٠ من
طبعة مصر ١٣٠٦) .

المقطعات منها ولفظ الأديب على من يُحسِن العربية ويتعاطى صناعاتي النظم والنثر . وابتدأ استعمال كلمة الأدب هذا في نفس النصف الأول من القرن الثالث حسبما يتضح من جملة من النصوص . منها قول الجاحظ (١) المتوفى سنة ٢٥٩ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يُحسِن إلا غريبه فرجعت إلى الأنخس فوجدته لا يُتقِن إلا إعرابه فعطفت إلى أبي عبدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالآثام والأنساب فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات » . فجلى أن الأدباء هنا هم الذين يُسمَّون بالفرنسيَّة gens de lettres أو lettres . وقال الجاحظ (٢) أيضاً في موضع آخر : « وأنشد رجل قوماً شعراً فاستغربوه فقال والله ما هو بغريب ولكنكم في الأدب غرباء » ، فظاهر أن الأدب هنا صناعاتي النظم والنثر البليغ . وهذا أيضاً المراد بالآداب في قول المبرِّد المتوفى سنة ٢٨٥ في خطبة كتابه الموسوم بالكامل في اللغة والأدب ج ١ ص ٢ من طبعة مصر سنة ١٣٢٣ إلى ١٣٢٤ : « هذا كتاب الفناء يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منشور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة باللغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة » . وكتب الآداب هي جميع التصانيف المستظرفة نظماً ونثراً كما يلوح من ذكر كتب ذلك الفن في إحدى رسائل أبي بكر الخوارزمي (٣) المتوفى سنة ٣٨٣ وقيل ٣٩٣ : « ذكر السيّد أنه كتب جواب كتابي من وقت الظُّهر إلى وقت العصر . ولقد استبطنته مع ما أعرفه من بُعد غوره وغزارة بحره . ولكنني أغلقت لهذا

(١) للروى في العملة لابن رشيقي ج ٢ ص ٨٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٥ .

(٢) وقول الجاحظ هذا مروي في عمدة ابن رشيقي ج ١ ص ٨٦ من الطبع المذكور .

(٣) رسائل الخوارزمي ص ٢٢ من طبعة مصر سنة ١٣١٢ أو ص ٣٠ - ٣٦ من طبعة

قسطنطينية سنة ١٢٩٧ ولكن في هذه الطبعة الأخيرة روايات غير صحيحة .

الجواب بابي وأرغيت له حجابي وضعت إلى نشر كتب آداني وجلست
من الدواوين بين آل الجراح^(١) وآل ثوابية^(٢) وبين بني الخصيب وبني مقله^(٣)
ونشرت من المقابر آل يزداد وآل شداد^(٤) وحشرت من الآخرة ابن المقفع
البصري^(٥) وسهل بن هارون الفارسي^(٦) وابن عبدان المصري والمحسن بن وهب
الحارثي وأحمد بن يوسف المأموني^(٧) ووضعت عن يميني عهد أردشير بن بابكان
وعن يساري كتاب التبيين والبيان^(٨) وبين يدي فصول بزرجمهر بن
البختكان^(٩) وقبل ذلك رسائل مولانا صاحب^(١٠) عين الزمان وزين الشيب
والشبان ، فما زلت أسرق من هذا كلمة وأطّر من ذاك فقرة وأستعير من هناك
نادرة وثيقة أغضب الأحياء على بيانهم وأنبش الموتى من أكفانهم - وعلى

-
- (١) يشير بال الجراح إلى داود بن الجراح الذي عاش في أيام المستعين ٢٤٨ - ٢٥١ هـ وابنه
محمد وحفيده علي بن عيسى وابني حفيده عيسى بن علي وعبد الله بن علي فكلهم من الأدباء والمؤرخين
فراجع فهرست ابن النديم ص ١٢٨ - ١٢٩ من طبع ليبسك سنة ١٨٧١ .
- (٢) أما آل ثوابية فهم أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابية بن يوسف المتوفى سنة ٢٧٧ هـ وابنه
أبو عبد الله محمد وهما مؤلفا رسائل (انظر كتاب الفهرست ص ١٣٠) .
- (٣) ومن بني مقله الوزير الكاتب أبو علي محمد بن علي بن مقله الذي ولد سنة ٢٧٢ هـ ومات
سنة ٣٢٨ هـ (راجع ابن خلكان عدد ٧٠٨ من طبعة غوتنجن أو عدد ٦٦٩ من الطبقات المصرية)
وأخوه أبو عبد الله القاسم الذي ولد سنة ٢٧٨ هـ وتوفى سنة ٣٣٠ هـ (انظر كتاب الفهرست ص ٩ والإرشاد
لياقوت ج ٣ ص ١٥٠ - ١٥٢) .
- (٤) ابن يزداد هو أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وكان وزير المأمون
وله ديوان ورسائل . راجع كتاب الفهرست ص ١٢٤ .
- (٥) يعني عبد الله بن المقفع المشهور الذي أمر الخليفة المنصور بقتله سنة ١٤٠ هـ ٧٥٧ م .
- (٦) هو سهل بن هرون كاتب المأمون ومدير خزانة الحكمة مات سنة ٢١٥ هـ [انظر الإرشاد
لياقوت ج ٤ ص ٢٥٨] .
- (٧) [لعله أحمد بن يوسف بن القاسم مات سنة ٢١٣ أو ٢١٤ هـ وتوفى ديوان ورسائل المأمون
فليراجع الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٦٠ - ١٧١] .
- (٨) وهو كتاب مشهور للجاحظ .
- (٩) انظر ما قلت فيه في كتابي حلم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى (روما ١٩١١) .
ص ١٩٠ - ١٩٦ .
- (١٠) يعني القاصد بن عباد الذي قد تقدم ذكره (انظر الحاشية ٣ من ص ٢٠) .

مثل ذلك يستعمل ياقوت في كتاب إرشاد الأريب لفظ الأدباء لتعريف الذين يعتنون بفنّي النظم والنثر لا غير . وهذا المعنى لم يزل في عرف الناطقين بالضاد إلى أيامنا .

ولننتقل إلى بيان معنى آخر أصله في قوم من العلماء اشتغلوا بعلوم الدين والشريعة ورأوا من موجباتها التدقيق في معرفة أسرار العربية لتفسير القرآن من جهة المفردات والعبارات اللغوية أو لشرح الغريب الوارد في الأحاديث النبوية فجعلوا الاستقصاء في جميع أنواع العلوم المتعلقة باللغة والشواهد الشعرية جلّ المعارف الدنيوية بل توطئة لكل العلوم الشرعية . فقال مثلاً الإمام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ١١١١هـ في كتاب إحياء علوم الدين^(١) إنّ العلوم الشرعية تنقسم إلى أربعة أضرب الأول منها أصول الفقه والثاني فروع الفقه والثالث المقدمات والرابع التتميمات يعنى تفسير القرآن وعلم الحديث . ثم قال : « والضرب الثالث المقدمات وهي التي تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فإنّهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) . وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما ولكن يلزم الخوض فيهما بحسب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكلّ شريعة لا تظهر إلّا بلغة فيصير تعلّم تلك اللغة آلة » . فإذا لا غرو أن الذين جعلوا جلّ المعارف الدنيوية في علوم اللغة العربية حصروا فيها الأدب الذي - كما مرّ بيانه - فيما سبق - قد أطلقوا اسمه أحياناً على جملة المعارف غير الدينية الشرعية . إلّا أنّهم سلكوا في هذا الحصر طريقين مختلفين فعنهم من ذهب إلى أن علم الأدب أو الآداب الاعتناء بالأشعار القديمة والتأليفات

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٤ - ١٥ من طبعة مصر ١٣٠٢ (وقى آخرها ١٣٠٤) راجع أيضاً كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢ من طبعة لندن ١٩٠٤ م والمفصل للزنجشري ص ٣ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٣ ودلائل الإيجاز لميد القاهر الجرجاني ص ٧ من طبعة مصر ١٣٢١ .

والرسائل البليغة من جهة اللغة الفصيحة واستخراج الشواهد النافعة والتوصل إلى المعرفة الثابتة بدقّة الكلام وأسرار الفصاحة والبلاغة لا من جهة قصد النزهة أو مجرد الظريف البديع . هذا هو المراد بالأدب في كتاب روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للإمام الحافظ. المحدث أبي حاتم محمد بن حبان البُشَيتِيُّ المتوفى سنة ٣٥٤ الذي أفرد فيه باباً للبحث على تعلّم الأدب ولزوم الفصاحة^(١) وعلى مثاله ما قال عبد الله بن محمد المعروف بابن السيد البَطَلَيْوْسِيُّ المتوفى سنة ١٢٢٧ في كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ص ١٤ - ١٥ من طبعة بيروت سنة ١٩٠١ م : «إن الأدب له غرضان أحدهما يقال له الغرض الأدنى والثاني الغرض الأعلى . فالغرض الأدنى أن يحصل للمتأدب بالنظر في الأدب والتمهّر فيه قوّة يقدر بها على النظم والنثر . والغرض الأعلى أن يحصل للمتأدب قوّة على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله (صلعم) وصحابته ويعلم كيف تُبنى الألفاظ . الواردة في القرآن والحديث بعضها على بعض حتى تُستنبط منها الأحكام وتُفَرَّغُ الفروع وتنتج النتائج وتُقرَن القرائن على ما تقتضيه مبادئ كلام العرب ومجازاته كما يفعل أصحاب الأصول . وفي الأدب لمن حصل في هذه المرتبة منه أعظم معونة على فهم علم الكلام وكثير من العلوم النظرية . فقد زهد الناس في علم الأدب وجهلوا قدر الفائدة الحاصلة منه حتى ظن المتأدب أن أقصى غايته أن يقول أبياتاً من الشعر . والشعر عند العلماء أدنى مراتب الأدب لأنه باطل يُجلى في وعرض حق وكذب يُصور بصورة صدق . وهذا اللم إنما يتعلق بمن ظن صناعة الشعر غاية الفضل وأفضل حلي أهل النبيل . فأنما من كان الشعر بعض حلاله وكان له فضائل سواء ولم يتخذ مكسباً وصناعة ولم يُرضيه لنفسه

(١) روضة العقلاء لابن حبان من ١٩٥ - ٢٠٠ من طبعة مصر ١٣٢٨ .

حِرْفَةً وَبِضَاعَةً فَإِنَّهُ زَائِدٌ فِي جَلَالَةِ قَدْرِهِ وَنُبَاهَةِ ذِكْرِهِ . ثم قال : « واحد المنطق كتاب يتخذونه المتفلسفون مقدمة للعلوم الفلسفية كما يتخذ المتأدبون صناعة النحو مقدمة للعلوم الأدبية » . - واحد علم الأدب (أو الآداب) بهذا المعنى ومرتبته في مراتب العلوم حددهما ابن خلدون في مقدمته بغاية الوضوح فقال في موضع ^(١) : « إن النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها وهي أصناف فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب » . وقال في موضع آخر ^(٢) : « إن علم اللسان العربي أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب . ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة » . وفي موضع ثالث أتى بتعريف علم الأدب فقال ^(٣) : « هذا العلم لا موضوع له يُنظر في إثبات عوارضه أو نفيها . وإنما المقصود منه عند أهل اللسان تفرقه وهي الإجابة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ^(٤) فبجمعهم لذلك من كلام العرب ما عساه تحصيل به الكلمة من شعر عالي الطبقة ومسجع متساو في الإجابة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستفري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨١ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٢٦ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ٤٨٦ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٢ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ من الترجمة للفرنسية لدى سلاط .
 (٢) مقدمة ص ٤٩٩ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٥٤٦ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ص ٦٢٨ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٣ ص ٣٠٧ من الترجمة للفرنسية .
 (٣) ص ٥٠٦ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٥٥٣ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ص ٦٤٧ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٣ ص ٢٢٨ إلى ٢٣٠ من الترجمة للفرنسية .
 (٤) المنهاة : المسيل للمعنى .

العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهيم من الأنساب الشهيرة والأخبار العظام ثم إنهم إذا أرادوا حيد هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف . يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط . إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها . وسمعنا من شيخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانها أربعة دواوين وهي أدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادى هـ .

أما المسلك الثانى فى حصر علم الأدب فى علوم اللغة العربية فهو مسلك الذين عنوا بالأدب علم الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان مع ما يتصل بها من علمى القوافى والعروض وكل ذلك خلافاً لما نقلته عن ابن السيد البطليوسى وابن خلدون . والمحتمل عندى أن هذا المعنى الخاص لم يتولد إلا نحو انقضاء القرن الخامس فلأتى ما عثرت عليه فيما صنف قبل القرن السادس . ومن أمثلة ذلك الاستعمال أن أبا البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧/١١٨١ ألف كتاباً جيداً سماء بنزها الألباء فى طبقات الأدباء ، فإن راجعتموه وجدتم أنه لم يذكر فيه إلا اللغويين والنحويين . فقال ابن خلكان^(١) المتوفى سنة ٦٨١/١٢٨٢ فى ترجمة أبي زكرياء يحيى التبريزى : « كانت له معرفة تامة بالأدب من النحو واللغة وغيرهما وصنف

(١) رفيات الأعيان ترجمة عدد ٨١٠ من طبعة غوتنجن أو ٧٧١ من الطبقات المصرية .

في الأدب كتباً كثيرة مفيدة منها شرح الحماسة وكتاب شرح ديوان المتنبي وكتاب شرح سقط الزند . . وشرح المعلقات السبع وشرح المفضليات وله تهذيب غريب الحديث وتهذيب لإصلاح المنطق وله في النحو مقدمات حسنة إلخ . . فيتضح من هذا الكلام أن علم الأدب عند ابن خلكان كالأدب عند أبي البركات ابن الأنباري المذكور وعند أبي يعقوب يوسف ابن محمد السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ الذي قال في كتاب مفتاح العلوم (١) إنَّ الغرض من علم الأدب هو الاحتراز عن الخطأ في كلام العرب وأنه مشتمل على علم الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان . ومن المشهور أن علماء هذا الفن اختلفوا في أقسامه لأنَّ بعضهم جعل قسمًا مستقلاً ما ليس على رأى غيره إلاَّ جزء من أجزاء أبعاد الأقسام الأصلية فمن ذكر لعلم الأدب أربعة أقسام ومن ذكر ثمانية ومن ذكر اثني عشر ومن ذكر أربعة عشر وهلم جرا . فقال مثلاً السيّد الشريف عليّ بن محمد الجرجاني المتوفى سنة $\frac{816}{1114}$ إنَّ الاشتقاق قسم مستقل خلافاً لرأى سعد الدين مسعود بن حيدر التفتازاني المتوفى سنة ٧٩٢ الذي جعله ذيلًا لعلم الصرف . وذهب قوم من العلماء إلى أن البديع قسم برأسه وعنه آخرون من تنمّة علمي المعاني والبيان . ولكنّي لا أريد الخوض في مثل هذه المسائل الخارجة عن مقصودنا الحالي .

فتمّ كلامنا على ما عرض لكيفية استعمال لفظ الأدب من التغيّر والحصر والإطلاق والتفرّع بتغيّر أحوال العمران وتباين أصناف الناس في الأجيال السابقة لتأثير علوم الإفرنج في علوم الشرق . وأرى من المناسب أن ألخص الآن نتائج البحث المتعلّم بغاية الاختصار أعني مجردة عن الشواهد

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٣ من طبعة مصر سنة ١٢١٧ .

والنصوص التي إنما أتيت بها قبلاً لئلا تلخذوا مني شيئاً بدون حجة . فإنني لا أخاف من الإطالة إذا لا بدّ منها لإثبات البراهين على أقوالى فلست حينئذ من أولئك المتطرفين السابق ذكرهم الذين كان الإسلام عندهم شرّ الكبائر . إن الأدب كان على المحتمل في عرف عرب الجاهلية عبارة عن العوائد الحميدة المتوارثة خلفاً عن سلف فليس من البعيد أن اسمه مشتق في قديم الزمان من الآداب جمع الدّأب . ثم لكون تلك العوائد المتوارثة عمدة للناس في أعمالهم المستحسنة عبّروا بالآداب عن السنّة والسيرة لا سيما المحمودة وعن حسن الأخلاق . وبما أن تعليم العوائد القديمة المأثورة كان عندهم أساس كلّ تعليم وتربية ، بل معظم معارفهم . أطلقوا الأدب أيضاً على جملة المعارف فاستعملوا لفظي التأديب والتعليم بدون فرق بينهما وكان الأديب المخبر بشئ .

ثم بعد ظهور الإسلام إلى ما يلي أواخر القرن الثاني لم تزل معالي الأدب على ما كانت عليه في الجاهلية أعني عبارة عن المنهج المسلك وعن حسن الأخلاق طبيعته كانت أم كسبيّة وعن جملة المعارف . إلا أن المقصود من هذه المعارف انحصر في الأمور الدنيويّة ولم يُطلق على العلوم الدينيّة . وإثر ما وقع للعرب من التقلب العظيم في هبّتهم الاجتماعية وأمياهم بسبب اختلاطهم بأمم غيرهم تولدت من معاني الأدب القديمة معاني أخرى حديثة وذلك في القرن الثالث حين بلوغ التمدن الإسلامي أوجه بمدينة بغداد . وتارة وسعوا نطاق المعارف المدلول عليها بلفظ الآداب قبلاً واصطلحوا بهذا الاسم على كل أنواع العلوم والفنون والصنائع والحرف والألعاب الشريفة سوى ما يتعلق بأمور الدين والشريعة .

ثم اندرس استعمال الآداب بهذا المعنى العام الذي ما عثرت على أمثلة

منه فيما صُنِفَ بعد انقضاء القرن الرابع . وتارةً حصروا الأدب والآداب فيها تَمَسُّسُ إلى معرفته حاجةً تعاطى فنَّ مخصوص من العلوم فقالوا مثلاً أدب الكاتب دلالةً على جميع ما لا يستغنى الكاتب عن تعلُّمه ليقوم بصناعته قياماً حسناً . وتارةً اتَّخذوا الأدب بمعنى السُّنة وأطلقوه على ما غير الأخلاق عبارةً عن الأساليب والقواعد الواجب التمسُّكُ بها في عمل من الأعمال فقالوا بآداب الأكل وآداب السفر وآداب الدرس وآداب البحث وهلمَّ جراً . أمَّا الناس الذين جعلوا أسمى مقصدهم في الظرف واتَّخذوه سُنَّةً في جميع أفعالهم فاصطلحوا الأدب (أى السُّنة) على كلِّ أنواع الظرف والأديب على المتظرف في كلِّ شيء . وحيث إنَّ التفنُّن والمعرفة بما يُعجِب من كلِّ علم أو صناعة كان عندهم أيضاً جزءاً من المتظرف حصر بعضهم الأدب في النكت والملح والشوادر واللطائف ومقطعات الشعر غير الطويلة المُبِلَّة وسمَّوا أديباً من أخذ تُتَفأ ظريفة لطيفة من كلِّ علم وفن . ومن حرَّص منهم على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ووجد غاية الالتذاذ بما تُسج من الكلام على أحسن منوال حصر الأدب في صناعته النظم والنثر وسمَّى أديباً المتعاطى الفنون الكتابية المستظرفة . فقُصارى القول أنَّ المتظرفين اتَّبَعُوا ثلاث طرائق مختلفة في حدِّ الأدب موافقةً لما كان عنده أرجح من سائر أنواع الظرف .

وفي ذات القرن الثالث سلك صنفٌ من الناس منهجاً خاصاً في تعريف الأدب وهم الذين بذلوا عنايتهم في علوم الدين والشريعة . وذلك أنَّهم لم يجدوا علماً من العلوم الإسلامية لا يتبيَّنُ افتقاره إلى العربية وما يتعلَّق بها من الأخبار والأشعار لأنَّها الاحتجاج في تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي المتوقَّف عليهما جميعاً - الأحكام الشرعية ورأوا الكلام في مُعظَم أبواب أصول الفقه وفروعه مبنيّاً على علم العربية والتفاسير مشحونةً (كما قال

الزمخشري^(١) بالروايات عن سيويه والأخفش والكسائي والقراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيّين والاستظهار في مآخذ النصوص بأقواويلهم . فحملهم ذلك على التبحر في أسرار اللغة ودقائق النحو وعلى جمع الأشعار القديمة وما يتصل بها . ففريق منهم حصروا الأدب في الشواهد الشعرية والنثرية مع جملة المعارف النافعة لشرحها لغة ومعنى . وفريق ذهب في القرن السادس وما يتلوه إلى أن الأدب علم الصرف والنحو واللغة والبيان .

فمما أوضحتها نرون أن تشعب لفظ من أصل معناه إلى معان مغايرة له ربّما هو أيضاً خلاصة تاريخ ما عرض للهيئة الاجتماعية من التقلب والتشعب .

وبعد منتصف القرن المنصرم لما كثرت العلائق وشدت الارتباطات العلمية والأدبية بين بلاد الشرق وأمم الغرب ونقلت كتب فرنسية وإنكليزية في كل فن إلى اللسان العربي أخذ المترجمون يستعملون لفظ الآداب استعمال literature عند الإفرنج . فكان ذلك انحرافاً عن العرف العربي السابق من وجوه . أولاً لأن الإفرنج ومن يقلدوهم في الشرق يُطلقون الآداب على مآثر أي لغة خلافاً للسلف من العرب فإنهم على وفرة المعاني التي وضعوا لها لفظ الآداب لم يستعملوه أبداً للدلالة على الكتب والعلوم الأعجمية . وسبب مثل هذا الحصر أنهم كما هو مشهور أغفلوا في كل وقت البحث عن آداب اللغات الأجنبية فلم نقف على أحد منهم ألف شيئاً في لغة اليونان والرومان والعبرانيين والهند والسرّيان والقيبط . وأن الدين اعتنوا في غابر الزمان بلغة الترك والفرس قليلاً جداً لا يكادون يجاوزون عدد أنامل اليد مثل أبي حيّان محمد بن يوسف الغرناطي المتوفى سنة ٧٤٥/١٣٤٤ صاحب كتاب الإدراك

(١) الفصل للزمخشري ص ٣ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٣ .

للسان الأتراك ^(١) والزمخشري المتوفى سنة ٩٢٨/١٣٤٤ الذي وضع كتاب مقدمة الأدب على صفة قاموس عربي فارسي ^(٢). نُقل إلى لسان العرب عدد وافر من كتب العلوم الرياضية والفلسفية والطبية والكيمائية والفلاحية مما صُنّف بلغات الهند والفرس واليونان ولكن لم يُترجم لأحد أدباء اليونان والرومان والهند تاريخ (ما عدا تاريخاً مختصراً لهروسيوس ^(٣)) ولا خطبة بليغة ولا شعر ولا رواية من رواياتهم المستظرفة. ومع أنّ العرب وجدوا في تأليفات أرسطوطاليس الثناء الوافر على شعراء اليونان وعلو مرتبة فنون البلاغة والخطابة عندهم واستفادوا من كتب أفلاطون فبهر اعتبار اليونان الشعر والبلاغة وسائر الفنون المستظرفة في تربية الأطفال والأحداث ما رغبوا في معرفة تلك الآداب وبلغوا في شأنها غاية الجهل حتى إنّ أبا عثمان عمراً الجاحظ. وهو من أحقق كُتّاب العرب وأوسعهم علماً وأدقهم بحثاً قال في كتابه المسمّى بالبيان والتبيين ما نصّه ^(٤): «إنّا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس، وأمّا الهند فلمّا لهم معاني مدونة وكتب مخلّدة ^(٥) لا تُضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف وإنّما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة. ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق وكان صاحب المنطق

(١) L. BOUVAT, *Une grammaire turque du huitième siècle de L'hégire*: "La pénétration dans la langue des Turcs" d'Abd. Hayy al-Gharnati (Actes du XIV^{ème} Congrès international des Orientalistes, Alger 1905), Paris 1907 suiv., III, p. 44-78.

وكتاب الإدراك هذا مطبوع بقسطنطينية سنة ١٣٠٩ (سنة ١٩٢١).

(٢) Samachaharî Lexicon arabico-persicum, ed. J.G. Wetzstein, Leipzig 1844, 2 voll. (٢)

(٣) هو من مؤلّي القرن الخامس بعد الميلاد.

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوج ٣ ص ٢٠ من طبعة مصر سنة ١٣٥١] وقول الجاحظ هذا موجود أيضاً في منتخبات البيان والتبيين للإمام الجاحظ المطبوعة في مجموعة خمس رسائل (ص ٢٢٣ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠١) وفي كتاب علم الأدب مقالات لمشاهير العرب للأب شيخو ج ٢ ص ٢٣١ من طبعة بيروت سنة ١٨٨٩.

(٥) وفي بطعات مصر: مجلدة وهو تصحيف.

نفسه بـكـيـة اللسان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس ولم يذكره بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة « ١٥١ . وإن هذا الكلام من أغرب الأقوال حيث إنه من المشهور أن الخطب اليونانية صارت أنموذجاً لخطباء الرومان وجميع الأمم الإفرنجية وهي متداولة إلى الآن غير مجهولة لكل من له ذوق سليم في الأدب في بلاد الغرب^(١) . - وكذلك ترجمت العرب بعض الحكايات والأمثال من تصانيف الهند والفرس ولكنهم لم ينقلوا حرفاً من أناشيدهم الشهيرة الطويلة . فلعدم اهتمامهم بالفنون الكتابية المستظرفة الأجنبية حصروا الآداب في علومهم العربية .

ثم إن المعاصرين لنا من أبناء الشرق قلّدوا الإفرنج في وضع معنيين للفظ. الآداب معني متنها عام ومعني خاص . والمعنى العام عبارة عن جميع ما صُنّف في لغة ما سواء في العلوم أم من الشعر والنثر البليغ ، فالآداب حينئذ تشتمل على جملة ما قيّد في الكتب والدفاتر من نتائج أفكار علماء الأمة وأدبائها. أمّا الآداب بمعناها الخاص فعبارة عما سبّك في قالب ظريف وصيغ على نمط. الإنشاء الأنيق من الكلام المنشور والمنظوم أعني أنها عبارة عن حواصل الفنون الكتابية المستظرفة فتشتمل على أنواع الشعر والحكايات والروايات والقصص والأمثال والحكم والمحاضرات والمقامات والمناظرات والخطب

(١) وكذلك ما ذكر أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد السكري (المتوفى سنة ٣٨٢ هـ ٩٩٣ م) من الآداب الأجنبية إلا حكماً وبيزة نسبها إلى اليونان والفرس وبعض توقيعات ملوك الفرس ، فانظر كتابه المسمى برسالة التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم وقد طبعت هذه الرسالة في الصحيفة البهية والطفرة الشبية ص ٢١٨ - ٢٢١ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٢ وطلعت أيضاً (بغير اسم مؤلفها وبالعنوان : في بلاغة كلام العرب وكلام العجم) في ج ٢ ص ١٢٦ - ١٣٦ من مقالات لمشاهير العرب المذكورة آنفاً وكان هذا السكري معلم أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل صاحب كتاب الصناعات المتوفى سنة ٨٢٩٥ هـ وأنها توافقنا في الاسم واسم الأب والتعبئة (راجع بغية الوعاة للسيوطي ص ٢٢١ من طبعة مصر ١٣٢٦) .

مع ما أُلِّفَ بفضيحه العبارة وطلاوة الإنشاء من التواريخ ووصف الرُّحَل والأسفار وما يشاكل ذلك . - فإذا كان الأمر كذلك أصاب الأب لويس شيخو في قوله^(١) : «تحيا الأمم بآدابها لأن الآداب تُرقى المرء فوق الحياة المادية وتسمُّقُ به إلى المدارك الشريفة وتُقربُه إلى عالم الأرواح وإلى الجمال الذي منه يستعير كلُّ مخلوق جماله» . وعليه فإن أراد العاقل أن يعرف درجة التمدُّن التي بلغها شعب من الشعوب بحث عن انتشار الآداب بين أهله . ولذلك ترى المؤرِّخين يقدِّمون في تاريخهم تاريخ الآداب على تاريخ الوقائع وربما أفردوا للآداب تاريخاً قائماً بذاته يُثبِت ما يختصُّ بالعلوم والمعارف في كلِّ ملَّة مُخْبِراً عن نشأة الآداب بينها واتِّساع نطاقها وأسباب ترقِّيها ونتائجها الطيِّبة في إصلاح القوم وتحسين أخلاقهم ودفعهم إلى المشروعات الأثيرة والمساعى الخطيرة .

٢ - أمّا تاريخ الآداب فما هو؟ إذا اتَّخَذَت الآدابُ بمعناها الخاصِّ وبالنظر إلى العربيَّة أجاد في وصفه وصفي الأديب حضرة حَفَنِي (بك) ناصف حين قال فيما طُبِع من محاضراته^(٢) أن «يدخل في ذلك التاريخ وصفُ الكلام من شعر ونثر في كلِّ عصر من عصور التاريخ وذكرُ نوابغ الشعراء والخطباء والكتّاب والمؤلِّفين وبيانُ تأثير كلامهم في من بعدهم وتأثيرهم بمن قبلهم وما حولهم والموازنةُ بينهم والإلمامُ بمؤلِّفاتهم» . - فإذا اتَّخَذْنَا الآداب بمعناها العامِّ فضروري أن نُخلِّل في تاريخها أيضاً ذكر جميع أصناف العلماء والحكماء والمؤلِّفين البارعين مع بيان مشارب أفكارهم وشرح مناهج أعمالهم في العلوم وتقدير علوِّ منزلتهم في الفنِّ الذي تعاطوه . فيصف حينئذ تاريخُ

(١) الآداب العربيَّة في القرن التاسع عشر ج ١ ص ١ (ألف) من طبعة بيروت سنة ١٩٠٨ -

١٩١٠ .

(٢) تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربيَّة للطبوع في مصر سنة ١٩١٠ - ١٩١١ ص ٦ .

الآداب سائر العلوم في مدارج الترقى وأحوال مشاهير أصحاب الحكمة والفلسفة والرياضيات والفلك والطب وهلم جرا فلا يتميز في قسمة هذا من التواريخ المختصة بعلم من العلوم أو فن من الفنون إلا لقدرة التبحر في تلك المباحث ولصفة النظر فيها . مثال ذلك أن مؤرخ الحكمة والفلسفة يتوسع في الشرح التام لمذاهب الفلاسفة وينتقدها ويقدرها تقديرًا دقيقًا . أمّا مؤرخ الآداب فيمتنع عن الخوض في المسائل الخاصة والانتقاد العلمي مقتصرًا على جوامع ما توصل إليه مؤرخ الفلسفة في أبحاثه المستقصاة ومقدّرًا تصانيف الحكماء من حيث جنس إنشائهم أكثر منه من حيث أفكارهم العلمية المحضة .

إن تاريخ الآداب علم جديد في بلاد الشرق لم يسبق إليه علماء العرب اللهم إلا في نبد وجيرة وأشياء قليلة جدًا وردت في كتبهم مبعثرة دون أن استقصوا فيها بدقّة النظر والانتقاد . وسبب ذلك حال علم التاريخ عند العرب . فلم يمتدّ يتقنوه قدر ما أتقنه اليونان والرومان في الزمن القديم أو الأثم الإفرنجية منذ القرن الخامس عشر للمسيح بل اقتصر أكثرهم على تفصيل ذكر الحوادث والوقائع سنة سنة بدون البحث عن الأسباب والأحوال الاجتماعية وعن ارتباط الوقائع ببعضها وتناجها ومن غير مدّ بصرهم إلى ما هو أسمى من محض ذكر ما طرأ على أمة من الطوائر الظاهرة . فلا يخفى عليكم أن أكثر الذين حكيم لهم بالتقدم وحازوا قصب السبق في ميدان التاريخ عند العرب مثل أبي جرير الطبري وابن الأثير وأبي الفداء الحموي وزين الدين عمر بن الوردى لم يسلكوا في تصانيفهم غير هذا السلوك . ومن اتخذ منهجاً غيره ودون الحوادث مسرودة آخذة بعضها ببعض لم يؤلف إلا كتباً مختصرة ولم يُجرِ التحييص والنقد في مصادره ولم يتأمل تأثير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الحوادث السياسية ولم يُدقّ النظر في

سائر العوامل في ترقية العمران أو انحطاطه . ومن أغرب الغرائب أن ابن خلدون الذي أوضح في مقدمته قواعد علم التاريخ الصحيحة وأمعن الفكر في كل مبحث يتعلق بالاجتماع الإنساني إمعاناً يستوجب العجب العجيب انصرف عن أصوله تلك الجسيمة العالية لما صنف سائر الأجزاء في تاريخ الأمم وتبع فيه طريقة لا تفوق طريقة الأقدمين قدراً جزيلاً .

وكذلك في تاريخ الآداب ما ألف العرب إلا كتباً تتضمن التراجيم المفردة المرتبة على حروف الهجاء أو على الطبقات بدون التعمق في البحث عن أصل كل جنس من الفنون الأدبية وعن كيفية نموه أو انحطاطه وعن تأثير الأدباء بعضهم في بعض وأسباب تغير الذوق والأعمال . فأكثروا مثلاً في رواية أخبار أفراد الشعراء وأقصروا عن بيان تقلب أساليب الشعر وأغراضه بتقلب الهيئة الاجتماعية وتماذى العصور .

أطلت الكلام في هذا الموضوع لينبئن لكم سبب تكليفي بتدريس آدابكم مع أنني رجل أجنبي بعيد أي بُعد عن إمكان مسابقة الوطنيين في معرفة اللغة والتفصّل من علم أسرارها وخصائصها . إن المطلوب مني ليس إلا أن أطبق على الآداب العربية أساليب البحث التاريخي التي عادت على تاريخ آدابنا الإفرنجية بطائل عظيم . والمرجو أنكم في آخر السنة المكتيبة لا تجدون عملي باطلاً مجرداً عن كل فائدة .

٣- إن تاريخ الآداب العربية يجوز قسمته إلى ستة أطوار أو أعصر .

(١) عصر الجاهلية المنتهى من زمان لا تترك أوائله إلى ظهور الإسلام .

وهو عصر عربي صريح لغة وأدباً وبلاداً .

(٢) العصر العربي الإسلامي من ظهور الدين الإسلامي إلى انقراض

الدولة الأموية سنة ١٣٢. وفيه انتشر استعمال اللغة العربية في بلاد متباعدة بتوسيع حدود المملكة بالفتوحات المشهورة فأخذت الآداب العربية تزدهر أيضاً فيما خارج جزيرة العرب لا سيما في بلاد الشام إلا أنها لم تنزل محصورة في ميدان آداب الجاهلية ما عدا العلوم المتعلقة بأمور الدين .

(٣) العصر العباسي الأول من سقوط الدولة الأموية وابتداء دولة العباسيين إلى نحو سنة ٤٥٨. وصار فيه للأمم الأعجمية القسم الأوفر من أمور الدنيا والدين بل غلبت العجم على العرب في تكون التمدن الإسلامي فأدخلت كتب العلم العجمية القديمة واتسع التفنن في الآداب وسليكت فيها مسالك جديدة وصيغت صناعة النظم والنثر في بعض القوالب المستحدثة وبدغت العلوم والفنون وبعض أنواع الآداب مداها الأقصى من الكمال والإتقان والرونق والبهاء . وذلك ثمرة ما سببه الإسلام من تعاون الأمم المختلفة الأصل والأخلاق والأميال وتشاركهم في العلم والعمل كأن لسان حالهم قول أبي تمام ^(١) : (من بحر الكمال)

إن يكد مطرف الإخاء فلاننا نسرى ونغدو في إخواننا
أو نفدق نسباً يؤلف بيننا أدب أقمناء مقام الوالد
أو يخلط ماء الوصال فماؤنا غلب تحدر من غمام واحد

(٤) العصر العباسي الثاني من نحو سنة ٤٥٨ إلى فتح التتار مدينة بغداد وانقطاع دولة بني العباس سنة ٦٥٦. وفي هذا العصر أخذت الآداب والعلوم تنحط مما كانت عليه من الكمال تبعة للانحطاط السياسي

(١) الأبيات مروية في إرشاد الأرواح لياقوت، ١ ص ١٨ من طبعة ليدن فراجع ديوان أبي تمام ص ٧٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩ أو ص ٨٦ من طبعة بيروت ١٩٠٥ . أكتفى : قل غيره ، وأطرف الشيء : اشتراه حديقاً ، وثالد : (مالاً) قديم .

الذى قد ابتدأ في العصر السابق حين تجامر العُجند التركي على الخلافة في أيام المتوكل (٢٣٢-٢٤٧) فاستولى على الدولة أمراء الجيوش مثل وصيف وبُغا وأتابش كما قال الشاعر^(١) : (من بحر الخفيف)

أصبح التُّركُ مالِكى الأمرِ والعِا لَمْ ما بين سماعٍ ومطيعٍ

وزاد نفعُ الدولة إلى دول صغيرة في أنحاء مختلفة فربما تلاشت العلاقات بينها فاختلقت أحوالُ الآداب على اختلاف البلاد .

(٥) عصر الانحطاط من انقطاع الدولة العباسية إلى استيلاء محمد بن ياشا على مصر سنة ١٢٢٠ . وفيه خمدت جذوة الآداب والعلوم التي لم تزل مائة إلى الهبوط حتى كادت تنطفئ جمرتها كلية في بعض الأصقاع الإسلامية . وفترت همم أهل العلم فأصبح أكثرهم معسكين عن الاجتهاد المستقل في المباحث مقتنعين بالنظر في كتب من تقدمهم بدون خروج عن رتبة المقلدين وبغير طمع في مباراة السلف . وكذلك الشعراء والأدباء اقتصر أغلبهم على حذو السابقين فنجد أشعارهم كأنها تصدر عن المتصنع المشبه الذي يكتفى بتنميق العبارة وزخرف الكلام وإشكال البديع ولا يهتم بالتعبير عن حقيقة ما يكتنه صدره من العواطف والمخاطر . فإن نجد بين أهل ذلك العصر من فاق غيره فوقاً عظيماً (وحسبنا ذكر نصير الدين الطوسي وابن خلدون) يصلح له بالنظر إلى معاصريه ما قيل عن انحطاط الدول إنه^(٢) : «ربما يحدث عند آخر الدولة قوة يؤهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويؤخر

(١) البيت مروي في الباب العشرين بدء المائة من مروج الذهب للمسعودي ج ٧ ص ١٠٠

من الطبعة الباريسية .

(٢) بقنة ابن خلدون ص ٢٥٦ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٢٩٤ من طبعة بيروت

١٩٠٠ أوج ٢ ص ١٢١ من الترجمة الفرنسية .

ذُبَالُهَا إِيْمَاضَةُ الْخُمُودِ كَمَا يَقَعُ فِي الذُّبَالِ الْمُسْتَعِيلِ فَإِنَّهُ عِنْدَ مَقَارِبَةِ انْطِفَائِهِ
يُؤْمِضُ إِيْمَاضَةً تُؤْهِمُ أَنَّهَا اشْتَعَالٌ وَهِيَ انْطِفَاءٌ^(١)

(٦) النهضة الأخيرة من ابتداء ولاية محمد علي باشا سنة ١٢٢٠ إلى
آيامنا هذه . وفي هذا العصر شاعت العلوم الإفرنجية في كثير من بلاد
الشرق فكانت خميرة اختمرت بها العقول بعد مدة العقم والسقم وانتششت
أهل الإسلام مما قد قصت الصروف لأغلبهم من الاستكانة والتفريط . في
التعلم والتأليف والاعتناء بالفنون والصنائع . وانتشر فن الطباعة في الشام
ومصر وغيرهما من الأنحاء الإسلامية وذاعت الجرائد والمجلات بنافع المعارف
والأخبار وعادت أسواق الآداب والعلوم قائمة وبضائعها رائجة لا سيما في
القطر المصري وشقيقته الشام والقسطنطينية وبغداد فتحقق وتم لأهلها
مراد قول الشاعر^(١) :

لعلَّ إلَّامَةً بِالْجِزْعِ ثَانِيَةً يَدِبُّ مِنْهَا نَسِيمُ الْبُرْءِ فِي عِدْلِي

إِلَّا أَنَّ إفراط التأثير الإفرنجي لم يخلُ من الإضرار بآداب الشرق لأنه
ربما أبعد الناس عن شدة العناية بلغتهم وأدخل في تأليف بعض المحدثين
وفي بعض المجلات والجرائد العجمة المستقبحة والتراكيب الشائنة السقيمة
وركاكة الكلام وسخافة الإنشاء وغير ذلك مما يستنكف منه صاحب الذوق
السليم : فاتفق لبعض الكتبة ما اتفق لبعض الناس الذين قلدوا الإفرنج
وعوائدهم بدون بصيرة وخططوا الغث بالسمين والبخس بالثمين ؛

إن هذه الحدود التي ذكرتها لكل عصر من الأعصر الستة ليست إلا حدوداً

(١) البيت مروي للطبراني المولود سنة ٤٥٣ والموت سنة ٥١٥ وهو البيت السادس والعشرون من

شعره المسمى بلامية العجم ، فانظر كتاب نشر العلم في شرح لامية العجم للشيخ جمال الدين محمد بن
عمر الحضري ص ٣٠ من طبعة مصر ١٣١٩ - وألم به نزل به . جزع : متعطف الوادي ومحلة القوم .
دب : مري . بره : شفاء .

صناعية اصطلاحية أثبتتها على التقريب فإنَّ عصرًا ما سواء من التاريخ السياسي أم من تاريخ الآداب والعلوم لا يُحصر في مواقيت معينة بدقة . فلذلك أسباب . أولاً أنَّ كلَّ حيٍّ وكلَّ نوعٍ أو فرع من الهيئة الاجتماعية لا تتغير أحواله بلدياً أبداً بل من المشهور أنَّ الانتقال من حال إلى حال لا يحصل إلا بالتدريج الباطني حتى لا يُشعر في الأغلب بالفرق بين الدرجة القادمة والدرجة التالية لها . فإنَّ أعملنا الفكر فيما يظهر باديً نظر أنَّه تقلُّب فاجئ ألقينا أنَّه في الحقيقة نتيجة عدَّة أسباب مرتبطة بعضها ببعض عاملة منذ زمان طويل . قال إبقراط ^(١) ومن اتبعه من أطباء اليونان والعرب إنَّ الإنسانَ يبتدئ طفلاً ثمَّ يصير صبياً إلى أربع عشرة سنة من عمره ثمَّ غلاماً إلى إحدى وعشرين سنة ثمَّ شاباً ما دام يشبُّ ويقبل الزيادة إلى خمس وثلاثين سنة ثمَّ كهلاً إلى تسع وأربعين سنة ثمَّ شيخاً ثمَّ هرمًا إلى آخر العمر الذي ينقسم إلى سبع أمان على هذا القول ^(٢) . وظاهر أنَّ هذه القسمة لمدة حياة الإنسان إنما هي اصطلاح محض لا يوافق حقيقة الأحوال الطبيعية إلا بالتقريب فلا يزعم أحدٌ أنَّ الإنسانَ عند انتقاله من سنٍّ إلى التالية لها على ذلك القول يتغير تغيراً محسوساً . وكذلك تقلُّبات الأمم والدول إنما تقع قليلاً قليلاً فلا يُشعر بها إلا بعد مضيَّ أمدٍ مديد حين يمكن مقابلة الحال الحاضر بالحال الماضي البعيد . فمن قال من المؤرخين بانتهاء القرون الوسطى وابتداء العصر الحديث سنة اكتشاف أمريكا أعنى سنة $\frac{1492}{1492}$ ما أراد أنَّ الدنيا قد تغيرت أحوالها بَعَثَةً في تلك السنة أو أنَّ أهل ذلك العهد أحسَّوا بشيء من التغيير العام الواضح . ولا يخالف ذلك ما يقع في

(١) يعني Hippocrates الطبيب اليوناني المشهور الذي عاش من أواخر القرن الخامس إلى منتصف القرن الرابع قبل المسيح .

(٢) انظر الباب الثاني والستين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٤ ص ٢١ من الطبعة الباريسية) .

سير الآداب فإن أنواعها وفنونها بطيئة التحول فتختلط في الأغلب الأساليب القديمة بالجديدة في عصر واحد، وتوازنت فيه مدة إلى أن يأخذ الأسلوب الجديد في الغلب على القديم شيئاً فشيئاً . فكم مرة ما انفرد به شاعر أو أديب طفق بعد مدة يتشبه به القليلون الذين استحسنوه واستطابوه ورأوا أنه تألفه الأسماع وتقبله النفوس ثم سائر الأدباء اتبعوه أيضاً وتعملوه فعمم ما كان يختص به أولاً الواحد . وفي أشعار الجاهلية تجدون أحياناً من التغزل^(١) ما يشبه الأسلوب الذي اشتهر به عمر بن أبي ربيعة^(٢) بعد منتصف القرن الأول وقرون الهجاء في القرن الثاني كأنه متردد متحير فيما بين منهجه القديم الملائم لأحوال أهل الوبر وبين الطريقة الجديدة اللائقة بأمر أهل المدر . ويحتذى المتنبي^(٣) حذو القدماء حين يدعى في بعض أشعاره بالحماصة وابن المعتز^(٤) حين شرع في نوع الافتخار ، ومع ذلك إنهما من الشعراء المحدثين لا يفردان عن معاصريهما في المدح والفزل والوصف والطرديات . فإذا كيف يمكن أن سنة معينة تكون حداً حقيقياً طبيعياً بين عصرين من عصور تاريخ الآداب ؟

ثم لا يخفى عليكم أن آداب لغة ما إذا شاعت في أراض متباعدة وأقطار مختلفة ولم يساعد فن الطباعة في انتشار الكتب انتشاراً سريعاً بعيداً لا تتغير أحوالها ولا تتقلب آميالها على نمط واحد في كل قطر لا سيما إن

(١) راجع Th. NOELDEKE, *Fünf Mo'allagat*, II, P. 49. *Encyclopedie de l'Islam*, I, P. 366 و (مادة عنزة) .

(٢) عمر بن أبي ربيعة ولد $\frac{٢٣}{٦٤٤}$ م وتوفي سنة $\frac{١٠١}{٧٢٠-٧١٩}$ على القول الأرجح ونبأ ذكره في باب الشعراء الغزلين الذين عاشوا بمدن الحجاز في عصر بني أمية .

(٣) توفي المتنبي سنة $\frac{٣٥٤}{٩٦٥}$.

(٤) مات ابن المعتز سنة $\frac{٢٩٦}{٩٠٨}$ وفي اختصاره راجع إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٢٤ - ١٢٥ من طبعة مصر ١٣١٥ .

نشئت شملت المملكة كما اتفق للأمم الإسلامية منذ قرون عديدة . فمثال ذلك اختصاص النهضة الأخيرة (التي جعلتها العصر السادس) بالقطر المصري والشام والعراق والهند لأن مآثر الانحاء الإسلامية العربية لم تزل بالنظر إلى الآداب على ما كانت عليه في العصر السابق الذي سمّيناه عصر الانحطاط ففي عمان وحضرموت واليمن والمغرب الأقصى مثلاً لم ينبغ بعد عالم أو أديب أو شاعر طفق يشرع في الأساليب الجديدة فما هبت هناك الآداب العربية من كراها ولا نفقت غبار نحمولها . ودعوا عنكم ما وقع في المغرب الأوسط . أي بلاد الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي فإن مصابيح العلوم العربية أطفئت هنالك وتلاشت الآداب كلياً حتى لا يجاوز عدد أنامل البلد من يتمكن من استعمال اللغة الفصحى في الكلام واندست المكاتب العربية التي قد اشتهرت في الأجيال الخالية بالقسنطينة وبجاية وتلمسان وكادت تفسحل معرفة الآثار العربية عند الوطنيين كيف لا وهناك الشبان في نفس مدارس القضاء الشرعي يتفقون أكثر العلوم بلسان الفرنسيين . ومثال مقدر ما بلغه الناس في بلاد الجزائر من إغفال درس لسانهم أن أحد الجزائريين وهو حضرة محمد صوالح نشر قبل الآن بأربع سنين ترجمة باب أحكام صيام رمضان من رسالة ابن أبي زيد القيرواني^(١) في الفقه المالكي قائلاً : في مقدمة الترجمة إنه رأى من المناسب نقل ذلك الباب إلى الفرنسية لكون أغلب الوطنيين المتأدبين أعرف بها منهم بالعربية^(٢) . وهذا لعمري عيب يعود على أهل البلد وعلى من تسلط عليهم معاً .

(١) توفي سنة ٣٧٩ .

SOUALAH Mohammed, *Je jette chez les Musulmans Algériens* (*Revue Africaine*, vol. (٢)

[كذلك كان في سنة ١٩١٠ عندما ألف الأستاذ تليو محاضراته هذه . (٩٩٣ P. 1906, 50, في تاريخ الآداب العربية] .

وقصارى القول أن قسمة تاريخ الآداب أقساماً محصورة محدودة إنما
 هى وسيلة لتسهيل بيان سير الآداب فى مدارج الترقى أو رجوعها القهقرى .
 فالحدود المعينة لكل عصر هى كالأعلام التى كان أهل البدو ينصبونها فى
 البرارى والقفار ليهتدى بها ابن السبيل ولا يضل فى تلك الأراضى المستوية
 الجرداء والرمال المتساوية والكثبان المتشابهة المتوالية . فتكون فائدة استعمال
 تلك الحدود الاصطلاحية مثل منفعة بل ضرورة وضع خيوط السدى التى
 ينسج عليها النسيج . - وربما زيادة لوضوح البيان وتسهيلاً لنظم درر الأخبار
 بأسلاك التاريخ ينبغى قسمة تلك العصور الأساسية أقساماً أخرى صغيرة
 وذلك بالنظر إلى اختلاف البلدان أو أهمية بعض الوقائع السياسية والأدبية .
 لكننى أمتنع الآن عن الخوض فى تعريف تلك الأقسام الفرعية التى سأذكرها
 فى دروسى عند متوح المناسبة إن شاء الله .

الباب الثاني

العصر الجاهلي

- ١ - شعر أهل البادية - ٢ - شعر الوثنيين الملازمين ملوك الحيرة وفسان -
- ٣ - شعر النصارى بالحيرة وفي مملكة بني فسان - ٤ - شعر أهل الحضر
- في مدن الحجاز - ٥ - النثر الجاهلي - ٦ - المسائل المتعلقة بالقرآن

أما بعد هذه المقدمات وقبل الشروع في المواضيع الخاصة التي ستندور محاضراتي على البحث عنها بالتوسع أرى من المناسب لمتعة في أحوال الآداب العربية أثناء كل عصر من الأعصر الستة السابق تحديدًا بالإجمال - فأبتدى بالعصر الجاهلي^(١).

لا شك أن ما وصل إلينا من آثار الجاهلية نظمًا ونثرًا شيء يسير جدًا بالإضافة إلى جميع ما أنشدته العرب أو روتته في مسامراتهم ومواسمهم ومفاخراتهم ونهاجيهم وما قالوه ارتجالاً في غزواتهم وحروبهم وغيرها من الحوادث. ومن المشهور أن العرب القدماء من أكثر الأمم شعرًا لهم فيه التصرف العجيب والاعتدال اللطيف دونوا فيه هواظفهم وأعمالهم ومفاخرهم فأجاد أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ حين قال^(٢): ولا تعرف أنساب العرب وتواريخها وآياتها ووقائعها إلا من جملة أشعارها فالشعر ديوان العرب وخزانة

(١) [في الشعر الجاهلي انظر (تفصيلًا عن المؤلفات المذكورة في الحواشي التالية) الأدب الجاهلي للدكتور

طه حسين طبعه مصر ١٩٢٧ ثم E. BRÄUNLICH, *Versuch einer literaturgeschichtlichen Betrachtung der weise altarabischer Poesie* (Der Islam, XXIV, 1937, P. 201-269); G. VON GRUNEBAUM, *Die Wirklichkeit der früh-arabischen Dichtung*, Wien 1937; G. VON GRUNEBAUM, *Zur Chronologie der früh-arabischen Dichtung* (Orientalia, VIII, 1939, P. 328-345).

(٢) كتاب الصباغين ص ١٠٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٠.

حكمتها ومستنبط. آدابها ومستودع علومها . وقال الجاحظ. ^(١) المتوفى سنة ٢٥٥ : وقال الهيثم وابن الكلبي وأبو عبيدة فكل أمة تعتمد في استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال وكانت العرب في جاهليتها تحال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها ، وعلى أن الشعر بفيض فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح وفضيلة المأثرة على السيد المرغوب إليه والممدوح به . وذهبت العجم على أن تُقيد مآثرها بالبنيان فبنوا مثل كرد بيداد ^(٢) وبنى أزدشير بيضاء اضطخر وبيضاء المدائن والحضر والمدن والحصون والقناطر والجسور والنواويس. قال ثم إن العرب أحبت أن تشارك العجم في البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غمندان وكعبة نجران وقصر مارد وقصر مأرب وقصر شعوب والأبلى الفرد ومارد قالوا تمرّد مارد وعزّ الأبدق ^(٣) وغير ذلك من البنيان . - ولكن كثيراً مما سارت به الركبان إلى أطراف بواديهم وأقاصي أنحائهم من المنظوم والمنثور ضاع منذ زمان مديد فلم تطق الحصول على معرفته أهل اللغة في القرن الثاني للهجرة . إن أوائل آداب اللغات المنفردة من اللاتينية مثل الإيطالية والفرنسية والإسبانية معروفة فنستطيع وصف تدرج تلك الآداب من ابتدائها إلى وقتنا . أما الآداب العربية فليست على مثل هذا الحال فلا نتمكن من الحصول على أوائلها لا بروايات العرب أنفسهم ولا بواسطة ما نعثر عليه من الأخبار في تصانيف اليونان والرومان .

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ .

(٢) في هذا الاسم تعريف وذكر المسموحى « بيت النار بسجستان يقال له كراكركان » (مروج الذهب في الباب الثامن والستين ج ٤ ص ٧٣ من الطبعة الباريسية) .

(٣) المثل مروي في مجمع الأمثال للميداني ج ١ ص ٨٤ من طبعة مصر ١٣١٠ (راجع G.W. FREITAG. *Arabum Proverbia selectissima proverbiales*, Bonn 1898-1849, I p.218. وفي أمثال العرب للمفضل الضبي ص ٦٤ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ .

ولم يُنقل إلينا بيتٌ عربيٌّ غيرُ مُرتابٍ بصحَّته أقدمُ من أواخر القرن الخامس للمسيح أعني سابقاً للهجرة بأكثر من مائة وثلاثين سنة تقريباً . وقولي هذا الذي سأتى بالبرهان عليه فيما بعد لا يبعد عن رأى علماء العرب بكثير . فقال مثلاً الجاحظ في كتاب الحيوان ^(١) : « وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السنَّ أولُّ من نهج سبيله وسهل الطريقَ إليه امرؤ القيس بن حُجر ومهلَّه بن ربيعة ، وكتب أرسطاطاليس وحلمه أفلاطون ثم بطليموس وذى بقراط ^(٢) وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور والأحقاب قبل الأحقاب ويدلُّ على حداثة الشعر قول امرئ القيس بن حُجر ^(٣) .
(من بحر المنسرح)

إنَّ بني عوفٍ ابتنوا حسباً ^(٤) ضيعةُ الدُّخلون ^(٥) إذ غدروا
أدرا إلى جارهم غفارتُهُ ولم يَضِعْ بالمغيب من نصروا
لا حَمِيرِيٌّ وَفَى ولا عُدُسٌ ولا استُ حَمِيرٌ بِحُكْمِهَا الشَّفَرُ
لَكِنْ عَوَيْرٌ وَفَى بِلَمَتِهِ لا قِصْرٌ عَابَهُ ولا عَوْرٌ ^(٦)
فانظُرْكم كان عُمَرُ زُرارةَ وكم كان بين موت زُرارةَ ومولد النبیِّ عليه الصلاة والسلام . فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فماتني عام . قال وفضيلة الشعر تمصيرة

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٢ - ١٣٢٥ .

(٢) [لعنه Hippocrates الطبيب اليوناني المشهور] .

(٣) راجع ديوان امرئ القيس ص ٢٩ من طبعة باريس ١٨٣٧ أو ص ١٤٢ - ١٤٣ من طبعة مصر ١٣٠٧ مع شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي أو عدد ٢٧ (ص ١٣٣) من طبعة لندن ١٨٧٠ : AHLWARDT, *The Dialects of the six ancient Arabic poets* .

(٤) في كتاب الحيوان : حسناً وهو تصحيف .

(٥) في كتاب الحيوان : الداخلون وهو خلط - قال البطليوسي الدُّخْلُ والدُّخْلُ والدُّخْلُ الذي يداخل الرجل في أمره ويصاحبه عليه وهم الخالصة .

(٦) وروى الشطر في الديوان كذا « لا عور شاك ولا قصر » .

على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب والشعر لا يُستطاع أن يُترجم ولا يجوز عليه النقل إلخ - ولكن في كلام الجاحظ. هذا نظر. فإنه خطأ أولاً لما قابل عهد الآداب اليونانية النثرية بعهد الشعر العربي ولم ينتبه لعدم كل علاقة بينهما. ثم لو أدق البحث في تاريخ الآداب لوحد أن الشعر سبق سائر الفنون الأدبية المستظرفة عند كل أمة متمدة كانت أو هَمَجِيَّة. ثم لا يلوح كيف تُستنتجُ حدائثُ الشعر من الأبيات التي أنشدناها لامرئ القيس لأنه لا دلالة فيها على سابقة تلك الأبيات لغيرها. ولعله اغترَّب بقول كثير من علماء اللغة أن مهلهلاً وهو خال امرئ القيس أول من قصد القصائد^(١) وهذا القول - ولو صح - لا يدلُّ على عدم وجود أنواع غيرها من الشعر عند من تقدم مهلهلاً من العرب. والحق يقال إن من يسرَّخ أبصاره في رياض الشعر الجاهلي لا يجد في شذراته التي نجت من أيدي الضياع ما يدلُّ على كونه فناً صغير السن فإن جميع ما نُقِل إلينا منه يظهر لنا في غاية الإتقان وزناً ونقضية وفي نهاية التفنن من الافتخار والتخفيف والزجر والإغراء والوعد والوعيد والتأديب والمدح والغزل والهجاء والوصف والرثاء، وهو يجمع رقة العبارة إلى دقة الإشارة ومثانة التراكيب إلى رشاقة الأساليب. فليس من الممكن مثل هذا الكمال في صناعة حديثة لأنه من المعلوم أن كل مبتدئ لشيء لم يُسبق إليه وكل مستدع لأمر لم يتقدم فيه عليه لا بد من أن يكون قليلاً ثم يكثر وصغيراً ثم يكبر وضعيفاً ثم يتقوى. ومصادقاً لقولنا هذا الإجمالي نأتي فيما بعد بنصوص قديمة غير عربية تدلُّ على أن الكلام المنظوم عند أهل البادية سبق عهد شعر مهلهل وامرئ القيس بمدة مديدة. وخلاصة الأمر أن العلماء من العرب الذين قالوا بمدة

(١) راجع كتاب السنة لابن رثيق ج ١ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ مثلاً.

مائة وخمسين سنة تقريباً للشعر الجاهلي لم يبعدوا عن الصواب إذا فرضنا أنهم إنما أرادوا بذلك ما وصل إلينا من الأشعار القديمة .

ثم من الجدير بالذكر أن جميع ما نعرفه من شعر الجاهلية إنما هو لأهل نجد والحجاز والبحرين أو لمن سكن في هذه الأنحاء وأن أصله من قبائل اليمن . أمّا أهل الحضر من سكان اليمن ومهرة وحضرموت وعمان فلا يُعرف لهم أبياتٌ صحيحة الرواية لا بالعربية ولا بالجميية . فعلى مؤرخ الآداب أن يفحص عن سبب ذلك باعتبار كيفية النقل وأحوال عرب الجاهلية في السياسة وفي نظامهم الاجتماعي . - ثم على الباحث عن آداب العرب القديمة حلّ مسائل أخرى خطيرة الشأن أذكرها هنا سريعاً . أكانت أصلاً علاقة بين الكلام المسجع والكلام المنظوم ؟ وما السجع في أوائله ؟ وكيف نشأ الكلام الموزون المقفى ؟ أكان الشعر أولاً ذا وزن معين وقافية ؟ وما أصل الوزن والقافية ؟ وكيف توصلت العرب إلى اختراع القصيدة على نمطها الكامل المنقن ؟ ولماذا جعلوا النسب أول القصيدة ؟ وما كان الشاعر عند العرب القدماء ؟ أكانت لغة الأشعار لغة واحدة ؟ وكيف تكونت هذه اللغة ؟ وعلى أي وجه وصلت أشعار الجاهلية إلينا ؟ أيجوز لنا أن نثق بصحة رواياتها ؟ وأن نعتمد على الحكايات المروية لشرح الأبيات القديمة ؟ - إن هذه المسائل المهمة وغيرها التي لا نستطيع أن نحلّها جميعها خلاّ نهائياً قاطعاً تكون موضوع جملة من محاضراتي بعد إنجاز بيان المقدمات التي نحن بصددّها .

نستفيد من كتب الأدب واللغة أسماء نيف وثمانين شاعراً عاشوا في عصر الجاهلية ولكل واحد منهم تُنسب أبياتٌ وصلت إلينا متفرقة في جملة من الثصانيف . ولكن أكثر ما روى من أحوال حياتهم وسبب إنشادهم

الأبيات المنقولة ذو شبه واختلافات وأخبار متناقضة فضلاً عن الخرافات التي إن عرضناها على نار الانتقاد وجدناها لا تصبر عليها هنيئة من الزمان . فلا نستطيع ترتيب تراجمهم على توالي الأزمنة اللهم إلا لقليلين منهم ولا نتمكن من تعيين سنة المولد أو الوفاة لأحد منهم فمن أغرب الغرائب أن بعض كتب عربية في آداب لغتكم صُنفت حديثاً وطُبعت بمصر وهي متداولة في المدارس تروى لكل شاعر تذكره من شعراء الجاهلية تاريخ وفاته كأنه معين ثابت ولا شك فيه وذلك من غير دلالة على مصدر تلك التواريخ . فالظاهر أن منبع تلك الأخبار كان أصلاً كتاب روضة الأدب في طبقات شعراء العرب تأليف إسكندر أغا إبكاريوس الذي مات سنة $\frac{1302}{1886}$ ونشر كتابه في بيروت سنة ١٨٥٨م دالاً فيه لكل شاعر على عام وفاته من غير أن يبين كيف استخرج تلك السنين . والمحتمل أنه توصل إليها بالحدس والتخمين مستنداً إلى إشارات غير كافية وجدها في الكتب القديمة ولا فماً مقطعات الأخبار^(١) . ثم على جرى عادة كثير من المحدثين الناقلين كلام من تقدمهم بغير بصيرة وتمحيص وبغير ذكر مصادرهم أخذ بعض الكتب في بيروت يقبل تلك التواريخ بلا انتباه ثم اتبعهم في مثل ذلك النقل بعض المتأدبين بمصر فشاعت تلك الأوهام ودخلت في الكتب المدرسية بعدما زيدت عليها غير مرة أغلاط طبع في أرقام الأعداد . - ولكن عدم تعيين التواريخ الموماً إليها ليس ضرراً عظيماً لسببين : الأول أن المدة التي عاش فيها شعراء الجاهلية المنقول إلينا شيء من أبياتهم لا تتجاوز مائة وثلاثين سنة تقريباً كما تقدم .

والثاني أننا نقدر على تعيين تتابع أكثر الفحول بإشارات وردت في نفس

(١) راجع R. GEYER, Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter II. (Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, XVIII, 1904, P. 5, n. 1).

أشعارهم أو بأخبار محققة نُقلت إلينا من الزمان القديم .
 إذا أطلنا النظر والتأمل في شذرات الشعر الجاهلي التي سَلِمَتْ من
 التلف واعتبرنا خصائصها من جهة الصيغة والمعاني وجدناها تنقسم إلى أربعة
 أصناف أساسية : الصَّنَفُ الأوَّل ما نسجه أهلُ البادية أو من تقرب منهم
 سواء كانوا وثنيين أم يهوديين . الثاني أشعار الوثنيين الذين قصدوا ملوك
 الحيرة وبنى غسان وجالسوم . الثالث أشعار النصارى بالحيرة أو في مملكة
 بنى غسان . الرابع أشعار أهل الحضر الوثنيين في مدن الحجاز . لا تستغربوا
 عدم الفرق بين الوثنيين واليهود من أهل البادية ووجوده بين الوثنيين والنصارى
 من أهل الحضر لأنكم إذا اطَّلَعْتُمْ على ما وصل إلينا من أشعار اليهود قبل
 الإسلام ما أَلْفَيْتُمْ فيها شيئاً أو عبارة يميّزها من سائر أهل البادية . فمن
 طالع مثلاً أبيات السَّمَوِّعِل بن عَدِيَّاء (مع قطع النظر عن قصيدة واضحة
 التزوير منسوبة إليه لم تُعرَف ولم تُطَبِّع إلا حديثاً) لما توهم أن صاحبها تابع
 لدين اليهود . والأمر كذلك أيضاً في سائر أشعار يهود جزيرة العرب مثل
 شُعْبَةَ^(١) بن خَرِيض والربيع بن أبي الحَقِيق وغيرهما التي اعتنى بجمعها
 نولدك وفرانز دِلِتْش^(٢) ليس من المستحيل أن ما فُقد من أشعارهم (وهو كثير
 بالإضافة إلى ما حُفِظَ) قد حوى أشياء مما يختص بدينهم وليس من المحال
 أيضاً أن الرواة المسلمين امتنعوا عن نقلها لهذا السبب ، ولكن لا يجوز لنا
 الحكم إلا في الموجود المعروف الذي لا يختلف عن شعر أهل البادية الوثنيين
 لا لغة ولا أسلوباً ولا مأخذاً كأن دينهم لم يؤثر في شعرهم البتة .

(١) [إن شعبة قصيف سبعة (بفتح السين المهملة وسكون الياء) . انظر ما قال الأستاذ
 الإيطالي Levi Della Vida في المجلد 627-628، فليراجع أيضاً ما قال الأستاذ المذكور في سبعة بن خريص في مقاله A proposito di
 as-Samaw'al المطبوعة بالمجلة Rivista degli Studi Orientali, XIII, 1931-32, P. 62.]
 (٢) NOBLDEKE, Beiträge zur Kenntnis der Poesie der alten Araber, P. 52-86; F. DELITZSCH, Jüdisch-arabische Poesien aus vorislamischer Zeit, Leipzig 1874.

١ - وإيضاحاً لما قلته من قسمة أشعار الجاهلية أربعة أصناف أذكر هنا أسماء أكبر الشعراء صنفاً صنفاً مع دلالات على خصائصهم بغاية الإيجاز . فابتدئ بالصنف الأول أى أشعار أهل البادية . لا يخفى على أحد وجود رجال بين قدماء العرب كانت أخلاقهم وعوائدهم أقرب للهمجية المحضة منها لأحوال أهل ذات نظام اجتماعي متين فسموا أولئك الرجال صعاليك أى فقراء ولصوصاً معاً وكانوا يعيشون متعزّلين عن نفس قبائلهم جائلين في القفار والبيوادي بغاية الاستقلال طالبين رزقهم من الصيد والغصب والغزو كما يفعل في أيامنا المعروفون بالبواقين عند أهل شمر والحجاز الشمالية^(١) ومنهم من نبغ في الشعر على توحش عيشتهم فأشهرهم اثنان ضرب هما الأمثال لكونهما من محاضير العرب ومغاويرهم^(٢) فكثرت فيهما الأخبار العجبية والروايات الغريبة . وهما تأبط . ذراً الفهمي^(٣) والشنفرى الأزدي عاشا في القرن السادس للمسيح وتشاركا أحياناً في غزواتهما . وافتخر تأبط . ذراً في قصيدة بلقائه الغولة ومخاطبتها واتخاذها جارة في ليلة مظلمة^(٤) :

وأذهم قد جئتُ جلبابهُ كما اجتنبتِ الكاعبُ الخيَلاً
إلى أن حدَا الصُّبحُ أثناءهُ ومزقَ جلبابهُ الأليلاً
على شيمِ نارٍ تنوَّرتُها فيتُ لها مُذبراً مُقبِلاً
فأصبحتُ والغولُ لى جارةٍ فيا جارتنا أنتِ ما أهولاً
وطالبتُها بضعتها فالتوتُ بوجه تهوّل فاستغولاً

(١) انظر : JACOB, *Altarabisches Bedulmenleben*, 2 ed., Berlin 1897, P. 225.

(٢) محضير : كثير العلو . ومغوار : مقاتل كثير الغارات .

(٣) جمع المشرق الإنكليزي LYALL أربعة أشعار لتأبط ذراً في المجلة *Journal of the Royal*

Asiatic Society سنة ١٩١٨ ص ٢١١ - ٢٢٧ .

(٤) الأبيات مروية في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٦ من طبعة ليدن ١٩٠٤ والباب التاسع والأربعين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٣ ص ٣١٠ - ٣١٤ من طبعة باريس) وإعجاز القرآن لبائلاقي ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣١٥ . خيميل : قميص بدون أكمام - ثنوره : تطلع نحوه ببصره .

وما أحسن وصف حال حياته في قصيدة مدح بها عمه شمس بن مالك^(١) :
(من بحر الطويل)

قليلُ التشكُّي للمُهم يُصِيههُ كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالِك
يظلُّ بمومةٍ ويُمسي بغيرها جحيشاً ويعرورى ظهورَ المهالك
ويسبقُ وفدَ الريح من حيث ينتحي بمنخرقٍ من شدو المتدارك
إذا حاص عينيهِ كرى النوم لم يزل له كالأى من قلب شبحان فاتك
ويجعل عينيهِ ربيضة قلبه إلى سلةٍ من حدٍّ أخلق صائله
إذا هزه في عظم قرنٍ تهللت نواجذ أفواهِ المنايا الضواحل
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى بحيث أهدت أم النجوم الشوايل

أما الشنفرى الأزدي فصاحب اللامية المشهورة التي يفتخر فيها بانفراده
من قومه ووحشة عيشه في البراري كأنه لم يعاشر إلا السباع . وهي قصيدة
غاية في الجمال تنطق بلسان حال الشاعر وإن كان بعض النحويين يزعمون
أنها من مصنوعات حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ . ومما يدل أيضاً توحش
عيشته شعر آخر له قال فيه^(٢) :

[و] لا تقبروني إن قبري محرمٌ عليكم ولكن أبشرى أم عابر
إذا أحتملوا رأسي في الرأس أكرى وغودر عند الملتقى ثم ساررى

(١) الأبيات مروية في حاشية أبي تمام من ٤١ - ٤٤ من طبعة بن أوج ١ ص ٤٦ - ٤٩
من طبعة بولاق . - امرؤى القيس : ركب حريا ليس تحته شوى - منخرق : سريع - فاتك :
فاجىء . وقيل إن أم النجوم الشمس وقيل إنها الهرة .

(٢) الأبيات مروية في حاشية أبي تمام ص ٢٤٢ - ٢٤٣ من طبعة بن (أوج ٢ ص ٢٤ -
٢٥ من طبعة بولاق) وفي NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, Berlin 1890, P. 30
[في تأبط شرا والشنفرى راجع أيضاً مقالى المشرق الإيطالى] Francesco
GABRIELI الماتين *Ta'abbata Sharra an Sharfardh = Khalaf al-Akhar (Rendiconti della
Accademia dei lincei, classe scienze morali, serie VIII, vol. I, Roma 1946, P. 40-69);
sull'Autenticità della «Lamiyat al-'Arabi» (Rivista degli Studi Orientali) XV, Roma 1934, 35
P. 358-361.]*

هُنَالِكَ لَا أَرْجُو حَيَاةً تُسْمِرُنِي سَجِيَسَ اللَّيَالِي مُبَسَّلًا بِالْجَرَائِرِ

ثم من الصنف الأول مع بعدهم عن هَمَجِيَّة تَأْيِط. شراً والشَّنْفَرَى أصحابُ ستٍّ من المملكات السبع الشهيرة أعنى : امرأ القيس وهو أقدمهم ، والحاتر بن جِلْزَة ، وعَمَرَ بن كلثوم ، وعنقرة العيسى وزُهَيْرًا وابيدًا وهو أحدثهم . أمَّا طَرْفَة فمن شعراء الصنف الثاني المجالسين للملوك . وامرؤ القيس ابن حُجْر من آل ملوك كندة عاش في النصف الأول من القرن السادس للمسيح ويقال إنه أمير الشعر لما أدرك فيه من الإتقان فقال ابن قتيبة^(١) المتوفى سنة ٢٧٠ أو ٢٧٦ إنه « سبق إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب وتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبه في الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ » . وأجوداً أيضاً الوصف والنشأ به فكان كثير من أهل الأدب والشعر في القرون الماضية يفضلونه على مائت الشعراء واختصر القاضي أبو بكر الباقلائي^(٢) حكمهم فيه هكذا^(٣) : « وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته ولا تتوقف في فصاحته وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أموراً اتبع فيها من ذكر الديار والوقوف عليها إلى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه والتميح الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي تُصادفه في قوله ، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلامة وعلو ومثانة ورقة وأسباب تُحمد وأموحٍ تؤثر وتُمدح . وقد نرى الأدباء يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً إلخ » . إلا أن القاضي الباقلائي يقول بوجود ما يُعاب أيضاً في شعر امرئ القيس فيوضح ما يزعمه عواراً في

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٤٠ من طبعة ليدن ١٩٠٤ .

(٢) ترقى الباقلائي سنة ١٠١٣ هـ ١٠١٣ م .

(٣) إحصاء القرآن ص ٧٤ من طبعة مصر ١٣١٥ .

معلّقة بالتفصيل المفرط^(١) وربما عدل عن الإنصاف في أقواله لأن غرض كتابه إنما هو البرهان على عدم إعجاز الشعر وإن كان صاحبه من فحول الشعراء وعلى أن^(٢) «طريقة الشعر شريعة مورودة ومنزلة مشهودة يأخذ منها أصحابها على مقادير أمسياتها ويتناول منها ذروها على حسب أحوالهم وأنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبرّ عليه فيه وتجد لمتأخر معنى قد أغضله المتقدم وتجد معنى قد توافدا عليه وتوافقا إليه فهما فيه شريكا عنان وكأتهما فيه رضيعا لبان». أما معلقة امرئ القيس وسائر قصائد ديوانه فأشهر من أن يجب الإطناب في الكلام عليها في هذه النبذة الإجمالية الوجيزة.

ثم الذي يتبع امرأ القيس من أصحاب المعلقات على الترتيب التاريخي هو الحارث بن حلزة البشكري البكري الذي ألف قصيدته المشهورة في أيام عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٥٤ - ٥٦٨ أو ٥٦٩ م) ولا ارتجالاً بين يديه كما يقوله خطأ أكثر كتبة العرب، وغرضها سياسي أعنى حث بني بكر ابن وائل وبني تغلب بن وائل على ترك التشاكي الباطل لئلا تعود تضرهم جدوة العداوة والحرب بينهما ولا ينقض الصلح المنعقد عند المنذر بن ماء السماء^(٣) ملك الحيرة (نحو ٥٠٦ - ٥٥٤ م) بعد الحرب الطويلة الشهيرة بحزب البسوس. وبعد الحارث بمدة غير مديدة ألف عمرو بن كلثوم التغلبي^(٤) معلقته التي تشير أيضاً إلى ما كان قد عاين بين حبيبي بكر وتغلب من

(١) إعجاز القرآن ص ٧٥ - ٨٥ من طبعة مصر ١٣١٥ م.

(٢) إعجاز القرآن ص ٨٦.

(٣) ولا عند عمرو بن المنذر بن ماء السماء كما يقال أيضاً فليراجع في هذه المسألة ما كتب المنشق NOELDEKE في كتابه (Flyg Mo'allaqat, I., Wiesbaden 1899, P. 54).

(٤) [طبع ديوان الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم في مجلة المشرق ص ٥٩١ - ٦١١ من السنة العشرين ١٩٢٢].

العداوة . ويُندَر فيها الشاعر بل يرعّب عمرو بن هند الملك لميله إلى بكر
ويوعِد البكرين وثوبَ بنى تغلب عليهم إن لم ينقطعوا عن التحريض .
وهي قصيدة غاية في الفخر لا تكاد تفوق فيه عليها غيرها فلا عَجَبُ أن
بنى تغلب لم تزلْ تعظمها جداً يرونها صغارها وكبارها في القرن الثالى
لظهور الإسلام حتى قال بعض الشعراء يهجوهم ^(١) :

أَلْهَى بَنَى تَغْلِبٍ عَنْ كُلِّ مَكْرَمَةٍ قَصِيدَةً قَالَهَا عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ
يُفَاخِرُونَ بِهَا مُذْ كَانَ أَوْلَاهُمْ يَا لَلرَّجَالِ لِفَخْرِ غَيْرِ مَشْهُومٍ
ومما تنفرد به معلقتنا الحارث وعمرو عن أغلب سائر قصائد الجاهلية أن
مُعْظَمَهَا يدور على الموضوع الأساسى فلا تبقى فيهما للغزل والوصف وسائر لواحق
القصائد إلا أبيات قليلة جداً . ثم تنشأ بهان أيضاً خلافاً للمعلقات الأخرى
لأن صاحبيهما كأنهما يقولان الشعر باسم قومهما جميعاً وهما يخاطبان ملكاً
ذا شأن عظيم ولا يدخلان في أمورهما أو أهوالهما الشخصية ما عدا النسب
الذى تبتدى القصيدتان به .

وفي السنين العشرين الأخيرة من القرن السادس للمسيح قال عنتر بن
شداد العبسى معلقته في الفخر والحماسة وصف فيها فضله وأفعاله المجيدة
في الحرب وبسالته في القتال وقدر ما أهان هائل الأخطار والموت . كيف
لا وهو من أشجع العرب وأعلام همة وأعزهم نفساً ضرب به الأمثال وأخذ
كأنموذج الفنى الكامل المروعة والشجاعة فلم يزل صيته يطير في كل الأنحاء
لما أُلِف فيه من القصص والروايات العجيبة المتداولة بين العوام حتى الآن
المعروفة بسيرة عنتر . وديوان أشعاره أيضاً كله فخر وحماسة مع العرض

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن تيمية ص ١٢٠ من طبعة ليدن ، والبيتان مرويان أيضاً في
الأغانى ج ٩ ص ١٨٣ من طبعة بولاق وكتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٢٠٤ من طبعة غوتنبرج
سنة ١٨٥٤ .

فيه عن توحش الشنفرى وعن كل تنافر الألفاظ. وخشونة المعاني .

ونحو سنة مئمة للمسيح أى اثنتين وعشرين قبل الهجرة أنشد زهير
ابن أبي سُلَيمٍ المُرَنيّ معلقته بمدح فيها هَرَمِ بنِ سنانٍ والحارث بن عوفٍ
من سَرَوَاتِ العرب اللذَيْنِ بنَحْمَلِهما أغياء الدية أزالا الحرب^(١) وأتمّ الصلح
بين قبيلَتَيْ عَبَسٍ وذُبْيَانٍ . ويبحث الناس على الخير والمحبة . وهذه المعلقة
تختلف عن المعلقات السابق ذكرها لما تحويه من عبارات الحلم والورع ومن
النصائح والحكم تجذب زهير فيها رقى سائر أشعاره عن الوحشية والفخر .
فأحسن ما قيل فيه أنه لم يمدح أحداً إلا بما فيه . قال أبو منصور الثعالبيّ
المتوفى سنة ٤٣٨ هـ في كتاب خاص الخاص^(٢) : «إنه أجمع الشعراء للكثير
من المعاني في القليل من الألفاظ . وأبياته التي في آخر قصيدته التي أولها
• آمِنَ أَمْرٍ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ • تُشْبِهُ كَلَامَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ وَهِيَ خُرَّةٌ حِكْمِ الْعَرَبِ وَنَهَايَةٌ فِي الْحُسْنِ وَالْجَوْدَةِ تَجْرَى مَجْرَى الْأَمْثَالِ
الرَّائِعَةِ الرَّائِقَةِ وَهِيَ^(٣) :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْتَخُلْ بِفَضْلِهِ	عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَفَنَ عَنْهُ وَيُلْذَمَ
وَمَنْ يَفْشِرْ بِبَخْسٍ عَدُوًّا صَدِيقَهُ	وَمَنْ لَا يَكْرِمْ نَفْسَهُ لَا يُكْرَمَ
وَمَنْ لَا يَذُّدُ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ	يُهْذَمُ وَمَنْ لَا يَغْلِيْمُ النَّاسَ يُظْلَمَ
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ	وَلَوْ خَالَهَا تَعْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمَ
وَمَنْ لَا يُصَانِعُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ	يُضْرَرُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسِمٍ

فترون من كل ما تقدم كم فرق بين أكثر أشعار زهير وبين أكثر أشعار

(١) يعنى الحرب المعروفة بحرب داحس والبراء .

(٢) كتاب خاص الخاص ص ٧٥ من طبة مصر ١٣٢٦ وانظر أيضاً كتابه الإعجاز والإيجاز

ص ٣٧ من القسطنطينية سنة ١٣٠١ .

(٣) هكذا روى أبو منصور الثعالبي الأبيات في كتابه المذكور فليراجع معلقة زهير .

السابقين له كَانَ زهيراً أَحْسَنَ بِتَقَرُّبِ عَهْدٍ جَدِيدٍ أَغْنَى عَهْدَ الْإِسْلَامِ الَّذِي
بَدَّلَ فِيهِ التَّوَحُّشُ وَالْجَهْلُ الْقَدِيمَ بِتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَالْعِلْمِ . - وَمَعْنَى اتَّبَعَ
مِنْ هَذِهِ الْجَهَّةِ طَرِيقَةَ زَهِيرٍ وَنَظَمَ فِي شِعْرِهِ دُرُورَ الْمَوَاعِظِ وَالْحِكَمِ وَالتَّأَمَّلِ لِبَيْدِ
ابْنِ رَبِيعَةَ الْعَامِرِيِّ الَّذِي أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ فِي عَهْدِهِ إِلَّا بَيْتاً وَاحِداً
اختلفت الرواة فيه . ومات على القول المرجح سنة ٦٦١/٦٦٢ وهو كبير السن
وَأَلَّفَ مَعْلَقَتَهُ بَيْنَ سَنَةِ ٦١٠ وَ ٦٢٥ م تقريباً . ومن طالعها وجد فيها الفخر
بيد أن هذا الافتخار ليس بالشجاعة والأفعال العربية مثل ما ورد في معلقة
عنتره بل إنما هو بالمكرّمات ومكارم الأخلاق ، ومن المشهور ما في ديوانه من
العبارات الدينية بل الشبيهة بالعقائد الإسلامية مثل (١) (من بحر الرمل) .

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرٌ نَفَلٌ وَبِإِذْنِ اللَّهِ دَيْتِي وَعَجَلٌ
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا يَدُّ لَهُ بِيَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلٌ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ أَهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُّ

ولكن ليس كل ما يُنسب إليه في ديوانه من هذا الباب صحيحاً بل
لا اختلاف في بعض الأشعار أنها مصنوعة .

إِنَّ أَصْحَابَ الْمَعْلَقَاتِ السَّتِّ (أى ما عدا معلقة طرفة) أشعرُ الشعراء
من الصنف الأول مع أن شعراء آخرين نبغوا في عهدهم في قبائل العرب
فوصلت إلينا جملة من مآثرهم . منهم عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ وَهُوَ عَيْدِيُّ مَثَلِ عُنْتَرَةَ

(١) ديوان بيد المطبوع بليدن سنة ١٨٩١ عدد ٢٩ بيت ١ - ٣ .

(٢) ديوان عروة بن الورد المطبوع بنوتنجن سنة ١٨٦٢ عدد ٣ بيت ١٣ - ٢١ . والأبيات
مروية أيضاً في الأصمعيات عدد ٢١ (ص ٢٩ - ٣٠ من طبعة برلين سنة ١٩٠٢) وسجاسة أبي تمام
ص ٢٠٨ - ٢٠٩ من طبعة بن (أر ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ من طبعة بولاق) وخزانة الأدب ج ٤
ص ١٩٤ - ١٩٦ من طبعة بولاق ١٢٩٩ . - وما يفل على كراهة العرب للعمل اليدري بيت جرير في
ديوانه ج ١ ص ١١٧ سطر ١٢ من طبعة مصر سنة ١٢١٣ [ج ١ ص ٢٦٢ سطر ٨ من طبعة مصر
١٣٥٤] .

ومات قُبِيلُ الإسلام . واشتهر مثل عنترة بالشجاعة والفضل ، ومن أحسن شعره أبيات وصف فيها فضيلة الفقير الحرّ الباسل وذمّ الذي يُسْتَأْجَرُ شُغْلُهُ (١) :

لَحَى اللَّهُ صُعْلوكًا إِذَا جَنُّ لَيْلُهُ مُصَارِي المُشَاشِ أَلِفًا كُلَّ مَجْزَرٍ
يَعُدُّ الغنى مِنْ دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاحًا مِنْ صَدِيقٍ مُبَشِّرٍ
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ طَاوِيًا يَحُبُّ الحصى عَنْ جَنْبِهِ المَتَكْفِرُ
قَلِيلَ التِّمَاسِ الزَّادِ إِلَّا لِنَفْسِهِ إِذَا هُوَ أَدْنَى كَالْعَرِيضِ المُجَوِّرُ
يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَعِينُهُ فَيُعِينُ طَلِيحًا كَالْبَعِيرِ المَحْشَرُ
وَلَكِنْ صُعْلوكًا صَحِيفَةً وَجْهَهُ كَضَوْءِ شُهَابٍ القَابِيسِ المُنْتَوِرُ
مُطِلًّا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ المَنِيحِ المَشْهُرُ
فَلَنْ يَبْعُدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ فَشَوَّفَ أَهْلَ الْغَائِبِ المُنْتَظَرُ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى المَيِّتَةَ يَلْقَاهَا حَمِيدًا وَإِنْ يَسْتَفِنِ يَوْمًا فَمُجْدِرُ

ومن الشعراء المجيدين حاتم بن عبد الله الطائي المصروب المثل بجوده الوافر. فقبل إن بنته وصفته بين يدي النبي على هذه الصفة : « كان أبي يَفُكُّ العاني وَيَحْمِي الثَّمارَ وَيَقْرِي الضَّيفَ وَيُشْبِعُ الجائعَ وَيُفْرِجُ عن المَكْرُوبِ وَيُطْعِمُ الطَّعامَ وَيُغْنِي السَّلامَ ولم يَرُدُّ طَالِبَ حَاجَةٍ قَطُّ. » (١) . وقال ابن الأعرابي إنه « كان جَوَادًا يُشْبِهَ شعره جُودُهُ وَيَصْدَقُ قولُه فعلُهُ إِذَا غَنِمَ أَنِيبَ وَإِذَا سُئِلَ وَهَبَ . . . وَإِذَا أَسْرَ أَطْلَقَ » (٢) . عاش بعد منتصف القرن السادس للمسيح وأدرك أوائل السابع وله ديوان مشهور إلا أن في صحفة بعض أشعاره نظرًا فظاهر أن أبياتاً مجهولاً اسمُ مُنْشِدِهَا إنما حُزِبَتْ إلى حاتم لما فيها من مدح الجود والكرم .

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٩٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٩٧ - ٩٨ من طبعة بولاق .

وممن كان بعد منتصف القرن السادس الألفه الأودى سيد قومهم وقائدهم
في حروبهم على العرب من حكمائها لما ورد من الحكيم في أبياته منها ^(١)
(من بحر البسيط) :

لا يصلح الناس قوصى لاسراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتنى إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
وأن تجمع أوتاد وأعمدة يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

وممن كان وفاته قبل الإسلام بقليل ذو الإصبع العدواني صاحب الغارات
الكثيرة والوقائع المشهورة والحكم والوصايا . ومنهم سلامة بن جندل التميمي
من فرسان العرب الذي يروى عنه ديوان صغير ^(٢) أكثره في الحماسة والفخر
مع شيء جميل من الوصف والتشبيه .

وممن أدرك الإسلام مع وقوع جميع شعره في الجاهلية ذريرد بن الصمة
الجشمي أحد الشجعان المشهورين وذوى الراى الذى شهد يوم حنين
سنة ٦٢٩-٦٣٠ هـ فقتل فيه (وهو كبير السن جداً) فيمن قتل من الوثنيين .
ومنهم أيضاً شعراء غير المذكورين لا فائدة في سرد أسمائهم في هذه النبذة .
وقبل أن نختم الكلام على هذا الصنف الأول من شعراء الجاهلية لا بد
من الإشارة إلى جرى النساء أيضاً من أهل البادية في ميدان الشعر لا سيما
في المراثى فإنهن استنبطن في هذا الباب أساليب بديعة لم يتنبه لها الفحول

(١) الأبيات مروية في العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٥ من طبعة مصر ١٣٠٢ . وروى
القالى في أماليه القصيدة كلها (راجع ج ٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أو ج
٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ من طبعة مصر ١٣٤٤]) . [أما ديوان الألفه فهو مطبوع في كتاب الطراف
الأدبية بمصر سنة ١٩٣٧] .

(٢) - [من بطمه المشرق Huart في المجلة الفرنسية, *Journal Asiatique*, série X
vol. 15, 1910, P. 71-105 والأب لويس شيخو في بيروت سنة ١٩٢١] .

لَمَّا طُبِعْنَ عَلَيْهِ مِنْ رِقَّةِ الطَّبَاعِ وَشَلَّةِ الْجَزَعِ فِي الْمَصَائِبِ وَصَدَقَ الْحِسُّ
فِيُبْرِزْنَ عَوَاطِفَهُنَّ بِشَعْرِ سِلَاسٍ وَكَلَامٍ لَيْنٍ قَرِيبٍ الْمَأْخَذِ يَكَادُ يَسْبِلُ رِقَّةً
وَالنَّسْجَامَ^(١) . فَتَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَبَّ لَوَيْسَ شَيْخُو أَفْرَدَ لَهُنَّ كِتَاباً جَمَعَ فِيهِ
كُلَّ مَا تَبَسَّرَ لَهُ مِنْ مَرَاتِي إِحْدَى وَسِتِّينَ شَاعِرَةً مِنْ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَدَا
دِيَوَانَ الْخَنْسَاءِ الَّتِي نَشَرَهُ عَلَى حِدَةٍ^(٢) . أَمَّا أَشْعَارُ الْخَنْسَاءِ فِي رِثَاءِ
أَخَوَيْهَا صَخْرٍ وَمَعَاوِيَةَ فَشَهِيرَةٌ قَالَتْهَا جَمِيعُهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ مَعَ أَنَّهَا أُدْرِكَتْ
خِلَافَةَ عُمَرَ^(٣) .

٢- فلننتقل إلى الصنف الثاني من شعراء الجاهلية أعنى إلى الشعراء
الوثنيين الذين لازموا أبواب ملوك الحيرة وغسان وملحوم وامتنعوا عن خشونة
أهل البادية لتقرّبهم من أحوال سكّان المدن والرفاهية والترّف . فمَدَحُهُمْ
للملوك ليس كمَدَحِ شعراء الصنف الأول لسادة قومهم لما أدخلوا فيه من إفراط
المَلَقِ وافتخارهم بالحماسة ليس إلّا قليلاً ووصفهم يجرى أحياناً في مجالٍ
مختلف عن مجال وصف أهل البراري ، والفزل وذكر الخمر في قصائدهم يتبعان
مذهب أهل المدن . وربما أخذوا عن نصارى الحيرة وغسان معاني وعبارات
دينيّة جديدة لم يسبق إليها أحد شعراء الصنف الأول .

لكان زهير بن جَنَابِ الكلبي من أقدم شعراء الصنف الثاني لو صحّت
قطعة شعر منسوبة إليه وردت في كتاب الأغاني لأبي الفرج على الأصفهاني^(٤)

(١) رياض الأدب في مرآة شواجر العرب للأب لويس شيخو ص ١ من طبعة بيروت
سنة ١٨٩٧ .

(٢) بيروت سنة ١٨٨٦ وطبع أيضاً ديوان الخنساء في بيروت سنة ١٨٨٨ و ١٨٨٩ (ويليهِ
الترجمة الفرنسية) وفي مصر سنة ١٨٨٨ و ١٣٢٦ [و ١٣٤٨] .

(٣) وفي الخنساء راجع G. GABRIELI, *I tempi la vita ed i concetti della poesia araba*
al-Khansa' Firenze 1899 (2 ed., Roma 1944); N. RHODOKANAKIS, *al-Khansa' und ihre*
Trauerlieder, Wien 1904 .

(٤) الأغاني ج ٢١ (المطبوع بليدن سنة ١٣٠٦ و ١٨٨٨ م) ص ١٠٠ .

وفي كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني^(١) المتوفى فيها بين سنتي ٢٥٠ و ٢٥٥ وفي عدة كتب أخرى :

لَقَدْ عُمِّرْتُ حَتَّى لَا أَبَالِي أَحْتَفِي فِي صَبَاحِي أَوْ مَسَائِي
وَحَقٌّ لِمَنْ أَنْتَ مَائَتَانِ عَامًا عَلَيْهِ أَنْ يَمَلَّ مِنْ الشَّوَاءِ
شَهِدْتُ الْمَوَقِّعِينَ عَلَى خَزَازِي وَبِالسَّلَانِ جَمْعًا ذَا زُهَاءِ
وَنَادَمْتُ الْمُلُوكَ مِنْ آلِ عَمْرِو وَبَعْدَهُمْ بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ

والمراد بآل عمرو على المحتمل ملوك كِنْدَةَ أَيْ بَنِي عَمْرِو بْنِ حُجْرٍ وَالْمَرَادُ بِبَنِي مَاءِ السَّمَاءِ الْمُنْدَرِ بْنِ مَاءِ السَّمَاءِ الَّذِي تَوَلَّى مُلْكَ الْحَبِيرَةِ مِنْ سَنَةِ ٥٠٥ هـ أَوْ ٥٠٦ م إِلَى شَهْرِ يُونِيُو سَنَةِ ٥٠٤ م . ولكن مع قطع النظر عما في صحة تلك الأبيات من الشك لا نجد فيها نقل إلينا من أشعاره وأخباره شيئاً غير هذه الأبيات يدل على ملازمته ملوك الحيرة بل إن شعره شعر بدوي محض كما يصلح لمن قيل إنه « كان سيّد بني كَلْبٍ وقائدهم في حروبهم وكان شجاعاً مظهرًا ميمون النقيية في غزواته »^(٢) .

فأول من نتحقق ملازمته ملوك الحيرة من الشعراء الوثنيين عبّيد بن الأبرص الأسديّ مجالس المنذر بن ماء السماء السابق ذكره . وشعره سليس اللفظ . ووصفه مصيب وهو يفتخر أحياناً على منوال أهل البادية فلمّا قُتِلَ والد امرئ القيس الشاعر عبّيد بن أسد ورثاه امرؤ القيس وقال إنه يأخذ ثأر أبيه بقتل جُمّة من الأسديين أنشد عبّيد في قصيدة طويلة^(٣) :

(١) كتاب المعمرين ص ٢٦ - ٢٧ من طبعة ليدن ١٨٩٩ . أما خزازي والسّلان فهما من أيام العرب قبل حرب البسوس بقليل أي في أواخر القرن الخامس للميلاد .
(٢) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٩٣ - ٩٤ . [وفي حمة شعر زهير بن جناب نظر فليراجع ما قال الأب Larumens في كتابه المسمى [*Le darsac de l'Islam*, Roma 1914, P. 319-321]
(٣) دريت الآيات في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤٣-١٤٤ من طبعة ليدن ١٩٠١ والأغاني ج ١٩ ص ٨٥ من طبعة بولاق [وديوان عبّيد قصيدة عدد ١٧ بيت ١ إلى ٧ من طبعة ليدن ١٩١٢] .

يا ذا المُخَوِّفَنا بَقَّةً لَ أَبِيهِ إِذْ لَاحَ وَحَيَّنَا
 أَزَعَمْتَ أَنَّكَ قَدْ قَتَلْتَ مَتَ سَرَائِنَا كَنَبًا وَمَيَّنَا
 هَلَّا عَلَى حُجْرٍ بَنٍ أُمُّ قَطَامٍ تَبْكِي لَا عَلَيْنَا
 إِنَّا إِذَا عَضُّ الثِّقَا فُ بِرَأْسٍ صَعَلَتْنَا لَوَيْنَا
 نَحْمَى حَقِيقَتَنَا وَبَةً فُ الْقَوْمِ يَحْقُطُ بَيْنَ بَيْنَا
 هَلَّا سَأَلْتَ جُمُوعَ كَيْدِ لَمَّةٍ يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنَا
 أَيَّامَ نَضْرِبُ هَامَهُمْ بِبَوَاتِرٍ حَتَّى أَنْحَنِينَا

ولكن أكثر ما وصل إلينا من شعره يعجى في الحكمة والاعتبار فمن هذا الباب مُعْظَمُ قصيدته البائية الشهيرة التي عدّها بعض اللغويين من المعلقات. وفيها أيضاً من الوصف ما يدلُّ على معرفة الشاعر بنهر الفرات وتُرْعِيهِ القريبة من الحيرة حين قال في اللامع (١):

« أَوْ قَلَجَ بِبَطْنٍ وَادٍ لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهِ قَسِيبُ
 أَوْ جَدَوَلٍ فِي ظِلَالِ نَحْلِ لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهِ سُكُوبُ

فظاهر أنَّ هذا الوصف لا يوافق أحوال أقاليم جزيرة العرب المتوسطة التي ليس فيها أنهار . وصبيدُ أمر الملك المنذر بن ماء السماء بقتله في حكاية مشهورة بطول ذكرها هنا (٢) .

وممن جالس عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٦٨ أو ٥٦٩) طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ أحد أصحاب المعلقات السبع وأقلهم عُمرًا لأنَّه قُتِلَ بِأَمْرِ الْمَلِكِ وَهُوَ ابْنُ سِتٍّ وَعِشْرِينَ سَنَةً . وهو يفتخر في شعره بشرب الخمر أكثر منه بالشجاعة

(١) كتاب شرح القصائد العشر . . . تصنيف أبي زكرياء . . . الجبريزي طبعة كلكتة سنة ١٨٩٢ - ١٨٩٣ بيت ٩ و ١٠ من شعر عبيد [وديوان عبيد قصيدة عدد ١ بيت ٩ و ١٠] .

(٢) [راجع في عبيدقالة الأستاذ FRANCESCO GABRIELI المصنف La poesia di 'Abid Ibn al-Abras

Rendiconti dell' Accademia d'Italia, classe scienze morali, serie VII, vol. I, Roma

1940, P. 240-251.]

والحماسة ويعتبر زوال كلِّ أمور الدنيا كما يعتبره لبيد ولكنه لا يستنتج من ذلك الاعتبار وجوبَ الزهد فإنَّما يقصِدُ لذات العيش . وفي معلقته أبيات تدلُّ على قربه من الفرات والبحر (من الطويل) (١) :

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوَّةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ
عَدَوْلِيَّةٍ أَوْ مِنْ سَفِينِ بْنِ يَامِينَ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التَّرْبُ الْمُفَائِلُ بِالْيَدِ
وَفِي نَفْسٍ مَعْلُومَتِهِ عِنْدَ وَصْفِ نَاقَتِهِ قَالَ (٢) :

وَأَتْلَعُ نَهَاظُ إِذَا صَعِدَتْ بِهِ كُسُكَا نِ بَوْصَى بِدَجَلَةٍ مُصْعِدِ
وَمِنْ حَامِلِ لَوَاءِ الشَّعْرِ أَبْضًا الْمُتَلَمِّسُ خَالُ طَرْفَةٍ وَحَكَايَتِهِ مَعَ الْمَلِكِ عَمْرُو
ابْنِ هِنْدٍ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ أَذْكُرَهَا . وَعَاصِرُهُ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ التَّمِيمِيُّ الَّذِي قَالَ
فِيهِ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ (٣) : « كَانَ أَوْسٌ فَعَلَّ مُضَرَّ حَتَّى نَشَأَ النَّابِغَةُ
وَزُهَيْرٌ لَأَخْمَلَاهُ » . وَقَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ : « وَكَانَ أَوْسٌ عَاقِلًا فِي شَعْرِهِ كَثِيرِ
الْوَصْفِ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَهُوَ مِنْ أَوْصَفِهِمْ لِلْحُمْرِ وَلَا سِيَّمَا لِلْقُوسِ وَسَبَقَ
إِلَى دَقِيقِ الْمَعَانِي وَإِلَى أَمْثَالِ كَثِيرَةٍ » . وَإِذَا أَطْلَعْنَا عَلَى مَا نُقَلِّ إِلَيْنَا مِنْ شَعْرِهِ
وَجَدْنَاهُ غَيْرَ بَعِيدٍ مِنْ أَسْلُوبِ شُعْرَاءِ الصَّنِيفِ الْأَوَّلِ الْمَعَاصِرِينَ لَهُ مَعَ تَقَرُّبِهِ
مِنَ الْمُلُوكِ وَالْمَدَن . وَمِنَ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّهُ رُبَّمَا اسْتَعْمَلَ فِي أَبِيَائِهِ
عِبَارَاتٍ أَقْرَبَ لِلدِّينِ النَّصَارَى مِنْهَا لِلْمَذَاهِبِ الْوُثْنِيِّينَ ثُمَّ إِنَّ زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلَيْمٍ
كَانَ رَاوِيَّ شَعْرِهِ .

ولكن الذي فاز في قريضه بالرتبة العليا من شعراء ملوك الحيرة وغسان
وكان من أبرز المبرزين في ميدان الشعر هو النابغة الذبياني فقدَّمه بعض

(١) معلقة طرفة بيت ٣ إلى ٥ .

(٢) معلقة طرفة بيت ٢٨ .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٩ من الطبعة اليدوية .

أهل الأدب والشعر على امرئ القيس^(١) وقالوا إنه أوضح الشعراء القدماء معنى وأبعدهم غاية وأكثرهم فائدة^(٢). وقيل أيضاً إنه «أحسنهم»^(٣) ديباجة شعر وأكثرهم روتق كلام وأجزلهم بيتاً كان شعره كلاماً ليس فيه تكلف ونبغ بعد ما احتسبك وملك قبل أن يهتتر^(٤). - كان مع المنذر بن ماء السماء (نحو ٥٠٦ - ٥٥٤ م) والمنذر بن المنذر (نحو ٥٧٦ - ٥٨٠ م) وأبي قابوس النعمان بن المنذر (نحو ٥٨٠ - ٦٠٢ م) فلماً وثق به إلى النعمان هرب منه إلى عمرو بن الحارث من ملوك غسان في الشام ومدحه بقصائد مشهورة ذكر فيها شجاعة الغسانيين في الحرب وكثرة من يقتلونهم من الأعداء^(٥) :
 إذا ما غزوا بالجيش خلّق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب
 لهم يستاقون المنية بينهم بأيديهم بيض رفاق المضارب
 ووصف فيها أيضاً ما كان لهم من الترف والرّفه^(٦) :

محلّتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب
 رفاق النعال طيب حُجُراتهم يُحبون بالريحان يوم السباسب
 تحييتهم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضرع فوق المشاحب
 يصونون أجساداً قديماً نعيمها بخالصة الأزدان خضر المناكب

(١) [راجع أيضاً كتاب فعلة الشعراء للأصمى المطبوع في *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, LKV, 1911, P. 499.]

(٢) جبهة أشعار العرب ص ٢٦ من طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ - ١٣١٠.

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٠ من طبعة لندن. - واحتك : أحكمه التجارب أي جعله حكماً. وأهتر : فقد عقله من الكبر والمرض.

(٤) ديوان النابغة الذبياني عدد ١ بيت ١٠ و ١٧ من طبعة لندن ١٨٧٠ (*The Diwan of the Arabic Poets*) وعدد ٣ بيت ١٠ و ١٧ من طبعة باريس ١٨٦٩ و ص ٤٣ و ٤٤ من طبعة مصر سنة ١٣٢٨ [وانظر ما قاله في هذه الطبعة الأستاذ نلينز في *Raccolta di scritti editi e inediti*, vol. III, Roma 1941, P. 174-176].

(٥) ديوان عدد ١ بيت ٢٤ إلى ٢٩ من طبعة لندن أو عدد ٣ أبيات ٢٤ إلى ٢٩ من طبعة باريس ١٨٦٩ أو ص ٤٥ من طبعة مصر ١٣٢٨.

ولا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرٌّ بَعْدَهُ ولا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةً لَا زَبٍ
 حَبَوْتُ بِهَا غَسَّانَ إِذْ كُنْتُ لَاحِقًا بِقَوِيٍّ وَإِذْ أُغِيَتْ عَلَى مَذَاهِبِي
 فترون ما بين هذا المدح وبين مدح شعراء البادية من اليون الشاسع .
 وبعد إقامة سنين عند بنى غَسَّانَ رَجَعَ إِلَى الْحِيرَةِ وَجَالَسَ الْمَلِكَ النُّعْمَانَ
 ثَانِيَةً إِلَى مَوْتِ الْمَلِكِ سَنَةَ ٦٠٢ م ثُمَّ عَاشَ فِي قَبِيلَةِ ذُبْيَانَ وَمَاتَ قَبْلَ ظَهْرِ
 الْإِسْلَامِ . وَوَصَفَ بِدِيْعِ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِيُّ فِي مَقَالَتِهِ الْأُولَى ^(١) شَعْرَ النَّابِغَةِ
 فَقَالَ : « يَنْسِبُ إِذَا عَشِقَ وَيُثْلِبُ إِذَا حَنَقَ وَيَمْدَحُ إِذَا رَغِبَ وَيَعْتَذِرُ إِذَا
 رَهَبَ » . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : ^(٢) « كَفَاكَ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَرْبَعَةُ زَهِيرٍ إِذَا طَرَبَ
 وَالنَّابِغَةِ إِذَا رَهَبَ وَالْأَعَشَى إِذَا غَضِبَ وَعَنْتَرَةُ إِذَا كَلِبَ » - أَمَّا مَا يُلَامُ
 النَّابِغَةَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ فَحُولِ الشُّعْرَاءِ لَمْ يَقُلْ الشَّعْرَ إِلَّا طَمَعًا فِي الْكَسْبِ .
 قَالَ ابْنُ رَشِيْقٍ الْقَيَّرَوَانِيُّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٤٦٣ فِي كِتَابِ الْعَمْدَةِ ^(٣) : « كَانَتْ
 الْعَرَبُ لَا تَتَكَسَّبُ بِالشُّعْرِ وَإِنَّمَا يَصْنَعُ أَحَدُهُمْ مَا يَصْنَعُهُ فُكَاهَةٌ أَوْ مَكَافَأَةٌ عَنْ
 يَدٍ لَا يَسْتَطِيعُ عَلَى آدَاءِ حَقِّهَا إِلَّا بِالشُّكْرِ إِعْظَامًا لَهَا . . . حَتَّى نَشَأَ النَّابِغَةُ
 الدَّهْيَانِيُّ فَمَدَحَ الْمُلُوكَ وَقَبِلَ الصَّلَةَ عَلَى الشُّعْرِ وَخَضَعَ لِلنُّعْمَانَ بْنِ الْمُنْذَرِ
 وَكَانَ قَادِرًا عَلَى الْامْتِنَاعِ مِنْهُ بِمَنْ حَوْلَهُ مِنْ عَشِيرَتِهِ أَوْ مَنْ سَارَ إِلَيْهِ مِنْ مَلُوكِ
 غَسَّانَ فَسَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ وَتَكَسَّبَ مَا لَا جِسِيًّا حَتَّى كَانَ أَكَلُهُ وَشُرْبُهُ فِي صِيحَافِ
 الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَوَانِيهِ مِنْ عَطَاءِ الْمُلُوكِ . وَتَكَسَّبَ زَهِيرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ بِالشُّعْرِ
 يَسِيرًا مَعَ هَرَمِ بْنِ سِنَانٍ . فَلَمَّا جَاءَ الْأَعَشَى جَعَلَ الشُّعْرَ مُتَجَزِّيًا يَتَحَرُّ بِهِ
 نَحْوَ الْبُلْدَانِ » .

وَالْأَعَشَى هَذَا هُوَ مَيْمُونُ بْنُ قَيْسٍ مِنْ شُعْرَاءِ الصَّنْفِ الثَّانِي أَيْضًا الْمَشْهُورُ

(١) ص ٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩ .

(٢) جُمُهورية أشعار العرب ص ٢٦ من طبعة بولاق والزهر البيوطي ج ٢ ص ٢٩٧ من طبعة مصر

١٣٢٥ .

(٣) كتاب العمدة ج ١ ص ٤٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

برقة شعره انقطاً وتفننه بحراً ، نادم ملوك الحيرة . وكثر شعره في وصف التميان
والخمر كأنه من شعراء عصر العباسيين الأول في زمان هارون الرشيد . وفي
أبياته أيضاً أقوال تتقرب من اعتقادات النصارى فجاء في ذلك في كتاب
الأغاني^(١) ، ما نصه : « قال لي يحيى بن متى راوية الأعشى وكان نصرانياً
عبادياً وكان معمرًا قال كان الأعشى قَدَرِيًّا وكان لبيد مشبهاً قال لبيد :
من هداه سُبُلُ الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أَضَلَّ
وقال الأعشى :

إِسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ وَبِالْحَدَلِ وَوَلَّى الْمَلَامَةَ الرَّجُلَا^(٢)

فست فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال من قبل العباديين نصارى
الحيرة كان يأتيتهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك . - وأدرك الأعشى
الإسلام فقصيدته الجميلة التي مدح فيها النبي مشهورة .

مَنْ يَدْخُلُ جَزْيِيًّا فِي الصَّنْفِ الثَّانِي مِنْ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ لِلْمَلَاظِمَةِ . ملوك
بنى غسان مدة سنين وذلك قبل الهجرة النبوية هو حسان بن ثابت المأود
بيشرب (المدينة) المتوفى سنة ٤٥ هـ بعدما طعن في السن . فإن أجمل شعره
ما قاله في الجاهلية واصفاً ملاذ عيشته في جلتي وغيرها من قرى الشام رمادحاً
الملوك الغسانيين الذين كان يفرد عليهم لينال منهم الهدايا والعجائز .
وفي كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠ أو ٢٧٦ ما نصه^(٣) :
« قال الأصمعي الشعرُ نَكِدٌ بَابُهُ الشَّرُّ فَإِذَا دَخَلَ فِي الْخَيْرِ ضَعُفَ . هذا
حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره .

(١) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٧٩ من طبعة بولاق .

(٢) استأثر به : استبد به ونص به - ولَّى : جعله والياً عليه .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٠ من طبعة ليدن .

وقال مرة أخرى شعرُ حَسَّان في الجاهليَّة من أجود الشعر فُتُطِعَ مِنهُ في الإسلام لحال النبي صلعم ^(١). ومن جيّد شعره وأشهره قصيدة أولها «أسألت رَسَمَ الدارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ» ^(٢) مدح فيها ملوك بني غَسَّان ووصف لذيذ عيشه في الشام واقتخر بعشيرته من الخَزَرَج . وهي لينة الألفاظ . أسهلُّ فهمًا من قصائد شعراء الصنف الأول بكثيرة وفيها من المدح ما يليق بملوك أهل المَدَر المتتمِّعين بأنواع التَّرف والرِّفاهية ثم إن إطناب الشاعر في وصف الخمر يبعد عن أسلوب شعراء أهل البادية كما يبعد عنه أيضاً الافتخار بقومه المقصور في بلاغة خطّابهم ووقّدهم على أبواب الملوك . - أمّا أشعار حَسَّان في عهد الإسلام فهي على نَمَط. غير هذا فَمِثَالِي الكلام عليها فيما بعد إن شاء الله .

٣- وهذا أوّان ذكر الصنف الثالث من الشعر الجاهليّ أعنى شعر

النصارى المقيمين في مملكة اللخميّين بالحيرة وما يليها وفي مملكة بني غَسَّان فيما بين الشام والبادية . - لا يخفى عليكم أنّ الأب لوييس شيخو بما له من اليد الطولى في الآداب العربيّة نشر سنة ١٨٩١ م في بيروت القسم الأوّل من كتابه المسمّى بشعراء النصرانيّة وهو عبارة عن مجلد ضخّم جمع فيه من عدّة كتب جملة وافرة من أشعار عهد الجاهليّة زاعماً أنّ أصحابها كانوا يدينون بدين النصارى . ولكنّه بالغ في ظنّه هذا أيّ مبالغة كأنّه زعم نصرانيّاً كلّ شاعر جاهليّ لم يوصف صريحاً باليهوديّة وورد في شعره شيء مما يتقرّب

(١) وهذا الحكم الذي أثرت فيه كراهة بعض أهل الدين للشعر يوافق قول أبي منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٠ في كتاب غصن الخواص ص ٨٠ من طبعة مصر سنة ١٣٢٦ « من عجائب أمر حسن أنه كان رضي الله عنه يقول للشعر في الجاهلية فيجيد جداً ويشير في نواحي الفحول ويدعي أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كمادة الشعراء في ذلك . . . فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان الملك تراجع شعره وكاد يرك قوله ليعلم أن الشيطان أصلح للشاعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك » . [وراجع كتاب الموضح للمرزباني ص ٦٥ من طبعة مصر ١٢٤٣] .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص ٥٧ - ٥٨ من طبعة بمبي سنة ١٢٨١ أو ص ٧٢ - ٧٣ من طبعة تونس سنة ١٢٨١ أو ص ١٦ - ١٧ من طبعة لندن ١٩١١ [أو ص ٣٠٧ - ٣١٣ من طبعة مصر ١٣٤٧] .

من اعتقاد وحدانية الله أو من التأمّلات والاعتبارات الدينية فعّد من النصاري أمراً القيس والنابعة وطرفة ، وغيرهم من شعراء الصنف الأول والثاني الذين لا شك لكلّ منصف في أنّهم من أصحاب الوثنيّة . أمّا المؤكّد المثبت فإنّما هو أنّ دين النصرائيّة ذاع في القرن السابق للهجرة في شمالي جزيرة العرب^(١) فاعتنقه بعض القبائل مثل بني تغلب وقسم غير صغير من بني تميم ففقه الأكرار المقيمين بمملكة بني غسان وأكثر سكّان مدينة الحيرة وتسميت نصاري الحيرة بالعباد^(٢) ولعلّ المقصود عباد الله أو عباد المسيح ، ونصرائيّتهم (وهي على مذهب النسطورية) قديمة لأنّنا نعرف أسماء أساقفة الحيرة من سنة ٤١٠م تقريباً إلى نحو سنة ٦٠٤م . — ومن أقدم شعراء النصاري الذين وصل إلينا شيء من أشعارهم أبو ذؤاد الإبادي قد ولّاه المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (نحو ٥٠٦ - ٥٥٤م) على نخيله فكان وصافاً للخيل وأكثر أشعاره في وصفه ، وله في غير وصفه تصرف بين مدح وفخر وغير ذلك إلا أنّ شعره في وصف الفرس أكثره^(٣) . ولانّت ألفاظه لقربه من حضارة ريف الفرات ، وبعد شعره عن أساليب عرب البادية . — وأشهر منه عديّ بن زيد العبادي^(٤) من عائلة قديمة بالحيرة تعلّم الفارسيّة وتولّى الأمور العربيّة بديوان كسرى

(١) انظر ما قاله في هذا الموضوع الأستاذ فليبو في ج ٣ ص ١٢١ - ١٦٨ من كتابه

Raccolta di scritti editi e inediti, Roma 1941.

(٢) راجع G. ROTHSTEIN, *Die Dynastie der Lakhmiden in al-Hira*, Berlin 1899, P. 19-28

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٩٥ من طبعة بولاق — أما أبيات له فهي مروية في حسانة

البحريّ ص ١٢١ من طبعة لندن أو ص ٨٧ عدد ٣٩٦ من طبعة بيروت سنة ١٩١٠ (وفي هذه لأبيات

يذكر الشاعر السلف من الناس) والأصمعيّات عدد ٢٩ ص ٢٧ - ٢٨ (١٥ بيتاً في الطرد)

وعدد ٧٢ ص ٦٨ - ٧٠ (٤٠ بيتاً) من طبعة برلين ١٩٠٢ وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١١٨

من طبعة مصر ١٣٢٢ - ١٣٢٥ .

(٤) راجع J. HOROVITZ, 'Adi ibn Zaid the poet of al-Hira' (*Islamic Culture*,

P. 51-59); F. GABRIELI, 'Adi ibn Zaid il poeta di al-Hira' (*Rendiconti Accademia dei Lincei classe scienze morali, VIII serie, serie, vol. III, 1948, P. 81-96*).

أَبْرُويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) من ملوك بني ساسان بالمدائن فأرسله مرة كسرى إلى ملك الروم بهدية من طَرَفه ثم استدعاه النعمان بن المنذر (نحو ٥٨٠ - ٦٠٢ م) من المدائن إلى الحيرة وولاه على جميع أمور المملكة إلى أن قتله لما وُشيت إليه به الحُساد . وشعره أقرب إلينا من شعر أهل البادية وأهل سهل فهماً فلذلك لم يعتد علماء اللغة العربية من الفحول « وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان : عدى بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم ^(١) يعارضها ولا يعجزى معها مجراها ^(٢) . وعلى قول الأصمعي « كانت الرواة لا تروى شعر أبي دؤاد ولا عدى بن زيد لمخالفتهما مذاهب الشعراء ^(٣) » أو كما قيل « لأن ألفاظه ليست بنجدية ^(٤) . والحق يقال إن الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ كثيراً ما روى أبياتاً لعدى بن زيد في كتاب المعرب وذلك دليل قاطع على تأثير الحضارة الآرامية والفارسية في كلام عدى ومعاني شعره . وهو يخالف أيضاً شعراء نجد في استنكافه من الأعاريف الطويلة واختياره القصيرة ثم في أسلوب خمرياته الشبيهة بخمريات الأعشى وحسان بن ثابت . ومن المشهور أن الخليفين الأمويين هشام بن عبد الملك (٦٦٠ - ٦٨٠) والوليد بن يزيد (٦٨٠ - ٧٤٤) كانا يُحبَّان سماع شعر عدى بن زيد في الشراب ^(٥) . ولكن مع حبه لوصف القيان والصهباء كعين الديك والصبوح حملة دينه مراراً عديدة على اعتبار زوال أمور الدنيا كلها ، وذكر ما هو قريب من الزهد في بعض قصائده لطيفة قلدها غير مرة المتأخرون فقال مثلاً

(١) يعني الكواكب السيارة .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٩٧ سطر ١٥ - ١٦ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١٥ من طبعة لندن .

(٥) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٦٧ و ج ٦ ص ١٢٢ من طبعة بولاق .

بلسان حال المقابر^(١) : (من بحر الرمل)

مَنْ رَأَا فَلْيُحَدِّثْ نَفْسَهُ أَنَّهُ مَوْفٍ عَلَى قَرْنٍ زَوَالٍ
وصروفُ الدهر لا يبقى لها ولما تأتى به صُمُ الجبالِ
رُبُّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا يشربون الخمرَ بالماء الزَّلالِ
وأباريقُ عليها قُدُمٌ وجيادُ الخيلِ تَرْدِي في الجلالِ
عَمَرُوا دَهْرًا بَعِيشَ حَسَنِ أَمْنَى دَهْرِهِمْ غَيْرُ عِجَالِ
ثم أضحوا عَصَفَ الدهرِ بهم وكذلك الدهرُ يُوْدِي بالرجالِ
وكذلك الدهر يرمى بالفق في طِلابِ العيشِ حالاً بعد حالِ

فظاهر ما في هذا الشعر من مشابهة زهديات بعض الشعراء الإسلاميين لا سيما أبي العتاهية فليس من البعيد أن شعر عدى بن زيد ومن سلك منهجه من القدماء صار أنموذجاً للمتأخرين في وصف فناء الأمور الدنيوية وذكر عواطف الزهد الناشئة من اعتباره . ثم من الجدير بالذكر أن عدى بن زيد أحب في زهدياته الإشارة إلى الحوادث العظيمة الماضية فكثير إيراد أبياته كأنها شواهد تاريخية في كتب التاريخ مثل كتاب الطبري المشهور . ومن هذا الباب ما قاله نحو سنة ٦٠١ م وهو في الحبس^(٢) : (من بحر الخفيف)

(١) كتب الأغاني ج ٢ ص ٢٤ من طبعة بولاق والأبيات مروية أيضاً في كتاب شعراء النصرانية ص ٤٤١ - ٤٤٢ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٠ . - قرن : طرف . ودى الفرس : رجعت الأرض بحولها . وأودى به الموت : ذهب به . وقلم : جمع قدام المصفاة تجعل على لم الإبريق ليصق به ما فيه من شراب . وإبريق وقدام كلمتان فارسيتان معربتان وأصل الأول آب ريزر وأصل الثانية pandane . راجع S. FRAENKEL, *De vocabulis antiquis Arabicis et remanibus et in Corano Peregrinis*, Lugduni Batavorum 1880, P. 9

(٢) الأبيات مروية في كتاب الأغاني ج ٢ ص ٣٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١١ - ١١٢ من طبعة ليدن وشعراء النصرانية ص ٤٥٥ - ٤٥٦ وسلامة البحري ص ٣٩٤ ص ١٢٩ - ١٣٠ من طبعة ليدن أو ص ٨٦ - ٨٧ من طبعة بيروت . ضام يضم : ظلمه وقهره . مريضاً : مبتدأ أمانه . إمة : رخاء العيش . أما كسرى أنو شروان فكان ملك الفرس بين سنتي =

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعِيرُ بِالْهَمِّ . رَأَيْتَ الْمَبْرَأَ الْمَوْفُورُ
 أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الْأَيِّ . أَمْ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ
 مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونُ نَحْلُذَنَ أَمْ مَنْ . ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
 أَيْنَ كَسْرَى كَسْرَى الْمَلُوكِ أَنْوَشَرُ . وَإِنْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ
 وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكِرَامُ مَلُوكُ الْ . رُومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ
 وَأَخُو الْخَضِرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّ . لَمْ تُجِبْنِي إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ
 شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّلَهُ كَيْدُ . سَأَ قُلُوطِيرٍ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ
 لَمْ يَهَبْهُ رَيْبُ الْمُنُونِ قَبَادُ الْ . مُلْكِ عَنْهُ فَبَابَهُ مَهْجُورُ
 وَتَذَكَّرُ رَبُّ الْخَوَزَنْقِ إِذْ شَ . رُفَ يَوْمًا وَلِلْهُدَى تَفْكِيرُ
 سَرَّهُ مَالُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمُ . لِكَ وَالْحَرُّ مُعْرِضًا وَالسَّيِيرُ
 فَارْعَوَى قَلْبُهُ فَقَالَ وَمَا غِبَّ . طَةَ حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
 ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِ . مَوِّ وَارْتَنَهُمْ هُنَاكَ الْقَبُورُ
 ثُمَّ بَصَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌّ جَ . فْ فَأَلَوْتَ بِهِ الصَّبَا وَالْدَبُورُ

وبخلاصة القول أن شعر العباديين أصبح ذا تأثير لا يُنكر في المعاصرين
 المجاورين لهم من الوثنيين مثل الأعشى وفي بعض المتأخرين الإسلاميين
 لا سيما في مجال الزهديات والخمريات .

٤ - يبقى على أن أتكلّم بالإجمال في الصنف الرابع من شعراء الجاهليّة ،
 أي في شعراء أهل المدر الذين لا يدخلون في الصنف الثاني والثالث فأقصر
 قولي على اثنين منهم : قيس بن الخطيم وأمّية بن أبي الصلت .

= ٥٣١ - ٥٧٩ م . أما سابور فهو اسم ثلاثة من ملوك الفرس تولي الأمر أولهم من سنة ٢٤١ د سنة
 ٢٧٢ م . والثاني من ٣٠٩ إلى ٣٧٩ والثالث من ٣٨٣ إلى ٣٨٨ . ويروي البحري في حماسته عدد ٣٩٣
 و ٣٩٥ مثل هذه الأبيات وهي أيضاً من أبيات زيد .

وُلد قيس بن الخطيم الأُميَّ بالمدينة بعد منتصف القرن السادس للمسيح
فقتل أبوه وهو صغير السنَّ جدًّا في حروب جرت بين الأوس والخزرج
فلما شبَّ قيس وعرف أخبار قومه وأبيه أراد أخذ ثأر قتل والده ولم يزل
يتربَّص بذلك في المواسم حتَّى ظفر بقاتل أبيه وقاتل جدّه فقتلها . فله في
ذلك قصيدة تقواون إنَّها من نسج أهل البادية^(١) : (من بحر الطويل)

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً ثَائِرَ	لَهَا نَفَذٌ لَوْلَا الشَّعَاعُ أَضَاءَهَا
مَلَكَتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَهَا	يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا
يَهُونَ عَلَيَّ أَنْ تَرُدَّ جِرَاحُهَا	عَيُونَ الْأَوَائِي إِذْ حِيدَتْ بِلَاءَهَا
كَنتُ أَمْرًا لَا أَسْمَعُ الدَّهْرُ مُبَيَّنَةً	أَسْبُ بِهَا إِلَّا كَشَفْتُ غِظَاءَهَا
فِيَّ فِي الْحَرْبِ الضُّرُوسِ مُوَكَّلٌ	بِإِقْدَامِ نَفْسٍ مَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا
مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا تُلَفَّ حَاجَةٌ	لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا
ثَارَتْ عَدِيًّا وَالْخَطِيمَ فَلَمْ أَضِغْ	وَلَايَةَ أَشْيَاخٍ جُعِلَتْ إِزَاءَهَا

ولكنه مدني لا بدوي في نوع التغزل إذا قال القصائد المشهورة في عمرة
بنت رَوَاحَة ، ومات قبل الهجرة بقليل .

أما أُمَيَّة بن أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيُّ فهو من أهل الطوائف كان في الجاهليَّة
رغب عن عبادة الأوثان ويؤمن بالبعث وله أشعار مليحة حكى فيها قصص
الأنبياء وأتى بالفاظ لم يعرفها العرب أخذها من أهل الكتاب كما أخذ منهم
أيضاً الأحاديث التي جاء بها في شعره . ويكثر في أبياته ذكر الله والاستدلال
على وجوده وحكمته باعتبار عجائب المخلوقات ووصف رحمته تعالى وعدد

(١) سحابة أبي تمام ص ٨٥ - ٨٧ من طبعة بن أروج ١ ص ٩٤ - ٩٧ من طبعة بولاق لمراجع
أيضاً كتاب الأغاني ج ٢ ص ٦٠ من طبعة بولاق . [توجد قصيدته هذه في ديوانه ص ٣ - ٥ من طبعة
ليبسك ١٩١٤ بعناية الأستاذ Kowalecki (انظر في ص ١ - ٦ الترجمة الألمانية والحواشي)] .

الأبيات المنسوبة إليه المتفرقة في كتب إسلامية شتى يزيد على الأربعمائة إلا أن لا شك في كون كثير منها مختلفة لا سيما المروية في كتاب البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسي من علماء القرن الرابع للهجرة فإنها مخلوعة عبارات وألفاظاً قرآنية . ومن المشهور أن أمية لم يُسلم بل رثي من قتل من قريش في وقعة بدر ومات في السنة الثامنة للهجرة^(١) . ولأني أمتنع عن إيراد أمثلة من أشعاره لأنها معروفة .

قد اتضح مما تقدم أن الشعر الجاهلي مصدر أكثر فنون الشعر العربي في عهد الإسلام . وفيه المدح والفخر والحماسة والثناء والهجاء والوصف والزهديات والطرديات والتشبيب والخمريات وهو غاية الجمال والإتقان لفظاً وعروضا حتى لا يخفى أن الشعراء المتأخرين لم يزيدوا على البحور القديمة إلا شيئا قليلا جدا . كان الشعر ديوان أفكار العرب وعواطفهم وكأده دفتر عظيم قيدوا فيه عوائدهم واعتقاداتهم وأمثالهم ومآثرهم . ولولا الشعر الذي نشأ في نجد ثم شاع في سائر أنحاء جزيرة العرب الشمالية لما نهأت قبل الإسلام وحدة اللغة الأدبية مع اختلاف شعوب العرب وقبائلهم وتباين لهجاتهم^(٢) . وإن قابلنا فضائل شعر الجاهلية بفضائل الشعر بعد الإسلام استصوبنا قول ابن رثيق القيرواني في كتاب العمد^(٣) : « إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأنحكه وأتقنه ثم

(١) [أخى الدكتور Schlthens بجمع بقايا ديوان أمية (وهي ٥٠٠ بيت) ونقلها إلى اللغة الألمانية ويطبعها في ليبسك سنة ١٩١١ (Beiträge für Assyriologie vol VIII, 3) ثم في سنة ١٩٢٤م طبع في بيروت ديوان أمية بن أبي الصلت بحرى على ٣٠٠ بيت فاحتج بجمعه بشير يموت . لا توجد في طبعة ليبسك كل الأبيات المروية في طبعة بيروت] .

(٢) [في هذا الموضوع انظر مقالة الأستاذ فليشو « كيف نشأت اللغة العربية » في مجلة الهلال سنة ٢٦ عدد أكتوبر ١٩١٧ ص ٤١ - ٤٨] .

(٣) كتاب العمد ج ١ ص ٥٧ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن .

٥ - تقدمت لمحة في شعر عرب الجاهلية فقبل الشروع في الوصف الإجمالي للآداب بعد ظهور الإسلام يبتى على أن أقول كلمة في حال كلامهم المنشور . إننى ذكرت في أحد الدروس السابقة أن ابتداء الآداب عند كل أمة كان بالشعر مع كون الكلام المرسل المعتاد أقدم من المنظوم بكثير . وذلك أن الكلام العادى لا يأخذ بمجامع القلوب فليس كفىً بالتعبير عن حمياً العواطف وشدة الطرب ؛ أما الشعر فبانسجامة ووزنه يحرك أهواء النفس ويثير كامن حركاتها وهو ألد في الأسماع وأشد وقعاً في القلوب من الكلام المنشور لا سيما إذا أنشد على الغناء وآلات الطرب كما كانت العادة فيه عند كل الأمم القديمة فالنثر أجدر من الشعر بإظهار بنات الأفكار والشعر أجدر من النثر بإبداء ما يكنه القلب أو تنصوره النفس بلا تفكر وتعمد . وبما أن القوة الخيالية عند كل أمة غلبت أولاً على القوة الفكرية والنظرية ومال الإنسان إلى ما استحسنه قبل ميله إلى إدمان الفكر في الأشياء لا عجب في سبق الشعر لسائر الفنون الأدبية المستظرفة . أما الإنشاء المنمق البعيد عن الكلام المرسل المعتاد فلم ينشأ إلا وقت بلوغ الأمم درجة أعلى في سير ترقّيها في المدنية والآداب . ثم سبق الشعر سبب ثان وهو أن الغرض من الشعر أو المنشور المستظرف ليس فقط إبراز العواطف والأفكار بل هو أيضاً تخليد ما وتداولها على ألسنة الناس . فإذا كانت صناعة الخط مجهولة أو قل استعملها فلا سبيل إلى إبقاء المنشور وحفظه من ورود التغيير والنقص والزيادة في ألفاظه وعبارته فبتغيير العبارة والألفاظ يضع ما كان فيه من العذوبة والرشاقة والأناقة ولا يبقى إلا كلام ركيك معتاد لا يعد من المستظرف ولا

تهش إليه الأسباع ولا ترتاح له القلوب . أما الكلام المقيد بأوزن والقافية فأسهل حفظاً وأكثر صبراً على توالي الزمان وأخف على ألسنة الرواة فيمكن أن يشيع في الآفاق ذكره ويعظم في الناس خطره وإن لم يحفظ بالتخليد في بطون الصحف .

فلهذين السببين كان معظم براعة كلام العرب في الشعر على كثرة ما كانوا يروونه في أسماهم ومواسمهم من الحكايات المتعلقة بأنسابهم وغزواتهم وأيامهم (أى حروبهم ووقائعهم) فضلاً عن الروايات التي كانوا يشرحون بها أصل أمثالهم ومعانيها وهي من قبيل ما يوجد في كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال الحسن العسكري المتوفى سنة ٣٩٠ هـ وفي كتاب مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد الميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ . وربما حفظوا شيئاً من تواريخ الأمم المجاورة لهم مثل أهل تدمر والفرس والروم والبرانيين كما يظهر من إشارات إليها وردت في أشعارهم وإن كانت الأحاديث الخرافية قد انسربت إلى تلك الحكايات ولعلها هي أساطير الأولين التي كان كفار مكة يشبهون بها إنذارات القرآن وقصصه ^(١) . والذين ساعدوا على إشاعة الروايات الأعجمية في مدن الحجاز هم أهل الكتاب المقيمون بها أو ناس مسافرون إلى الشام والعراق للتجارة ومنهم النضر بن الحارث بن كلدة الذي قتله النبي صبراً يائئيل بعد وقعة بدر وهو قد أتى الحيرة وأخذ من أهلها أخبار العجم ثم رجع إلى مكة وعلم سكاتها ضرب العود والغناء فإذا جلس النبي مجلساً دعا فيه الناس إلى الله قال هلُموا إلي أحدثكم أحسن من قصص محمد ثم حدثهم أحاديث ملوك الفرس وأخبار رستم وإسفنديار ويُلهمهم من القرآن

(١) انظر القرآن : ٦ : ٢٥ و ٨ : ٣١ و ١٦ : ٢٤ و ٢٣ : ٨١ - ٨٣ و ٢٥ : ٤ -

٥ و ٢٧ : ٦٧ - ٦٨ و ٤٦ : ١٧ و ٦٨ : ١٥ و ٨٣ : ١٣ .

ومن ذكر الله، ففيه نُزلت الآية^(١) : «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُستَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . - وعند الكلام على آداب الجاهلية بالتفصيل سأشير إلى حكايات متداولة عند أمم أجنبية اتخذها العرب وخصصوها ببعض رجالهم المشهورين .

إلا أن أغلب المقصود من تلك الحكايات والروايات كان المنفعة أو التفكه فرأى العرب فيها المضمون ولم يدروا ونى الكلام وحلى المعاني ودرر الألفاظ . أما الذى قصدوا فيه رقة الكلام وتنميق الإنشاء وخاية البلاغة فالحكم النثرية والخطب . ومن حكمهم لم يصل إلينا إلا شيء قليل جداً أغلبه على صورة أمثال قصيرة فلا شك أنها من نبيل وصايا لقمان المروية في القرآن الشريف^(٢) . - أما فن الخطابة فله عند العرب مقام عال جداً فلو جمعنا الأبيات القديمة التى يُحمد فيها خطيبٌ لملأنا بضع صحائف . ولذلك أسباب مرتبطة بنظامهم السياسى المبني على الحرية ونوع من مجلس الشورى^(٣) فكان رجال كل قوم من أهل الوبر يباحثون أهم أمور القوم في مجلسهم كما كان كبار أهل مكة يتفاوضون فيها في دار الندوة المنسوب لتأسيسها إلى قصي بن كلاب . فكان للخطيب البالغ شأن عظيم . ومن الحرى بالذكر أن الألفاظ التى كان العرب يعبرون بها عن متولى حكم قوم من أقوامهم أعنى السيد والأمير عند عرب نجد والحجاز والقبيل في أنحاء اليمن إذا بحثنا

(١) سورة ٣١ (لقمان) آية ٦ - ٧ .

(٢) سورة ٣١ (لقمان) آية ١٢ - ١٩ .

(٣) في نظام قبائل العرب قبل الإسلام راجع C.A. NALLINO *sulla costituzione delle tribù arabe prima dell'islamismo. Raccolta di scritti editi e inediti* VOL. III, Roma 1941, P. 64-86.

تاريخ الآداب العربية

عن اشتقاقها بمقارنة سائر اللغات السامية وجدنا أنَّ معناها الأصليُّ إنما كان القائلُ أو المتكلمُ^(١). ثمَّ أثرت في ارتقاء فنِّ الخطابة مياسة العرب الخارجية ، أعني العلائق بين قوم وقوم أو بين قبيلة وملوك اليمن والحيرة والفرس وغسان فكان حينئذ الخطيبُ وكيلَ جميع قبيلته يخطبُ باسمها في المواسم والأوقود للمفاخرة والمشاجرة والدُّفاع عن حقوق قومه . فوصف أوس بن حَجَرٍ منصب الخطيب في داخل قومه وخارجه حين قال^(٢) وهو يرثي أبا دُلَيْجَةَ فضالة بن كَلْدَةَ : (من بحر البسيط) .

أبا دُلَيْجَةَ مَنْ يَكْفِي العَشِيرَةَ إِذْ أَمْسَوْا مِنَ الْخُطْبِ لِي لَبِيسٍ وَبَلْدَالٍ
أَمْ مَنْ يَكُونُ خُطِيبَ الْقَوْمِ إِذْ حَفَلُوا لَدَى الْمُلُوكِ ذَوِي أَيْدٍ وَأَفْصَالٍ
ولهم عوائد خاصة عند إلقاء الخطب الاحتفالية وعند أهل المدن الحجازية في أواخر القرن السادس للمسيح نوعٌ ثانٍ من الخطابة جارٍ في أمور الدين والأخلاق والزهد وهو نوع اشتهر به زيد بن عمرو بن نُفَيْلٍ من أهل مَكَّة وقُتَيْسُ بن ساعدة الإيادي النصراني أسقف مدينة نجران ، الذي ضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة . بَيَّنَّا أَنَّ القليل الذي بَلَّغْنَا من خطب زيد بن عمرو مختلَقٌ من غير شك^(٣) وما يَرُوى عن قُتَيْس ليس إلَّا قِطْعٌ صغيرة

(١) قال التبريزي في شرحه على حاشية أبي تمام (ص ٧٠٥ من طبعة « بن » أوج ٤ ص ٧٧ من طبعة بولاق) ما نصه : « وسمى الرئيس زهياً لأنه يزعم منهم أي يقول كما قيل له قيل ومقول » وانظر أيضاً ما قاله المستشرق الكبير Th. Noeldke في *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft* vol. 49, 1888, P. 481. وراجع أيضاً ما قاله Hoornel في نفس المجلة الألمانية ج ٤٦ سنة ١٨٩٢ ص ٥٢٩ و GOLDZIEHER, *Mohammedanische Studien*, II, p. 32 note 4.

(٢) عدد ٢٢ بيت ٤ و « من ديوان أوس بن حجر المطبوع بمدينة وينا سنة ١٨٩٢ احتجى بجمعه ونشره ونقله إلى اللغة الألمانية الأستاذ R. Geyer وراجع ما قاله في هذا الطبع J. Barth (*Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, vol. 47, 1893, P. 323-334).

(٣) انظر Th. NOELDEKE, *Geschichte des Qorans*, 2te édition, 1ère partie, Leipzig 1909. P. 18-19.

لا نعرف أمى ألفاظه أم ثباب كلامه فقط . وما يُنسب إلى قس هو كُله بالكلام المسجّع الذى كان يألوه الكُهانُ لارتباطه بالأصلّى بالسحر القديم حسبما سَأبينه إن شاء الله .

وقصارى الأمر أن العرب فى الجاهلية لم يخرجوا فى النشر عن قدر الإنشاء القصير والمقطعات فلو جاز قياس كتاب دينى جليل بمائى النصانيف لقلتُ إنَّ أولَ كتاب مطوّل صدر بلغة الناطقين بالفساد كان القرآن الشريف .

٦- لا بُدُّ للباحث عن تاريخ الآداب العربية من الفحص عما يتعلق بالقرآن من المسائل اللغوية والأدبية ، منها مسألة لغته أمى لغة أهل قريش المعتادة أم لا ؟ ومسألة إنشائه الذى اجتمع أكثر العلماء المسلمين على أنه كلام منشور خارج عن نوعى المنشور المتداولين لا يسمى مُرسلاً مُطلقاً ولا مسجّعاً . ومسألة جمع القرآن فى عهد أبى بكر الصديق وفى عهد عثمان بن عفان . ثم مسألة نواتره وقراءاته . ومسألة بلاغته وإعجازه وهلمَّ جرأ . ولكنى فى هذه المقدمة المختصرة لا أريد بيانها ولا حطها مقتصرًا على التلميح إليها والإشارة إلى ما كان للقرآن من التأثير العظيم الذى لا يُقدَّر مقداره فى حياة الأمم الإسلامية وآدابهم وعلومهم وهو أكبر من تأثير الإنجيل فى النصرى لأنَّ مدار الإنجيل ليس إلا على العقائد والأخلاق خلافاً للقرآن الذى يتضمن أيضاً أحكاماً فقهية مهمة أساسية لا يجوز للمسلم الانصراف عنها فى التشريع . فالتشريع عند النصرى عمَلٌ بشرى ليس له ارتباط متين بأقوال الإنجيل أمّا التشريع فى الإسلام فلا يتصور إلا كفرع من العلوم النقلية الدينية ، أصوله فى القرآن والسنة والإجماع . فلهذا السبب أيضاً تنطوى كتب الفقه الإسلامية على العبادات التى لا مكان لها فى فقه الأمم النصرانية .

وكفى ذلك برهاناً على عظيم شأن القرآن في الهيئة الاجتماعية الإسلامية ودخول أحكامه في أمور تكون دنيوية فقط. عند النصارى . ثم لا شك في أن القرآن كان أشد العوامل في انتشار لغة العرب في غير بلادهم القديمة وصيرورتها لغة العلم عند كافة المسلمين مهما كان بُعد مساكنهم عن أقطار الحجاز . ولا ريب أيضاً أن القرآن كان مصدر علوم شتى اختص بها المسلمون أو ساعدتهم على التقدم في علوم أخرى فقال جلال الدين السيوطي^(١) في النوع الخامس والستين من كتاب الإتيقان في علوم القرآن نقلاً عن تفسير ابن أبي الفضل المرسي ما نصه^(٢) : «ثم [أي بعد التابعين] تقاصرت الهمة وفترت العزائم ونضاعل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعددها وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجدياته والتعليم عند كل عشر آيات ، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه ولا تدبير لما أودع فيه فسُئوا القراءة واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعلق ورسوم خط الكلمات وجميع ما يتعلق به حتى إن بعضهم أعرب مشكله وبعضهم أعربه كلمة كلمة واعتنى المفسرون بألفاظه فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد ولفظاً يدل على معنيين ولفظاً يدل على أكثر ، فلجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى المخفى منه ونخضوا في ترجيح أحد محتملات ذى المعنيين والمعاني وأعمل كل منهم فكرة

(١) توفى السيوطي سنة ٩١١ / ١٥١٨ .

(٢) الإتيقان ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة مصر ١٣١٨ .

وقال بما اقتضاه نظره؛ واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله تعالى: ((لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا)) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده وبقائه وقدمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به وسَمَوْا هذا العلم بأصول الدين، وتَأَمَّلت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضي العموم ومنها ما يقتضي الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز وتكلموا في التخصيص والإخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي والنسخ إلى غير ذلك من أنواع الأقبسة واستصحاب الحال والاستقراء وسَمَوْا هذا الفن أصول الفقه، وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسسوا أصوله وفرَّعوا فروعه وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً وسَمَوْه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً، وتلَمَّحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسَمَوْا ذلك بالتاريخ والقصص، وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تُقلِّل قلوب الرجال وتُكاد تُدَكِّك الجبال فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والمعاد والنشر والحشر والحساب والعقاب والجنة والنار فصولاً من المواعظ وأصولاً من الزواجر فُسَمَوْا بذلك الخطباء والوعاظ، واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان وفي منامى صاحبي السجن وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسَمَوْه تعبير الرؤيا، واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب فإن عسر فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم وعُرف

عادتهم الذى أشار إليه القرآن بقوله وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وأخذ قوم مما فى آية
المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض . واستنبطوا منها
من ذكر النصف والثلث والرابع والسادس والثمن حساب الفرائض ومسائل العول
واستخرجوا منه أحكام الوصايا ؛ ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على المحكم
الباهرة فى الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج وغير ذلك ،
فاستخرجوا منه علم المواقيت ؛ ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ .
وبديع النظم وحسن السياق والمبادئ والمقاطع والمخالص والتلوين فى الخطاب
والإطناب والإيجاز وغير ذلك ، واستنبطوا منه المعانى والبيان والبديع ، ونظر فيه
أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق
جعلوا لها أعلاماً اصطلاحوا عليها مثل الفناء والبقاء والحضور والخوف والهيبة
والأنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه ذلك ، هذه الفنون التى أخذتها
الملة الإسلامية منه .

الباب الثالث

الآداب في صدر الإسلام وفي أيام الخلفاء الراشدين

- ١ - الشعر في ملح الذي - ٢ - شعراء المشركين المخلفون على النبي -
- ٣ - الشعراء الذين أسلموا من غير أن يهتموا في أيانهم بأمر ديني -
- ٤ - شعراء الفصحى - ٥ - الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب - ٦ - الشعر.

أما حال الآداب العربية الدنيوية في صدر الإسلام وأيام الخلفاء الراشدين فما هو^(١) ؟ قال ابن خلدون في مقدمته^(٢) : «ثم انصرف العرب عن ذلك [أي عن الشعر] أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي وما أذهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخترسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثم استقر ذلك وأوئس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسيمعة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأتاب عليه فرجعوا حينئذ إلى دينهم منه ». وقال عمر بن الخطاب : «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوها بالجهاد وغزوا فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته^(٣) - هذان القولان لا يوافقان حقيقة الأمر البتة؛ فما أوردتهما لو لم أعثر على مثل هذا الفكر في تواريف الآداب العربية المتداولة في المدارس المصرية مثل أدب اللغة العربية لمحمد حسن

(١) [في هذا الموضوع انظر أيضاً OMAR A. FARRUKH, *Das Bild des Frühislam in der*

arabischen Dichtung von der Higr bis zum Tode des Kalifen 'Umar Leipzig 1937.]

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨١ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ٣ ص ٤٠١ من الترجمة الفرنسية .

(٣) النزهة السيوطي ج ٢ ص ٢٩٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ عن محمد بن سلام الجعفي

[فراجع طبقات الشعراء الجعفي ص ١٠ من طبعة لندن سنة ١٩١٦] .

المرصفي^(١) وأدبيات اللغة العربية لمحمد عاطف بك وصاحبه^(٢) وخلاصة
أدب اللغة لإبراهيم عبد الخالق^(٣). فإذا طالعتم كتب التاريخ القديمة المطولة
مثل سيرة الرسول لابن هشام، وكتاب المغازي للواقدي وطبقات ابن سعد
وتاريخ الطبري وجدتم كثرة ما يروونه من أشعار صدر الإسلام، ثم إذا
تصفحتم كتب الأدب القديمة مثل كتاب الأغاني وغيره أقيمت أن الآداب
العربية لم تزل في ذلك العصر زاهية وأن الشعراء لم ينصرفوا عن أدواع
قريضهم ولا الخطباء عن نسج نثرهم.

إنَّ الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في أوائل ظهور الإسلام أو في أيام
الخلفاء الراشدين يجوز تقسيمهم إلى ثلاثة أصناف بالإضافة إلى الدين
الإسلامي : ١ الذين قالوا الشعر في مدح النبي سواء أسلموا أم لم يسلموا،
فأكثرهم وأشهرهم من أهل المدر الذين كانوا يفدون في الجاهلية على الملوك .
٢ الشعراء الذين قالوا الشعر في رثاء قتلى الكفار وهجاء النبي وأغلبهم من
أهل مكة . ٣ شعراء أسلموا ولم يهتموا في أبياتهم بأمور النبي والدين وهم
أكثر شعراء أهل البادية .

١- ومن الصنف الأول كعب بن زهير والأعشى وحسان بن ثابت
السابق ذكره . فإن تأملتم أشعارهم وجدتم بينهم فرقاً بالإضافة إلى الإسلام .
لأن كعباً وهو بدوي الأصل مدح النبي سنة ٩ هـ بقصيدة شهيرة ألفها على
منوال قصائد أهل البادية في مدح سادتهم فلولا البيتان :

نُبِئتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَقْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مهلاً هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْقُرْآنِ فِيهِ مَوَاعِيظُ وَتَفْصِيلُ

(١) أدب اللغة العربية المرصفي ج ١ ص ٩٣ - ٩٤ و ١٢١ و ١٤١ - ١٤٢ من طبعة
مصر ١٣٢٦ .

(٢) أدبيات اللغة العربية ج ١ ص ٢٨ من طبعة مصر ١٩٠٦ .

(٣) خلاصة أدب اللغة لإبراهيم عبد الخالق ص ٤٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

والبيت الثالث :

إِنَّ الرُّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَفْضَاءُ بِهِ مَهْنَدٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ
لَقَلْنَا إِنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ قَائِدًا أَوْ سَيِّدًا مِنْ قَوْمِهِ لَا نَبِيًّا جَلِيلًا أَتَى بِدِينٍ
جَدِيدٍ . ثُمَّ فِي نَفْسِ تِلْكَ الْقَصِيدَةِ مَدْحُ الْمُهَاجِرِينَ فَلَمْ يَصِفْهُمْ إِلَّا بِالْحِمَاسَةِ
وَالشُّجَاعَةِ . فَتَشْتَأَنُ مَا بَيْنَ أَسْلُوبِ هَذِهِ الْبُرْدَةِ الْبِدَوِيَّةِ وَبَيْنَ الْعَوَاطِفِ وَالْعِبَارَاتِ
الِدِينِيَّةِ الَّتِي تَتَحَلَّى بِهَا بُرْدَةُ الشَّيْخِ الْبُوصَيْرِيِّ^(١) ! وَفِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى^(٢) مَدْحُ
كَعْبِ الْأَنْصَارِ وَلَمْ يَجْعَلْ فِيهَا بَيِّنًا يَخْرُجُ عَنْ مَنَهِجِ الْمَدْحِ الْبِدَوِيِّ وَيُشِيرُ
إِلَى مَحَاسِنِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ . - أَمَّا الْأَعَشَى فَمَدْحُ النَّبِيِّ (مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُسَلِّمْ)
فِي سَنَةِ ٧ فَلْتَقَرِّبِهِ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ وَالْحَبِيرَةِ اسْتَعْمَلَ بِقَصِيدَتِهِ مَا دَلَّ بِهِ
عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ فَقَالَ مِثْلًا^(٣) :

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذَكَرَهُ أَغَارَ لَعْمَرَى فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا

وَلَكِنْ أَوَّلُ مَنْ بَصَّلَحَ لَهُ اسْمُ شَاعِرٍ إِسْلَامِيٍّ هُوَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ
الَّذِي مَرَّ ذَكَرُ شَعْرِهِ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَهُوَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ رِيْمًا هَجَا
الْكُفَّارَ عَلَى الْأَسْلُوبِ الْقَدِيمِ حَسْبَمَا كَانُوا هُمْ يَهْجُونَ النَّبِيَّ ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ
مِثْلًا مَا قَالَهُ فِي الْهُذَلِيِّينَ لَمَّا أُسْرُوا بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ وَبَاعُوهُمْ مِنْ قَرِيشٍ^(٤) :

(مِنْ بَحْرِ الْبَسِيطِ .)

لَوْ خُلِقَ الدُّوْمُ إِنْسَانًا يُكَلِّمُهُمْ لَكَانَ خَيْرَ هَدَيْلٍ حِينَ بَأْتِيهَا

-
- (١) تَرْفُ شَرْفُ الدِّينِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ الْبُوصَيْرِيِّ فَيَا بَيْنَ سَنَى ٦٩٤ وَ ٦٩٦ هـ .
(٢) نَقَلَ الْأَمْتَاذُ R. Basset مِثْلَهَا إِلَى الْلُغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ فِي كِتَابِهِ *La Banat Sa'ad ...*
Ka'ab bin Zohair Alger, 1910, P. 51-53. أَمَّا دِيْوَانُ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ فَهُوَ غَيْرُ مَطْبُوعٍ .
(٣) كِتَابُ الْأَخْفَانِي ج ٨ ص ٨٥ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاقِ [أَوْ دِيْوَانُ الْأَعَشَى قَصِيدَةُ ١٧ ، بَيْت ١٤
مِنْ طَبْعَةِ لَنْدُنِ ١٩٢٨] .
(٤) دِيْوَانُ حَسَّانِ ص ١٠٣ مِنْ طَبْعَةِ تُولُوسِ سَنَةِ ١٢٨١ أَوْ ص ٨١ مِنْ طَبْعَةِ بَيْجُوتِ سَنَةِ ١٢٨١
أَوْ عَدَد ٦٧ مِنْ طَبْعَةِ لَنْدُنِ ١٩١٠ [أَوْ ص ٢٤ - ٢٥ مِنْ طَبْعَةِ مِصرَ ١٣٤٧] .

تَرَى مِنَ اللَّوْمِ رَقْعاً بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ كَمَا تَكْوَى أَذْرُعَ الْعَانَاتِ كَاوِيَهَا
تَبْكِي الْقُبُورَ إِذَا مَا مَاتَ مَيِّتُهُمْ حَتَّى يَصْبِيحَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ دَاعِيَهَا
مِثْلُ الْقَنَافِدِ تَحْزَى أَنْ تُفَاجِئَهَا شَدَّ النَّهَارِ وَيُلْقَى اللَّيْلُ سَارِيَهَا

ولكن حُسن إسلامه ظاهر في جملة من أشعاره مثل قصيدة أنشدتها بعد يوم أُحُد مجيباً لعبد الله بن الزبير القرشي قال في آخرها (١) :

فَلَا تَذْكُرُوا قَتْلَى وَحِمَزَةً فِيهِمْ قَتِيلٌ ثَوَى اللَّهُ وَهُوَ مُطْبِعُ
فِيَنَّ جَنَّاتٍ الْخُلْدَ مَنْزِلَةً لَهُ وَأَمْرٌ الَّذِي يَقْضِي الْأُمُورَ سَرِيعُ
وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ حَمِيمٌ مَعَانِي جَوْفَهَا وَضَرِيعُ

وما أحل وأرق القصيدة التي رثى بها النبي ومطلعها (٢) :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَمَا نَهَا كُحِلَتْ مَاقِبَهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ

وهي على سداجة نظمها وألفاظها واقعة في القلوب ظاهرة التفعُّع بينة الحسرة والتلهف والأسف.

ليست هذه المقدمة الوجيزة مكاناً يصلح لذكر سائر الشعراء الذين قاموا بمدح النبي وجماعته وحماء الصحابة في صدر الإسلام . كان عرب البادية في الجاهلية لا يغزون ولا يتحاربون إلا وشعراؤهم أنشدوا الأبيات في هجاء الأعداء والافتخار ورثاء القتلى وتخليد ذكر الوقائع فسلكت شعراء المسلمين والمشركين هذا المنهج أيضاً في المديح والرثاء والتهاجي . وتناولت شعراء الكفار

(١) ديوان حسان ص ٦١ من طبعة تونس أو ص ٤٨ من طبعة بمبي أو حيد ١٧٥٠ بيت ١٦ إلى ١٨ من طبعة أوربا [أو ص ٢٥٩ من طبعة مصر] . فليراجع أيضاً سيرة الرسول لابن هشام ص ٦٢١ من طبعة غوتنجن ١٨٥٩ وقال ابن هشام إن بعض أهل قلم بالشعر ينكروا لحسان وابن الزبير .

(٢) ديوان ص ٢٤ من طبعة تونس أو ص ١٩ من طبعة بمبي أو قصيدة ١٢٣ من طبعة أوربا [أو ص ٩٧ - ٩٩ من طبعة مصر ١٣٤٧] وسيرة الرسول لابن هشام ص ١٠٢٤ - ١٠٢٥ .

النبي ومن معه بالهجاء ومُسَوِّة بالأذى؛ فانتصرت شعراء النبي له وأجابوا المشركين عنه. ويروى أن النبي قال لحسان بن ثابت اهْجُهم، يعني قريشاً فوالله لهجأوك عليهم أشد من وقع السهام في غلَس الظلام اهْجُهم ومعك جبريلُ روح القدس^(١). وفي كتاب الأغاني ما نصه^(٢): «كان بهجوم يعني قريشاً ثلاثة نفر من الأنصار يُجيبونهم: حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة. وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويميزانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكُفْر وينسبهم إلى الكفر ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر فكانوا في ذلك الزمان أشد شيء عليهم قول حسان وكعب، وأهون شيء عليهم قول ابن رواحة فلما أسلموا وفتحوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة». وربما تفاخروا شعراء القريقتين وخطباؤهما أمام النبي على جرى عادة العرب في ذلك الزمان كما اتفق حين وفدت بنو تميم على النبي في السنة التاسعة للهجرة. قال ابن سعد الكاتب^(٣) المتوفى سنة ٢٣٠ هـ: «فقال الأقرع [بن حابس من رؤساء بني تميم] يا محمد ابدن لي فوالله إن جهدي لزيّن وإن دمي لشين. فقال له رسول الله كذبت ذلك الله تبارك وتعالى. ثم خرج رسول الله فجلس وخطب خطيبهم وهو عطاردة بن حاجب. فقال رسول الله لثابت بن قيس بن شماس أجبه. فأجابه. ثم قالوا يا محمد

(١) السيرة لابن ربيع ج ١ ص ١٢ من طبعة مصر ١٣٢٥ وأنظر الأغاني ج ٤ ص ٧ من طبعة بولاق.

(٢) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٢٩ من طبعة بولاق.

(٣) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد في WELLHAUSEN, *Skizzen und*

Fortsetzungen, vol. IV, Berlin 1889, P. ٣١ [الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٤٠ سطر ١٧ - ٢١ من طبعة ليدن] ونص الخطيبين والشعرين مروى في كتاب الأغاني ج ٤ ص ٨ - ٩ من طبعة بولاق وفي السيرة لابن هشام ص ٩٣٤ - ٩٣٨ من طبعة أوروبا وتاريخ الطبري ج ١ ص ١٧١٠ - ١٧١٧ من طبعة ليدن.

اَيْدَنَ لِشَاعِرِنَا . فَأَذِنَ لَهُ فِقَامُ الزُّبَيْرِ بْنِ بَكْرٍ فَأَنشَدَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ
لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ أَجِبْهُ فَأَجَابَهُ بِمِثْلِ شِعْرِهِ . فَقَالُوا وَاللَّهِ اخْطِيبُهُ أَبْلَغُ مِنْ
خَطِيبِنَا وَلَشَاعِرُهُ أَشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا وَلَهُمْ أَحْلَمُ مِنَّا . وَنُزِّلَ بِهِمْ ^(١) : « إِنَّ الَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » . - فَتَرَوْنَ أَزَّ الشَّعْرِ
عِنْدَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ فِي غُرَّةِ الْإِسْلَامِ قَدْ أَصْبَحَ ذَا شَأْنٍ عَظِيمٍ كَأَنَّهُ مِنْ
وَسَائِلِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ .

٢- أَمَّا شُعْرَاءُ الصَّنْفِ الثَّانِي أَيْ الَّذِينَ رَدُّوا الْقَتْلَ مِنَ الْمَشْرُكِينَ وَهَجَّوْا
النَّبِيَّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَأَكْثَرَهُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَنَادَمَاؤُهُمْ وَأَبْيَاتُهُمْ مَرُورِيَّةٌ فِي
سِيرَةِ الرَّسُولِ لَا بَنَ هِشَامَ وَغَيْرَهَا مِنَ الْمَصْنُفَاتِ الْقَدِيمَةِ فِي الْمَغَازِي وَالْتَّارِيخِ .
وَأَشْهُرُهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وَخِصْرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ الْفَيْهَرِيُّ وَالْمَعَارِثُ بْنُ هِشَامَ
ابْنَ الْمُخَيَّرَةِ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ .

٣- وَمِمَّنْ نَبِغَ مِنْ شُعْرَاءِ الصَّنْفِ الثَّالِثِ أَيْ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بِغَيْرِ أَنْ يُوَثِّرَ
لِإِسْلَامِهِمْ فِي شِعْرِهِمْ تَأْثِيرًا شَدِيدًا جَلِيًّا وَأَغْلِبَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ مُنْتَمٍ بِنِ
ذُوَيْرَةَ الْيَرْبُوعِيِّ صَاحِبِ الْمَرَاثِي الْمَشْهُورَةِ فِي أَخِيهِ مَالِكِ الَّذِي قُتِلَ فِي جُمْلَةِ
الْعَرَبِ الْمُرْتَدِّينَ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ فِي أَيَّامِ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ . فَرَنَاءُ مُنْتَمٍ بِأَشْعَارِ
تُشِيرِ الْأَشْجَانِ وَتَقْدَحِ قُرَرِ النِّيْرَانِ فَضْرِبَتِ الشُّعْرَاءُ الْأَمْثَالَ بِهِ وَبِأَخِيهِ مَالِكِ
فِي أَشْعَارِهِمْ . وَمِمَّا قَالَ ^(٢) :

أَبَى الصَّبْرَ آيَاتُ أَرَاهَا وَأَتْنَى أَرَى كُلَّ حَبَلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا

(١) الْقُرْآنُ سُورَةُ ٤٩ (الْحَبَرَاتُ) آيَةُ ٤ .

(٢) الْمَفْضَلِيَّاتُ ج ٢ ص ٣٢ مِنْ طَبْعَةِ مِصْرَ ١٣٢٤ [أَوْ حُلْدَ ٦٧ ، بَيْتَ ١٧ إِلَى ٣٥]

(مَا صَدَأَ بَيْتَ ١٩) مِنْ طَبْعَةِ أَكْسَفُورْدَ ١٩٢١ .

وَأَنْتَى مَنِ مَا أَذْعُ بِأَسْعِكَ لَا تُجِيبُ وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيعَةَ حِقْبَةٍ
 وَكُنْتَ جَلِيلًا أَنْ تُجِيبَ وَتُسْمِعَا فَلَمَّا نَفَرَقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا
 مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّقَا فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَقَنَ بَيْنَنَا
 لِيُطَوِّلَ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا أَقُولُ وَقَدْ طَارَ السَّنَا فِي رِيَابِهِ
 فَقَدْ بَانَ مَحْمُودًا أَخِي يَوْمَ وَدَّعَا سَقَى اللَّهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكِ
 وَغَيَّبَتْ يَسُحُ الْمَاءُ حَتَّى تَرَبَّعَا وَأَذَرَ سَبِيلَ الْوَادِيَيْنِ بِدِرْعَةٍ
 دِهَابِ الْغَوَادِي الْمُدْجَنَاتِ فَأَمْرَعَا وَمِنَ النَّابِغِينَ أَيْضًا أَبُو مِخْجَنَ الثَّقَفِيِّ
 تَرَشَّحُ وَتَسْمِيًا مِنَ النَّبْتِ خِرْوَعَا وَمِنْ النَّابِغِينَ أَيْضًا أَبُو مِخْجَنَ الثَّقَفِيِّ
 مِنْ فُرْسَانَ الْعَرَبِ شَهِيدَ يَوْمِ الْقَادِسِيَّةِ وَقَصَّتْهُ فِيهِ مَشْهُورَةٌ. وَكَانَ مَوْلَعًا بِالْخَمْرِ الَّذِي يَلِدُورُ عَلَيْهِ مَعْظَمُ شَعْرِهِ.
 وَمِنْ بَيْنِ أَبْيَانِهِ الشَّهِيرَةِ (١):

إِذَا مِتُّ فَأَذْفُنِّي إِلَى أَصْلِ كَرَمَةٍ تَرَوِي عِظَامِي فِي التُّرَابِ عَرُوقَهَا
 وَلَا تَذْفِنْنِي بِالْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لَا أَذُوقَهَا
 وَمِنْهُمْ جَرَّوَلُ بْنُ أَوْسِ الْحَطِيبَةِ مِنْ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ وَمُنْقَدِّمِيهِمْ وَفَصْحَائِهِمْ
 مَتَصَرِّفٌ فِي جَمِيعِ فَنُونِ الشُّعْرِ مِنَ الْمَدِيحِ وَالْهَجَاءِ وَالْفَخْرِ وَالنَّسِيبِ مَجِيدٌ
 فِي ذَلِكَ أَجْمَعِ (٢) وَلَكِنَّهُ دَنِيَ الطَّبِيعَ لَثِمَ النَّفْسِ كَثِيرَ الطَّمَعِ (٣) جَعَلَ
 الشُّعْرَ مَتَجَرًّا فَكَانَ لَهُ مِنَ الْهَجَاءِ مَعَاشٌ وَكَتَسَّبَ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَهْدُونَ
 لَهُ الْهَدَايَا خَوْفًا مِنْ شَرِّهِ فَقَالَ الْأَضْمَعِيُّ : « كَانَ الْحَطِيبَةُ جَحْشِيًّا سَوُولًا

(١) أما تاريخ يوم القادسية فانظر ما قاله فيه WELLHAUSEN, *Prolegomena zur arabischen Geschichte des Islam* (Skizzen und Vorarbeiten VI), Berlin 1899, P. 72-74; CAETANI, *Annali dell'Islam*, III, P. 699-699.

(٢) ديوان ص ١٤ من طبعة ليدن ١٨٨٧ بتأية Abel ر ص ٧٢ من طبعة ليدن ١٨٨٦ (٣) في (LANDBERG, *Primaux arabes*, I) ويعين الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٢٨ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أوج ١ ص ٢٨ من طبعة مصر ١٣٤٣ - ١٣٤٨].

(٢) كتاب الأخلاق ج ٢ ص ٤٣ من طبعة بولاق.

(٤) انظر أيضاً كتاب المملة لابن رشيق ج ١ ص ٥٠ من طبعة مصر ١٣٢٥.

مُلْحِفاً دَنَى النَّفْسِ كَثِيرَ الشَّرِّ قَلِيلَ الْخَيْرِ بَخِيلًا قَبِيحَ الْمَنْظَرِ رَثَّ الْهَيْئَةِ
مَغْمُوزَ النَّسَبِ فَاسِدَ الدِّينِ وَمَا تَشَاءُ أَنْ تَقُولَ فِي شَعْرِ شَاعِرٍ مِنْ عَيْبٍ إِلَّا
وَجَدْتَهُ وَقَلَّمَا تَجِدُ ذَلِكَ فِي شَعْرِهِ (١). فَمِنْ غَرِيبِ الْإِتِّفَاقِ أَنَّ هَذَا الشَّاعِرَ
الْمُوصُوفَ بِدَنَاءَةِ الْخُلُقِ كَانَ رَاوِيَةً كَعَبِ بْنِ زَهِيرٍ بَلْ إِنَّ صَحَّ الْخَبَرَ رَاوِيَةً
زَهِيرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ الَّذِي شَعْرُهُ فِي طَلَبِ الْعُلَا وَالْمَكَارِمِ . وَكَانَ الْحُطَيْثَةُ قَدْ
ارْتَدَّ فِيمَنْ ارْتَدَّ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ وَهَجَا حِينَئِذٍ الْخَلِيفَةَ أَبَا بَكْرٍ فِي بَيْنَيْنِ
مَشْهُورَيْنِ (٢) ثُمَّ أَسْلَمَ ثَانِيَةً إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَهْجُو أَكْبَارَ النَّاسِ حَتَّى أَمَرَ عُمَرُ
ابْنَ الْخَطَّابِ بِحَبْسِهِ فَقَالَ فِي الْحَبْسِ أَيْبَاتًا أَشَارَ فِيهَا إِلَى حَالِ أَوْلَادِهِ الصِّغَارِ
الْمُقِيمِينَ بِدَى مَرَّخٍ (وَهُوَ وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الْيَمَنِ) (٣) :

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِدَى مَرَّخٍ حُمُرُ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرُ
أَلْقَيْتَ كَأْسِيهِمْ فِي قَدَرٍ مُظْلَمَةٍ فَاغْفِرْ حَلِيكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ
أَنْتَ الْأَمِينُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَى إِلَيْهِ مَقَالِيدَ النَّهْيِ الْبَشَرُ
لَمْ يُؤْتِرُوكَ بِهَا إِذْ قَدَّمُوكَ لَهَا لَكِنْ لَأَنْفُسَهُمْ كَانَتْ بِهَا الْخَيْرُ
فَعَفَا عَنْهُ . وَلَا يُعْرَفُ تَارِيخُ وَفَاتِهِ الَّذِي جَعَلَهُ أَبُو الْقَدَاءِ سَنَةَ
٦٩ بِدُونِ إِيرَادِ مَصْدَرِ هَذَا الْخَبَرِ . وَالْمَحَقِّقُ إِنَّمَا هُوَ أَنَّهُ أَدْرَكَ خِلَافَةَ عُمَانَ
عَلَى الْأَقْلَ . وَكَانَ الْحُطَيْثَةُ رَقِيقَ الْإِسْلَامِ فَكَثُرَتْ فِي ذَلِكَ الْحِكَايَاتُ .

وَمِنْ مَعَاصِرِهِ الشَّمَاخُ بْنُ ضِرَارِ اللَّيْثِيَّ صَاحِبَ دِيْوَانِ طُبْعِ بَعَصْرِ سَنَةِ
١٣٢٧ هـ بِعَنَايَةِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنِ الْأَمِينِ الشَّنْقِيطِيِّ وَقِيلَ إِنَّهُ أَوْصَفَ الشُّعْرَاءَ
لِلْحَمِيرِ وَالْقُوسِ وَأَرْجَزَ النَّاسَ عَلَى الْبَلَدِيَّةِ . وَهُوَ كَثِيرُ الْهَجَاءِ أَيْضاً مَاتَ بَعْدَ

(١) كِتَابُ الْأَغْلَافِ ج ٢ ص ٤٦ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاقِ .

(٢) دِيْوَانُ عَدَدِ ٣٤٤٠ : بَيْت ٥-٦ مِنْ الطَّبْعَةِ بِمَنَآيَةِ Goldziher في Zeitschrift der deutschen morgen-
ländischen Gesellschaft, 47, 1893, P. 43.

(٣) دِيْوَانُ عَدَدِ ٤٧ مِنْ الطَّبْعَةِ الْمَذْكُورَةِ .

قتل عمر بن الخطاب . وكان له أخوان شاعران أعنى مزردًا وجزءًا اللذين لم يُنقل إلينا إلا مقتطعات صغيرة من شعرهما .

ومن أشهر الشعراء المخضرمين أيضاً عمرو بن معديكرب الزبيدي من سادات أهل اليمن وأشجع العرب . أسلم في يدى النبي في السنة العاشرة وشهد وقعة القادسية فله فيها أثر . وعلى أرجح الأقوال مات ببلاد العجم في آخر خلافة عمر . وأكثر شعره في الحماسة وذكر الفتوح . ولشجاعته وشهرته كثرت فيه وفي سيفه المسمى الصنصامة وفي كبر سنه الحكايات المختلفة منها ما روى في كتاب الأغاني^(١) فيه مع حبيبة بن حصن في تحريم الخمر وتحليله^(٢) . ومنهم أيضاً هذليان أحدهما أبو خراش خوئيلد بن مرة الذي مات في خلافة عمر بن الخطاب . وكان ممن يعلو فيسبق الخيل في غارات قومه وحروبهم^(٣) . والثاني وهو أشهر منه أبو ذؤيب خوئيلد بن خالد الذي غزا إفريقية مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٦/٦ فأكمله الموت بعد انتهاء الغزاة سنة ٢٨ تقريباً . وله ديوان لم يُطبع بعد^(٤) . ومما يُستفاد من شعره قصيدة طويلة يرويها صاحب كتاب جمهرة أشعار العرب^(٥) رثى بها بنيه

(١) كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٢٠ - ٢١ من طبعة بولاق .

(٢) وفي ذلك الخبر ذى الإسناد الضعيف جداً ثرون عمرو بن معديكرب وهيئة يتباحثان كأنهما فقيهان ويذكران المتكلف بمراعاة أحكام الدين وهذا لا يحل في ذلك العهد عند رسلين فارسين في الحرب قليل الإسلام بعيدين عن الميل إلى البحث عن أمور الدين فظاهر أن الخبر كله من الروايات التي اخترعت في أواخر أيام بني أمية لما أخذ أهل التقى والدين والفقهاء يذلون جهلهم في النفي عن المنكر الشائع من شرب الخمر وإعمال الأحكام الشرعية في الحياة العادية فأشاع أولو الأغراض عدة مكايات مصنعة طراً لأعيانهم وأحلامهم المكروهة . راجع - GOLDZIER *Misham* - *medische Studien*, I, P. 90-91.

(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٥٤ . [طبع ديوانه في مدينة ليل سنة ١٩٣٣ بناية J. Hehl في المصنوعة *Nam Hushailiten-Diwan* ج ٢] .

(٤) [طبع ديوانه في مدينة هانوفر سنة ١٩٢٦ بناية J. Hehl] .

(٥) جمهرة أشعار العرب ص ١٢٨ - ١٢٢ من طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ - ١٣١٠ [بمفضليات =

الخمسَةَ أو الثمانية الذين قُتلوا له أو هلكوا بالطاعون في عام واحد .
وأولها :

أمن المنون ورثيها تتوجع	والدهر ليس بمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَع
قالت أميمة ما لجسمك شاحباً	مُنْذُ ابْتَدَأْتَ وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ
أم ما لجسمك لا يلائم مَضْجَعاً	إِلَّا أَقْضَى عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ
فأجبتها أما لجسمي أنه	أودى بنى من البلاد فودعوا
أودى بنى فأعقبوني حسرة	بعد الرقاد وعبرة ما تُقْلِعُ
سبَقُوا هَوَى وَأَغْنَقُوا لَهْوَهم	فُتْخِرُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعُ
فغبرت بعدهم بعيش ناصب	وإخال أنى لاجئ مستريح
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم	وإذا المنية أقبلت لا تُدْفَعُ
وإذا المنية أنشبت أظفارها	أقبت كل نعمة لا تُنْفَعُ

ولو أردت سرد أسماء جميع الذين زهوا في ذلك العصر من شعراء الصنف الثالث لضاق المكان . فإن سأل سائل لأي سبب لا يظهر شعرهم على وفرة تأثير الدين الإسلامي في أفكارهم وعواطفهم وموضوع قريضهم كأن أحوالهم ما تغيرت منذ انتهاء عصر الجاهلية قلت إن أهل البادية كانوا من أبعد الناس عن روح الإسلام ولا ميل لهم إلى تأمل أمور الدين وفهمها فصعب دخول الإيمان في قلوبهم فلم يزالوا إلى أيامنا موصوفين بقلّة عواطفهم الدينية . ونزل فيهم في سورة التوبة (١) : «الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا

— عدد ١٢٦ من طبعة أكسفورد سنة ١٩٢١ [وتوجد ١٥ بيتاً من هذه القصيدة في شرح شواهد المعنى للسيوطي ص ٩٢ - ٩٣ من طبعة مصر ١٣٢٢ وتروى ثلاثة عشر بيتاً في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر ج ٢ ص ٦٦٧ عدد ٢٩١٤ من طبعة حيدر آباد ١٣١٩ وفيه أيضاً ترجمة الشاعر (ص ٦٦٥ - ٦٦٧) و ٧ أبيات من شعر يكي أبو ذؤيب فيه النقي وفي آخر هذه الأبيات تقاليد يشبه تقاليد الجاهلية .
(١) القرآن ٩ (سورة التوبة) : ٩٧ - ٩٩ فراجع أيضاً ٤٩ (سورة الحجرات) : ١٤ .

يَقْدَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ . . . وَلَكِنْ قُلْتَ الْأَعْرَابُ

من هذا النوع الثاني فأغلب أهل الوبر لم يُعلموا إلا كارهين أو طامعين فيما كانوا يرجونه من الربح والمنفعة والغنيمة فلم يعتبروا النبي إلا كأنه ملك من المالك القادرين الأعزاء الذين لا يمكن مُعاداتهم . وحال أكثرهم كحال بنى عامر بن صعصعة الذين لما وفدوا على النبي قال رئيسهم^(١) : يا محمد ما لي إن أسلمت ؟ قال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين . قال أنجعل لي الأمر من بعدك ؟ قال ليس ذلك لك ولا لقومك . قال أنجعل لي الوبر ولك المدر ؟ قال لا ولكني أجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس . قال أوليست لي ؟ الأملأنها عليك خيلاً ورجالاً . ثم ولى^(٢) . - ومع قطع النظر عما رأيناه من قلة ميلهم إلى جلاله الدين لا شك في أن لكراهم تلك أسباباً خاصة . قد مر في إحدى الصحائف السابقة أن مراعاة سنة أجدادهم كانت عند عرب الجاهلية أفضل الفضائل ومُعظم الأدب فظهر لهم الإسلام بدعة مكروهة لا يتبعها نبال الناس كما قالت زوجة العباس ابن مرداس حين بلغها خبر إسلامه^(٣) : (من الطويل)

لَعَنَرِي لَشِنْ تَابَعْتَ دِينَ مُحَمَّدٍ وفارقت إخوان الصفا والصنائع
لَبَدَلْتُ تِلْكَ النَّفْسَ ذُلًّا بِعِزَّةٍ غداة اختلاف المُرُفَّقات القواطع

(١) وهو عامر بن الطفيل الشاعر المشهور .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد في ٤٢ WELLHAUSEN, *skizzen und Vorarbeiten*, [الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٥١ سطر ١٩ - ٢٣ من طبعة ليند] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٦٦ من طبعة بولاق فراجع أيضاً GOLDZIHNER

Muslimmedanische Studien, I, P. 9-10.

أو كما قال كعب بن زهير وهو حينئذ وثني يذم أخاه بجيرا حين
أسلم^(١) :
(من الطويل)

ففارقنا أسباب الهدى واتبعته
على أي شيء ويب غيرك دلكا
على مذهب لم تلب أمّا ولا أبّا
عليه ولم تعرف عليه أخا لكّا

ففي تمسك العرب بسنن آبائهم نُزلت بضح آيات منها في سورة البقرة^(٢) :
«إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» .
وفي سورة المائدة^(٣) : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ
قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» . وفي سورة الأعراف^(٤) : «وَإِذَا فَعَلُوا
فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا» . وفي سورة الزخرف^(٥) :
«بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ» . وفي سورة
لقمان^(٦) : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا» . - وفي بعض الأشياء أن الشريعة الإسلامية خالفت سنن العرب
القديمة مخالفة شديدة . كانت العرب أفخر الناس بأنسابهم محنقون
من لم يكن منهم أو كان مغموز النسب متكبرين بالحسب الطويل فجاء
القرآن بما بدّل على مساواة الناس عند الله^(٧) : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ
مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاكُمْ» . - كان العرب يذلّون من لم يأخذ ثأر أقاربه ولا يرد الشر
بمثل أو بأكثر منه كما قال عمرو بن كلثوم في معلقته^(٨) :

(١) انظر شرح بانة سعاد الشيخ جمال الدين ابن هشام الأنصاري ص ٤ من طبعة ليبسك
سنة ١٨٧١ - ١٨٧٤ بناية I. Guidi
(٢) القرآن ٢ (سورة البقرة) : ١٧٠ .
(٣) القرآن ٥ (سورة المائدة) : ١٠٤ .
(٤) القرآن ٧ (سورة الأعراف) : ٢٨ .
(٥) القرآن ٤٣ (سورة الزخرف) : ٢٢ .
(٦) القرآن ٣١ (لقمان) : ٢١ .
(٧) القرآن ٤٩ (الحجرات) : ١٣ .
(٨) سلقة عمرو بن كلثوم بيت ٥٣ .

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا | فَتَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

أَمَّا الإسلام فنصّح للناس بالعفو والحلم ومدح «الكَاذِبِينَ الْغِيظَ»^(١) والعافين عَنِ النَّاسِ «^(٢) بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنَ : «ادْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السُّبُتَةِ»^(٣). وكان الأعراب مولعين بشرب الخمر ولعب الميسر فجاء القرآن بتحريمها وأمرهم بالصلاة والصيام وغير ذلك من الأحكام المتبعة لأبناء النبی . فخلاصة الأمر أنه كان البون الواسع بين قواعد المروءة على رأى الأعراب وبين كثير من أحكام الإسلام^(٤) فلا عجب أن أهل البادية لم يعتنقوا الدين الجديد إلاّ رغماً عنهم .

٤ - ولإتمام هذا الوصف الإجمالي لأدب العرب في أيام النبي والخلفاء الراشدين يبقى على أن ألمح إلى نوع خاص من الشعر نليق به تسمية شعر الفتوحات . قد تقدّم أن عرب الجاهلية كانوا يخلّدون مآثر قبائلهم وذكر أيامهم في أبيات توارثها أهل كل قبيلة خلفاً عن سلف . فكذلك لما فاضت الجيوش الإسلامية بأموالها على ما هو خارج أنحاء جزيرة العرب وخفقت ألوية الجنود المظفرة في أطراف النواحي الأعجمية وأفاصي الآفاق ، أخذت الأعراب الكائنون في جملة المجاهدين يقولون الشعر ويُنشدون القوافي وصفاً لما قاسوا من المشاعب وما شهدوا من الوقائع وما قطعوا من البلدان وما كان لهم من البأس وثبات الجنان . فقال مثلاً قيس بن المكشوح المرادي مفتخرًا بقدره رشّم أمير جيوش الفرس في يوم القادسية سنة ١٦٧/٦٣ :^(٥)

حَلَبْتُ الْخَيْلَ مِنْ صَنْعَاءَ تَرْدَى بِكُلِّ مُدَجِّجٍ كَاللَّيْثِ سَامٍ

(١) القرآن ٣ (آل عمران) : ١٢٤ . (٢) القرآن ٢٣ (المؤمنون) : ٩٦ .

(٣) راجع ما قاله الأستاذ Goldziher في المروة والدين في كتابه *Muhammedanische Studien*

ج ١ ص ١ - ٣٩ .

(٤) خروج البلدان البلاغى ص ٢٦١ من طبعة ليدن ١٨٦٦ .

إلى وادى القرى قديار كلب
وجئن القادسية بعد شهر
فناهضنا هائلك جمع كسرى
فلما أن رأيت الخيل جالت
فأضرب رأسه فهو صريعاً
وقد أبلى الإله هناك خيراً
إلى اليوموك قالبلد الشام
مسومة دوابرها دوام
وأبناء المرازبة الكرام
قصدت لموقف الملك الهمام
بسيف لا أقل ولا كهام
وفعل الخير عند الله نام

فلو جمعنا ما ورد من مثل هذه الأشعار في كتاب فتوح البلدان
للبلاذرى وفي تاريخ الطبرى وفي كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى
لألّفنا منها ديواناً .

٥ - ومن الكتب الكثيرة التداول حتى في أيامنا ديوان محتوي على قصائد
ومقطعات دينية منسوب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . لكنه كتاب
مختلق وهو مما صنعه أهل الشيعة لأغراضهم الخاصة . وعلى قول بعض أهل
السنة المتأدبين هو تأليف الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن طاهر المتوفى
سنة ٤٣٦ هـ . ونُسبت أيضاً أحياناً إلى الخليفة علي القصيدة الزينية في
الحكم والمواعظ التي من قريض صالح بن عبد القدوس المقتول في سنة
١٦٧ هـ في أيام المهدي . أما ما روى من شعر علي بن أبي طالب في كتب
التاريخ وفي كتاب العدة^(١) لابن وشيق فشئ يسير كله في الحماسة
ووصف الحروب .

٦ - أما المنشور المستظرف في عهد النبي والخلفاء الراشدين فلم يخرج عما
كان عليه في زمان الجاهلية من الحكم والمواعظ والوصايا والحكايات ما عدا
الأحاديث النبوية . ولم يدون في ذلك العصر كتاب وإن كان بعض الناس

(١) كتاب العدة ج ١ ص ١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

يَقْبِدُونَ فِي بَطُونِ الصَّحَائِفِ شَيْئاً مِنْ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ وَمِنْ الْحُكْمِ . وَفِي
الْخُطَابَةِ لَمْ يَزَلْ فِي دُونِ قَدِيمٍ حَتَّى نَبِغَ فِيهِ نَفْسُ النَّبِيِّ وَالْخُلَفَاءِ
فَعَرَّ قَبْلَ سَبْقِ ذِكْرِ نَصِّ مَاخُذٍ مِنْ كِتَابِ ابْنِ سَعْدٍ دَالٌّ عَلَى ارْتِفَاعِ مَنْزِلَةِ
الْخُطِيبِ الْبَلِيجِ عِنْدَ عَرَبِ الْقَبَائِلِ وَأَهْلِ الْمَدَنِ . وَلَكِنْ لَقَلَّةُ اسْتِعْمَالِ الْكِتَابَةِ
لِتَسْجِيلِ الْمُنْشُورِ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنْ نَخْبَةِ ذَلِكَ الْعَصْرِ إِلَّا شَيْءٌ يَسِيرٌ جَدًّا
وَرَبَّمَا وَقَعَ فِي هَذَا الْقَلِيلِ نَقْصٌ أَوْ زِيَادَةٌ أَوْ تَغْيِيرٌ أَوْ اخْتِلَاقٌ . فَخُطْبَةُ الْبُدَاعِ
مِثْلًا عَلَى عَظَمَةِ شَأْنِهَا وَعِلْوِ أَفْكَارِهَا وَرِفْعَةِ قَائِلِهَا إِنَّمَا نُقِلَتْ بِرَوَايَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ
وَعَلَى قَطْعٍ مُتَفَرِّقَةٍ . وَأَقْبَحُ الْأَمْرِ مَا عَرَضَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
فَإِنَّ أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ مِنَ الْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ اجْتَرَعُوا عَلَى تَزْوِيرِ أَقْوَالِهِ وَعَزَّوْا
إِلَيْهِ جَمًّا غَفِيرًا مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْحِكَمِ الَّتِي لَبِستَ لَهُ الْبَيِّنَةُ . فَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ فِي
مَرْوَجِ الذَّهَبِ ^(١) : إِنَّ « الَّذِي حَفِظَ النَّاسَ عَنْهُ مِنْ خُطْبِهِ فِي سَائِرِ مَقَامَاتِهِ
أَرْبَعُمِائَةِ خُطْبَةٍ وَنِيفَ وَثَمَانُونَ خُطْبَةً يوردها عَلَى الْبَدِيَّةِ تَدَاوُلَ النَّاسُ ذَلِكَ
عَنْهُ قَوْلًا وَعَمَلًا » وَمِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ أَيْضًا كِتَابُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ الَّذِي اخْتَلَفَ
فِيهِ بَعْضُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَهْوَى لِلشَّرِيفِ الْمُرْتَضَى أَبِي الْقَاسِمِ عَلِيِّ بْنِ طَاهِرِ الْمُتَوَفَّى
سَنَةَ ٤٣٦ هـ أُمُّ لِأَخِيهِ الشَّرِيفِ الْمُرْتَضَى ^(٢) ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ
عَلِيٍّ وَإِنَّمَا الَّذِي جُمِعَ وَنُسِبَ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي وَضَعَهُ . وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ
الذَّهَبِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٤٨ هـ فِي كِتَابِ مِيزَانِ الْإِعْتِدَالِ ^(٣) : « وَهُوَ طَالِعُ
كِتَابِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ جَزَمَ بِأَنَّهُ مَكْلُوبٌ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ (رَضِيَ) فَإِنَّ

(١) فِي الْبَابِ الرَّابِعِ وَالْثَمَانِينَ ج ٤ ص ٤٤١ - ٤٤٢ مِنَ الطَّبْعَةِ الْبَارِيَّةِ.

(٢) انْظُرْ وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ لِابْنِ خُلْكَانٍ عَدَد ٤٤٤ مِنْ طَبْعَةِ غُوتَنْجِنِ أَوْ عَدَد ٤١٦ مِنْ الطَّبْعَاتِ
الْمِصْرِيَّةِ .

(٣) كَشَفُ الْفَنُونِ لِلْحَاجِي خَلِيفَةَ ج ٢ ص ٦٢٢ مِنَ الطَّبْعَةِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ سَنَةِ ١٢١١ فِي مَادَّةِ

« نَهْجِ الْبَلَاغَةِ » .

فيه السبُّ الصريح والخطُّ على السيِّدين أبي بكر وعمر . . - وأحياناً
عُزِيَ إليه كتاب الجَفَر والحِجَابُ العظيم وغير ذلك ممَّا هو بَرِيءٌ منه كلياً .
ومن خطباء ذلك العصر سَحْبَانُ بن زُقَرِّ الوائليِّ من قبيلة وائل باهلة
وُلِدَ في زمان الجاهليَّة ومات مسلماً سنة ٤٥ هـ وضُرِبَ به المثل في البلاغة
والبيان فقليل أخطَبُ مِنْ سَحْبَانٍ وَائِلٌ أو أَنْطَقُ مِنْ سَحْبَانٍ . وما رُوي عنه
في كتاب الأمثال للميداني وفي شرح الشَّوَيْشِيِّ على المقامات الحريريَّة
أشهر من أن أحتاجَ إلى ذكره هنا .

الباب الرابع

الشعر في عصر بني أمية

- ١ - النزل في مدن الحجاز - ٢ - التشبيب عند الأعراب - ٣ - الشعر على أسلوب فحولة الجاهلية - ٤ - الأراجيز - ٥ - شعر الجنود - ٦ - شعر الفتن السياسية والدينية - ٧ - شعر أهل الحضر في مدن العراق والشام - ٨ - الشعر القصصي البني - ٩ - المراثي .

فلنأق الآن نظرة على الآداب العربية في أيام دولة بني أمية .

لا ريب في أن نقل دار الخلافة من الحجاز إلى دمشق سنة ١١١ هـ كان ذا عواقب متدوعة مهمة يصعب تقديرها حق القدر ولكن البحث عنها وبيانها يحق من يعنى بتاريخ الأمم الإسلامية . فاقصر هنا على ذكر أن ذلك النقل الذي غيّر به مركز السياسة الإسلامية ثم الفتن التي حدثت بين بني أمية وبين أهل الحجاز في أيام الحسين وعبد الله بن الزبير وتوسيع حدود المملكة واشتغال كثير من أهل البادية بالفتوح والقتال في الأنحاء البعيدة كانت سبباً في وقوع اختلاف محسوس بين سير الآداب في جزيرة العرب لاسيما الحجاز وسيرها في الشام والعراق والجزبال من قبل منتصف القرن الأول إلى أواخره . فلتحصليل الوضوح في هذا البيان المختصر أرى من المناسب تقسيم الشعر في أيام الدولة الأموية تسعة أقسام أو أصناف :

- ١ - النزل في مدن الحجاز - ٢ - الشعر الغرائي والتشبيب عند الأعراب .
- ٣ - الشعر على الأسلوب القديم المألوف عند فحول شعراء الجاهلية .
- ٤ - الأراجيز . ٥ - الشعر المتعلق بالاغتراب والفتوح وهو شعر الجنود .

- ٦- الشعر المتعلق بالفتن والخلافات الدينية والسياسية . ٧- الغزل والخمريات والمدائح بدمشق . ٨- الشعر القصصي اليمني . ٩- المراثي .
١- فأبتدى بالصنف الأول أى الغزل فى المثلن الحجازية .

إنَّ محبة لُف النساء وهواهُنَّ وفِرط الصُّبابة والشُّوق كانت فى كلِّ زمن وعند كلِّ أمة مجالاً واسعاً وميداناً أَفْجَحَ لقريض الشعر فلم تخلُ الأمم السامية عن أشعار معبرة عما فى نفوسهم وقلوبهم من شدة الغرام أو الميل إلى التشبيب والتغزل بل ضربوا فى ذلك بسهم مُصيب كما يتضح مثلاً من سِفر نَشيد الأناشيد المُدرَج فى كتب العبرانيين المقدسة . فمن طالع أشعار العرب القديمة استغرب قلة ما فيها من الأبيات المختصة بالتشبيب لأن أكثر ما يُروى من هذا الباب أُلِّقَ بتسمية النسيب منه بتسمية الغزل إذا امتثلنا فى تعريفهما قول أبى زكرياء يحيى البريزى فى شرح حماسة أبى تمام (١) : « النسيب ذكرُ الشاعرِ المرأةَ بالحُسن والإخبارُ عن تصرف هواها به وليس هو الغزل وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصُّبوة إليهن والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه » (٢) ومن الجدير بالذكر أن فحول شعراء الجاهلية لم يُفردوا للنسيب أشعاراً طويلة خاصة فاقتصروا على جعله فى أول قصائدهم يشكِّون فيه شدة الوجد وألم الفراق أو يصفون ما لمعشوقتهم من الجمال . فإن ذهب أحدهم أحياناً إلى التغزل الحقيقى حصرة فى بيتين أو ثلاثة من نسيب القصيدة ولم يُدرِجْهُ فى وسطها إلا بأندر النادر كما فعله عنقرة بن شداد فى معلقته حين قال نحو أواخرها :

بأشاة ما قنص ليمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم
فبعثت جاريتي فقلت لها أذهبي فتجسسى أخبارها لي وأعلمي

(١) شرح البريزى على حماسة أبى تمام ص ٥٣٨ من طبعة بن أوج ص ١١٢ من طبعة بولاق .
(٢) راجع أيضاً فقد الشعر لقدماء ص ٤٢ - ٤٣ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٢ .

قَالَتْ رَأَيْتُ مِنْ أَلْعَادِي غِرَّةً وَالشَّاةُ مُمَكِّنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمٍ
وَكَاثِمًا أَلْتَفَتَتْ بِعَجِيدٍ جَدَايَةٍ رَشَلُمُ مِنَ الْغِزْلَانِ حُرٌّ أَرْتَمٍ
وبعد هذه الأبيات الأربعة يرجع موضوعُ المعلقة إلى غير الغزل والنسيب.
أما مقطعات الشعر الجاهلي المختصة بالتشبيب المنقولة إلينا في كتب الأدب
واللغة فقليلة جداً وهي كما قلته من باب النسيب لا من باب التغزل^(١).
فلهذا الأمر الغريب على رأي سيبان : الأول أن التعبير عما في القلب
من الهوى والعشق والشوق يستدعي كلاماً ليناً سهلاً المأخذ بعيداً
عن الألفاظ الغريبة قريب المعاني فاستنكفت من جمعه علماء اللغة في القرن
الثاني والثالث للهجرة لأن غرضهم من لم الأشعار القديمة وحفظ شذراتها
كان خصوصاً الغريب من الألفاظ. والمهم من الأخبار . والسبب الثاني وهو
الأخطر أن الشعر في التشبيب المحض كان على ظني عند عرب الجاهلية
نوعاً عامياً تعاطاه أيضاً رعاغ الناس فأهانوه نوابغ الشعراء وأهملوه وامتنعوا
عن قوله قانعين بوضع أبيات النسيب في أول قصائدهم . ولعل سبباً ثانياً
أيضاً عجل في كراهة الشعراء المجيدين المُفْلِقِينَ للغزل وهو علو منزلة النظم
في حياة العرب الاجتماعية لأن غاية الشعر العالي إنما كان عندهم تعظيم
الأكابر وتخليد ذكر مآثر القبائل والافتخار بالحماسة أو المكرمات وهجاء
الأعداء فبذلك لم يكن التشبيب المحض مما عُدَّ من مقاصد الشعر السامية .
أما في خلافة علي بن أبي طالب وما يتبعها من الزمان فنجد بمكة والمدينة
نوعاً جديداً من الشعر أخذ يزدهر بهما بَعَثَةٌ بل يغلب على سائر الأنواع فكاد

(١) كذلك نجد في أبيات عمر بن الحارث الفيرزي الشاعر الجاهلي الملقب بجران العود غزلاً يشابه
غزل عمر بن أبي ربيعة الشاعر الأموي الذي سيأتي ذكره، فراجع القصيدة المروية في آخر ديوان
جرير المطبوع بمصر سنة ١٣١٢ ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠ [أو ديوان جرير العود ص ١٣ - ١٩
من طبعة مصر ١٣٥٠] وراجع أبياته المروية في أمالي القالي ج ٣ ص ١٠٣ - ١٠٤ من طبعة
بولاك ١٣٢٤ [أرجح ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٤٤] . أما سبب لقبه بجران العود فانتظر
مقاله بيد لقادر البغدادي في خزانته ج ٤ ص ١٩٨ وابن قتيبة في كتاب الشعر ص ٤٥٠ من طبعة ليدن .

أَجُودُ الشُّعْرَاءِ فِي مَدَنِ الْحِجَازِ لَا يَتَعَاطَوْنَ غَيْرَهُ خِلَافاً لِمَعْرِفَتِهِمْ فِيهَا قَبْلَ . وَهَذَا
النُّوعُ الْعَجْدِيدُ هُوَ الْغَزَلُ وَلَعَلَّ أَوَّلَ مَنْ اشتهر بِهِ أَبُو دَهْبِيلَ الْجُمَحِيُّ مِنْ
أَشْرَافِ النَّاسِ بِمَكَّةَ قَالَ الشَّعْرُ فِي آخِرِ خِلَافَةِ عَلِيٍّ وَمَدَحِ مُعَاوِيَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ
ابْنِ الزُّبَيْرِ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْأَكْبَابِ . وَهَوَاهُ لَعَمْرَهُ مَشْهُورٌ قَبْلَ فِي كِتَابِ الْأَغَانِي (١)
« إِنَّهُ كَانَتْ تَتَحَدَّثُ بِهِ أَشْرَافُ قَرِيْشٍ فِي مَجَالِسِهَا وَسُوقَةِ الْحِجَازِ فِي أَسْوَاقِهَا
وَالسُّقَاةَ فِي مَوَارِدِهَا » . وَمَا صَاغَهُ أَبُو دَهْبِيلُ مِنَ الشَّعْرِ فِيهَا رَقِيقٌ ظَرِيفٌ بَعِيدٌ
عَنِ اسْلُوبِ نَسِيبِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْمَعْرُوفِ . وَيُرْوَى أَنَّهُ نَظَرَ عَرَضاً إِلَى عَاتِكَةِ
بَنَاتِ الْخَلِيفَةِ مُعَاوِيَةَ فِي حَبْجَتِهَا وَقَالَ فِيهَا أَبْيَاتاً شَاعَتْ بِمَكَّةَ وَشُهِرَتْ فَغَنَّى فِيهَا
الْمُغَنُّونَ فَلَمَّا صَدَرَتْ عَاتِكَةُ عَنْ مَكَّةَ خَرَجَ مَعَهَا إِلَى الشَّامِ وَنَزَلَ قَرِيباً مِنْهَا فَكَانَتْ
تُعَاهِدُهُ بِالْبِرِّ وَاللُّطْفِ حَتَّى وَرَدَتْ دِمَشْقَ وَوَرَدَ مَعَهَا فَانْقَطَعَتْ عَنْ لِقَائِهِ (٢)
فَأَنشَدَ شِعْراً مَشْهُوراً بَلَغَ مُعَاوِيَةَ الَّذِي أَحْضَرَ أَبَا دَهْبِيلَ وَلاَمَهُ وَقَالَ لَهُ :
« أَمَّا مِنْ جِهَتِي فَلَا خَوْفَ عَلَيْكَ لِأَنِّي أَعْلَمُ صِيَانَةَ ابْنَتِي نَفْسَهَا وَأَعْرِفُ أَنَّ
فَتْيَانَ الشَّعْرِ لَمْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا النَّسِيبَ فِي كُلِّ مَنْ جَازَ أَنْ يَقُولُوهُ فِيهِ
وَكُلِّ مَنْ لَمْ يَجُزْ وَإِنَّمَا أَكْرَهُ لَكَ جِوَارَ يَزِيدَ (٣) وَأَخَافُ عَلَيْكَ وَثْبَانِيهِ » .
وَإِنَّمَا أَرَادَ مُعَاوِيَةَ أَنْ يَهْرُبَ أَبُو دَهْبِيلَ . وَفِي ذَلِكَ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ وَأَشْعَارٌ (٤) جَارِيَةٌ
مَجْرَى غَيْرِ مَجْرَى نَسِيبِ الْجَاهِلِيَّةِ . ثُمَّ سَلَكَ غَيْرَهُ مِنْ نَوَابِغِ الشُّعْرَاءِ بِمَكَّةَ
هَذَا الْمَسْلُوكَ الْمُبْتَدَعَ فَقِيلَ : « كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْضِلُ قَرِيْشاً فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا
الشَّعْرَ فَلَمَّا نَجَّمَ فِي قَرِيْشٍ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَالْحَارِثُ بْنُ خَالِدٍ الْمَخْزُومِيُّ وَالْعُرْجِيُّ
وَأَبُو دَهْبِيلَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسِ الرُّقَيْيَاتِ أَقْوَمَتْ لَهَا الْعَرَبُ بِالشَّعْرِ أَيْضاً » (٥) .

(١) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ٦ ص ١٥٦ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاق .

(٢) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ٦ ص ١٥٨ - ١٥٩ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاق .

(٣) وَهوَ ابْنُ مُعَاوِيَةَ وَأَخُو عَاتِكَةَ .

(٤) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ٦ ص ١٥٩ - ١٦١ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاق .

(٥) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ٢ ص ١٠١ وَرَاجِعْ أَيْضاً ج ١ ص ٣٥ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاق .

وإن سألتهم عن سبب هذا التقلب الشديد في أساليب الشعر في المدن الحجازية قلت : لا يخفى على أحد أن أكثر رجال السياسة والحرب قد تركوا جزيرة العرب في أواخر خلافة علي بن أبي طالب فبقيت بالمدينة أهل التقى والعبادة والنسك من الأنصار والمهاجرين كأن الدنيا في الشام والدين بمدينة النبي . وكثرت في ذلك العصر ثروة الحرمين ولا سيما مكة لتوسع العلاتق والمصارف التجارية ولزيادة الوافدين عليهما تأدية لفريضة الحج . فبزيادة الثروة والنعمة واتساع العيش زاد أيضاً ما تنزع النفوس إليه من الشهوات والملاذ والتنعيم بأنواع الترف وفسدت أخلاق الشبان من البيوتات الكبيرة الذين لم يكن لهم بالحجاز مجال واسع للاعتناء بأمور السياسة والحرب ولا بالعلوم العقلية التي لم تنزل مجهولة عند العرب في ذلك الزمان فاشتد ميلهم إلى النظر والتغزل وسماع الغناء وحضور الملاحى . وجلبت إلى مكة والمدينة القينات المغنيات بالروم أو بالفارسي ثم أخذت الموالى يغنون بالعربي أيضاً فقبل إن أصل الغناء أربعة نفر مكّيّان ومدنيّان فالمكّيّان ابن سريج وابن مخرز، والمدنيّان معبد ومالك [بن أبي السرح] (١) ومنهم بل أقدمهم طويس المولود يوم وفاة النبي وهو أول من غنى بالعربي بالمدينة وأول من ألقى الخنث بها وكان ظريفاً عالماً بأمر المدينة وأنساب أهلها (٢) ومنهم أيضاً الغريض المغنى بمكة والمدينة صاحب عمر بن أبي ربيعة

(١) كتاب الأغاني ج ١ ص ٩٨ من طبعة بولاق - وابن سريج كان مولده في خلافة عمر ابن الخطاب وأخذ يغنى في زمن عثمان بن عفان ومات في خلافة هشام بن عبد الملك $\frac{125}{742} - \frac{105}{728}$ وابن مخرز معاصر له - ومعبد بن وهب غنى في أول دولة بني أمية ومات في أيام الوليد بن يزيد $\frac{126}{744} - \frac{125}{742}$ بمشق - ومالك بن أبي السرح مات في أيام المنصور $\frac{136}{754} - \frac{158}{770}$.

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٧٠ من طبعة بولاق - ويقال في كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٨٨ أن سائب خاثر أول من غنى بالعربية ولم يكن يضرب بالعود إنما كان يقرع بقضيب وأخذ عنه ابن سريج وجعلته ومعبد وهزة الميلاء وغيرهم - كان سائب مولد بني ليث وقتل في يوم الحرة $\frac{63}{683}$.

كثرت فيه الحكايات ومات في خلافة سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧)، ومنهم كثيرون لا أحتاج إلى سرد أسماهم هنا . ومما يدل على سعة العيش بمكة في النصف الثاني من القرن الأول ما يروى في كتاب الأغاني^(١) أن عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله الجمحي قد اتخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات وتردات^(٢) وقِرَقَات^(٣) ودفاتر فيها من كل علم وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ثم جرد دفتراً فقرأه أو بعض ما يلعب به فليعب به مع بعضهم . وفي وادي العقيق الذي كان منزله أهل المدينة في أيام الربيع والمطر^(٤) أو في منى وسائر نواحي مكة كان المتظرفون من الفتيان لا سيما في موسم الحج ينتظرون ويلتقون النساء والبنات الحرائر ويحدثونهن ويتغزلون بهن . فإن أردتم مثلاً ممّا كان قدر كريمات النساء عند أكابر مكة والمتغزلين فهاكم ما يروى في كتاب الأغاني من أخبار الحارث بن خالد بن العاص المخزومي وهو أحد نوابغ شعراء قريش الغزليين السابق ذكرهم أخو عكرمة بن خالد المخزومي وهو محدث جليل من وجوه التابعين . إن عبد الملك سنة ٧٥ ولّى الحارث إمارة مكة فخرج بالناس وحجّت عائشة بنت طلحة عامته وكان الحارث يهبواها فأرسلت إليه أنجز الصلاة حتى أفرغ من طوافي . فأمر المؤذنين فأنخروا الصلاة حتى فرغت من طوافها . ثم أقيمت الصلاة فصلى بالناس . وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظمه فعزله وكتب إليه يؤنبه فيما فعل فقال ما أهون والله غضبه إذا

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٥٢ .

(٢) القرد هو ما يعرف اليوم بالطلولة .

(٣) قِرَقَات جمع قرق وهو لعبة للصبيان فراجع لسان العرب ج ١٢ ص ١٩٨ من طبعة بولاق ١٢٠٠ - ١٢٠٧ وأقرب الموارد لسعيد الشرتوني ص ٩٩٠ من طبعة بيروت ١٨٩٩ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٧٢ سطر ٢٤ فراجع أيضاً ج ١ ص ٦٦ سطر ٧ من طبعة بولاق .

رَضِيَتْ وَاللَّهُ لَوِ لَمْ تَقْرُخْ مِنْ طَوَافِهَا إِلَى اللَّيْلِ لَأَخَّرْتُ الصَّلَاةَ إِلَى اللَّيْلِ»^(١) .
 وله في ذلك شعر مشهور^(٢) . وربما كان فتیان مكة من الأغنياء الظرفاء
 يترحلون إلى المدينة لالتقاء ظرفائها وظرائفها ومن هذا القبيل ما روى مُصَنَّب
 الزبيري قال^(٣) : «اجتمع نسوة فذكرن عمر بن أبي ربيعة^(٤) وشعره وظرفه
 ومجلسه وحديثه فتشوقن إليه وتمنينه فقالت سُكَيْنَةُ [بنت الحسين بن علي
 ابن أبي طالب] أنا لَكُنْ به . فبعثت إليه رسولاً أن يوافي الصَّوْرَيْنِ^(٥) ليلة
 سمَّتها فوافاهن على رواحله فحدثن حتى طلع الفجر وحان انصرافهن . فقال
 لهن والله إنني لمحتاج إلى زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وسلم) والصلاة في مسجده
 ولكني لا أخيط . بزيارتي كن شيئاً ثم انصرف إلى مكة فقال في ذلك شعراً
 معروفاً^(٦) . ومما يُروى أيضاً من هذا الباب^(٧) : «واعد عمر بن
 أبي ربيعة نسوة من قريش إلى العقيق ليتحدثن معه فخرج إليهن ومعه الغريض
 فتحدثوا ملياً ومطروا فقام عمر والغريض وجاريتان للنسوة فأظلدوا عليهن
 بحِطْرَفة^(٨) وبردَيْن له حتى استترن من المطر حتى سكن ثم انصرفن »
 فقال عمر في ذلك أحد أشعاره^(٩) . - وحسبنا هذا بياناً لأحوال عيشة
 الظرفاء بالحرمين . فإن كان الأمر كذلك فلا عجب في ابتداء نوع جديد
 من الشعر لم يسبق إليه فحول الجاهلية ولا أهل البادية ثم لا عجب أن

(١) كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٠٢ ورابع ج ٣ ص ١١٣ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٣ ص ١١٣ - ١١٤ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ٤٧ . (٤) وهو مقيم بمكة .

(٥) الصوران موضع بجوار المدينة المنورة .

(٦) ديوان عمر بن أبي ربيعة عدد ٢١٨ من طبعة ليلك ١٩٠٢ .

(٧) كتاب الأغاني ج ١ ص ٦٦ من طبعة بولاق .

(٨) رداء من خز مريع ذو أعلام .

(٩) ديوان عدد ٥٢ من الطبعة المذكورة .

أكثر شعراء المدن الحجازية لم يتجاوزوا الغزل إلى المديح ولا الهجاء وتركوا أسلوب القصيدة القديمة . ثم شاع حب التشبيب في البلاد البعيدة عن الحجاز وغلب في شعر بعض من أراد حفظ الأماليب القديمة والتكسب بالمديح فيروى في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة^(١) أن « بعض الرُّجَّاز أتى نصر بن ميار والى خراسان لبني أمية فمدحه بقصيدة تشبيها مائة بيت ومدبجها عشرة أبيات فقال نصر : والله ما بقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً إلا وقد شغلته عن مديحي بتشبيبك فإن أردت مديحي فاقنصدي في النسيب . فأتاه فأنشده :

هل تعرف الدارَ لأمِّ الغمرِ دَعْ ذا وخبرٌ مِدْحَةً في نصر

فقال نصر لا ذلك ولا هذا ولكن بين الأمرين » .

وأشهر شعراء الحرمين في ذلك العصر وأنسبهم عمر بن أبي ربيعة المخزومي المذكور ولد في ليلة قتل عمر بن الخطاب أعني في ٢٦ ذى الحجة من سنة ٢٣ ومات على القول الأرجح سنة ١٠١ . أما قول البعض إن عمر بن عبدالعزيز نفاه إلى جزيرة دهلوك القريبة من مدينة مصوع على سواحل البحر الأحمر الغربية فخطأ نشأ من خلط وقع بينه وبين صاحب الأخرص . وكان عمر مفرطاً في التشبيب بالنساء فكلَّ جميلة رآها في الشوارع أو في الحج وقعت في نفسه فذهب عقله عليها فلم يقل شيئاً من الشعر إلا في النسيب والغزل فكثيراً ما أظهر في أبياته أسماء المحرائر اللواتي هوأهن مثل زينب بنت موسى ولُبابة بنت عبد الله وكلثوم بنت سعد وفاطمة بنت عبد الملك وثريا بنت عليّ وبغوم وأسماء وغيرهن وربما كاد يشين عرضهن . وفي القرن

(١) ص ١٥ من طبعة ليدن ، وراجع أيضاً كتاب العملة لابن خريق ج ٢ ص ٩٩ من طبعة

الثاني خاف بعض الناس على الفتيات ما يمكن أن يهيجه شعره لقلوبهن فتُنسب في ذلك إلى الزبير بن بكار هذه الرواية^(١) : « قال حدثني ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مُصعب قالت : مررتُ بِجَدِّكَ عبد الله بن مصعب وأنا داخلة منزله وهو بفنائنه ومعى دفتر فقال ما هذا معك ودعاني فجثته وقلت شعر عمر بن أبي ربيعة فقال ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر ابن أبي ربيعة إن لشعره لَمَوْقَعاً من القلوب ومَدْخَلاً لطيفاً لو كان الشعرُ يسحر لكان هو فارجمي به . قالت ففعلتُ » . ولكن قال أيضاً الزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦ هـ : « أدركتُ مشيخة من قريش لا يزنون بعمر بن أبي ربيعة شاعراً من أهل دهره في النسب ويستحيون منه ما كانوا يستحيون منه من غيره من مدح نفسه والتحلي بمودته والابتيار^(٢) . وجماعة من الأدباء أثنوا على شعره كلِّ الثناء وقالوا إن عمر أشعر قريش لأنه « رَقٌّ معناه ولطف مدخله وسهل مخرجُه ومتمنَّ حشوُه وتعطف حواشيه وأنارت معانيه وأعرب عن حاجته »^(٣) . وممن بلغ الغاية في الإطراء مُصعب بن عبد الله بن مصعب حيث قال^(٤) : « راق عمر بن أبي ربيعة الناس وفاق نظوائهم وبرعهم بسهولة الشعر وشدة الأسر وحسن الوصف ودقة المعنى وصواب المصدر والقصد للحاجة واستنطاق الرُّبُع وإنطاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وعفة المقال وقلة الانتقال وإثبات الحجة وترجيح الشك في موضع اليقين وطلاوة الاعتذار وفتح الغزل ونهج الملل وعطف المساءة على العذال وحسن التفجع وبُخل

(١) كتاب الأغاني ج ١ ص ٣٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ٥٢ - ٥٣ من طبعة بولاق وقال صاحب كتاب الأغاني بعد هذا النص « والابتيار أن يفعل الإنسان الشيء فيذكره ويفخر به والابتهار أن يقول ما لم يفعل » .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ٤٨ من طبعة بولاق وأمال القائل ج ٢ ص ١٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أوج ٣ ص ١٥ من طبعة مصر ١٣٤٤] .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ٥٣ من طبعة بولاق .

المنازل واختصار الخبر وصدق الصفاء إن قدح أوري وإن اعتذر أبري وإن
تشكى أشجى وأقدم عن خيرة ولم يعتذر بغيرة وأسر النوم وغم الطير وأغد
السير وحيور ماء الشباب وسهل وقول وقاس الهوى فأرني وعصى وأخلى وحالف
بسمعه وطرفه وأبرص بنعت الرسل وحذروا أعلن الحب وأسر وبطن به وأظهره
وألح وأسف إلخ . ومن الجري بالاعتبار أن شعر عمر بن أبي ربيعة
وأصحابه الحجازيين مع مداره على الغزل فقط. ومع قربه غير مرة من الخلاعة
لم ينحط. أبداً إلى الفحش والمجون المحض الكثير وجودة في غزل شعراء عهد
العباسيين ولكن ليس هنا موضع إيضاح سبب ذلك . ثم من الجدير
بالذكر أيضاً أن عمر بن أبي ربيعة وأكثر شعراء الحجاز لا سيما مكة في زمن
الأمويين إلى أوائل القرن الثاني امتنعوا عن باب الخمريات في شعرهم امتناعاً
تاماً ولم يذكروا الخمر إلا في التشابيه مثل قول عمر بن أبي ربيعة (١) :

تَنَكَّلُ عَنْ وَاضِحِ الْأَنْيَابِ مُنْسَقٍ عَذِبِ الْمُقْبَلِ مَصْقُولٍ لَهُ أَشْرُ
كَالْمِسْكِ شَيْبَ بَذَوْبِ النَّحْلِ يَخْلِطُهُ نَلْجُ بِصَهْبَاءَ مِمَّا عَثَقَتْ جَدَرُ

أو مثل قوله (٢) :

إِذَا ابْتَسَمْتُ قُلْتُ أَنْكَلَالُ غَمَامَةٍ خَفَى بَرَقُهَا فِي عَارِضٍ مَتَهَلِّلٍ
كَأَنَّ سَحَابَ الْمِسْكِ خَالَطَ طَعْمَهُ وَرِيحَ الْخُزَامِيِّ فِي جَدِيدِ الْقَرْنَفَلِ
بَصَهْبَاءَ دِرْيَاقِ الْمُدَامِ كَأَنَّهَا إِذَا مَا صَفَا رَاوَوْقُهَا مَاءَ مَفْصِلِ

وذلك مع أن شرب الخمر غير مجهول في ذلك العصر بالمدينة (٣) فكان
مثلاً الوليد بن عثمان بن عفان والوليد بن عتبة بن أبي سفيان وعبد الرحمن

(١) ديوان عدد ١٠٠٠ بيت ١٢ - ١٤ من الطبعة المذكورة . وجذر قرية بين حمص وسامية تنسب
إليها الخمر . انظر معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٩ من طبعة أوربا .
(٢) ديوان عدد ١٩٧ بيت ١١ إلى ١٣ من الطبعة المذكورة .
(٣) راجع LAMMENS, *Études sur le règne du calife omayyade Mo'awia Ier*, Beirut, 1908, P. 412-413.

ابن أُرطاة المعروف بابن سَيْحَان وَجُبَيْر بن أَيْمَن وغيرهم من الخواصّ معاقرين
للخمر متنادمين على الشراب . بيد أنّه لم يذهب إلى مدحه إلا من ليس من
الفحول المشهورين مثل ابن سَيْحَان المذكور القائل الشعر في الشراب والغزل
والفخر والمدائح وله مع ابن عمّه في شرب الخمر قصّة غريبة وأبيات^(١) أو
مثل عبد الله بن أَبِي مَعْقِل بن نَهَيْك بن إِسَاف الأنصاريّ القائل^(٢) :

فولاً ثلاثٌ هُنَّ من عيشة الفتي وجدّك لم أخفِلْ متى قامَ رامسُ
فمنهنَّ سَبَقِي العاذلاتِ بِشَرْبَةِ كأنَّ أُنحَاها مَطْلِعَ الشَّمْسِ ناعسُ
ومنهنَّ تجريدُ الكواعبِ كالدمى إذا أَبْدَزَ عن أَكْفَالِهِنَّ الملبسُ
ومنهنَّ تقريظُ الجوادِ عِنانَهُ إذا استبقَ الشَّخْصَ الخَفِيّ الفوارسُ

ويروى محمد بن سلام الجُصَحِيُّ ما نصّه^(٣) : «وكان السريّ بن
عبد الرحمن ينادم [بالمدينة] عتير بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف
وجُبَيْر بن أَيْمَن بن أمّ أَيْمَن مولى النبیّ (صلعم) ونخالد بن أبي أيوب الأنصاريّ
وكانوا يشربون النبيذ وكلّهم كان على ذلك . مقبول الشهادة جليل القدر
مستوراً فقال السريّ :

إذا أنت نادمت العتير وذا الندى جبيرا ونازعت الزُجاجة نخالدا
أمنتَ بإذن الله أن تُفرَّغَ العصا وأن يُنْبِهُوا من نومة السكر واقدا
فقالوا قبّحك الله ماذا أردت إلى التنبيه علينا والإذاعة لِسِرِّنا إنك لحقيق
أن لا ننادمك . قال والله ما أردت بك سوا ولكنّه شعر طَفَحَ فَقُتُّهُ عن
صدرى . قال ونخالد بن أبي أيوب الذي يقول :

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٨٦ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٣ من طبعة ليدن ، وراجع كتاب الأغاني ج ٢٠
ص ١١٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ٦٦ من طبعة بولاق .

أَلَا سَقَتْنِي كَأْسِي وَدَغَ قَوْلَ مَنْ لَحَى وَرَوَّ عِظَامًا قَصَرَ هَنْ إِلَى بَلَى
فَإِنْ بَطَأَ الْكَاسَ مَوْتُ وَحَبَسَهَا وَإِنْ دِرَاكُ الْكَاسِ عِنْدِي هُوَ الْحَيَا
فلنرجع إلى سياق الكلام . لو أردنا ذكر شيء من أخبار جميع الذين
ذهبوا مذهب عمر بن أبي ربيعة في مدن الحجاز في العصر الأموي لاحتجنا
إلى استغراق مدة دروس . فحسبنا ذكر أسماء بعضهم منهم الأخوص المدني
الأنصاري الذي مات جده شهيداً يوم الرجيع في السنة الرابعة للهجرة ونحوه
يوم أُحُد فلما سمع يوماً سُكَيْنَةَ بنت الحسين تفتخر بقرابتها بالنبي قال (١) :

فَخَرَّتْ وَانْتَمَتْ فَقُلْتُ ذَرِينِي لَيْسَ جَهْلٌ أَنْتِي بِبَدِيعِ
فَأَنَا ابْنُ الَّذِي حَمَتْ لَحْمَهُ الدُّبُّ رُ قَتِيلِ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيعِ
غَسَلْتُ خَالِي الْمَلَائِكَةُ الْأَبَّ رَارُ مَيْتًا طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيعِ

ولكن إن قطعنا النظر عن ميراثه لمعاوية التي قال فيها (٢) :

مَلِكٌ تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ مَبَارَكٌ كَادَتْ لَهَيْبَتِهِ الْجِبَالُ تَزُولُ
تُجَبِّي لَهُ بَلْعُ وَدَجَلَةٌ كُلُّهَا وَلَهُ الْفِرَاتُ وَمَا سَتَى وَالذَّيْلُ

وهن أبيات يعاتب بها عمر بن عبد العزيز (٣) ، لم يكن عيشه وشعره إلا
في الغزل . فمن المعروف أن عمر بن عبد العزيز نفاه إلى جزيرة دهلوك لفرط
تشبيهه بالنساء ذوات الأخطار من أهل المدينة . ثم عُقِيَ عنه . ومات بدمشق
بعد المائة بعشرين قليلة . ولسان حال عيشته ما قاله في أحد أشعاره (٤) :

أَلَا لَا تَلُمُّهُ الْيَوْمَ أَنْ يَتَبَلَّدَا فَقَدْ غَلِبَ الْمَحْزُونُ أَنْ يَتَجَلَّدَا

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٤٢ من طبعة بولاق .

(٢) مروج الذهب للمسعودي في الباب الثاني والتسعين ج ٥ ص ١٥٨ من الطبعة الباريسية .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٠ - ٣٣١ من طبعة لندن .

(٤) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٣١ وكتاب الأغاني ج ١٢ ص ١٥٩ من طبعة بولاق .

وما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وإن لام فيه ذو الشنان وفندا
بكيبت لصبيا جهدا فمن شاء لآنى ومن شاء وأسى في البكاء وأسعدا
ولانى وإن عيرت في طلب الصبا لأعلم أنى لست في الحب أوحدًا
إذا كنت عزهاة عن اللهو والصبأ فكن حَجْرًا من يابس الصخر جلمدًا

ومن شعراء قريش بمكة المشهورين بالغزل الناحين نحو عمر بن أبي ربيعة
في ذلك المجيد بن العرجي^(١) وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن
عفان من نسل عثمان أمير المؤمنين وهو أيضاً ممن ذكروا نساء قريش في
شعرهم وشببوا بالحاجات كما قال^(٢) (من بحر الطويل) :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها وأذنت على الخدين برذا مهلهلاً
من اللاء لم يخججن يبين حشبة ولكن ليقتلن البرى المغفلاً
أر كما قال^(٣) في جيداء أم محمد بن هشام أعنى أم خال الخليفة
هشام بن عبد الملك ($\frac{١٢٥}{٧٤٣} - \frac{١٠٥}{٧٢٤}$) :

عوجى علينا ربّة الهودج إنك إلا تفعلى نخرجى
أنى أزيغت لى بمانية إحدى بنى الحرث من مذجج
نلبث حولاً كاملاً كله ما نلتى إلا على منهج
فى الحج إنحجّت وماذا منى وأهله إن هى لم تخجج

وذكر النساء فى الحج كثير فى أشعار أهل الحجاز أيام بنى أمية فمن

(١) مات بمكة فى أيام هشام بن عبد الملك .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٩١ من طبعة بولاق - ماط : أبدا . وسر الويه : ما بدا من
الوجنة . وصحيفة الأجر والثواب .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٢ وج ٣ ص ١١٦ من طبعة بولاق وفى الكامل للبرد ص ٣٩١
من طبعة ليبك سنة ١٨٦٤ إلى ١٨٩٢ أوج ٢ ص ٢٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ الأبيات
مروية بغير اسم الشاعر .

هذا القبيل شعر مشهور لمحمد بن عبد الله النعميرى من أهل الطائف قاله^(١) في زينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج بن يوسف فاستحسنه الناس في ذلك الزمان فقل إن سعيد بن المسيب أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المتوفى في أواخر القرن الأول مر في بعض أزقة مكة فسمع رجلاً يغنى بذلك الشعر فلما وصل الغناء إلى البيت :

تَضَوَّعَ مِسْكَاً بَطْنُ نَعْمَانَ إِذْ مَشَتْ بِهِ زَيْنَبُ فِي نِسْوَةٍ عَطِرَاتِ
ضرب برجله وقال : هذا والله مما يلدأ استماعه^(٢) . وللنعميرى أشعار كثيرة في زينب ينتشرب بها وله قطعة يرثيها فيها فلم يُعرَف له مما غير هذا الغزل إلا أبيات وصف فيها خوفه من الحجاج بن يوسف وهروبه منه إلى اليمن^(٣) . ومن شعراء المدينة المشهورين بالغزل عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلي وتروى له قصائد لغزال براء^(٤) : « يا أوى » إلى مسجد الأحزاب منتقياً ، وفيها أيضاً افتخار^(٥) . ومن الحرى بالذكر أن الكَلَفَ بالنسيب وسماح الغناء قد عمَّ كلُّ أجناس الناس بمدن الحجاز فمن المشغوفين بهما غير واحد من الفقهاء الموصوفين بالعلم والفضل والنسك . فيُنشَد لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الشهير بعبيد الله بن مسعود أحد الفقهاء السبعة بالمدينة من أعلام التابعين المتوفى سنة ١٠٢ وقيل ٩٩ وقيل ٩٨ هذه الأبيات المروية في حماسة

(١) كتاب الأغاني ج ٦ ص ٢٥ - ٢٦ و ٣٠ من طبعة بولاق والقند لابن حيدر ج ٣ ص ١١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ ، ويوجد الشرقى تمامه في NOELDEKE, *Dialectus veterum carminum arabicorum*, p. 21-22.

(٢) كتاب الأغاني ج ٦ ص ٣٠ من طبعة بولاق ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٦٤٧ - من طبعة ليبك ١٨٦٦ - ١٨٧١ في مادة عرفت . أصعب هذا الشعر عائشة بنت طلحة (الأغاني ج ٦ ص ٣٠ و ج ١٠ ص ٦١) ولعنه هارون الرشيد طرباً عند سماعه (الأغاني ج ٦ ص ٣١) .

(٣) كتاب الأغاني ج ٦ ص ٢٨ من طبعة بولاق .

(٤) القصائد مروية في ديوان الملايين جلد ٢٤٦ و ٢٤٧ و ٢٤٨ و ٢٤٩ من طبعة برلين ١٨٨٤ .

أبي تمام^(١) وفي كتاب الأغاني^(٢) وفي وفيات الأعيان لابن خلكان^(٣) :

شَقَقْتُ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتُ فِيهِ هَوَاكَ فَلَيْمَ فَالْتَّامَ الْفُطُورُ
تَغْلَغَلَ حُبُّ عَشْمَةٍ فِي فُؤَادِي فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي يَسِيرُ
تَغْلَغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابُ وَلَا حُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ

وله في عشمه هذه التي تزوجها أشعار كثيرة ، وله أيضاً في امرأة من هذيل غاية في الجمال أتت المدينة وكادت تذهب بعقول أكثر الرجال أبيات يذكر فيها أسماء أشهر فقهاء المدينة ويستشهدهم على وفرة مودته لها^(٤) . ونستفيد من عدة روايات قديمة نقلت في كتاب الأغاني أن سعيد بن المسيب السابق ذكره الذي قال فيه ابن خلكان^(٥) إنه كان «سيد التابعين من الطراز الأول جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع ، أحب سماع الغناء وإنشاد أبيات الشعراء الغزليين والحكم في جودتها فقال جامع بن مَرْخَبَةُ الكلابي فكاهة^(٦) :

سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ مُنْقَى الْمَدِينَةِ هَلْ فِي حُبِّ ظَمِيَاءٍ مِنْ وَزِيرٍ
فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ إِنَّمَا تُلَامُ عَلَى مَا نَسْتَطِيعُ مِنَ الْأَمْرِ
وَعُرْوَةُ بْنُ أَذْيَنَةَ مِنْ أَعْيَانِ فَقَهَاءِ الْمَدِينَةِ وَالْمُحَدِّثِينَ رَوَى عَنْهُ مَالِكُ بْنُ
أَنَسٍ وَغَيْرِهِ كَانَ أَيْضاً مِنْ شُعْرَاءِ غَزَلٍ مُقَدِّمِينَ وَلَهُ الْأَشْعَارُ الرَّائِقَةُ غَنَّى فِيهَا

(١) كتاب الحماسة ص ٩٤ من طبعة بن أوج ٢ ص ١٦٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٩٨ من طبعة بولاق وظلها ثلاثة أبيات أخرى .

(٣) كتاب وفيات الأعيان عدد ٣٦٣ من طبعة غوتنبرج أو ٣٢٩ من الطبقات المصرية . - ومن الغريب أن البيت الأول (وفيه صدحت بدلا من شققت) والثالث ينسبان إلى قيس بن ذريح في كتاب الأغاني ج ٨ ص ١١٧ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٩٦ - ٩٧ من طبعة بولاق . روى له ابن عبد ربه في عقده ج ٢ ص

١٠٠ بعض الأبيات في الغزل .

(٥) وفيات الأعيان عدد ٣٦١ من طبعة غوتنبرج أو ٢٤٨ من الطبقات المصرية .

(٦) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٩٦ .

المغنون ولم يقل في غير الغزل شيئاً سوى مرثية لأخيه بكر^(١) .

ومن المفتونين بجماع الغناء والأشعار في التشبيب أبو السائب المخزومي من أهل المدينة قيل إنه كان « رجلاً صالحاً زاهداً متقللاً يصوم الدهر وكان أرق خلق الله وأشدّهم غزلاً »^(٢) وقيل أيضاً إنه « كان يصلي في كل يوم ليلة ألف ركعة »^(٣) وعلى ذلك له مع الشعراء والمغنين والمغنيات عدة نوادر وروايات يطول ذكرها هنا فيكفيها ما روي عن مصعب بن عبد الله بن مصعب^(٤) : « قال حضر أبو السائب المخزومي مجلساً فيه بضبط جارئة يحيى بن نفيس فغنت :

قلبي حبيس عليك موقوفٌ والعين عبّري والدمع مذروفٌ
والنفس في حسرة بغضنها قد شَفَّ أَرْجاءها التساويفُ
إن كنتِ بالحسن قد وصفتِ لنا فإنني بالهوى لَمَوْصوفُ
يا حسرتاً حسرة أموتُ بها إن لم يكن لي لديك معروف

قال فطرب أبو السائب ونمر وقال لا أعرف لله قدرة إن لم أعرف لك معروفك ثم أخذ قناعها عن رأسها وجعل يلطم ويبكي ويقول لها : بأبي والله أنتِ إنّي لأرجو أن تكوفي عند الله أفضل من الشهداء لما تولّيناه من السرور

(١) ناسخ كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٦٢ - ١٧٢ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٦٧ - ٢٦٨ من طبعة ليدن وحسامة أبي تمام ص ٥٦٩ من طبعة ابن أوج ٣ ص ١٤٣ من طبعة بولاق ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٦٧ من طبعة غوتجن أو عدد ٢٥٤ من الطبقات المصرية (ترجمة سكية بنت الحسين) والقدر لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠١ من طبعة مصر ١٣٠٥ .
[وكتاب المؤلف للأمل ص ٥٤ - ٥٥ من طبعة مصر ١٣٥٤ والبيان الجاحظ ج ٣ ص ١٣٠ من طبعة مصر ١٣٥١] .

(٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٣٠ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٠٩ سطر ٨ .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٢ ص ١١٨ من طبعة بولاق - سوف : مظهره وقال له مرة بعد مرة

سوف أنزل نمر : صالح وصوت بخيشومه - لطم : ضرب عليه أو صفحة جسده بالكف مفتوحة .

وجعل يصيح واغوثاه يا لله لما يلقى العاشقون . . - وكذلك عطاء بن أبي رباح المتوفى سنة ١١٤ أو ١١٥ من أجلاء الفقهاء والزهاد بمكة كان يهتز طرباً حين سمع غناء ابن سريج والغريض في الأشعار الغزلية^(١) فلم يستفبح إلا ما ورد أحياناً فيها من قلة احترام مناسك الحج^(٢) . ومن المشهور أن عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي من قراء أهل مكة الملقب بالقس لعبادته لما سمع غناء سلامة من المولدات القيان افتنن وشغف بها وقال فيها الأبيات والقصائد^(٣) . - وخلاصة القول أن سكان المدن الحجازية في أيام بني أمية إنما أرادوا من الشعر الغزل فلا عجب فيما رواه عبد الله بن مسلمة بن أسلم قال لقيت جريراً فقلت له يا أبا خزيمة إن شعرك رُفع إلى المدينة وأنا أحب أن تسمعني منه شيئاً . فقال إنكم يا أهل المدينة تُعجبكم النسب وإن أنسب الناس المخزومي يعني عمر بن أبي ربيعة .^(٤)

٢ - وهذا أو أن الشروع في الكلام على الصنف الثاني من الشعر في أيام بني أمية وهو النسب عند الأعراب . قد تقدم أن فحول شعراء الجاهلية لم يُفردوا للنسب والغزل أشعاراً خاصة وإنما أدرجوها في ضمن قصائدهم ولم يُطيسوها . أما نحو أواسط القرن الأول للهجرة وفيها يليها فأخذت بعض شعراء أهل الوبر المعدودين يقولون القصائد في مجرد النسب بل لا يتعاطون غيره وصناعتهم بعيدة عن أسلوب أشعار الجاهلية وعن منهج الغزليين

(١) كذلك كتاب الأغاني ج ١ ص ١٠٠ و ١٠٩ - ١١٠ و ١٢٦ إلخ من طبعة بولاق .

(٢) انظر بيتاً للمرجى في الأغاني ج ١ ص ١٦٢ وج ٢ ص ١٢٢ وج ٣ ص ١١٦ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٦ - ٩ من طبعة بولاق - ومن الفقهاء النساكين الشعراء الذين كان نسبهم رقيقاً وتشبيهم عجيباً عبد الله بن مبارك وشريح الذي كان قاضياً في أيام علي بن أبي طالب ومما روي فأنظر المقد لابين عبد ربه ج ٢ ص ١٠١ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ٣٦ من طبعة بولاق .

من أهل المدن فإنهم لا يعشقون إلا امرأة واحدة جعلوا عيشهم قداها ولا يتغزلون ولا يفتخرون بنيل وصلها وإنما يظهرون في شعرهم رقة القلب وشدة الحنو ويكثرون في بيان الصبابة وتوجع الكتابة وقلق الأشواق وألم الفراق وفرط الحزن والغم واليأس وكل ذلك مصوغ في قالب رشيق مترجم بلفظ رقيق وكلام لطيف عفيف لا يدخل فيه شيء من الخلاعة والشهوة الدنية . ومما استلفت أنظاركم إليه أن هؤلاء الشعراء جميعهم من قبائل قاطنة في الحجاز أو شمالي اليمن ليست منازلها بعيدة عن أحد الحرمين فكانت مثلاً بنو عقييل مقيمين بالتهامة عن جنوبي مكة وبنو ليث من كنانة بظاهر المدينة وكانت بنو عذرة يسكنون وادي القرى وما يليه في الطريق من المدينة إلى الحجر وتبوك . ثم مما يجب تنبيهكم إليه أن تلك القبائل إما كانت بنواحي اليمن مقيمة أو من اليمن متأصلة كأن رقة القلب أكثر في أهل اليمن منها في غيرهم^(١) فورد في كتاب الأغاني^(٢) عن المدائني ما نصه :

« قال ابن دأب قلت لرجل من بني عامر أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً . قال أرقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى أشعار المجانين إنهم لكثير . فقلت ليس هؤلاء أعنى إنما أعنى مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق . فقال هيئات بنو عامر أغلظ . أكباداً من ذاك إنما يكون هذا في هذه اليانية الضعاف قلوبها السخيفة عقولها الصلعة^(٣) رموشها ، فأما نزار فلا . فني بعض الأشعار تلميحات إلى رقة قلب أهل اليمن ، فني قصيدة

(١) قال ابن الفقيه المذلي في كتاب البلدان ص ٣٣ من طبعة ليدن ١٣٠٢ ما نصه : « وروى جاء أهل اليمن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاءكم أهل اليمن أرق قلوباً منكم وهم أول من جاءنا بالمصافحة » .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٧ من طبعة بولاق وراجع أيضاً ج ١ ص ١٦٩ .

(٣) [مكلاً في طبعة بولاق وفي طبعة دار الكتب المصرية ج ٢ ص ٣ : صحلة وهو الأصح] .

منسوبة إلى معجنون ليلى العاشق الساكن في نجد^(١) :

ولمَّنى يمانى الهوى مُنْجِدُ النوى سبيلان ألقى من خلافهما جهداً

ولعل من أقدم من اشتهر من هؤلاء الشعراء العشاق الذين ضربت بهم الأمثال وكثرت فيهم الحكايات والروايات الخيالية في كتب الأدب نوبة ابن الحمير من قوم بني عقييل (وهي فرع من ربيعة بن عامر بن صعصعة) كان كثير الغارات على أعداء حبه فقتل في إحدى غاراته في مدة خلافة معاوية (٤١١ - ٦٨٠) . وعشقه لليلى الأخيلى وشعره فيها مشهوران . ومن مُستجاد شعره هذان البيتان^(٢) :

لَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلَى وَدُونِ تَرْبَةٍ وَصَفَائِحُ

لَسَلَّمْتُ نَسْلِمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدًّا مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ

ومن أجود ما قاله قصيدة أولها^(٣) :

نَمَاتُكَ بَلَيْلَى دَارُهَا لَا تَزُورُهَا وَشَطَطُ نَوَاهَا وَاسْتَمَرَّ مَرِيرُهَا

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١١ من طبعة بولاق . - وكان بنو عامر نزاريين وسكنوا في جبل السراة بأرض نجد .

(٢) البيتان مرويان في حصة أبي تمام ص ٥٧٦ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١٥٠ من طبعة بولاق وفي الأغاني ج ١٠ ص ٨٢ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧٠ من طبعة ليدن وفي الأغاني والحماسة يليهما بيت ثالث لا يحصل معناه بما تقدم اتصالاً تاماً جلياً ويوجد في مكانه في كتاب ابن قتيبة وكتاب الخاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ (ص ١٨٩ - ١٩٠ من طبعة ليدن ١٨٩٨) البيت :

ولو أن ليلي في السماء لأصعدت بطرفي إلى ليلي العين الواسع

صدي : طائر تقول عرب الجاهلية إنه يخلق من رأس المقتول ولا يزال يصيح في رأسه إذا لم يؤخذ بشأه يقرل و اسقوني اسقوني حتى يقتل قاتله .

(٣) أول القصيدة (٧ أبيات) في كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٦٩ - ٢٧٠ من طبعة ليدن والباقي في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٦٩ من طبعة بولاق وبيتان في حصة أبي تمام ص ٥٩١ من طبعة بن أو ج ٢ ص ١٦٦ من طبعة بولاق وكل الأبيات في NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, P. 5-6.

إِلَّا أَنَّهُ خَتَمَهَا بِأَبْيَاتٍ تَخْرُجُ عَنِ النَّمْسِيبِ وَتَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ قَطْعِهِ الْفَيَاقِي
 الْهَائِلَةِ وَعَلَى اقْتِحَامِهِ الْأَخْطَارَ فَهِيَ عَلَى أَسْلُوبِ شِعْرِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ (١) :
 وَأَدْمَاءُ مِنْ حَرِّ الْمَهَارَى كَانَتْهَا مَهَاةٌ صَحَارٍ غَيْرُ مَا مَسَّ كُورُهَا
 قَطَعَتْ بِهَا أَجْوَازَ كُلِّ تَنْوِفَةٍ مَخُوفٍ رَدَاها كَلِّمَا أَسْتَنْ مُورُهَا
 تَرَى ضُعْفَاءَ الْقَوْمِ فِيهَا كَانَتْهُمْ دَعَامِيضُ مَاءٍ جَفَّ عَنْهَا غَدِيرُهَا

أَمَّا سَائِرُ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا مِنْ شِعْرَاءِ هَذَا الصَّنْفِ فَتَرَكُوا كُلَّ شَيْءٍ مِنَ
 الْحِمَاسَةِ وَوَصَفِ النَّاقَةِ وَالْقِفَارِ وَامْتَنَعُوا فِي قِصَائِدِهِمْ عَنْ كُلِّ مَا هُوَ غَيْرُ وَصْفِ
 حَالِ الْمُتَيْمِّمْ وَذَكَرِ حَرِّ الشُّوْقِ وَاللَّوْعَةِ . وَمِنْهُمْ قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ الْكِنَانِيُّ اللَّيْثِيُّ
 رَضِيعُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَاتَ سَنَةَ ٦٨ وَكَانَ مَنْزِلُ قَوْمِهِ فِي
 ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ . وَمِنَ الْمَشْهُورِ أَنَّ لُبَيْنَ بْنَ بَنِي كَعْبٍ بْنَ خُزَاعَةَ وَهُمْ قَوْمٌ
 أَصْلُهُمْ مِنَ الْيَمَنِ وَسَكَنَاهُمْ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ بِسَرْفٍ (٢) (بَيْنَ مَكَّةَ وَبِطْنِ مَرٍّ)
 وَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ فَتَزَوَّجَهَا وَبَعْدَ مَلَّةٍ طَلَّقَهَا كَارِهَاً فَذَابَ كَبِدُهُ وَجَدَّ عَلَيْهَا
 وَصَبَابَةٌ بِهَا فَقَالَ فِيهَا الْقِصَائِدُ الْمُشْجِيةُ . فَعَلَى مَا يُرْوَى (٣) « شُهِرَ أَمْرُ
 قَيْسٍ بِالْمَدِينَةِ وَغَنَى فِي شَعْرِهِ الْغَرِيضُ وَمَعْبَدٌ وَمَالِكٌ وَذُو وَهْمٍ فَلَمْ يَبْقَ شَرِيفٌ
 وَلَا وَضِيعٌ إِلَّا سَمِعَ بِذَلِكَ فَأَطْرَبَهُ وَحَزِنَ لْقَيْسٍ » . - وَمِنْ عُشَّاقِ الْعَرَبِ
 الَّذِينَ قَتَلَهُمُ الْهَوَى عُرْوَةُ بْنُ حِزَامٍ الْعُدْرِيُّ لَا يُعْرَفُ لَهُ شِعْرٌ إِلَّا فِي عَفْرَاءٍ وَهِيَ

(١) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٦٩ ، آدم : أسير - مها : نوع من البقر الوحشي - كور : رجل -
 أجواز : جمع جوز وهو وسط الشيء - تنويف : المفازة الواسعة - ودي يروي ودي هلك - استن اضطرب -
 المور القبار المتردد والتراب كثيره الريح - دعاميس جمع دعومس دويبه أو حودة سوداء تكون في التدران .
 (٢) سرف بفتح السين المهملة وكسر الراء موضع على ستة أميال من مكة (انظر معجم البلدان
 لياقوت ج ٣ ص ٧٧ - ٧٨ من طبعة ليبسك وسيم ما يستعمل الكبرى ص ٧٧٢ - ٧٧٣ من طبعة
 فونتينج ١٨٧٦) وقيل في الأغاني ج ٨ ص ١١٣ من طبعة بولاق [وكذا أيضاً في ج ٩ ص ١٨١ حاشية ١
 من طبعة دار الكتب المصرية] إن سرفاً على ستة أيام من مكة وهو تعريف .

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٢٨ من طبعة بولاق .

بنيت عنه كان تألفها إلفاً شديداً وهما صغيران يلعبان معاً فلما شباً خطبها ولكن عمه زوجها بـرجل من البلقاء تحملها إلى بلده عن شرق بحيرة لوط فتبعها نفسه واشتدّ وجداً بها حتى جُنّ فكان ذلك في أيام خلافة عثمان ابن عفان (٢٣٤-٢٥٦) إن صحّ خبر مرتقي إلى الهيثم بن عدي^(١) المتوفى سنة ٢٠٦ أو ٢٠٧ أو ٢٠٩ فإذا كان عروة بن حزام أقدم الشعراء المتبعين المعروفين . وشعره لطيف ظريف لكننا لم نعثر على ذكره من غنى فيه من المغنين قبل عهد بني العباس كأنه لم ينتشر صيته إلا نحو أواسط القرن الثاني .

ومن العذريين أيضاً جميل بن عبد الله بن معمر وهو المقدم على سائر شعراء النسيب من أهل البادية وقصته مثل قصة عروة بن حزام أعنى أنه «عشق بُثينة [العذرية] وهو صغير فلما كبر خطبها فرد عنها فقال الشعر فيها»^(٢) . وكان سكناه بنواحي تيماء ووادي القرى وقيل إنه مات سنة ٨٢^(٣) وأشعاره مشهورة لحسن اللفظ . وصفاته وتذبيج أجزائه ودقة المعنى وهي صادرة عن قلب صادق الصبابة والعشق . فمن أشهر أبيانه قوله^(٤) :

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٩٧ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٥٧ سطر ٢ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي في الباب التاسع عشر بعد المائة (ج ٧ ص ٣٥٣ من الطبعة الباريسية) .

(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٦٠ من الطبعة اليدنية .

(٣) قال ابن خلكان إن جميلاً توفي سنة ٨٢ هجرية في مصر (وفيات الأعيان عدد ١٤١ من طبعة فرنسجن أو عدد ١٣٨ من الطبقات المصرية) وراجع حسن المعاصرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي ج ١ ص ٢٥٦ من طبعة مصر المطبوعة على الحجر - فاعني المشرق الإيطالي Francesco Gabrieli بجمع أبيات جميل العذري المتبعة في كتب الأدب وضيها وبضبطها وانتقادها (انظر مقالته *Giamil al-'Udhri; studio critico e raccolta dei frammenti*, Rivista degli Studi Orientali, XVII, 19947, P. 40-71 et 139-172; *Contributi alla interpretazione di Giamil*, Riv. degli Studi Orientali, XVIII, 1999, P. 173-198. وفي نفس الوقت جمع بشير يموت أبيات جميل وطبعها بعنوان ديوان جميل في بيروت سنة ١٣٥٢) .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ٥١ وج ٢ ص ١٤٨ وج ٧ ص ٧٩ و ١٠٢ و ١٠٣ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٦٨ من طبعة ليدن .

خليلي فيا عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي

الذي أخذه أبو العتاهية حين قال :

يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل

ومن الغريب أن صبايته كانت سبب نشوب عداوة بينه وبين بني الأحب من عذرة وهم رعط. بشينة فهجاهم فهجوه^(١) وهذا منهج لم يذهب إليه غيره من شعراء هذا الصنف. ولما أشد التهاجي بينه وبين جواس بن قطبة أحد بني الأحب تنافرا إلى يهود تيماء في قصة تجدونها في كتاب الأغاني^(٢).

أما من نال في الشهرة الغاية القصوى من قنلى الهوى وذلك لوفرة ما روى فيه من القصص المتصلة والمنقطعة ومن الأخبار المنشورة والمنظومة فيس ابن المدوح العامري الملقب بالمجنون أو مجنون بني عامر أو مجنون ليلى لذهاب عقله بشدة عشقه ليلي العامرية التي كره أبوها أن يزوجه إياها فزوجه رجلاً آخر. ولا يخفى على أحد أن الرواة ذهبوا كل مذهب في نقل رواياته وأخباره وفي وصف شدة وجده الذي أصفر بسببه وشحب وهزل وأخذ بهم في القفار مع البهائم وينوحش مع الوحش في البراري وغير ذلك من الحكايات المتعددة. فزعم بعض الناس أنه رجل لم يكن قط. ولا عرف في الدنيا إلا باسم المجنون لأنه وضع الرواة فيعزى إلى ابن الكلبي النسابة الشهير المتوفى سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦ هذا القول :^(٣) وحللت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يروونها الناس للمجنون ونسبها

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٩٣ و ٩٤ و ١٠١ من طبعة بولاق.

(٢) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ١١٢ - ١١٣ وقيل في كتاب الشعر لابن قتيبة (ص ٢٦١ من طبعة ليدن) إن جواساً كان أخاً حبيبة وأحب أخت جميل وهذا على الأرجح غير صحيح.

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٧ من طبعة بولاق.

إليه . وفي قول يرتقى سَنَدُهُ إلى عَوَانَةِ بن الحَكَم الكَلْبِيِّ^(١) المتوفى سنة ١٤٧ :
 « المجنون اسم مستعار لا حقيقة له وليس له في بني عامر أصل ولا نسب .
 فسئل مَنْ قال هذه الأشعار فقال فتى من بني أمية » . أما غيرهما من علماء
 اللغة والأدب فما شكوا في وجود المجنون فقال الأصمعي^(٢) المتوفى نحو سنة
 ٢١٦ : « لم يكن مجنوناً ولكن كان فيه لُوثَةٌ كلوثة أبي حبة النُمَيْرِي » .
 وزاد فيه ابن قُتَيْبَةَ^(٣) : « هو من أشعر الناس على أنهم قد نَحَلوه شعراً
 كثيراً رقيقاً يُشَبِّه شعره » . فهذا أيضاً رأى الجاحظ . حيث قال^(٤) :
 « ماترك الناس شعراً مجهول القائل قيل في ليلٍ إلّا نسبوه إلى المجنون ولا شعراً
 هذه سبيلهُ قيل في لُبْنَى إلّا نسبوه إلى قيس بن ذَرِيح » . فلذلك قال
 صاحب كتاب الأغاني في ترجمة مجنون ليلي^(٥) : « وأنا أذكر ممّا وقع إلى
 من أخباره جُملاً مستحسنة متبرئاً من العُهْدَةِ فيها فإن أكثر أشعاره المذكورة
 في أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من حكيت عنه إليه وإذا
 قدّمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعنٍ ومتَّبِعٍ للمعيب » . وعلى كلِّ حال
 لا شك أن شهرة المجنون وشعره قد ذاعت بعد منتصف القرن الأوّل للهجرة
 إذ غنّى في شعره ابن مُخَرِّز والأخضر الجندى من مُغَنِّى المدينة في ذلك العصر
 فكان المجنون معاصراً لقيس بن ذريح إن صحّت الرواية المذكورة عن الهَيْثَم
 ابن عديّ في كتاب الأغاني^(٦) وكتاب الشعر والشعراء لابن قُتَيْبَةَ^(٧) وكتاب

(١) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٩ .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٧ وكتاب الشعر والشعراء لابن قُتَيْبَةَ ص ٣٥٥ من طبعة
 ليدن . لُوثَةٌ : من الجنون .

(٣) كتاب الشعر ص ٣٥٥ من الطبعة المذكورة .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٩ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٧٠ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٤ - ١٥ وراجع ج ٢ ص ١٧ (لقاء لقيس بن ذريح) .

(٧) كتاب الشعر ص ٣٦٠ - ٣٦٣ من طبعة ليدن .

مروج الذهب للمسعودي^(١) ثم من المشهور أن أهل التصوف بعد القرن الخامس أحبوا قصة المجنون ولبى لما رأوا فيها من أسنى الكناية عن أسرار النفس البشريّة ومن الرمز إلى اشتياق النفس الخالية عن الأهواء الدنيّة إلى الرجوع إلى الله والاقتران بذاته . فبقيس بن الملوّح المجنون وهواه مثلوا الذى وصل إلى أسنى منزلة من الطُّهر والعفاف وأشاروا إلى شدّة حبه لله وشوقه إلى وصله . أمّا ليلى الطاهرة الموصوفة بغاية الرونق كأنّ جمالها لا يُحتمل وكمالها منقطع النظر فصارت عندهم إشارة إلى بهاء اللاهوت ولألاء النور الأزلى فكثُر ذكر ليلى العامرية وعوالى نجد فى ديوان عمر بن الفارض وذهبت شعراء الفُرس والترك إلى نظم الأناشيد الطويلة المحتوية على ألوف أبيات بلغتهم يقصّون فيها قصّة أخبار ليلى والمجنون إشارة إلى أسرار الطُّرق الصوفيّة .

ومن شعراء أهل القبائل المقدّمين المشتهرين بهذا النوع من النسيب أبو صخر الهذليّ وكثير عزة ولكن بما أنّهما ذهبا أيضاً إلى قول الشعر فى المديح والهجاء والسياسة والمباحث الدينيّة وجالسا بنى أميّة بدمشق أرى من المناسب عليهما من غير هذا الصنف .

٣ - فلننتقل إلى الكلام على شعر الصنف الثالث أعنى الشعر على أسلوب فحول الجاهليّة .

قد تقدّم وصف كَلَف أهل المدن الحجازيّة فى القرن الأوّل بنوع من الشعر كاد لم يسبق إلى مشاهير القدماء وهو الغزل الذى لم يتعاطَ غيره شعراء مكّة والمدينة والطائف فى ذلك العصر . وتقدّم أيضاً أن شعراء أهل القبائل فى الحجاز وما يليها من أراضى نجد واليمن اختصوا بالنسيب وأفردوا له

(١) فى الباب التاسع عشر بعد المائة ج ٧ ص ٢٥٦ - ٢٦٠ من الطبعة الباريّة .

القصاصد الرائقة الطويلة خلافاً لعرف نوابغ الشعراء قبل الإسلام . فبالجملة وجدنا في الحجاز للشعر انقلاباً شديداً وانحرافاً ظاهراً عن أساليبه القديمة . ولكن إذا التفتنا إلى الشام وأمعنا النظر في حال الشعر بدمشق عند بنى أمية إلى آخر القرن الأول تعجبنا من وجود قريض الشعر هناك جارياً مجرى فزون الشعر الجاهليّ وكون أكثر الشعراء الوافدين على الخلفاء الأمويين النائلين منهم الجوائز البهية الجزيلة مقتدين في نظمهم الجيد بمن سبقهم قبل ظهور الإسلام . وحسبنا ذكر الأخطل وجريز والقرزدق وذو الرمة . وما سبب بقاء الأساليب القديمة في نفس عاصمة الشام على تقلبها بأرض الحجاز ؟

أوضحت فيما تقدّم تغير أحوال مدن الحجاز الاجتماعية بعد ظهور الإسلام وزيادة الثروة والرفاهية والتّرف فيها وقلة اشتغال أبنائها بالأغنياء بأمور الحرب والسياسة وعدم اعتنائهم بالعلوم النظرية العقلية المجهولة إذ ذاك للأمة العربية . فرأيت أن تلك الأحوال الخاصة كانت سبباً لحضر شعراء المدن الحجازية شعرهم في النمبب والغزل ونهجهم في ذلك طرُقاً غير مألوقة عند نوابغ شعراء الجاهلية الذين كانوا جميعهم يسكنون بعيداً عن تلك المدن . أمّا أحوال الشام في القرن الأول فإنها مختلفة عن أحوال الحرمين . كان مُعظّم أهل الشام من غير الناطقين بالضاد فلم يمكنهم تعاطي الشعر العربيّ ولا فهم محاسنه فمن الضروري أن ينفرد به هناك العرب المقيمون ببادية الشام من زمان قديم أو المرتحلون عن الأنحاء الشامية في عهد الفتوح وبعدها . ومن جمع الأخبار المتفرقة في كتب العرب والروم وأعمل فيها الفكر تلقى أن مدن الشام الكبيرة مثل دمشق والقُدس وحِمص وأنطاكية بقيت إلى أواخر القرن الأول على ما كانت عليه قبل الفتح الإسلامي تقريباً

لقلّة مَنْ استوطنها من العرب فإنّهم اختاروا السُّكنى في المدن الصغيرة والقُرى لا سيّما فيما يلي أطراف البادية مثل الرُّصافة وتَنْمُر وحرّارين وجابية^(١). ثمّ إن قطعنا النظر عن رجال السياسة وروّساء الجنود وهم كما تدرون أغلبهم من قُرَيْش مثل بنى أميّة وجدنا أنّ الذين أقاموا بالشام من العرب إنّما كانوا من أهل البادية والقبائل لا سبياً من نجد واليمن لأنّ سكان مكّة والمدينة والطائف والمدن اليمنية الكبرى لم يغارقوا أوطانهم ذات ثروة ورخاء للاستقرار في بلاد بعيدة. ولعلّ اليمنيين والذين انتسبوا إلى قحطان فاقوا في الشام القيسيين عدداً فلمّ إليهم خصوصاً امتند الأمويون لتأييد ملكهم^(٢). ثمّ زيدوا على ذلك أنّ الأوّل من خلفاء بنى أميّة لأغراضهم السياسية أحبّوا المصاهرة في كَلْب وهم قبيلة عظيمة من أولاد قحطان القُضاعيّين سكنوا المفاوز الواسعة الواقعة بين نجد والعراق والشام فلمّ تَدْمُر وسليمة وتبوك ودومة الجندل وبادية السماوة فتزوّج معاوية بن أبي سفيان امرأتين كلبيتين أعنى نائلة بنت عمار وميسون بنت بَحْدَل فولدت له ميسونُ يزيد الذي لما شبّ تزوّج امرأة كلبية أيضاً^(٣). فكانت أهل البدو يقدون إلى بنى أميّة أفواجاً فإلّا لطفهم الخلفاء وأنعموا عليهم ومن الجدير بالذكر أيضاً أنّ عبشة الصريان والروم القاطنين بالمدن الشامية لم تنزل قليلة التأثير في أميال العرب وعوائدهم إلى نحو أواخر القرن الأوّل ولا فتنتهم ولا أخذت بمجامع قلوبهم كأنّ حبّ البادية أشدّ من

H. LAMMENS, *Etudes sur le règne du calife omayyade Mo'awia Ier*, Beyrouth (١) 1908, P. 8; H. LAMMENS, *La Bادية et la Hira sous les Omayyades*, Mélanges Faculté Orientale, Beyrouth 1910, IV, P. 91 n. 1 [*Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth 1930, P. 325].

A. VON KREMER, *Culturgeschichte des Orients unter den Califen*, Wien 1875-77, (٢) II, P. 143; LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia Ier*, P. 8-9, 50-54.

(٣) أما مصاهرة معاوية ويزيد في بنى كلب فافطر ما قاله الأب لامنس في كتابه :

Etudes sur ... Mo'awia Ier, P. 309-312, 418.

الرغبة في سعة العيش والترّف ولذات المدن . وعلى ذلك دلائل متعددة اعتنى حديثاً بجمع أهمّها الأب هنري لامنس^(١) فقال إنّ العرب بعد الفتح عند احتلالهم البلاد المصّرة « رأوا فيها أنفسهم كالغريب الذي اعتاد سُكنى وطنه فلا يُطبق العيشة في غيرها . وكذلك العرب فإنّ مدن الشام مع سعتها ضاقت عليهم بعد توطنهم في البوادي يتجولون فيها كيف شاؤوا . وكانّ عمر بن الخطّاب شعرَ بما لقيه العرب من الجهد والعناء في سُكنى المدن فأراد أن ينشئ لهم في العراق على طَرَف الصحراء دساكر^(٢) يقطنونها . ليعتادوا التّمسير والعيشة المدنيّة تدريجاً كما يؤخذ من روايات فتوح البلدان لبلاذريّ [المتوفى سنة ٢٧٩] . وليس البصريّان في العراق أي البصرة والكوفة كما الفسطاط في مصر سوى مقامات كهذه متوسطة بين الحضر والبدو . والحق يقال إنّ العرب الأوّلين بعد خروجهم من مواطنهم البدوية واحتلالهم الأمصار كانوا يهيمون إلى البادية ويحبّون إلى نوقها ليرتووا من ألبانها ، وذلك ما كانوا يدعونه بالعِمة أي شهوة اللبن وأن لا يصير عنه الإنسان . . . فكانت العِمة كالداء المعروف في أيتامنا بداء الوطن . (nostalgie) ولنا على ذلك شواهد عديدة » . منها مثلاً ما يروى في مُسند أحمد بن حنبل^(٣) أنّ النبيّ خاف على أمتّه أنّهم « يُحبّون اللبن فيدعون الجماعات والجمع ويبدون » . ومما يروى في الشاعر الصّحابيّ النّابغة الجعديّ أنّه بعد قضاء أعوام في المدينة أَرَادَ الرجوع إلى قومه فدخل على عثمان بن عفّان فقال أستودعك الله يا أمير المؤمنين قال وأين تريد يا أبا ليلى قال الحقّ بليل فاشرب من ألبانها

(١) LAMMENS, *La Bédouine et la Hère sous les Omeyyades*, P. 91-119 [Études sur le siècle des]

[Omayyades, PP. 325-350.] وراجع ملخص هذه المقالة في المشرق ج ١١ سنة ١٩٠٨ ص ٧٧٢-٧٦٥ .

(٢) المعركة : القرية العظيمة .

(٣) مسند ابن حنبل ج ٤ ص ١٥٥ من طبعة مصر ١٣١٣ .

فلما منكر لنفسى فقال أتعرّبياً بعد الهجرة يا أبا ليلى؟ ! أما علمت أن ذلك مكروه؟ قال ما علمته وما كنت لأخرج حتى أعلمك. قال فأذن له وأجل له في ذلك أجلاً^(١). قال الأب لأمّس : «ففى إنكار عثمان على النابغة فعله نظراً لأنّ الخليفة كان يجد فى شوق العرب إلى باديتهم خطراً على الدولة إذ أنّهم لو رجعوا إلى مضاربهم لعدلوا عن ضبط الأمصار وأنفوا الجهاد فيقوى عليهم أعداؤهم ويسترجعون منهم الأمصار التى فتحوها بعد الحروب الطويلة والمشقات المصنّية . فملافاة لهذا الخطر أمر الخلفاء الراشدون بالألّا يدفع العطاء لغير المهاجرين . وفى صحيح البخارى (١٨٥ : ٤) أنّ الحجاج أخذ على بعض الصحابيين فى زمانه اعتزالهم عن المدن . . والكتبه الأولون كانوا يفرقون بين العرب والمهاجرين فيدعون ساكنى المدن بالمهاجرين وسكنة البادية بالعرب ومنه قول القطامى فى اتفاق العرب على تسويد ربيعة :
فليس من الأحياء إلّا مسوّدٌ ربيعةٌ أعرابيةٌ ومهاجرةٌ
«ولنا فى تفضيل العرب للبادية على الحضرة عدّة شواهد فى تاريخ النهضة الإسلامية فمن ذلك أنّ بنى كلب لما طردتهم قيس من مغاور السماوة وألجأهم إلى سكنى سواحل الشام كانوا يعدّون أنفسهم هناك كالمذنبين يتوقون إلى مواطنهم البدوية . قال زفر بن الحارث^(٢) :

يا كلبٌ قد كلب الزمان عليكمُ وأصابكم منى عذابٌ مرسلُ
إنّ السماوة لا سماوةٌ فالحقّى بالغور فالأفحاصُ بمنس الموقلُ
فجنوب عكا فالسواحل إنّها أرضٌ تلوب بها اللقاحُ ونهزلُ

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٣١ من طبعة بولاق [راجع مقالة مريم نليو an-Nabighah

في *al-Ghadi e la sua possio* [Rivista degli Studi Orientali, XIV, 1934, P. 983-984].

(٢) كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٢٤ . لقاح جمع لقحة وهى النقة الملوب الغزيرة اللبن .

« وكانت هذه القبائل تُعدُّ واحة دومة الجندل الغناء وعاصمة الشام
نفسها لقربها من القنطرة كمنازل وبيئة تنهك حمياتها قواهم » وذلك سبب
قول الأخطل^(١) :

كرهن دُباب دومة إذ عفاها غداة تُثارُ للموتى القبورُ
وقوله^(٢) :

سقى الله منه دارَ سلمى برية على أن سلمى ليس يُشفى سقمها
من العرييات البوادي ولم تكن تلوحها حمى دمشق ومومها
وفي دُرّة الغواص للحريري وشرحها للخفاجي ومُعجم البلدان لياقوت عدّة
أشعار من نسيج أهل البادية تصف كراحتهم للإقامة بالمدن مغتربين وشدة
شوقهم إلى البراري^(٣) فمن أشهرها شعر يُنسب إلى ميسون بنت بحدل الكلبيّة
قالت لما تزوّجها معاوية وهو والي الشام وقيل إنه لميسون بنت جندل الفرزاريّة^(٤) .
وما كان هذا الامتنكاف من عيشة المدن ممّا اختصّت به العوام بل إنّنا
نجدّه في كلّ طبقات الناس حتّى عند الأمراء والوجوه .

قال الأب لامنس : « ولما جعل معاوية كرمي ملكه في الفيحاء وترتب
على الأمويين أن يتخذوها كالمشبر الغربي لم يزالوا يحضّون إلى مفاوز البادية
ولعلمهم لم يسكنوها مطلقاً لولا بيعة الخلافة . وفي واقع الحال لا ترى من بني
أميّة أحداً أطلّ الإقامة في دمشق إلّا معاوية وعبد الملك . أمّا الآخرون فكانوا

(١) ديوان الأخطل ص ٢٠٣ سطر ٤ من طبة بيروت سنة ١٨٩١ [إل ١٩٢٥] .
الذباب ، الطامون .

(٢) ديوان الأخطل ص ١٢١ سطر ٥ - ٦ من الطبة المذكورة - لوح السفر أو العطر
فلاناً غيره وسفع وجهه - للوم البرسام pleurésie

(٣) بعض هذه الأشعار مروية في NOELDEKE, *Delictus colorum carminum arabicorum*.

(٤) الأبيات مروية في كتاب درة الغواص للحريري ص ٢٤ من الطبة القسطنطينية سنة ١٢٩٩ .

يأنفون السكنى فيها فيُسرعون إلى البَيْداء ولا سيَّما الوليد بن يزيد قال ابن عبد ربّه^(١) : «فلما وَلِيَ الأمرَ جعل يكرهُ المواضع التي يراه الناس فيها فلم يدخل مدينة من مدائن الشام حتى قتل ولم يزل يتنقل وينصيد» . وكان الأمويّون يقصِدون البادية أيضاً ليحافظوا على فصاحة العربيّة فلا يفسد لسانهم برطانة أهل المدن . وقد اختبر عبد الملك الأمر بابن الوليد فإن ابن عبد ربّه^(٢) روى عنه أنّه تراخى في تأديب ولده فكان لحاناً . وقال عبد الملك : أضربنا في الوليد حبناً له فلم نوجّههُ إلى البادية . ولما خلف الوليد أباه لم يشأ أن يكون ابنه رَوْح مثله فأنزله بين القبائل فنشأ في البادية فكانّه أعرابي . وعلى هذا المنوال صارت البادية كمدرسة للأمرء . وبالإجمال يمكن القول بأن الطبع الغريزيّ والوراثة الجديّة كانا يحولان العرب على الرجوع إلى منشئهم فيخرجون إلى البادية غاية إمكانهم وذلك في الشام كما في العراق وفي مصر كما في الحجاز فإن عبد العزيز [وهو أمير من بني أميّة] اتخذ له في مصر باديةً فجعلها في حلوان وكذا كان يفعل العلويّون في الحجاز بخروجهم إلى المساكن البدوية .

كانت العرب تعنى بلفظ التَّبَدُّى خروج أشرافها إلى البريّة بعد انتهاء هطل الأمطار وإقامتهم بالصحارى بقيّة سنتهم كأن البرارى مصيف يعتزلون فيه عن ضوضاء المدن ويرتاحون ويمتزّهون . فكانت هذه أيضاً عادة الأمويّين . قال الأب لامنس : «أما النواحي التي كانوا يجلّون فيها فكانت غالباً في بادية الشام أو ما كان بجوارها فإن معاوية كان يشتر

(١) كتاب العقد ج ٢ ص ٢٧٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني المتوفى سنة ٢١٥ وقيل ٢٢٥ وقيل ٢٣١ .

(٢) كتاب العقد ج ٢ ص ٢٥٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ وانظر أيضاً ج ١ ص ٢٢٤ .

بالصنبرة^(١) في الأردن . . وكذلك عبد الملك سكن الصنبرة مدة . إلا أن أكثر الأمويين اتخذوا لهم منازل في بادية الشام كما روى صاحب الأغاني والطبري وابن عساكر فإن هؤلاء المؤرخين وغيرهم أيضاً لا يكادون يذكرون خليفة منهم إلا ذكروا أيضاً تبدييه . فإن يزيد بن معاوية كان يقضى معظم سنته في حواريين^(٢) . وسكن ابنه خالد في البلقاء في قصر فديين حيث كان أيضاً سعيد أحد أقاربه . وكان عبد الملك بعد رجوعه عن الصنبرة يقضى شهر آذار في الجابية وكان له منتزه آخر في دومة الجندل . وكان خلفاء عبد الملك مواظبين على التبدي إلى آخر عمر بن عبد العزيز [٩٩٧ - ١٠١١] الذي سكن بلدة خناصر - أما منزل الخلفاء في البادية فكان يختلف فمنهم من كان يكتفي بضرب الخيم والسكن في المضارب كما أخبر . . عن هشام ابن عبد الملك [١٠١٤ - ١٠٢٩] . . لكن تلك المنازل إنما كانت مؤقتة فلم يوضع بها الخلفاء فاثروا بناء الثور الرخبة والقصور الجميلة . والمرجح أن بعضهم لم يعملوا إلى أبنية جديدة واكتفوا بأن أصلحوا ما وجدوه من الأبنية القديمة في طرف البادية حيث كانت تخوم الرومان . . ولما احتلوا تلك المباني التي سبقهم إلى تشييدها الروم زادوها جمالاً بما ألحقوا بها من المقاصير وزينوها بالزخارف والمحسنات فاتخذوا الحمامات وجعلوا فيها الأحواض وشيدوا لها المشارب^(٣) والعُلَيَّات وازدانوا المعاهد بالنقوش والتصاوير .

ليس هذا موضع وصف قصور بني أمية في البادية لاسيما في البلقاء عن شرقي بحيرة لوط التي اكتشفها في العشر السنين الأخيرة علماء المشرقيات وألفوا فيها الكتب الضخمة النفيسة . وبعض تلك الأبنية والقصور ورد

(١) الصنبرة موضع بين طبرية ونهر الأردن عند محل خروج النهر من بحيرة طبرية .

(٢) حواريين موضع بين دمشق وقلنسوة على مرطين من قلنسوة ما بين يزيد بن معاوية سنة ٩٤ هـ .

(٣) مشارب جمع مشربة وهي الفرة العلية .

أسمائها في نفس تأليفات العرب القديمة وأشعارهم مثل الموقر والقسطن والزيزاء
 وفدين وأبائر والنجزاء والأزرق والأغذف وبعضها لا نعرف إلا أسماءها المتداولة
 في أيامنا عند أهل تلك البراري وأقصرها وأفخمها قصير عمرة المزخرف
 حيطانها بالتصاوير الملونة العجيبة وهو مما بناه الوليد بن عبد الملك
 (٨٦٠ - ٩٦٠) والمشتى (أو المشتى على نطق الأعراب) ذو النقوش
 البديعة المحفوظة الآن في أحد متاحف برلين وهو على الرأي المرجح
 المقبول قصر بناء يزيد بن عبد الملك (٧٢٠ - ٧٢٤) ليعيش فيه مع جاريته
 حباة ولم يُتمه لموت عشيقته الذي سبق قتله ببسير^(١). فمن اعتبر تلك
 الأبنية استجاد قول عثمان بن الوليد بن عمار القرشي بعدما ذكر فعل الدهر
 بملك بني أمية^(٢).

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم فقرأ سوى الذكر والآثار إن ذكرُوا
 استطردت قليلاً بهذا البيان لأهميته ولا أرى في ذلك ضرراً لأنني في
 هذا المختصر الصغير السابق للبحث المستقصى عن بعض المسائل الخاصة
 أحب إيجاز الكلام فيها هو معروف والإطناب فيها هو غير متداول وإن عُدت
 موازنة أجزاء البيان . - أما خلاصة ما شرحته في الصحف السابقة فإثبات
 ما هو آت: ١ أن معظم الذين انتقلوا من جزيرة العرب إلى بلاد الشام للإقامة
 بها في زمان الفتح وبعده كان من أهل القبائل لا سيما اليمنية أو المنسوبة
 أصلها إلى اليمن . ٢ أن رجال قريش المرتحلين إلى أنحاء الشام كانوا من

(١) خطأ جرجي أنندي زيدان حين نسب بناء المشتى والقسطل وقصور غيرهما إلى بني فسان
 (كتاب العرب قبل الإسلام ج ١ ص ١٩٥ من طبعة مصر ١٩٠٨ ثم في مقالته في حوران المدرجة
 في مجلة الهلال لسنة التاسعة عشرة عدد ديسمبر ١٩١٠ ص ١٤٣ - ١٤٤) وإنما اختر برهم رحمه
 دوسر (Dussaud) في أول اكتشاف تلك المباني وهو ظن فاسد كما أظهره بعد روض علماء المشرقيات .
 (٢) حملة البحري ص ١٣٤ سطر ١ من طبعة لندن أو ص ٨٩ عدد ٤٠٠ من طبعة بيروت .

أهل العقد والحل مشغولين بأمور السلطان والسياسة والحرب لا يتعاطون الشعر على محبتهم له وتعظيمهم لقائله . ٣ إن سكان المدن الشامية الكبرى وهم سريان وروم لم يزالوا مدة طويلة بعد الفتح قليلي المعرفة باللغة العربية غير معتنين بشعرها وعلى مثل ذلك في العراق إلا أن سكانها الأصليين فرس وآراميون . ٤ إن الأعراب المهاجرين إلى الشام والعراق سواء كانوا من الخواص أم من العوام لم يزالوا هاتمين ببوادي أوطانهم كارهين عيشة المدن والإقامة بها . - فإن كان الأمر كذلك لم نتعجب أن الشعراء الوافدين إلى خلفاء بني أمية وأمرائهم في القرن الأول صاغوا نظمهم في قالب شعر من سلف من فحول شعراء الجاهلية ونهجوا طرقتهم في عمل القصائد على الأسلوب القديم في المديح والافتخار والحماسة والنسيب والهجاء وذكر الخمر .

أجمع علماء اللغة والأدب على أن الذين أدركوا أسمى منزلة في الشعر العربي في أيام بني أمية ثلاثة : الأخطل والفَرَزْدَق وجَرِير وهم من أهل القبائل ومن شعراء الصنف الثالث الذي نحن بصددده . وأقدمهم سناً الأخطل^(١) الذي لا نعرف سنة ولادته ولا سنة موته على وجه التحقيق^(٢) وما يُستخرج من المصادر القديمة الموثوق بها إنما هو أن الأخطل أخذ يشتهر في الشعر وهو شاب على عهد معاوية (٤١١ - ٦٨٠) كما يظهر أيضاً من ديوانه وأنه مات في خلافة الوليد بن عبد الله الذي تولى الأمر من سنة ٨٦ إلى سنة ٩٦ . وكان نصرانياً كمُعَظَم بني تغلب^(٣) وهم قبيلة عظيمة

(١) واسمه غياث بن غوث بن الصلت التغلبي .

(٢) قال الأب صالحاني في مقاله التي سماها الأخطل ومسئلة بن هيرة (في مجلة المشرق ج ١٤ سنة ١٩١١ ص ٨٢٢ - ٨٤٣) إن الأخطل ولد في سنة ٦٢٩ - ٦٣٠ بالتقريب ومات سنة ٩١/٧١٠ تقريباً وفي هذه المقالة أيضاً بحث تقى في فن الأخطل .

(٣) وهم من الذين وصفوا المسيح بالطبيعة الإلهية فقط (Monophysites)

من ربيعة سكنت في القرن الأول قسماً كبيراً من برية الجزيرة أعنى القسم المحدود بحدار الموصل وسنجار شمالاً ونهر دجلة شرقاً ودار تكريت وعانة ونهر الفرات جنوباً ونهر الخابور غرباً وهي برية متسعة جداً يقطعها نهر الشترار . ولكن لولا ما يروى في كتاب الأغاني من تمسكه بدينه ومن احترامه وخضوعه التام لرؤساء ديانته^(١) ولولا الأبيات الثلاثة التي قالها إنكاراً للدعاء عهد الملك إياه إلى الإسلام^(٢) ثم لولا ما قال فيه جرير معرضاً به^(٣) حاجياً له لتشككنا فيه بعد مطالعة ديوانه أهو مسلم أم نصراني . فإنه مزج أحياناً الديانتين فقال^(٤) :

إني وربُّ النصارى عند عياليهم والمسلمين إذا ما ضمها الجُمعُ
وربُّ كلِّ حبيس فوق صومعة يُحسبي ولا همُّ الدنيا ولا الطمعُ
لقد مدحتُ قريشاً واستعنتُ بهم إذا ما أنام إذا ما صُحبتُ هَجَعُوا

وقال يهجو بني أسد^(٥) :

فأما قَمَنِيكُمْ قُريشاً فإنها مصابيحُ يَرْمِيها بعينيه ناظرُ
فما أنتم منها ولكنكم لها عبيدُ العصا مادام للزيتِ عَصِيرُ
فما خُيِّمَت أكنافكم لنُبوة وأستاهكم قد أنكرتها المنابرُ

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٣ من طبعة بولاق .

(٢) ديوان الأخطل ص ١٥٤ سطر ٢ - ٤ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٢ [١٩٢٥] .

(٣) ديوان جرير ج ١ ص ١١ سطر ٤ و ص ١١٧ و ١٢٤ ج ٢ ص ٢٩ و ٥٦ و ٨٠

و ١٤٩ من طبعة مصر ١٣١٢ [أو من ٢١ سطر ٢ و ص ٢٦٢ و ٢٩١ - ٢٩٢ و ٤١٤ و ٤٥٠ و ٤٧٤ و ٥٧٦ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٤) ديوان ص ٧١ - ٧٢ من الطبعة المذكورة .

(٥) ديوان الأخطل ص ٣١٦ وانظر أيضاً حواشي الأب صالحاني ص ٥٠٠ . أما الشطر الثاني من البيت الثاني فراجع بيت جرير :

يا خزرتلبي إن التزم حالفكم ما دلم في ماردنين الزيت ينصر

في ديوانه ج ١ ص ١١٧ من طبعة مصر ١٣١٢ [أو من ٢٦٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

وقال أيضاً^(١) .

إِنِّي حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَاقِصَاتِ وَمَا
وَبِالْهَدْيِ إِذَا احْمَرَّتْ مَذَارِعُهَا
وَمَا بِزَمَزَمَ مِنْ شُعْطٍ مُحَلَّقَةٍ
لَأَلْجَأَنَّ قُرَيْشًا خَائِفًا وَجَلًّا
أَضْحَى بِمَكَّةَ مِنْ حُجْبٍ وَأَسْتَارِ
فِي يَوْمِ ذَبْحٍ وَتَشْرِيقِ وَتَنْحَارِ
وَمَا بِبَيْتِ رَبٍّ مِنْ عُونٍ وَأَبْكَارِ
وَوَلَّتْنِي قُرَيْشٌ بَعْدَ إِقْتَارِ
وقال أيضاً^(٢) :

وَقَدْ حَلَفْتُ بِمَيْنَا غَيْرَ كَاذِبَةٍ
وقال في الوليد بن عبد الملك^(٣) :

خَلِيفَةُ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِسُنَّتِهِ
الْفَيْثُ مِنْ عِنْدِ مُوَلِّي الْعِلْمِ مُنْتَهَبِهِ
وقال خالفاً^(٤) :

حَلَفْتُ بِمَنْ تُسَاقُ لَهُ الْهَدَايَا
وَمَنْ حَلَّتْ بِكُمْبَيْتِهِ النُّدُورُ
ولعلَّ لسانَ حال هذه الأبيات في شعر الأخطل قولُ القاضي عبد الوهاب
ابن عليّ البغداديّ في مدينة بغداد^(٥) :

ظَلَمْتُ حَيْرَانَ أَمْشَى فِي أَزْقَتِهَا
كَأَنِّي مَصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقِ
ولكنّها وإن كانت من أغرب الغرائب بادئَ نظر تُعْقِلُ إِذَا تَدَكَّرْنَا مَا
شرحته في إحدى الصحف السابقة من قلة العواطف الدينية عند أهل الوبر

(١) ديوان ص ١١٩ - هدى ما أهدي إلى الحرم من النعم وقيل هو جمع هدى - مدارع فوائم
- أشط الذي شعر رأسه أبيض وأسود - اللون جمع العوان وهي للمرأة النصف في سنها والتي كان لها زوج .

(٢) ديوان ص ١٨٤ .

(٣) ديوان ص ١٨٥ - بسطة بوجهه وطرافته - مولد العلم معطيه - منتخب يعني الله .

(٤) ديوان ص ٢٠٤ .

(٥) المتوفى سنة ٤٢٧ - البيت مروي في وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٤١١ من طبعة غوثيين

أو ٣٧٣ من الطبقات المصرية وفي فاكهة الخلفاء لابن مريشاه ص ٢٠٨ من طبعة موصل سنة ١٨٦٩ .

ثم إذا افترقنا في ورود مثل تلك العبارات والأيمان في شعر الأقدمين الذين أراد الأخطل أن ينهج مناهجهم ويحذو حذوهم ثم إذا لاحظنا أن جميع تلك الأبيات الإسلامية المذكورة وردت في قصائد في مدح بنى أمية، ومن الجدير بالذكر أيضاً أن عدى بن زيد العبادي النصراني الذي عاش في عهد الجاهلية حسب ما مر ذكره قد سبق الأخطل في مزج ديانتين حيث قال^(١) :

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب

ويروي أبو الحسن علي بن محمد المدائني المتوفى سنة ٢١٥ وقيل ٢٢٥ أو ٢٣١ أن بنى بكر بن وائل بالكوفة كانت إذا تشاجرت في شيء رخصت بالأخطل وكان يدخل المسجد فيقدمون إليه^(٢). فمن هذا القبيل أيضاً قصة الأخطل مع عكرمة بن ربيع الفياض في مسجد الكوفة رواها صاحب الأغاني عن نفس المدائني^(٣)، وليس ذلك بغريب في ذلك العصر لأن من آدمي الفكر في النصوص والشواهد القديمة عرف أن المساجد لم تُخصص أولاً بالأمور الدينية بل كانت أيضاً مجالس للقوم وأندية يتباحث فيها الناس عن مصالح الجماعة السياسية وغيرها من الأمور الدنيوية فلم يمنع النصراني عن المرور والوقوف بها^(٤). أما تخصيص المساجد بالصلاة وما يتعلق بالدين فابتدأ في أيام بنى العباس وهو أيضاً زمان حضر الخطبة على المنبر في أمور الدين^(٥).

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٢٤ من طبعة بولاق أو شعراء النصرانية ص ٤٥١ .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٧٩ . (٣) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٨٧ .

(٤) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'allaqat*, P. 8 n., 13 n., 58 n., 203 n., 372, 435-436

(٥) راجع GOLDZIEHER, *Der Chatib bei den alten Arabern* (Wiener Zeitschr. der Kunde des Morgenlandes VI, 1892) P. 99-101; G.H. BECKER, *Die Kanzel im Kultus des alten Islam* (Orientalistische Studien Th. Noldke gewidmet, Gießen 1905) p. 331-351.

أما اتصال الأخطل بخلفاء بني أمية وأمرائهم فأشهر من أن أحتاج إلى وصفه في هذا المختصر فأقتصر على ذكر سبب ابتداء ذلك الاتصال لما فيه من الدلالة الواضحة على بقاء كثير من عوائد القلاء وأما لهم عند العرب المهاجرين إلى بلاد الشام في القرن الأول . قد تشبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، الأنصاري أو بالأحرى أظهر أن يتشبيب برملة بنت الخليفة معاوية وقال فيها شعراً مروباً في كتاب الأغاني ^(١) كاد يهتك به عريضها والمرجح أنه فعل ذلك لبغضه للأمويين . فغضب يزيد بن معاوية وطلب من كعب بن جعيل التغلبي أن يهجو الأنصار كلهم فأبى خوفاً منهم ودلاً على الأخطل . فأحضره يزيد وأمره بهجاء الأنصار فقال فيهم الأبيات المشهورة ^(٢) . وإن في ذلك لنظراً لأنكم لو سمعتم هذا الخبر مجرداً عن أسماء أصحابه لظننتم أنه من روايات عرب الجاهلية لما فيه من استعمال الهجاء مدافعة عن العرض بل من عم قوم الخصم قاطبة بالهجاء والإقذاع . وفي ديوان الأخطل أبيات أخرى يهجو بها الأنصار والسبب في ذلك سياسي لأن الأنصار سوى نفر قليلين تحزبوا لعلي بن أبي طالب وقتلوا معاوية في يوم صفين ثم لم يزالوا مبغضين بني أمية إلى أواخر القرن الأول .

إن الأقطاب التي يدور عليها ديوانه هي مدح الخلفاء والأمراء من بني أمية وهجاء أعدائهم من العلويين والأنصار وأصحاب عبد الله بن الزبير والافتخار بحروب جرت بين قومه وقوم القيسيين وذكر الخمر وما في شربها من اللذات . أما المراثي فلا يوجد منها في ديوانه إلا قطعة واحدة وهي أربعة

(١) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ١٤٨ وج ١٤ ص ١٢٢ من طبعة بولاق .

(٢) ديوان الأخطل ص ٣١٤ وبسبب المراقبة المأينة ألغيت الأبيات في نسخ الديوان المطبوع خير المرسلة إلى أوروبا مع ورودها في الأغاني ج ١٣ ص ١٤٨ وج ١٤ ص ١٢٢ وفي كتاب العقد الفريد ج ٣ ص ١١٢ من طبعة ١٣٠٥ فنقلها الأب لامنس إلى اللغة الفرنسية في مقاله *Le chantre des Omidas (Journal Asiatique, ser. IX, t. IV, 1894) P. 195.*

أبيات يروى بها يزيد بن معاوية وهذا عجيب^(١) . ومن مدائحه الشهيرة القصيدة التي مطلعها^(٢) :

خَفَّ القَطِينُ فراحوا منك أو بكرُوا وأزعجتهم نَوَى في صَدْرِهَا غَيْرُ
وهي أفخر ما قيل من الشعر باللغة العربية .

من المشهور أن الأخطل كان معاقراً للخمر كأنه رأى أنها تجود
قريحة الشاعر فقال مرة للمتوكل الليثي الشاعر : « لو نَبَحْتَ الخمرُ في
جوفك كنت أشعر الناس » . وفي ديوانه ما نصه^(٣) : « قال له عبد الملك
وما بلغ منك الشراب . قال يا أمير المؤمنين إذا شربتها فالموت أهونُ عليَّ
من شمس نعل . فقال له قل فيه شعراً وإلا ضربت عنقك » . فقال^(٤) :

إذا ما ندبني عَلى ثم عَلى ثلاث زُجاجاتٍ لهن هديرُ
جعلتُ أجْرُ الذيل منى كائنِي عليك أمير المؤمنين أميرُ

أما على ظنني فالمرجح أنه لم يتعاط الخمرات لمحض حبه للخمر وأن غرضه
في نعوت الحميا وأوصافها كان أيضاً الاقتداء بكثير من شعراء الجاهلية

(١) ديوان ص ٢٨٩ ونقلها الأب لانس في مقاله المذكورة سابقاً ص ١٢٩ - ١٤٠ وأول
من لب إلى ذلك هو الأب أ . صالحاني ص ٣٤٥ في ترجمة الأخطل .

(٢) ديوان ص ٩٨ - ١١٢ . (٣) ديوان ص ١٥٤ .

(٤) ديوان ص ١٥٤ . والبيتان مرويان أيضاً في الألفاني ج ٢١ ص ٤ سطر ٢٢ - ٢٣ وفي
زياد (يعني زياد ابن أبيه المتوفى سنة ١٥٦ و ١٥٧) بدلا من قدیمی وزهواً بدلا من منى ومخرجت بدلا
من جعلت و ص ٥ سطر ٨ - ٩ بروايتي مخرجت وزهواً - ويوجد معنى مثل معنى الشطر الأخير
في بيتي المنخل اليشكري من شعراء الحيرة (كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٤٨ - ١٤٩ من طبعة
مصر ١٣١٣ وشعراء النصرانية ص ٤٢٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٣٩ من طبعة ليدن وحيدة أبي
تمام ص ٢٦٦ - ٢٦٧ من طبعة بن أوج ج ٢ ص ٤٨ من طبعة بولاق) :

فإذا سكرت فإنسني رب الخورق والدير
وإذا صحوت فإني رب الشوكة والبير

أما جر ذيل المطرف فهو دليل على الغضب والافتخار فراجع ما يروى في كامل المبرد ص ٢٧
من طبعة ليبيك أوج ١ ص ٢٢ - ٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ من الأبيات والأحاديث النبوية
[وغير ذلك ما أورده الأستاذ تليور في *Raccolta di scritti* ج ٢ ص ٢٦٠ حاشية ١] .

البارعين كما اقتدى بهم في سائر أفانين شعره . ولعلّه إلى ذلك أشار بقوله في
أوّل إحدى خمريّاته (١) :

شربنا فمئتنا ميتة جاهليّة مضي أهلها لم يعرفوا ما محمد
وعلى منوال القدماء النوايغ لم يأت بالنسيب إلّا في أوائل القصائد غير
أنّه في نسيبه سلك أحياناً مسلكاً غير المألوف في قصائد الجاهليّة البارعين
لهبلاً من أطلال قوم معشوقته ذكر فيه الفتيات ذوات شكل ودلال مثل قوله
في قصيدة هجا بها جريراً واقتخر على قيس (٢) :

وتغولت لندروّعنا جنيّة والغانيات يُرينك الأهوالاً
يمدّدن من هفواتهنّ إلى الصبى سبباً يصدّن به الغواة طوالاً
ما إن رأيت كمكّرهنّ إذا جرى فينا ولا كحباليهنّ حبّالاً
المهديّات لمن هوين مَسْبّة والمُحسّينات لمن قلّين مقالاً
يرعّين عهدك ما رأيّتك شاهداً وإذا ملّيت يصرونّ عنك مِداًلاً...

ثم من الحرى بالاعتبار قول عمر بن شبّة المتوفى سنة ٢٦٢ : كان ممّا
يقدم به الأخطل أنه كان أخبثهم هجاء في عفاف من الفحش . وقال
الأخطل ما هجوت أحداً قط بما تستحي العذراء أن تُنشده أباه (٣) . وهذا
القول صحيح إن تركنا أربعة أو خمسة أبيات من هجائه فخالف
الأخطل في عفافه هذا أساليب كثير من السلف ومعاصريه الشهيرين جرير
والفرزدق والذين ملّوا هجاءهم ما يستنكف ذو أدب من إنشاده وتنبو
عنه الآذان .

(١) ديوان ص ٣٢١ .

(٢) ديوان ص ٤٢ - ٤٣ وانظر أيضاً ص ٩٩ - ١٠٠ في القصيدة التي قالها يملح بن أبي أمية .

(٣) كتاب الألفاق ج ٧ ص ١٧٨ من طبعة بولاق .

قد سبق تلميح إلى نقائص الأخطل وجرير وكان سبب اضطرام نار
العداوة بينهما مناضلة الأول عن الفرزدق لما أخذ جرير يهجه . والفرزدق
واسمه همام بن غالب كان من بني دارم حى من تميم أقامت بنواحي البصرة
بعد الفتح الإسلامى فولد في أواخر خلافة عمر بن الخطاب المتوفى سنة ٢٢
أما سنة مماته بالبصرة فاختلفت فيها الرواة فقال بعضهم سنة ١١٠ وبعضهم
سنة ١١١ أو ١١٢ أو ١١٤^(١) . وكان كأكثر أهل البادية رحلاً ينتقل
من موضع إلى موضع ويكره الإقامة الطويلة بمحل ؛ فنجدته تارة بالبصرة وتارة
بالكوفة ومرة بالمنبئة ومرة في أرض البلقاء من الشام وافداً على خلفاء بني أمية
مثل الوليد وسليمان ابني عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . ويلوح مما جاءنا
من أخباره وأشعاره العديدة أنه كان على جيد شعره دنى النفس فمدح
من نال منه الجوائز وهجا من لم يشد منه ما رجا فربما بعد الثناء الوافر
على أحد الكبار في قصيدة أخذ يشتبه شتماً قبيحاً في قصيدة أخرى . فأطراً
مرة عمر بن هبيرة الفزاري وإلى العراق بعد موت الحجاج بن يوسف وعد
مفاخر قومه ثم بذلك المدح سبباً فقال فيه وفي بني فزارة شعراً بشعاً^(٢) وهجا

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٧٨٨ من طبعة غوتنبرج أو عدد ٧٥٥ من الطبعة
المصرية وقال صاحب كتاب الأغاني (ج ١٩ ص ٦) في رواية عن أبي زيد النحوي : « وتوفي
الفرزدق في سنة عشر ومائة في خلافة هشام (١٠٥ - ١٢٥) وجرير والحسن وابن سيرين في سنة أشهر .
وحكى ذلك عن جماعة منهم الفلابي عن ابن عائشة عن أبيه ، وقال في نفس الجزء (ص ٤٥) « وقال أبو زيد
مات الحسن وابن سيرين والفرزدق وجرير في سنة عشر ومائة . . . وهذا غلط من أبي زيد وابن شبة لأن
الفرزدق مات بعد يوم كاطمة وكان ذلك في سنة اثنتي عشرة ومائة وقد قال فيه الفرزدق الشعر وذكره في
مواضع من قصائده ويتوفى ذلك أيضاً ما أخبرنا به وكيع قال : حدثنا عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات
قال : حدثني ابن النطاح عن المدايني عن أبي اليفطان وأبي همام المجاشعي أن الفرزدق مات سنة أربع عشرة
ومائة « ثم قال في ص ٤٦ : « وقال ابن زكرياء الفلابي عن ابن عائشة قال : مات الفرزدق وجرير في سنة
عشرة (كذا) ومائة ومات جرير بعده ستة أشهر ومات في هذه السنة الحسن البصري وابن سيرين «
وفي ص ٤٨ : « قال أبو عبيدة ومات الفرزدق في سنة عشر ومائة . ويقال في كل الروايات إن جريراً
توفي بعد خصمه .

(٢) في الملح : ديوان ص ١٧٨ - ١٧٩ من طبعة باريس ١٨٧٠ بناية Boucher الذي
نقل أيضاً الفصائد إلى اللغة الفرنسية [أو ص ٢٨٠ - ٢٨٢ من طبعة مصر ١٢٥٤] ولا توجد
هذه القصيدة في طبعة مصر ١٢٩٣ - في الهجاء : ديوان ص ١٧٩ - ١٨١ من طبعة باريس [أو ص
٢٨٢ - ٢٨٦ من طبعة مصر ١٢٥٤] ولا توجد في طبعة مصر ١٢٩٣ . وروى التبريزي في شرحه على -

في بضع قصائد آل المهلب بن أبي صفرة الأزدي من أشهر بيوتات البصرة
وقال مثلاً^(١):

وَجَدْنَا الْأَزْدَ مِنْ بَصَلٍ وَثُومٍ وَأَذْنَى النَّاسِ مِنْ دَنْسٍ وَعَارٍ
صَرَارِيُونَ يَنْضِجُ فِي لِحَامِهِمْ نَفْيُ الْمَاءِ مِنْ خَشَبٍ وَقَارٍ
مع ما يليها من الكلام القدير الذي يستقبح إيرادُه هنا . ولكن لم يمنعهُ
هذا ومجاء آخر مثله عن الثناء على آل المهلب حين تغيّرت منزلته عندهم
فقال مثلاً^(٢):

لَأَمْدَحَنَّ بَنِي الْمَهْلَبِ مِدْحَةً غَرَاءَ ظَاهِرَةً عَلَى الْأَشْعَارِ
مِثْلَ النُّجُومِ أَمَامَهَا قَمَرٌ لَهَا يَجْلُو الدُّجَى وَيُضِيءُ لَيْلَ السَّارِ
وَرِثُوا الطَّعَانَ عَنِ الْمَهْلَبِ وَالْقِرَى وَخَلَانِقًا كَسَدَفُوقِ الْأَنْهَارِ
كُلَّ الْمَكَارِمِ عَنْ يَدَيْهِ تَقَسَّمُوا إِذْ مَاتَ رِزْقُ أَرَامِلِ الْأَمْصَارِ
كَانَ الْمَهْلَبُ لِلْعِرَاقِ سَكِينَةً وَحَيَا الرَّبِيعِ وَمَقِيلَ الْفُرَارِ

وكان علويًا قلنا حج هشام بن عبد الملك في أيام أبيه والتقى في الطواف
زين العابدين على بن الحسين بن علي بن أبي طالب وقال هشام لا أعرفه

= حساسة أبي تمام (ص ١٩٢ من طبعة بن أوج ١ ص ٢٠٥ من طبعة بولاق) يبين من هذه القصيدة التي
تحتوي على ٣٧ بيتاً .

(١) ديوان ص ٨٥ - ٨٦ من طبعة باريس أو ١٧٥ - ١٧٦ من طبعة مصر ١٢٩٣
[أو ص ٢٠٢ - ٢٠٤ من طبعة ١٣٥٤] وانظر HELL, *al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten* (Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft, 59, 1905, P. 595-600)
et SCHWARZ, *al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten* (Zeitsch. d. deutschen morgenl. Gesell., 74, 1919 P. 80-85).
- الصراري الملاح - أما الأزدي فهم ماكنون على شاطئ البحر في البصرة .
(٢) ديوان ص ٤٦٥ من طبعة لين ١٩٠١ بنائية Hell [ص ٣٧١ - ٣٧٥ من طبعة
مصر ١٣٥٤] ولا تروى هذه القصيدة في الطبعين الآخرين . ويجمع J. Hell كل القصائد التي
يجمع الفرزدق فيها آل مهلب أو يجمع في المقالة المسماة *al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten*
المطبوعة في المجلة *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft* ج ٩٥ ص ٥٨٩ - ٦٢١
وج ٦٠ ص ٤٨ - ١ . [وقد أثنى P. Schwarz بتصحیح هذه المقالة في المجلة نفسها ج ٧٢ سنة ١٩١٩
ص ٨٠ - ١٢٦] .

مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، قال الفرزدق وهو كبير السن قصيدة
غراء مدح بها زين العابدين وأولها^(١) :

هذا الذي تعرف البطحاء وطائته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلة بجده أنبياء الله قد خُيِّمُوا
وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

ومنها :

إذا رأت قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يُغْضِي حياءً وَيُغْضِي من مهابتِهِ فما يكلم إلا حين يبتسم
نفضب هشام وحبس الفرزدق بين مكة والمدينة . بيد أن ميله هذا إلى
العلويين وعبد الله بن الزبير لم يمنعه عن سبك الأشعار الرائقة في مدح
الأمويين ووصفهم أحياناً فيها بعبارات دينية أصبحت كأنها ضالة في أثناء
مثل تلك القصائد المنسوجة على أساليب عرب الجاهلية . فقال في سليمان

(١) ديوان ص ١٩٨ - ١٩٩ من طبعة مصر ١٢٩٣ (٢٧ بيتاً) [أو ص ٨٤٨ - ٨٤٩
من طبعة سنة ١٣٥٤ (٦ أبيات)] ولا توجد هذه القصيدة في طبعة باريس فانظر أيضاً كتاب الأغاني
ج ١٩ ص ٤٠ - ٤١ (٢٠ بيتاً) ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٧٨٨ من طبعة غوثنجن أو ٧٥٥
من طبعات مصر (٢٧ بيتاً وثنيتها غير ترتيب أبيات الديوان) ومن الغريب أن هذه القصيدة منسوبة إلى
الحزين الليثي (وهو عمرو بن عبد بن وهيب) الذي « قالها في علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب » في
حماة أبي تمام ص ٧١٠ - ٧١١ من طبعة ابن أوج ج ٤ ص ٨٢ - ٨٣ من طبعة بولاق (٦ أبيات)
وكتاب الأغاني ج ١٤ ص ٧٧ (٣ أبيات) ولكن صاحب الأغاني في نقص هذا الجزء ص ٧٨ يقول إنها
للفرزدق ويرى ٧ أبيات فقال التبريزي في شرحه على الحماة : « ويقال إنها لفرزدق » .

وروى بيتان منها في كتاب الشعر لابن تينة (ص ٧ من الطبعة الليديّة) هكذا : « كقول
اقائل : وقيل في بعض النسخ : « في بعض بني أمية » والأبيات مروية أيضاً لندارد بن سلم أو خالد
ابن يزيد في قم بن النباش أو علي بن الحسين (كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٧٨ - ٧٩) وروى الجاحظ في
كتاب الحيوان ج ٣ ص ٤٦ من طبعة مصر ١٣٢٢ - ١٣٢٥ أربعة أبيات قالها « الشاعر في بعض بني
مروان » .

ابن عبد الملك ($\frac{96}{717} - \frac{99}{720}$)^(١) :

وبالمسجد الأقصى الإمام الذي اهتدى به من قلوب المُتَرَبِّين ضلالها
به كشف الله البلاء وأشرقته له الأرض والآفاق نحس هلالها
ومنها :

وَجَدْنَا بَنِي مروان أوتادَ جِوِينَا كما الأرض أوتادَ عليها جبالها
وَأَنْتُمْ لهذا الدين كالقُبلة التي بها أن يضلَّ الناسُ يَهْدَى ضلالها

وقال يمدح هشام بن عبد الملك ($\frac{100}{724} - \frac{120}{744}$)^(٢) :

وما تركتُ كَفًّا هشامَ مدينةَ بها عِوَجٌ في الدين إلا تَقَوُّمًا
يُودِي إلى الخَرْجِ مَنْ كانَ مشركًا ويرضى به مَنْ كانَ اللهُ مُسْلِمًا

وقال في يزيد بن عبد الملك ($\frac{101}{720} - \frac{105}{724}$)^(٣) :

ورثت ابنَ حرب وابنَ مروانَ والدي به نصرَ الله النبي مُحَمَّدًا
تري الوحش يستعجبه إذ عرفته له فوق أركانِ الجرائمِ سُجْدًا
ومنها :

ولو صاحَبَتُهُ الأنبياءُ ذُوو النُهَى رأوةً مع المُلُوكِ العظيمِ المسوَدَا

وقال يمدح هشام بن عبد الملك^(٤) :

رَأَيْتُ بَنِي مروانَ يَرْفَعُ مُلْكُهُمْ ملوكُ شَبَابٍ كالأسودِ وشيْبها

(١) ديوان ص ١٣ و ص ١٦ مطر ٩ - ١٠ من طبعة باريس أو ص ١٤٣ و ١٤٤ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٦١٩ و ٦٢٣ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ص ٣٢ من طبعة باريس [أو ص ٧٥١ من طبعة ١٣٥٤] ولا توجد القصيدة في طبعة ١٢٩٣ .

(٣) ديوان ص ١٨٤ من طبعة باريس [أو ص ١٦٩ - ١٧٠ من طبعة ١٣٥٤] والقصيدة غير موجودة في طبعة ١٢٩٣ .

(٤) ديوان ص ١٥٤ من طبعة باريس [أو ص ٦٣ من طبعة ١٣٥٤] الديوان منبر النبي

ومصاه .

بِهِمْ جَمَعَ اللَّهُ الصَّلَاةَ فَأَصْبَحَتْ قَدْ اجْتَمَعَتْ بَعْدَ اخْتِلَافٍ شَعُوبُهَا
وَمَنْ وَرِثَ التَّوْدِينَ وَالْخَاتَمَ الَّذِي لَهُ الْمَلِكُ وَالْأَرْضُ الْفَضَاءُ رَحِيْبُهَا
أَمَّا سَائِرُ مَدَائِحِهِ لِبْنِي أُمِيَّةٍ فَجَارٍ فِي قَالِبِ الْمَدْحِ الْجَاهِلِيِّ الْخَالِصِ وَرَبِّمَا
اجْتَرَأَ الْفَرَزْدَقُ بِهَجَاءِ نَفْسِ الْخُلَفَاءِ مِثْلَ قَوْلِهِ حِينَ أُعْطِيَ مَعَاوِيَةُ الْخُتَاتُ بْنُ
يَزِيدَ الْمَجَاشِعِيُّ مِنْ أَصْدِقَاءِ الشَّاعِرِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فَلَمْ يَخْرُجِ الْخُتَاتُ مِنْ
دِمَشْقٍ حَتَّى مَاتَ فَرُدُّ الْمَالِ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ (١) :

أَتَا كُلُّ مِيرَاثٍ الْخُتَاتِ ظَلَامَةً وَبِإِرَاثِ حَرْبٍ جَامِدٌ لَكَ ذَائِبَةٌ
أَبُوكَ وَهَى يَا مَعَاوِيَ أَوْرَثَنَا تَرَاثًا فَبَحْثَازُ الثَّرَاثِ أَقَارِبَةٌ
فَاوْ كَانَ هَذَا الدِّينُ فِي جَاهِلِيَّةٍ عَرَفَتْ مِنَ الْعَوَالِي الْقَلِيلُ حَلَالِبَةٌ
وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي غَيْرِ مُلْكِكُمْ لِأَبْدَيْتُهُ أَوْ غَضَّ بِالْمَاءِ شَارِبَةٌ
وَكَمْ مِنْ أَبِي لِي يَا مَعَاوِيَ لَمْ يَكُنْ أَبُوكَ الَّذِي مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ يُقَارِبَةٌ

إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ السَّفِيهِ غَرِيبٌ جَدًّا مِنْ رَجُلٍ جَعَلَ شَعْرَهُ مَكْسَبًا وَطَعِمَ فِي
هَدَايَا الْمُلُوكِ وَالْأَكَابِرِ وَلَكِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ مَعْقُولٌ إِذَا تَأَمَّلْنَا أَحْوَالَ الْمُلُوكِ
وَالْمُسْلِمِينَ الْمُنْتَظَلِينَ إِلَى أَرَاضِي الشَّامِ وَالْعِرَاقِ بَعْدَ الْفَتْوحِ . كَانَ مُعْظَمُ الْعَرَبِ
الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ الْأَنْحَاءِ مِنْ أَهْلِ الْقَبَائِلِ فَلَمْ يَزَالُوا هُنَاكَ عَلَى مَا كَانُوا اعْتَادُوهُ
مِنَ الزَّمَانِ الْقَدِيمِ مِنَ الْعَوَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَفْكَارِ وَالْآرَاءِ سِوَى الدِّينِيَّةِ
فَمَا بَرِحَ يَنْبِضُ عَنْهُمْ هَرَقُ الْعَصَبِيَّةِ فَمَا فَتَنُوا مَوْلَعِينَ بِالْحَرِّيَّةِ وَالْإِسْتِقْلَالِ
التَّامِّ قَلِيلِي الطَّاعَةِ غَيْرَ مُنْقَادِينَ لَا يَفْهَمُونَ وَجُوبَ قُوَّةٍ شَدِيدَةٍ وَحِدَةٍ وَأَمْرٍ

(١) ديوان ص ٧٠ من طبعة باريس أو ص ١٦٧ - ١٦٨ من طبعة ١٢٩٣ [أو ص ٤٩
من طبعة ١٣٥٤] وراجع أيضاً كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٣٧ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٩٧ من
طبعة ليدن . ويروى في ديوان ص ١٢٤ من طبعة باريس أو ص ١٩٢ من طبعة مصر ١٢٩٣
[أو ص ٧٨١ من طبعة ١٣٥٤] بيتان يهجو بهما هشام بن عبد الملك الذي تولى الأمر وهو ابن أربع
وثلاثين سنة وذلك قال الشاعر إنه « ظلام » .

متين مطاع لإثبات مملكة واسعة محتوية على أُمم مختلفة ولدفاع سطوات العدو عنها . إنهم كانوا يعتبرون منزلة الخليفة في جملة الأمة الإسلامية كمنزلة السيد البدوي في قومه أعنى أن أمير المؤمنين على رأسهم إنما كان رجلاً وكُلُّهُ الجماعة به بالسؤدد وتولى مصالحها فلا يطاع إلا بما رُضِيَتْ الجماعة به . فلو أراد الخليفة إلزامهم مثل ما ألزم أهل الحضرة المتشددين لما بلغ مَرَامُهُ بل أثار الفتن والعُصيان وعرض المملكة على خطر عظيم . وفطن بذلك معاوية لما جُبل له من البراعة والحيلة في أمور السياسة فتحمل من أعرابه ما لم ينحمله من غيرهم كما يتضح من عدة أخبار متفرقة في كتب قديمة مثل تأليفات الجاحظ . وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه وتاريخ الطبري وغيرها . فجعل الحلم والصبر أساس معاملته الأعراب كأنَّ حكمة سيرته القول المنسوب إلى علي بن أبي طالب : « حُلمك على السفيه يُكثِر أنصارك عليه »^(١) . ولكنَّ حلمه ذلك الذي وُصِف به في القصائد والكتب لم يكن عنده الشفقة والرحمة بل إنما كان العقل وقهر الغضب كلما صلح له قهراً فهذا السبب لم يكن يحقُّ إن خاطبه أحد الأعراب قائلاً يا ابن عتي مكان يا أمير المؤمنين لمصاهرة معاوية في قبائل قيس وكتب ولا غضب إذا ردَّ كلامه بما يُحتمل على قوانين أدب أهل البادية وإن لم يُحتمل على مقتضى أدب المتعلمين . وكان معاوية يقول : « إنني لا أحملُ السيفَ على مَنْ لا سيفَ معه وإن لم تكن إلا كلمةً يَشْتَفِي بها مُشْتَفٍ جعلتها تحت قَدَمي وَخَيْرَ أَذَى »^(٢) . والحق يقال إنَّ هذا النوع من الحلم كان له أثرٌ الوسائل وأنفعها لاستمالة أهل القبائل وقيادتهم والنجاح

(١) انظر العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ١٦٥ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٢) كتاب الكامل للمبرد ص ٤٠ من طبعة ليسك أوج ١ ص ٣٣ من طبعة مصر ١٣٢٢ -

فما لم ينجح فيه قبله علي بن أبي طالب^(١) . فاقتدت به كثير من الخلفاء
والأمراء الأمويين فقال عبد الله بن الزبير الشاعر في بشر بن مروان^(٢) :
وطلدت لنا دين النبي محمد
بعظمك إذ هرت سفاهاً كلابها
وقال أيضاً^(٣) :

أقام لنا الدين القويم بعظمه ورأي له فضل على كل قائل
فإذا يمتثل إمكان قول الفرزدق المذكور سابقاً ويقتل أيضاً قول الأخطل
لما شكّا إلى عبد الملك بن مروان $(\frac{١٥}{١٨٠} - \frac{٨٦}{٧٠٠})$ إغارة سليمان على تغلب يوم
البشر^(٤) :

لقد أوقع الحجاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعول
فسائل بني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصل ..
فإن لا تغيرها قريش بملكها يكن عن قريش مستماز ومزحل
فلنرجع إلى الفرزدق . ومن الجدير بالذكر من شعره لندرة ورود مثله
في قصائد شعراء هذا الصنف أبيات دينية أدرجها في قصيدة مدح بها الوليد
ابن عبد الملك $(\frac{٨٦}{٧٠٠} - \frac{٩٦}{٧١٠})$ وذكر هذمه بيعة النصاري بدمشق وجعله
إياها مسجداً^(٥) :

فرقت بين النصاري في كنائسهم ، والعابدين مع الأسحار والعتم
وهم معاً في مصلاهم وأوجههم شتى إذا سجدوا لله والصنم
وكيف يجتمع الناقوس : يضربه أهل الصليب مع القراء لم تنم

(١) راجع LAMMENS, *Études sur ... Méthode* . chap. V, P. 66-108.

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٤٥ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٤٥ .

(٤) ديوان الأخطل ص ١٠ - ١١ ، الحجاف شاعر بني سليم ورئيسهم - يرجع الضمير
في يديرها إلى حال محذوف - استأجر انتقل من مكان إلى مكان .

(٥) ديوان ص ١٠٨ من طبعة باريس أو ص ١٨٥ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٧٦٨
من طبعة مصر ١٣٥٤] - الملك المهدي هو سليمان (عم) فراجع القرآن سورة ٢١ (الأنبياء) ٧٨ - ٧٩ .

فُهَمَّتْ تحويلها عنهم كما فهِمَا إِذْ يَحْكُمَانِ لِهَمٍ فِي الْحَرْثِ وَالْقَنَمِ
 دَاوُدُ وَالْمَلِكُ الْمَهْدِيُّ إِذْ حَكَمَا أَوْلَاتَهَا وَاجْتَزَا الصُّوفِ بِالْجَلَمِ
 فَهَمَكَ اللَّهُ تحويلاً لبيعتهِم عن مسجدٍ فيه يُتلى طَيْبُ الْكَلِمِ
 وخلافاً للأخطل قد تعاطى الفرزدق الرثاء وسبك فيه عدّة قصائد . وعذله
 جرير^(١) لحبه لشرب الخمر ولكنه لم يقل فيها إلا شعراً قليلاً جداً أعنى
 ثلاثة أبيات وردت في ديوانه^(٢) ونُشِبَ خمريات أبي نواس ثم أربعة أبيات
 رويت في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة^(٣) وخزانة الأدب لعبد القادر
 البغدادي^(٤) . أما الغزل فله فيه قصيدة طويلة^(٥) ومقطعتان^(٦) غير أنها
 جميعها في غاية الخلاعة والفسق لا سيما المقطعتان الشبيهتان بمجون
 أبي نواس . فحتم القصيدة قائلاً^(٧) :

فيا ربُّ إن تغفِرْ لنا ليلة النِّفَا فكلُّ ذنوبي أنتَ يَا رَبُّ غَايِرُهُ

(١) ديوان ج ١ ص ١٢٢ سطر ٢٠ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٧١ سطر ٢ من طبعة ١٣٥٤] والتفائل ص ٥١٣ سطر ١٥ من طبعة ليدن .

(٢) ديوان ص ٦٦ من طبعة باريس أو ص ١٦٥ - ١٦٦ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ١٥ من طبعة ١٣٥٤] وهذا نص الأبيات :

وإِجَانَةٌ رِيًّا الشُّرُوبِ كَأَنَّهَا إِذَا اغْتَمَسَتْ فِيهَا الرُّجَاجَةُ كَوَكْبُ
 مَخْتَمَةٍ مِنْ عَهْدِ كَسْرَى بْنِ هُرْمَزٍ بَكَرْنَا عَلَيْهَا وَالْفَرَارِيجُ تَنْعَبُ
 سَبَقَتْ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ دَنَا وَمَا لِلصُّبَا بَعْدَ الْقِيَامَةِ مَطْلَبُ
 (٣) ص ٢٩٤ من طبعة ليدن .

(٤) ج ٢ ص ٩٠ من طبعة بولاق ١٢٩٩ . وراجع أيضاً لسان العرب ج ١٨ ص ٦ من طبعة بولاق .

(٥) ديوان ص ٩٩ - ١٠٢ من طبعة باريس أو ١٨٢ - ١٨٤ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ٢٥٥ - ٢٦٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٦) ديوان ص ٢٢٩ - ٢٣٠ من طبعة باريس [أو ٣٠٨ - ٣٠٩ و ٨٩٤ - ٨٩٥ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا توجد المقطعتان في طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٧) ديوان ص ١٠٢ سطر ٥ من طبعة باريس [أو ص ٢٦٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] وهذا البيت غير موجود في طبعة مصر ١٢٩٣ .

وربما افتخر بقبيلته وهي تميم فجعلها فوق سائر الناس حتى قال^(١) :
وأفضل من يمشى على الأرض حيناً وما ضمنت في الداهيين قبورها ...
ولو أن أرض المسلمين يحوطها سوانا من الأحياء ضاعت ثغورها
لنا الجن قد دانت وكل قبيلة يدين مصلوها لنا وكفورها
وأراد أيضاً الفخر بنفسه فحيث إنه كان من أجبن الناس لم يقدر
على تخليد ذكر مآثره في الحرب فاكتفى بوصف ذبحه الغنم للقرى كأنه
واصف قتالاً شديداً وملحماً هائلاً مرعباً^(٢) . وكان الفرزدق من أهجى
الشعراء فكاد الهجاء يملأ نصف ديوانه وهو هجاء بَشِيع قبيح كله شتم سافل
وتعيير وإبتهار في الأخوات والأمهات وقذف للمخصنات العافلات توافق
بذاءة ألفاظه ذنابة معانيه . ولعله تاب إلى الله أحياناً وهو مُسِنّ في سوء هجائه
فيروى في ديوانه أن رجلاً من موالى باهلة يقال له حُمَام أعطى الفرزدق
نحيباً من سجن بشرط أن يهب له أعراض قومه ففعل الفرزدق وهجا إبليس
في قصيدة كأنه^(٣) ملهم ما قد مرّ من أهاجيه . ومن هذه القصيدة :

ألم تركى عاهدت ربي وإلنى لبين رنّاج قائم ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مشليماً ولا خارجاً من في سوء كلام
ألم ترنى والشعر أصبح بيننا خروء من الإسلام ذات حوام ...

(١) ديوان ص ١٦٧ من الطبعة الباريّة [أوص ٢٧٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا تروى القصيدة في طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٢) ديوان ص ٥٨ من طبعة باريس أوص ١٦٣ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أوص ٨٩٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٣) ديوان ص ١٠٩ - ١١١ من طبعة باريس أوص ١٨٦ - ١٨٧ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أوص ٧٦٩ - ٧٧١ من طبعة مصر ١٣٥٤] ويروى البيت الأول والثاني والثالث في ديوان جرير (ج ٢ ص ٦٩ من طبعة مصر ١٣١٢) وفي شرح اليزيدي على النفاث ج ١ ص ١٢٦ من طبعة ليدن أما الأحوال التي قال الشاعر فيها هذه القصيدة لما يحكى فيها في الديوان عتلف ما يحكى في النفاث . - الرنّاج الباب العظيم وهنا باب الكعبة ومقام إبراهيم - دروء جمع درء وهو نادر يندر من الجبل - حوام جمع حامية ، ونهى زق السمن .

ومنها :

لعمري لنعم النحى كان لقومه
بتوبة عبدٍ قد أناب فسواده
أطعك يا إبليس سبعين حجة
فررت إلى ربى وأيقنت أننى
عشيّة غبّ البيع نحى حمام
وما كان يعطى الناس غير ظلام
فلما انتهى شئى وتمّ تمانى
ملاقى الأيام المنون حمامى...

ومنها :

ألا طال ما قد يتّ يوضع ناقى
يظلّ يمينى على الرّحل فاركا
يبشرى أن لنّ أموت وأنه
ولكن لا شك أن إبليس عاد يزور الشاعر بعد مئة قليلة لأنّه لم يزل
يهجو الناس إلى مماته .

قال يونس بن حبيب النحوى المتوفى سنة ١٣٢ أو ١٣٣ : ولولا شعر
الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب^(١) . والحق يقال إن شعره أوفر ألفاظاً من
شعر الأخطل^(٢) . إلا أن الفرزدق كان أيضاً أكثر الشعراء تنحلاً فسرق
أبيات السابقين والمعاصرين . بدون حياء بل اضطرّ أحياناً بعض الشعراء إلى
ترك شيء من شعرهم له^(٣) كأنه أحق به .

لا يتصور الكلام على الأخطل والفرزدق بدون ذكر معاصريهما ونخصمهما

(١) كتاب الألفاظ ج ١٩ ص ٤٨ .

(٢) راجع J. HELL, *al-Farazdaq's Lieder auf die Muhallabiten* (Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft, 59, 1905) p. 590a.

(٣) انظر كتاب الأخلاق ج ١٦ ص ١١٦ وج ١٩ ص ٢٢ - ٢٣ (فيه أربعة أبيات للى لربة)
وج ١٩ ص ٣٦ (بيت لشمرل) وج ١٩ ص ٧ (بيتان لابن ميادة) والعملة لابن رثيق ج ٢
ص ٢١٨ - ٢١٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ (الفرزدق ومجمل) .

الشهير أعنى جريراً . وهؤلاء الثلاثة كلهم من شعراء الصنف الثالث على ترتيبنا وهم الذين حكم لهم إجماع أهل الأدب بحوز قصب السبق في أيام بني أمية . وجرير بن عطية بن الخطمي من بني كليب حتى من تميم كان على المحتمل من أهل اليمامة^(١) وبها مات وقبره ولكنه عاش على الغالب بالبصرة وغيرها من مدن العراق ولازم الحجاج بن يوسف وكان من جملة الشعراء الذين أكثروا الثناء عليه . واختلف في تاريخ مماته فقبل إنه توفي سنة ١١٠ وقبل سنة ١١١ وقبل أيضاً إنه مات بعد الفرزدق بشهور قليلة^(٢) . ومن المُنْتَبِت^(٣) أنه قد صاغ أشعاره الأولى في مدة خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٨) في قصيدة نسجها في هذه المدة وصف نفسه كأنه قد أدرك آخر الشباب^(٤) :

لقد خَبَرْتُني النفس أني مُزِيلٌ شَبَابِي وَوَضَلَ المُنْفِيسَاتِ الأَوَانِسِ

وموضوع جميع ديوانه ثلاثة : الهجاء والمديح والرثاء . والرثاء يسير وكلّ مقطعة منه لا تشمل إلا على أبيات قليلة لا تتجاوز أحياناً عدد اثنين أو ثلاثة^(٥) . والمديح في الحجاج بن يوسف حين كان والياً على العراق بعد أن

(١) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٤٦ : « وضعت جريراً إلى البصرة لكثرة قدومه إليه من اليمامة ولبر جرير باليمامة وبها مات » .

(٢) كتاب رفيات الأعيان عدد ١٢٩ من طبعة غوتنبيرج أو ١٢٧ من الطبقات المصرية وكتاب الأغاني ج ١٩ ص ٦ و ٤٥ و ٤٦ وانظر أيضاً ما قلته في تاريخ موت الفرزدق ص ١٥٨ حاشية ١ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٥٩ من طبعة بولاق ومقدمة الأستاذ Bevan للنقائض ص ١٧ حاشية ١ .

(٤) للنقائض عدد ١٦ بيت ٢ (ج ١ ص ٢٦) وديوان جرير ج ١ ص ١٥٣ سطر ٤ من طبعة مصر ١٣١٢ [أو ص ٣٢٨ من طبعة مصر ١٣٥٤] - النفس كل شيء له قدر وخطر وقال شارح النقائض إن المنفيسات هي النظيمات الأقدار .

(٥) ديوان ج ١ ص ٨٢ و ٩٢ - ٩٣ و ٩٦ و ٩٨ و ١٢٥ و ١٣٧ و ١٤١ و ١٥١ - ١٥٢

و ١٦٩ - ١٧٠ و ج ٢ ص ٢١ - ٢٢ و ٢٩ و ٤١ و ١٠١ و ١١٣ من طبعة ١٣١٢ [درويش في طبعة مصر ١٣٥٤] التثان وشرين مرثية فانظر ص ٥ من فهرست] .

أطفأ لهيب الفتن هناك فقال فيه جرير مثلاً^(١) :

دعا الحجاجُ مثلَ دعاء نوحٍ فأسمعَ ذا المعارجِ فاستجابا...
ولو لم يرَضَ ربُّك لم يُنزلْ مع النصر الملائكة الغضابا
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حربٍ رأى الحجاجُ أثقَبها شهابا
فدري نصرَ الإمام عليك حقاً إذا لبسوا بلبينهم أرتيابا...
عفاريتُ العراق شُفيتَ منهم فأمسوا خاضعين لك الرقابا

وأعاد تشبيه الحجاج بأحد الأنبياء المنيرين في قصيدة أخرى قال فيها^(٢) :

رأى الحجاجُ عافيةً ونصراً على رغم المنافق والحسود
دعا أهلَ العراق دعاء هودٍ وقد ضلُّوا ضلالةً قوم هودٍ
كأن المرَّجفين وهم نشاوى نصارى يلعبون غداة عيد
وظنُّوا في اللقاء لهم رواحاً وكانوا يصمقون من الوعيد

ومدح عبد الملك بن مروان $(\frac{700}{680} - \frac{86}{700})$ ومن خلفه من خلفاء بني أمية إلى هشام بن عبد الملك $(\frac{100}{724} - \frac{120}{743})$ فأدرج في تلك المدائح أحياناً عبارات دينية وإشارات قرآنية مثل ما فعل الفرزدق فمن هذا القبيل ما قال في عمر بن عبد العزيز^(٣) :

خليفة الله ماذا تأمرون بنا لسنا إليكم ولا في دار منتظر
أنت المبارك والمهدي سيرته تعصى الهوى وتقوم الليل بالسور
أصبحت للعنبر المعمور مجلسه زيناً وزين قباب الملك والحجر
نال الخلافة إذ كانت له قلراً كما أتى ربه مومي على قدر

(١) ديوان ج ١ ص ٩ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوس ١٦ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ١ ص ٤٦ من طبعة ١٣١٣ [أوس ١٢٠ من طبعة ١٣٥٤] .

(٣) ديوان ج ١ ص ١٢٥ من طبعة ١٣١٣ [أوس ٢٧٥ من طبعة ١٣٥٤] .

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك^(١) :

فَأَنْتَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ خَلِيفَةٌ وَلِيٌّ لِعَهْدِ اللَّهِ بِالْحَقِّ عَارِفٌ
هَذَاكَ الَّذِي يَهْدِي الْخَلَائِقَ لِلتَّقَى وَأَعْطَيْتَ نَصْرًا لَمْ تَنْلُهُ الْخَلَائِفُ
وَأَدَّتْ إِلَيْكَ الْهِنْدُ مَا فِي حَصُونِهَا وَمِنْ أَرْضِ صِيْنِشْتَانَ تُجْبَى الطَّرَائِفُ
وَأَرْضَ هِرَقْلٍ قَدْ قَهَرْتَ وَدَاهِرًا وَتَسَعَى لَكُمْ مِنْ آلِ كَسْرَى النَوَاصِفُ
وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ الَّذِي جُمِعَتْ لَهُ صَفُوفُ الْمُصَلَّى وَالْهَيْدَى الْعَوَاصِفُ
وَفِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى يمدح الوليد بن عبد الملك أيضا قال^(٢) معرضاً بهدم

كنيسة النصارى بدمشق الذي تقدم قول الفرزدق فيها :

وَلَقَدْ سَمَرْتُ إِلَى النَّصَارَى سَمَوَةً رَجَفَتْ لَوَقَعَتِهَا جِبَالُ الدِّيْلَمِ
إِنَّ الْكَنِيسَةَ كَانَ هَدْمُ بِنَائِهَا نَصْرًا فَكَانَ هَزِيمَةً لِلْأَحْرَمِ
فَأَرَاكَ وَبُكَ إِذْ كَسَرْتَ صَلِبَهُمْ نَوْرَ الْهَيْدَى وَعَلِمْتَ مَا لَمْ نَعْلَمْ

ولكن أكثر مدائحه لا تنفك أن نجري مجرى شعر الجاهلية في مدح
سادة القبائل والأشراف . ومما نتعجب منه في نظم شاعر مثل جرير هو نوع
الافتخار الوارد في إحدى قصائده بعد ما ذكر فخر الفرس والروم بملوكهم
السالفين فقال وهو افتخار إسلامي محض فريد في ديوانه المصوغ في قالب
القدماء^(٣) :

(١) ديوان ج ٢ ص ١٣ - ١٤ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٢٨٤ - ٢٨٥ من طبعة ١٣٥٤]
ونجد مثل هذه العبارات الدينية في قصائد قالها في الخلفاء وأمرتهم (راجع ديوان ج ١ ص ٦١ و ٦٥ و ٧٣
و ١٠٧ من طبعة ١٣١٣ [أوص ١٥٣ و ١٥٩ و ١٧٦ و ٢٤٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .
(٢) ديوان ج ٢ ص ٨٥ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٤٩٣ من طبعة ١٣٥٤] - أنكرم الذي شق
وترة أنفه وهو لقب ملك من ملوك الروم واسمه Justinianus الثاني فليراجع ما يحكي المسعودي في الباب
السادس والتسعين من مروج الذهب (ج ٥ ص ٣٨١ - ٣٨٢ من طبعة باريس) في هدم البيعة والأخرم .
(٣) ديوان ج ١ ص ١٠٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوص ٢٤٣ من طبعة ١٣٥٤] أو الغنائص
عدد ١٠٤ بيت ٢٧ - ٢٤ ج ٢ ص ٩٩٤ - ٩٩٥ من طبعة لبنان .

أَبُونَا أَبُو إِسْحَاقَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا أَبٌ كَانَ مَهْدِيًّا نَبِيًّا مَطْهَرًا
وَمَنَا سَلِيحَانُ النَّبِيِّ الَّذِي دَعَا فَأَعْطَى نَبِيَانَا وَمُلُكًا مَسْخَرًا
وَمُوسَى وَعِيسَى وَالَّذِي نَحَرَّ مَاجِدًا فَانْبَثَ زَرْعًا دَمْعُ عَيْنِيهِ أَخْضَرَا
وَيَعْقُوبُ مِنَّا زَادَهُ اللَّهُ حِكْمَةً وَكَانَ ابْنُ يَعْقُوبَ أَمِينًا مَصُورًا
فِي جَمْعِنَا وَالْغُرَّ أَبْنَاءُ سَادَةٍ أَبٌ لَا نَبَالَى بَعْدَهُ مَنْ تَعَلَّمَا
أَبُونَا خَلِيلُ اللَّهِ وَاللَّهُ رَبُّنَا رَضِينَا بِمَا أَعْطَى الْإِلَهَ وَقَدَّرَا
بَنَى قَسْلَةَ اللَّهِ الَّتِي يُنْتَدَى بِهَا فَأَوْرَثَنَا عِزًّا وَمُلُكًا مَعْمَرًا

وَشَتَانِ مَا بَيْنَ هَذَا الْقَوْلِ وَبَيْنَ الْاِفْتِخَارِ الْمَعْتَادِ فِي سَائِرِ أَشْعَارِ جَرِيرِ الْمُقْتَنِيِّ
أَثَرِ الْأَقْلَمِينَ مِثْلَ أَبِيائِهِ فِي الْأَخْطَلِ^(١) :

إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِبًا جَعَلَ النُّبُوَّةَ وَالْخِلَافَةَ فِينَا ...
مُفَرِّقًا أَبِي وَأَبُو الْمَلُوكِ فَهَلْ لَكُمْ يَا خُزْرَ تَغْلِبَ مِنْ أَبٍ كَأَبِينَا
هَذَا ابْنُ عَمِّي فِي دَهْشَقِ خَلِيفَةٍ لَوْ شِئْتُ سَاقَتُكُمْ إِلَى قَطِينَا
وَكَمِثْلِ الْأَخْطَلِ لَمْ يَصْنَعْ جَرِيرُ الشَّعْرِ فِي الْغَزْلِ أَبَدًا لِبَعْدِهِ عَنْ أَسَالِيبِ
أَهْلِ الْقِبَائِلِ فَيُرَوَّى فِي كِتَابِ الْأَغَانِي^(٢) أَنَّهُ قَالَ فِي شَعْرِ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ :
شَعْرُ تِهَامِيٍّ إِذَا أَنْجَدَ وَجَدَ الْبَرْدَ . وَسَمِعَ مَرَّةً بَعْضَ الْأَبْيَاتِ لِعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ
فَأَعْجَبَتْهُ فَقَالَ : مَا زَالَ هَذَا الْقُرْشِيُّ يَنْهَى حَتَّى قَالَ الشَّعْرَ . وَهَذَا يُوَافِقُ
مَا أَوْضَحْتُ فِي إِحْدَى الصَّفَحَاتِ السَّابِقَةِ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ شَعْرِ الْمَدَنِ الْحِجَازِيَّةِ وَشَعْرِ
أَهْلِ الْوَبَرِ فِي الْقُرُونِ الْأَوَّلِ لِلْهَجْرَةِ . - أَمَّا النِّسْبُ فِي أَوَائِلِ الْقِصَائِدِ
فَمَا طَادَ جَرِيرُ فِي الْأَغْلِبِ عَلَى مَنَوَالِ أَشْعَارِ الْجَاهِلِيَّةِ وَذَكَرَ الْأَطْلَالَ وَالْدُّمْنَ

(١) ديوان ج ٢ ص ١٥١ من طبعة مصر ١٣١٣ [أرخص ٥٧٨ - ٥٧٩ من طبعة ١٣٥٤] ونظر
أيضاً الكامل للبهرد ص ٥٢٦ من طبعة ليبيك أوج ٢ ص ١١٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ .
(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ٣٨ و ٧٢ من طبعة بولاق وراجع العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ١٣٣
سطر ٢ - ٤ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفيه تحريف - تهامى يعنى مكيا ومن المشهور أن مكة في التهامية ، وهنئ
تكلم بغير معقول لمرض أو غيره .

والأسمى والعاذلات ولكنّه ربّما عدل عنه كأنّه مقتد ببعض قصائد الأنخل

فجاء بذكر الغواني الفائنات ذوات دلال وجمال . ومن هذا القبيل^(١) :

إنّ الغواني قد قطعن مودتي بعد الهوى ومنعن صفو المشرب

وإذا وعدتك نائلاً أخلفته وجعلن ذلك مثل برق الخلب

يُبديين من خلل الحجال سوافاً بيضاً تُزين بالجمان المذهب

أعناق عطية الفصون جوازي يبحش بالأذى عروق الخلب

ولعلّ ثلثي شعر جرير في الهجاء وهو في الأغلب هجاء لاذع جداً

لا نخلو إحدى مقطعاته أو قصائده عن قذف النساء بالقواحش وعن الكلام

السافل البذيء المستقبح مثل الوارد في أهجى الفرزدق . قال ابن رشيق

القيرواني في كتاب العمدة^(٢) : «وأنا أرى أنّ التعريض أهجى من التصريح

لأنّ سماع الظنّ في التعريض وشدة تعاق النفس به والبحث عن معرفته وطلب

حقيقته فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً وقبائنه يقيناً

في أوّل وهلة فكان كلّ يوم في نقصان لإنسيان أو ملل » . ولكن لم يكن

هذا رأى شعراء الصنف الذي نحن بصدده فقال نفس ابن رشيق : «وجميع

الشعراء يرون قصر الهجاء أجودَ وترك القحش فيه أضوب إلّا جريراً فإنه

قال لبنيه إذا مدحتم فلا تطيلوا المادحة وإذا هجوتهم فخافوا » . ومن المشهور

(١) ديوان ج ١ ص ١٠ من طبعة ١٣١٣ [أوصى ١٨ - ١٩ من طبعة ١٣٥٤] - الخلب السعد لا مطرفه كأنه يخدع الشام ويقال لمن يحد ولم ينجز : إنما أنت كبرق خلب (كبرق الخلب) عمل جمع خلة وهي الثقب - حبال جمع ححلة وهي ستر العروس في جوف البيت وفي الصحاح : «بيت يزین بالثياب والأسرة والستور» - سواف جمع سالفة وهي صفحة العنق وقيل ناحية مقدمها من لدن معلق القرط إلى قلت الترقوة وهما سالفتان - الجوازي القحش بأسره لاستغنائها بالكاذب عن كثرة الماء - الأذى موضع في أواسط جزيرة العرب - حلب نبت ينبت في القيط بالقيعان وشطآن الأودية ويلق بالارض حتى يكاد يسوخ وإنما يأكله الشاء والظباء ويدبغ بها . وفي البيت الثالث قرأت « بالجمان » بدلا من « بالجمان » كما في الديوان - فانظر نسباً ثانياً في ديوانه ج ١ ص ١١٢ من طبعة ١٣١٣ [أوصى ٢٥٤ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) كتاب الصفة ج ٢ ص ١٤٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

أَنْ جَرِيرًا لَمْ يَنْفَكْ يَهْجُو غَيْرَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعَشَائِرِهِمْ طَوِيلَ عَمْرِهِ فَقَالَ
الْأَصْمَعِيُّ (١) : «كَانَ يَنْهَشُهُ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ شَاعِرًا فَيَنْبِذُهُمْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ
وَيَرَى بِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَنْفُخُهُ» (٢) فَيَرَى بِهِ وَثَبِتَ لَهُ الْفَرَزْدَقُ
وَالْأَخْطَلُ ، . فَذَكَرَ بَضْعَ أَخْصَامِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي قَصِيدَةٍ قَالَ فِيهَا (٣) :

خَذِرِي الْفَرَزْدَقُ وَالْأَخْطَلُ قَبْلَهُ وَالْبَارِقُ وَرَاكِبُ الْقَصَوَاءِ
وَالْأَعْوَرَى نَبْهَانُ كَأْسُ مَرَّةٍ وَلَتَيْمٌ بَرَزَةٌ قَدْ قَضَيْتُ قَضَائِي
وَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاكَ يَا أَبْنَ مَسْحَبٍ حَقِيمَ الْقَوَائِمِ دَائِي السُّيَّيَاءِ
وَالْمُسْتَنْبِرَ أَجِيرُ بَرَزَةً عَائِلًا أَمْسَى بِالْأَمِّ مَنْزِلَ الْأَحْيَاءِ
وَبَنُو الْبَيْعِثِ ذَكَرْتُ حُمُرَهُ أَمْرٍ فَشَفَيْتُ نَفْسِي مِنْ بَنِي الْحَمَرَاءِ

وَإِذَا تَأَمَّلْنَا حِكَايَةَ ابْتِدَاءِ النِّحَامِ الْتِهَاجِي بَيْنَ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ خَلَّانَاهَا
مِنْ رَوَايَاتِ زَمَانِ الْجَاهِلِيَّةِ . فَهِيَ أَنَّ الْأَهَاجِي كَانَتْ تَدُورُ بَيْنَ جَرِيرٍ وَالْبَيْعِثِ
مِنْ بَنِي مَجَاشِعِ رَهْطِ الْفَرَزْدَقِ فَلَمَّا أَحْسَتِ بَنُو مَجَاشِعَ بَغْلِيَّةَ جَرِيرٍ عَلَى
شَاعِرِهِمْ وَبَلَّغَهُمْ فُحْشَ جَرِيرٍ بِنِسَائِهِمْ اضْطَرُّوا الْفَرَزْدَقَ إِلَى الدِّخُولِ بَيْنَهُمَا
فَفَعَلَ كَارَهَا فَاكْتَنَى أَوَّلًا بِالِدِفَاعِ عَنْ عَشِيرَتِهِ بِلُغَتِهِ جَرِيرٍ وَلَا شَتْمَ
بَنِي كَلْبِيبٍ فَأَجَابَهُ جَرِيرٌ وَصَاوَلَهُ وَعَشِيرَتُهُ صَوْلَةً شَدِيدَةً فَانْتَهَبَ لِيَرَانَ

(١) كِتَابُ الْأَفْهَامِ ج ٧ ص ٤٠ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاقِ .

(٢) [رَفِ طَبْعَةُ دَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ج ٨ ص ٨ يَضَعُهُ بِالْخَاءِ الْمُهْمَلَةِ بَدَلًا مِنْ يَنْفُخُهُ بِالْخَاءِ الْمَجْمُوعَةِ
وَهُوَ عَلَى الْأَصَحِّ] .

(٣) دِيْوَانُ ج ١ ص ٦ مِنْ طَبْعَةِ ١٣١٣ [أَوْ ص ١١ مِنْ طَبْعَةِ ١٣٥٤] . - الْبَارِقُ هُوَ رَاقَةُ
ابْنِ مِرْدَاسِ الْبَارِقِ - الْقَصَوَاءُ نَاقَةُ لَمْرَارِ بْنِ مَنَافٍ مِنْ بَنِي الطَّوِيلَةِ (انْظُرْ كِتَابُ الْأَفْهَامِ ج ٧ ص ٤٦) -
أَمْرُ نَبْهَانَ اسْمُهُ نَعِيمُ بْنُ شَرِيكَ وَقِيلَ حَرِثُ بْنُ عَنَابٍ وَقِيلَ سَعْدَةُ بْنُ نَعِيمٍ وَقِيلَ مَعِجَمُ بْنُ شَرِيكَ
(انْظُرِ الْقِتَافُصَ ج ١ ص ٣١ - ٣٢ وَالْإِسْتِغْنَاءُ لِابْنِ دُرَيْدٍ ص ٢٣٦ سَطْرَ ٦ وَلِسَانُ الْعَرَبِ ج ١٧ ص
٢١٥) - تَيْمٌ بَرَزَةٌ يَعْنِي صَوْرَتَيْنِ بِلُغَةِ التَّيْمِيِّ وَبَرَزَةٌ اسْمُ أُمِّهِ (انْظُرْ لِسَانُ الْعَرَبِ ج ٧ ص ١٧٤ سَطْرَ ٦) -
الْمُسْتَنْبِرُ بْنُ صَبْرَةَ الْمُنْبَرِيُّ - الْبَيْعِثُ الْهَجَاشِيُّ وَيُقَالُ لَهُ ابْنُ حَمْرَاءِ الْمَجَانِ (انْظُرِ الْقِتَافُصَ عَدَدُ ٢٢ بَيْتُ ٢٦
و ٣١ و ٣٦ و ٦٣ و ٦٥ مَثَلًا) .

شرَّ العداوة بين الشاعرين . ومن بعض الأخبار ونفس القصائد يُستخرج أن ابتداء ذلك كان بعد موت يزيد بن معاوية $\frac{64}{183}$ بقليل وقد مضى لكليهما عُنُقُان الشَّباب^(١) . أمّا مئة هذا التهاجي بينهما فأطول من أربعين سنة لأننا نعلم في إحدى قصائد الفرزدق فيه علي ذكر خلافة هشام بن عبد الملك الذي ابتداء يتربى الأمر سنة $\frac{100}{77}$ ^(٢) .

من المشهور أن نقائض جرير والفرزدق قد جُمعت بعناية أبي عبيدة مَعمر بن المثنى النُصَبي المتوفى سنة ٢٠٧ ثم انكبَّ على شرحها غيره من علماء اللغة حتى وصلت إلينا بشرح أبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي المتوفى سنة ٣٠٠ رواية عن الحسن بن الحسين السُّكَّري المتوفى سنة ٢٧٥ عن أبي جعفر محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥^(٣) . فلا أحد يجهل أن النقيضة في اصطلاح علماء اللغة والأدب هي قصيدة ينسجها شاعر نقضاً لما قاله شاعر آخر بشرط أن يحفظ. بَحَرَ وروى القصيدة التي يخالفها ويعارضها . ونقائض جرير والفرزدق بالرواية المذكورة عبارة عن كتاب ضخيم يتضمن ١١٣ قصيدة منها ٦٢ لجرير و ٣٨ للفرزدق و ٦ للبعيث المجاشعي و ٥ لغسان بن ذُهَيْل وواحدة لعُقبَة بن مُلَيْص وواحدة لنُعَيم بن شَرِيك ، وذلك ما عدا الأشعار العديدة المروية في الشرح الوافي الوافر الآتي بَقِصَص الحوادث وأيام العرب الوارد ذكرها في متن النقائض . وأكثر هذه النقائض لا توجد في ديواني الشاعرين . وأهميتها تتجاوز حدود علم الآداب لأن الشاعر في مثلها دفاعاً عنه وعشيرةً وهجوماً على أخصامه ويضطر إلى

(١) انظر مقاله الأستاذ Bevan في مقلته للنقائض ص ١٧ .

(٢) انظر مقدمة النقائض ص ١٨ - ١٩ .

(٣) انظر مقدمة النقائض ص ١١ - ١٣ . وأدخلت بعض النقائض في ديوان جرير المطبوع بمصر سنة ١٣١٣ فراجع مقاله Bevan في ص ١٩ - ٢٠ من مقلته [وأدخل محمد إسماعيل عبد الله الصاوي كل نقائض جرير والفرزدق الشاعرين في ديوانيهما اللذين اعنى بطبعهما سنة ١٣٥٤] .

تعداد مساوی أعدائه وذكر الأيام التي توالى بين قومه وقبائل الذين يهجمون موضحاً ما آلت إليه أمورهم من التضعف . فمثل هذه القصائد هي كتاريخ منها نعلم أحوالهم ونطلع على أخبارهم ونعرف رجالهم المشهورين وقرسانهم المذكورين ونتحقق الأزمنة والأمكنة التي عاشوا فيها . فكم من الأماكن والبلدان والجبال والوديان والمياه والقرى ورد ذكرها في تلك القصائد وكم من الأبطال لم نكن نعرف أسماءها لو لم تُعلمهم لنا النقائض^(١) .

وفي مكتبة جامع بايزيد بالقسطنطينية نسخة خطية من نقائض الأخطل وجرير جمعها وشرحها شرحاً صغيراً أبو تمام صاحب الحماسة المتوفى على القول المرجح سنة ٢٢٨^(٢) . ولكن خلافاً لمجموعة نقائض الفرزدق وجرير لا يتضمن هذا الكتاب إلا قصائد مثبتة في ديواني الشاعرين لم يتضح أنها من النقائض إذا راجعنا كل ديوان على حدة . - ومما يجدر ذكره أن جريراً في نقائضه للأخطل كثيراً ما استعمل عبارات وإشارات إسلامية كأنه من أتقى الناس وسب دين النصارى فقال مثلاً^(٣) :

لَعَنَ الْإِلَهَ مَنِ الصَّلِيبُ إِلَهُهُ وَاللَّابِسِينَ بِرَأْسِ الرَّهْبَانِ

(١) قال الأب أنطون صالحان في مجلة المشرق السنة الثالثة حشرة ١٩١٠ ص ٩٧ :

(٢) راجع ما قاله فيها N. RHODOKANAKIS, *Über einige Handschriften der öffentlichen Bibliotheken in Konstantinopel* (Orientalische Studien Th. Nozdeke...gewidmet, Gießen 1906, P. 985-992) والأب صالحان في مقاله المساء بنقائض جرير والأخطل في المشرق السنة الثامنة ١٩٠٥ ص ٩٧ - ١٠٧ [وطبعت نقائض جرير والأخطل عن نسخة الأستاذة الوحيدة في بيروت سنة ١٩٢٢] .
(٣) ديوان ج ٢ ص ١٤٩ من طبعة ١٢١٣ [أو ص ٥٧٦ من طبعة ١٣٥٤] . أما مارجس المذكور في البيت الأخير فهو قدس أكرمه بتوثيق انظر ديوان جرير طبعة ١٣١٣ ج ١ ص ١٣٤ سطر ١٧ و ص ١٣٥ سطر ٨ (سج في تغليب مارجس) و ص ١٤٣ سطر ١٥ (استمر بتوثيق مارجس وابنه) ثم ج ٢ ص ٢٩ سطر ١٠ (استمر بالتعليق مارجس) و ص ٥٦ السطر الأخير (ده الأخطل مارجس) [وهذه الأبيات كلها موجودة في طبعة ١٣٥٤ ص ٢٩٢ سطر ١ و ص ٢٩٣ سطر ٢ و ص ٣٠٨ سطر ٣ . و ص ٤١٤ سطر ٢ و ص ٤٥١ سطر ٢] . وراجع أيضاً بيت الأخطل في ديوانه ص ٣٠٩ :

والدابحين إذا تقارب فضحهم
من كل ساجي الطرف أعصل نايه
تغشى الملائكة الكرام وفاتنا
يُعطي كتاب حساب بهيماله
أيصدقون بما ر سرجس وابنه
شهب الجلود خسيصة الأثمان
في كل قائمة له ظلفان
والتغلي جنازة الشيطان
وكتابتنا بأكفنا الإيمان
ويكذبون محمد الفرقان

وغير مرة عيب الفرزدق لما كان بينه وبين الأنخل من الصداقة فجعله
من الكفار على أنه مسلم^(١) :

إن الفرزدق حين يخل مسجداً
إن الفرزدق لا يبالي محرماً
إن الفرزدق في جلاجل كرج
رهب الفرزدق من نصارى تغلب
حجوا الصليب وقربوا قربانكم
رجس فليس طهورة بطهور
ودم الهدى بأذرع ونحور
بعد الأخيطل ضرة لجير
أو يدعوا كذباً دعاوة زور
وخنوا نصيبكم من الخنزير

ومن هذا الضرب أيضاً^(٢) :

ألا قبح الله الفرزدق كلما
فلا يقربن المروتين ولا الصفا
فإنك لو تعطي الفرزدق درهماً
أهل مصل للصلاة وكبراً
ولا مسجد الله الحرام المطهراً
على دين نصرانية لتنصراً

— لا رأونا والصليب طالما صار سرجس وبما ناقما

فيص جريد دين النصارى أيضاً في أبيات أخرى فراجع ديوانه ج ١ ص ١١ و ١١٦ و ١١٧ و ١٣٤
و ١٣٥ و ج ٢ ص ٥٦ و ٨٠ و ٨١ من طبعة ١٣١٣ [أوس ٢١ و ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٩١ و ٢٩٣
و ٤٥٠ و ٤٧٤ و ٤٧٦ من طبعة ١٣٥٤] . وكل الأبيات موجودة في قصائد جبروتها الأعطل .

(١) ديوان ج ١ ص ٨١ من طبعة ١٣١٣ [أوس ١٩٣ - ١٩٤ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ١ ص ١١٠ من طبعة ١٣١٣ [أوس ٢٤٨ من طبعة ١٣٥٤]

وقوله (١) :

وقد لحق الفرزدق بالنصارى لِيَنْصُرَهُمْ وليس به انتصارٌ
ويسجد للصليب مع النصارى وَأَفْلَجَ سَهْمُنَا فلنا الخيارُ
ولكن واضح أن مثل هذا الكلام عند جرير تعصب قوي في الحقيقة
لا تعصب ديني .

اختلفت العلماء في تفضيل بعض هؤلاء الثلاثة على بعض وفي أيهم
المتقدم وأعزهم بحرًا وأرقهم شعرًا وأهتكمم لعدوه، فلو أردت إيراد جميع
أقوالهم لأحتجت إلى أفراد درس لهذا الموضوع بغير أن نحصل بعده على
نتيجة لا تنازع في صحتها (٢) . والذي يجتمع على رأي من مراجعة دواوينهم
ونقائضهم أن الأخطل فاق معاصريه في التصرف في النسيب الخالي عن
التكلف الصادر عن القلب ثم في فخر المدائح وفي العفاف عن الفحش .
وهو انفرد بتعاطي الخمريات لأن ما للفرزدق من هذا الضرب إنما شيء قليل
جداً كاد لا يُذكر ، وله الفضل أيضاً في وصف المناظر الطبيعية بصورها
بغاية الإتيان والقوة في التعبير مع وجيز الكلام فيخال القارئ أن يشاهدها
فلم يدرك الفرزدق ولا جرير براعته في ذلك (٣) . والفرزدق فاق سائر الثلاثة
في وفرة المراثي وجودتها ورشاققتها ثم في التصرف في اللغة لكنه أحبهم فيما
يسمجه الذوق السليم من الكلام القدير وأوقعهم تنحّل أبيات غيره ، أما هجاء
الفرزدق وجرير فقيل إن أهاجى جرير كلها تلحور على أربعة أشياء هي

(١) ديوان ج ١ ص ١٠٥ من طبعة ١٣١٣ [أد ص ٢٣٨ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) راجع الحكاية التريية عن تشاجر الناس في عسكر المهلب بن أبي صفرة (حين كان يقاتل
الأزارقة بفارس) في مسألة أجريه أشعرام الفرزدق (كتاب الأغاني ج ٧ ص ٣٩ و ٥٥ من طبعة بولاق) .

(٣) انظر في الديوان ص ١٥ مثلاً وصف الأذن الوحشية تشرب من مجرى المياه العذبة وأحاطها
إلى انقيصة حيث تخشى الصيد متوارياً يترصدها وفي ص ٢٣٥ سطر ٢ إلى ٢٣٦ سطر ١ وصف الحبير
لوحشية وفي ص ٢٣٠ سطر ٢ إلى ٢٣١ سطر ٧ وصف رحلة الثور في الليل وقتاله لقراء .

القَيْن^(١) والزناء وضرب الروي بالسيف^(٢) والنفي من المسجد^(٣) ولا يهجو الفرزدق بسوى ذلك . فهو حكمٌ غير منصف قد سبق إلى إبطاله ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزري وإن بالغ قليلاً في مدافعتة عن جرير^(٤) .

ومن الشعراء المُجيدَيْن من هذا الصنف الثالث غيلان بن عُقبة الشهير بذى الرمة الذى حُكِمَ له فى الشعر بمنزلة لا تنحط من منزلة الثلاثة المتقدمين إلا بشيء يسير . والمعروف من أحوال حياته قليل جداً أعنى أنه كان من قبائل أواسط جزيرة العرب وكان يأتى الحضر فيقيم بالكوفة والبصرة ومدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري وشبب فى شعره بمئة وخمسة . أما موته فقال صاحب كتاب الأغاني^(٥) إن ذا الرمة توفى فى خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٩) وهو ابن أربعين سنة وقال ابن خلكان^(٦) إنه مات سنة ١١٧ . ودُفن برمال حُزوى فى وسط الدهناء بأرض اليمامة . وله ديوان وصل إلينا بروايتين كبيرى وصغرى وكلتاها غير مطبوعتين^(٧) والكبرى عبارة عن نحو ثمانين قصيدة ومقطعة وعشر منها أراجيز .

(١) لقب جرير الفرزدق وأصحابه بالقين أى الحداد احتقاراً لهم وفى النقاظ عدد ٣٣ بيت ٤٩ القين المراقى هو البعث المباحى .

(٢) أشار إلى الحكاية المروية فى كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٨٥ - ٨٨ من طبعة بولاق حين ضرب الفرزدق أسيراً رويّاً ضربات بالسيف فلم يصنع شيئاً : انظر أبيات جرير والفرزدق فى حادثة البحرى ص ٧١ من طبعة ليدن أو ص ٤٤ - ٤٥ من طبعة بيروت (عدد ٢٠٣ و ٢٠٥) والنقاظ ص ٤١٣ من طبعة ليدن وفتح العلوم لسكاكى ص ٣٠٤ من طبعة مصر ١٣١٧ .

(٣) ديوان ج ١ ص ٥٠ من طبعة ١٣١٣ [أوص ١٢٨ من طبعة ١٣٥٤] .

(٤) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ص ٤٩٠ - ٤٩١ من طبعة بولاق ١٢٨٢ أو ص ٣١٥ - ٣١٧ من طبعة مصر ١٣١٢ .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٢٦ من طبعة بولاق .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٣٥ من طبعة غوتنجن أو ٤٩٦ من الطبقات المصرية .

(٧) (طبعت رواية الديوان الكبرى فى مدينة Cambridge سنة ١٩١٩ بعناية C.H.M. Macartney وطبع أيضاً الديوان فى بيروت سنة ١٣٥٢ بعناية بشير عيوت) .

قال أبو عمرو بن العلاء النحوي^(١) المتوفى سنة ١٥٤ : « إِنَّ الشعر
فُتِحَ بِأَمْرِ الْقَيْسِ وَخُتِمَ بِذِي الرِّمَّةِ » وَيُنْسَبُ أَيْضاً إِلَى أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ
هَذَا الْقَوْلُ^(٢) : « إِنَّمَا شَعْرُهُ نَقَطَ عُرُوسٍ تَضْمِجُ عَمَّا قَالِيلٌ وَأَبْعَارٌ ظَبَاءُ
لَهَا شَمٌّ فِي أَوَّلِ شَمِّهَا ثُمَّ تَعُودُ إِلَى أَرْوَاحِ الْأَبْعَارِ »^(٣) . وَلَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ
كَيْفَ يَجْتَمِعُ هَذَانِ الْقَوْلَانِ مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ التَّنَاقُضِ الظَّاهِرِ . فَأَقُولُ :
الْوَاضِحُ عَلَى ظَنِّي أَنَّ أَبَا عَمْرٍو بِقَوْلِهِ الْأَوَّلِ إِنَّمَا أَرَادَ الشَّعْرَ عَلَى مَنَوَالِ قِصَائِدِ
الْأَعْرَابِ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنْ كَانَ هَذَا مُرَادَهُ أَصَابَ قَوْلُهُ لِأَنَّ ذَا الرِّمَّةِ آخِرُ
الذَّرَابِغِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِأَسَالِيبِ الْقَرِيضِ الْقَدِيمِ لُغَةً وَمَعْنًى وَمَوْضِعاً . فَلَوْ قَرَأَ
مِثْلًا أَحَدٌ قَصِيدَتَهُ الشَّهِيرَةَ الَّتِي مَطَّلَعَهَا^(٤) :

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَقْرِئَةٍ سَرَبُ
وَفَرَأَتِ غَرْفِيَّةً أَتَى خَوَارِزْمًا مَشْلُشٌ ضَبِيعَتُهُ بَيْنَهَا الْكُتُبُ

وَلَمْ يَعْرِفْ اسْمَ قَائِلِهَا لَعَالَهَا مِنْ نَسِجِ فَحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ . فَبَيْنَ شَعْرِ ذِي الرِّمَّةِ
وَبَيْنَ شَعْرِ الْأَخْطَلِ وَالْفَرَزْدَقِ وَجَرِيرِ فَرَقَ لَا يُنْكَرُ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ
مَتَوَسِّطُونَ بَيْنَ مَسَلِكِ الْقَدَمَاءِ الْمَشْهُورِ وَطَرِيقَةِ الَّذِينَ عَاشُوا بَعْدَ ابْتِدَاءِ
الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَعَلَى أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقَبَائِلِ أَخْلَوْا مِنْ عَوَاطِفِ أَهْلِ الْحَضَرِ
شَيْئاً فَأَتَوْا أحياناً بِعَمَانٍ لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهَا شُعْرَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ وَوَصَفُوا مَا لَمْ يَصِفْهُ
الْقَدَمَاءُ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ ، وَعَدَّلُوا عَنْ أَنْوَاعِ التَّوَحُّشِ فِي كَثِيرٍ مِنْ

(١) كتاب البيان الجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ (أوج ٢ ص ٢٢٢ من طبعة
مصر ١٣٥١) والوفيات لابن خلكان في الموضع المذكور سابقاً .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١١٥ (مرتين) وفي الوفيات لابن خلكان في الموضع المذكور .

(٣) قال صاحب خزانة الأدب ج ١ ص ٥٢ من طبعة بولاق : « قَالَ الْمُبَرِّدُ مَعْنَى قَوْلِهِ نَقَطَ عُرُوسٍ
أَنَّهُ تَقَى أَوَّلَ يَوْمٍ ثُمَّ تَلْعَبُ وَيَعْرِى الظَّبَاءُ إِذَا شَمَّتْهُ مِنْ سَاعَتِهِ وَجَلَّتْ فِيهِ كَرَامَةُ الْمَسْكِ فَإِذَا غَبَ نَهَبَ ذَلِكَ
مِنْهُ . . . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ إِنَّ شَعْرَ ذِي الرِّمَّةِ حُلُورٌ مَا تَسْمَعُهُ فَإِذَا كَثُرَ إِفْشَاؤُهُ ضَعُفَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنٌ » .

(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٧٧ - ١٧٨ من طبعة بولاق ١٣٠٨ .

أبياتهم وليتوا كلامهم وإن كانت معظم أشعارهم تدور على المدار القديم. أما ذو الرمة فلم يزل بلساناً محضاً فأفكاره وأمياله وأنواع وصفه ومواقع كلامه جارية مجرى أمثالها عند أعراب الجاهلية لا غير فتعشرون في شعره على كثير من الوحش وغريب الألفاظ. وتجدون فيه أحياناً التراكيب الصعبة الفهم لما فيها من التقديم والتأخير مثل قوله^(١):

كَأَنَّا عَلَى أَوْلَادٍ أَحْقَبَ لَاحِهَا وَرَدَى السَّفَا أَكْفَالَهَا بِسَهَامٍ
دَبُورٌ ذَوَتْ عَنْهَا التَّنَاهَى وَالْحَقَّتْ بِهَا يَوْمَ ذَبَاتُ السُّبُبِ صِيَامٍ
وتعاطى الأراجيز مع القصائد وذلك دلالة أخرى على سلوكه مسلك القدماء حسبما يأتي بيانه عند الكلام على شعراء الصنف الرابع. وكل قصيدة له لا تخلو عن الوقوف على المنزل الدائر والرسم العافي وعن ذكر الأسى على ذهاب القوم بمعشوقة الشاعر وانسجام الدموع لذلك ثم عن الكلام على السفر الشاق الطويل في الرمال والكُثبان والمفاوز الهائلة مع الإطناب في وصف المهامير والليل المرعب وعزيف الجن^(٢) في البوادي والحمير الوحشية والصيد والفاقة والأنساع والأزمة وهلم جرا؛ فبعد ذلك يبتدئ الشاعر بالمديح أو الهجاء. وخلاصة القول أنه لم يخرج عن مناهج فحول الشعراء الوثنيين إلا في النادر

(١) البيتان مرويان في شرح التبريزي على حصة أبي تمام ص ١١١ من طبعة بن أوج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق - أما مناهج فكان الشاعر قال: «كأننا على أولاد أحقب لاحها دبور ذوت عنها التناهي وري السفا أكفالا بسهام وألحقت بها يوم صيام ذبات السبب» - لاحه غيره - ذوى ذبل - قناه جمع التنية من الوادي حيث ينتهي إليه الماء من مرفده - مفاشوك الهوى والهمى نبت يشبه الشعير - سبم حر السموم - أكفال جمع كفل وهو الردف أو العجز - سيب شعر اللنب والعرف - ويوجد أحياناً مثل هذا التركيب الغريب في شعر الفرزدق فراجع ما قاله Noeldeke في كتابه *Zur Grammatik der classischen Arabisch*, Wien 1896, P. 85-87

(٢) جمع الجاحظ في كتابه الحيوان (ج ٦ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥) أبياتاً قلها ذو الرمة في عزيف الجن وانظر أيضاً GOLDZIEHER, *Abhandlungen Zur arabisch Philologie*, Leiden 1896, I.P. 211.

حين قال مثلاً في آخر أرجوزة (١) :

فقلت لا والمُبْدِي المَعِيدِ اللهُ أَهْلُ الحَمْدِ والتَّحْمِيدِ
ما دون وقتِ الأَجَلِ المَعْدُودِ موعودِ رَبِّ صادقِ الوعدِ
هل أَغْلُوْنَ في عِيشَةٍ رَغِيدِ اللهُ أَذْنَى لِي من الوَرِيدِ
والموتُ يَلْقَى أَنْفُسَ الشُّهُودِ

فمن عرف نوع شعر ذى الرمة وصناعته وأفكاره لم يصدق صحة البيتين المرويين لدى الرمة في كتاب المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ. خطأ (٢) :

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنْتِ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لو كان حُبُّكَ صادقاً لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ولدى الرمة المحظ. الأوفر في التشبيه الجيد فاق فيه أكثر الشعراء وإن كان ربما يُطِيلُهُ بِإِفْرَاطٍ . وكان مثل الفرزدق كثير أخذ الأبيات من غيره فوفرة سرقاته مشهورة (٣).

ثم من شعراء هذا الصنف الثالث عُبَيْدُ بْنُ حُصَيْنٍ (وقبل عُبَيْدُ بْنُ معاوية) من بني نُسَيْرٍ لُقِبَ بِالرَّاحِي أَوْ راحِي الإِبِلِ لكثرة وصفه الإبل وجودة نعته إِيَّاهَا . كان في الأغلب يسكن فيما هو قريب من البصرة ووالده وأهل بيته سادة وأشراف بالبادية . وكان مائلاً إلى الفرزدق فهجاء جرير . وأجاد المديح والهجاء ولكن ما عدا قصيدة طويلة يمدح بها عبد الملك بن مروان

(١) كتاب مشارف الأمل في محاسن الأراجيز بمثابة R. Geiger ٢٢٣ بيت ٧٩ - ٨٥ من طبعة ليبسك ١٩٠٨ .

(٢) في باب محاسن الزمخشري ١٨٣ من طبعة لندن ١٨٩٨ .

(٣) راجع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٨ - ٣٤٠ من طبعة لندن وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٢١ من طبعة بولاق .

($\frac{75}{78} - \frac{86}{78}$)^(١) ما وصل إلينا من شعره إلا قليل متفرق في كتاب الأغاني وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادى وحماسة أبي تمام وحماسة البُخترى وغيرها^(٢). ومن المشهور أن غير بيت له مرقه لجودته بعض الشعراء لاسيما الطرماح^(٣).

ومن معاصري القززدق وجريز أيضاً مرة بن مَحْكَان السَّعْدِي سَيِّد بنى رُبَيْع قتله صاحب شُرط مُصْعَب بن الزُّبَيْر، افتخر في أشعاره بالتصنيف والجد فمن قوله^(٤) :

أَلَا فَاسْقِيَانِي قَبْلَ أَغْبَرَ مُظْلَمٍ بَعِيدٍ عَنِ الْأَحْبَابِ مَنْ هُوَ نَازِلُهُ
رَأَيْتُ الْفَنَى يَبْلَى وَيَتَلَفُ مَالُهُ وَتَنَكِّحُ أَزْوَاجاً سِوَاهُ حَلَالَتُهُ
ذَرِينِي أَنْعَمَ فِي الْحَيَاةِ مَعِيشَتِي فَأَكُلُ مَالِي دُونَ مَنْ هُوَ آكِلُهُ

ومنهم العُدَيْل بن التَّمَرُخ الْعِجْلِيُّ الَّذِي هَجَا الْحَجَّاجَ بْنَ يَوْسُفَ فَفَرَّ خوفاً منه إلى بلاد الروم ثم طلب منه العفو بأبياته المشهورة^(٥) :

فَلَوْ كُنْتُ فِي سَلْمَى أَجَا وَشِعَابِهَا لَكَانَ الْحَجَّاجُ عَلَيَّ دَلِيلُ

(١) القصيدة مروية في جبهة أشعار العرب ص ١٧٢ - ١٧٦ من طبعة بولاق وفي ذيل ديوان جرير ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٠٥ من طبعة مصر ١٣١٢ وروى صاحب خزانة الأدب (ج ١ ص ٥٠٢ - ٥٠٣ من طبعة بولاق) ٢٦ بيتاً لها وقال إنها من ٨٠ بيتاً - أما الأبيات المروية في الجبهة فهي ٨٥ .

(٢) راجع حماسة أبي تمام ص ٦٦٠ - ٦٦٢ و ٦٦٣ - ٦٦٤ من طبعة بن أوج ٤ ص ٣٥ - ٣٧ و ٣٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٤٦ - ٢٤٧ من طبعة ليند .

(٤) حماسة البخترى ص ٣٤٤ من طبعة ليند أو ص ٢٢٨ عدد ١٢٩٩ من طبعة بيروت . وأبيات مروية له في كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ٩ - ١١ وفي كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢١ - ٤٣٢ من طبعة ليند وحماسة أبي تمام ص ٦٨٧ من طبعة بن أوج ٤ ص ٥٩ - ٦٣ من طبعة بولاق [ومعجم الشعراء للمزباني ص ٣٨٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٥) رويت له أبيات في كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٥ من طبعة ليند وكتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٢ وحماسة أبي تمام ص ٣٤٧ - ٣٥١ من طبعة بن أوج ٢ ص ١٢٦ - ١٣٠ من طبعة بولاق - والفرخ بفتح أوله وسكون الثاني راجع مقاله الأستاذ De Goeje في حاشية I من ص ٢٤٤ من كتاب الشعر والشعراء .

خَلِيلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيِّدُهُ لِكُلِّ إِمَامٍ مُصْطَفًى وَخَلِيلُ
 بَنَى قَبَّةَ الْإِسْلَامِ حَتَّى كَانَمَا هَدَى النَّاسَ مِنْ بَعْدِ الضَّلَالِ رَسُولُ
 وَمِنْهُمْ الْعُجَيْرُ السُّلُوكِيُّ الَّذِي مَدَحَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَاعْلَهُ أَدْرَكَ خِلَافَةَ
 هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ (١٠٥ - ١٢٥) وَكَانَ مِنَ الْمَشْهُورِينَ بِالْإِشْرَافِ (١). -
 وَمِنْهُمْ عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ الْمُرِّي (٢) مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ فَكَانَتْ قَرِيْشُ تَرْغَبُ
 فِي مَصَاهِرَتِهِ فَتَزَوَّجَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنَتَهُ الْجَرَبَاءَ . - وَمِنْهُمْ الْبَعِيثُ
 الْمَجَاشَعِيُّ الَّذِي كَانَ خَصِمًا مِنْ خُصُومِ جَرِيرٍ وَخَطِيبًا بَلِيغًا (٣) . - وَمِنْهُمْ
 الصَّلْتَانُ الْعَبْدِيُّ (٤) وَاسْمُهُ قُتَيْبُ بْنُ خُبَيْثَةَ الَّذِي اجْتَمَعَ إِلَيْهِ فِي الْحَكْمِ بَيْنَ
 جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ - وَمِنْهُمْ عَمْرُ بْنُ لُجَأَ (٥) وَهُوَ مِنْ خُصُومِ جَرِيرٍ أَيْضًا وَكَانَ
 رَاجِزًا مَقْصِدًا . - وَمِنْهُمْ يَغْلَى الْأَحْوَلُ بْنُ مُسْلِمٍ الْبَشْكُرِيُّ الْأَزْدِيُّ الَّذِي

(١) كتاب الأغاني ج ١١ ص ١٥٢ - ١٥٩ وحملته أبي تمام ص ٤١٦ - ٤١٧ و ٧٠٦ -
 ٧٠٧ من طبعة بن أوج ٢ ص ١٩٣ - ١٩٤ وج ٤ ص ٧٩ - ٨١ من طبعة بولاق والبيان للجاسط
 ج ١ ص ٥٣ من طبعة ١٢١٣ [أوج ١ ص ١١٦ من طبعة ١٣٥١ وفي الحاشية أبيات أخرى للشاعر]
 أو أمالي القلي ج ١ ص ٢٧٨ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أوج ١ ص ٢٧٥ من طبعة مصر ١٣٤٤ وطبقات
 الشعراء لابن سلام ص ١٣٤ - ١٣٥ من طبعة ليند ١٩١٦].

(٢) كتاب الأغاني ج ١١ ص ٨٥ - ٩٣ من طبعة بولاق وحملته أبي تمام ص ١٩٦ - ١٩٨
 و ٤٤٦ - ٤٤٧ و ٥١٠ من طبعة بن أوج ١ ص ٢٠٩ وج ٣ ص ٢٣ - ٢٤ و ٨٦ من طبعة بولاق
 (وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٥ - ١٤٦ من طبعة ليند).

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣١٢ - ٣١٣ من طبعة ليند وأبيات مروية له في كتاب الحيوان
 للجاسط ج ٥ ص ١٦٩ و ١٦٩ وج ٦ ص ٥٧ و ١٣٩ من طبعة مصر ١٣٢٢ - ١٣٢٥ فراجع كتاب
 البيان لنفس الجاسط ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٢.

(٤) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣١٤ - ٣١٦ من طبعة ليند وراجع كتاب الأغاني ج ١٤
 ص ١٠٢ - ١٠٣ وج ٢١ ص ٤١ ورويت أربعة أبيات من مراثي المغيرة المهلب في أمالي المرتضى
 (ج ٤ ص ١٠٧ - ١٠٨ في المجلس الثامن والستين) من طبعة مصر ١٢٢٥ (راجع J. KRENKOW,
The Elegy upon al-Mughirah ibn al-Muhallab (Islamica, II, 1927, P. 344-354).

(٥) كتاب السبعة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٥ وكتاب الشعر لابن قتيبة
 ص ٤٢٨ - ٤٢٩ من طبعة ليند (وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٢١ - ١٢٢ من طبعة ليند).

كانت عيشته تُشبه عيشة الشُّنْفَرَى وتابَّطَ شَرًّا لَّأنَّه « كان لصاً فانكأ
خارباً وكان خليعاً يجمع صعاليك الأزد وخلعاءها فيغير بهم على أحياء العرب
ويقطع الطريق على السابلة » فيروى له قصيدة قالها وهو محبوس بمكة في
خلافة مروان بن الحكم (٦٤٤ - ٦٨٥) ^(١). - ومنهم عُوَيْفَ القَوَافِي
الْفَزَارِيُّ من ساكني الكوفة وبيته من بيوتات العرب المقدِّمة ، تعاطى الهجاء
والمديح والرثاء في أيام عبد الملك بن مروان ومن تبعه من بني أمية حتى أدرك
خلافة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠) ^(٢).

إن سرَّختم أنظاركم في كتاب حماسة البُحْتَرِيِّ عشرتُم على ثلاثة أبواب ^(٣)
مترجمة بهذه التراجم : الباب الحادي والسبعون والمائة فيما قيل في مَطلِّ الديون
وكُسرِها على الغرماء . الباب الثاني والسبعون والمائة فيما قيل في اليمين
وامتناعهم منها بدلاً ليُغْرُوا غرماءهم بذلك ثم مسامحتهم بها وتسهيلها عليهم
عند المطالبة وتصميمهم عليها . الباب الثالث والسبعون والمائة فيما قيل
فيمن تنجح باليمين وبذلها لغريمه من غير تمذُّع . - وأكثر الشعراء المروية
أبياتُهم في هذه الأبواب الثلاثة غير مذكورين في سائر المصادر ولكن يتضح
من الإشارات الإسلامية الواردة في عدَّة أشعار ومن ذكر الكوفة وقرُس العراق

(١) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ١١١ - ١١٢ .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ١٠٥ - ١١٨ وحساسة أبي تمام ص ١٢٧ - ١٢٨ و ٢٦٣ و ٦٧٢
من طبعة بن أبيج ١ ص ١٣٩ - ١٤٠ وج ٢ ص ٤٤ وج ٤ ص ٤٨ من طبعة بولاق وحساسة البهتري
ص ٢٦ و ١٦٠ و ٣٧٨ من طبعة ليند أوس ١٤ و ١٠٨ و ٢٦٣ (عدد ٢٨ و ٥٠٠ و ١٤١٥)
من طبعة بيروت (وكتاب البيان للباحظ ج ١ ص ٢٨٨ من طبعة ١٣٥١) .

(٣) حساسة البهتري ص ٢٧٦ - ٣٨٧ من طبعة ليند أوس ٢٦١ - ٢٦٨ عدد ١٤١٠ -

١٤٣٤ من طبعة بيروت فراجع (Bulletin de LAMMENS, *La république marchande de la Mecque* (LAMMENS, *La Mecque à la veille de l'Islam*, Beyrouth 1924, P. 145 sqq.)). [LAMMENS, *La Mecque à la veille de l'Islam*, V série t. IV, 1911, P. 38-40.].

ومن الأسماء الإسلامية أنهم كانوا بعد ظهور الإسلام وأن قسماً منهم أدرك
أواخر القرن الأول أو تجاوزها وعلى كل حال هم بأسرهم من أهل البادية
فيلق بهم جعلهم في هذا الصنف الثالث من الشعر . وأبياتهم حريّة بالاعتبار
لما فيها من الدلالة على بعض الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في جزيرة
العرب وما يليها من العراق في القرن الأول . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا
الرُّبُوبَ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً » (١) : هذا هو الحكم الصالح الكريم الوارد في القرآن
الشريف . ولكن أولئك التجار من أهل الحضر الذين اعتادوا الربح العظيم بقرض
المال في زمان الجاهلية لم يرضوا بالامتناع عما كان يعود عليهم بالفائدة
المالية العظمى فأتوا بالحيل الحصول على ما قد حرّمه دين الإسلام فعند
البيع لا سيما بالدين صاروا يخشون أهل البادية مراراً لما وجدوا فيهم من
الاحتياج إلى المال ومن السداجة والجهل . وبما أن الخداع كثيراً ما يدعو
الخداع صار أهل البدو يُبغضونهم ويحاولونهم ويردّون الغش بالغش
مفتخرين بعملهم هذا لا سيما إن كان رب المال من غير أولاد العرب .
وكل ذلك موصوف في الأشعار المشار إليها بصفة أن يجعلوا التجار المختدعين
هذفاً لصحك السامعين (٢) .

٤- فلنخض الآن في الكلام الموجز على الشعر من الصنف الرابع في أيام
الدولة الأموية أعني الأراجيز . إن هذا النوع من الشعر لا يختلف عن شعر
الصنف الثالث من حيث اللغة والموضوع والمعاني والمبدأ والخروج والاستطراد
والنهاية وإنما الفرق بينهما في القالب الذي صيغاً فيه وهو بحر الرجز المشطور

(١) القرآن ٢ (آل عمران) : ١٣٠ .

(٢) ومن أطف هذه الأشعار ما قاله دحي بن عيسى القفصي مرثياً ، فراجع حساسة البحري

ص ٣٨٦ - ٣٨٧ من طبعة لندن أوص ٢٦٨ طبع ١٤٢٤ من طبعة بيروت .

لأشعار الصنف الرابع وسائر الأبحر لأشعار الصنف الثالث . فلكم أن
تعرضوا على مائتين أهذا الفرق المخلو في جنس العروض يستلزم إثبات
صنفين على اتفاقهما في أغلب الأمور . فأقول إن الذي حملني على مثل هذا
التمييز ثلاثة أشياء : ١ إن أراجيز هذا الصنف الرابع نوع خاص لم يسبق
إليه شعراء الجاهلية ولا امتعمله شعراء الدولة العباسية . ٢ إن أكثر الذين
تعاطوا الأراجيز انفردوا بها عن سائر أنواع الشعر . ٣ إن اتخاذ الرجز أثر
في صناعة الشاعر وأوجب فيها أساليب خاصة لا يوجبها أحد الأعاريف
الباقية المشتمل كل بيت منها على مصراعين .

لا يخفى أن أغلب علماء صناعة الشعر ميزوا الرجز والشعر (أو القريض)
تمييزاً تاماً وذلك ابتداءً من لغوي القرن الثاني مثل أبي عمرو بن العلاء
المتوفى سنة ١٥٤ وتلامذته حسبما ينضح من عدة نصوص قديمة^(١) . ففي
كتاب النوادر المشهور فرّق دائماً أبو زيد الأنصاري المتوفى سنة ٢١٤ أو ٢١٥
أو ٢١٦ ما بين باب شعر وباب رجز . ثم لا أحد بجهل أن فواغ الشعراء
في زمان الجاهلية قلما استعملوا الرجز كأنه ليس أهلاً لمنزاتهم ففي ديوان
امرى القيس لا نعر إلا على أربع مقطعات صغيرة منه أعنى اثنتين من
المشطور واثنين من غير المشطور^(٢) . وأكثر من امرى القيس ارتجاًزاً لبيد
ابن ربيعة من الذين أدركوا الإسلام تُنسب إليه خمس عشرة مقطعة في

(١) راجع النصوص المروية في J. GOLDZIEHER, *Abhandlungen zur arabischen Philologie*, I, p. 75 n. 2 وكتاب البيان الجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ [أوج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١]
وكتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٩ ولسان العرب ج ٧ ص ٢١٦ - ٢١٧ و ٢١٨ وكتاب العدة لابن رشي
ج ١ ص ١٢١ - ١٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٥ فيز أيضاً الأغلب العجل الرجز والقريض في بيت مروى
في لسان العرب ٩ ص ٨٤ .

(٢) عدد ٤٤ و ٦ (رجز غير مشطور) و ٥٣ و ٥٤ (رجز مشطور) من طبعة بعناية Ahlwardt.

الرجز المشطور^(١) تدور على المفارقة والحكمة والمعاقبة والمديح والثناء وتشتمل إحداها وهي أطولها على ستة عشر بيتاً .

أما دواوين النابغة الذبياني^(٢) وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد^(٣) وعلقمة الفحل فلا شيء فيها من الرجز . وعلى كل حال لم يكن الارتجاز في زمان الجاهلية إلا بصفة قطع صغيرة يقولها الناس غالباً في الهجاء أو في الحرب وعند اللقاء . أما في القرن الأول للهجرة فأخذ بعض الشعراء من الفحول ينظمون الشعر في ذلك البحر المحتقر فلم يلب هذا التغيير أشار ابن رشيح القيرواني في كتاب العمدة حين قال^(٤) : « قال أبو عبيدة إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاجر حتى كان العجاج أول من أطاله وقصده ونسب فيه وذكر الديار واستوقف الركاب عليها ووصف ما فيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعلت الشعراء بالقصيدة ؛ فكان في الرجز كامرئ القيس في الشعراء . وقال غيره أول من طوّل الرجز الأغلب العجلي وهو قديم وزعم

(١) راجع (١) *Die Gedichte des Lebîd ... aus dem Nachlasse von A. Huber herausgegeben von* C. Brockelmann, Leiden 1892, ج ٢٦ و ٢١ و ٣١ و ٣٢ و ٢٤ و ٣٥ و ٤٥ ومقطعات عدد ١ و ١١ و ١٢ و ١٤ و ٢٣ و ٢١ و ٢٢ .

(٢) وفي كتاب الأغاني ج ٩ ص ١٧٦ من طبعة بلاق تنسب إلى النابغة خمسة أبيات في بحر الرجز المشطور قالها مرتجلاً مادحاً جود النعمان بن المنذر والأبيات أيضاً في عدد ١٠ من ذيل ديوان النابغة المطبوع في المجموعة المسماة *The Divans of the six ancient Arabic poets* بمناية Abilwardt فراجع R. GEYER, *Beiträge zum Dialect des Arabisch* Wien 1910, P. 2 فقال المستشرق Geyer إن موضوع هذه الأبيات يشابه موضوع القصائد .

(٣) أما طريقة فنسب إليه أيضاً أبيات في بحر الرجز المشطور قالها وهو صبي ولعله استشهد بها فقط وتنسب هذه الأبيات إلى غيره (إلى كليب أخى مهلهل مثلاً) فراجع شعراء النعمانية ص ٢٩٨ وعدد ١١ من ذيل ديوان طرفة في المجموعة المذكورة في الحاشية السابقة .

(٤) كتاب العمدة ج ١ ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٢٥ وهذا القول كله مروي في المزهري للسيوطي نوع ٤٩ ج ٢ ص ٣٠١ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

الجمحي^(١) وغيره أنه أول من رجز ولا أظن ذلك صحيحاً لأنه إنما كان على عهد رسول الله (صلعم) ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك .

ولكن لا شك في وقوع سهو في آخر كلام ابن وشيخ لأنه من الواضح أن الجمحي إنما أراد بقوله استعمال بحر الرجز في نظم الشعر مثل القصائد فليس من الممكن أن رجلاً عالماً بتاريخ الشعر ودقائقه مثل الجمحي جهل ما هو متداول عند كل العلماء أن الرجز من أقدم فنون الشعر عند عرب الجاهلية . وقول الجمحي صواب تؤيده عدة نصوص منها شهادة العجاج من أشهر شعراء الأراجيز الذي قال مفتخراً^(٢) :

وإن يكن أمسي شيباني قد حسر
وفترت مني البواني وفتر ...
إنني أنا الأغلب أضحي قد نُشِر

يعني أنه أحيا طريقة شعر الأغلب . وهو الأغلب بن جشم العجلي عاش في الجاهلية مدة وأدرك الإسلام وأسلم وله شعر في سجاح لما تزوجت مسيلمة الكذاب . قال صاحب كتاب الأغاني : « كان فيمن توجه إلى الكوفة مع سعد بن أبي وقاص فنزلها واستشهد في واقعة نهاوند^(٣) فقبره هناك في قبور الشهداء ويقال إنه أول من رجز الأراجيز الطوال من العرب . . قال ابن حبيب^(٤) كانت العرب تقول الرجز في الحرب والجِدَاد والمفاخرة وما جرى

(١) يعني محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣٢ . (انظر كتاب طبقات الشعراء ص ١٤٨ من طبعة ليدن).

(٢) انظر مجموع أشعار العرب : الجزء الثاني المشتمل على ديواني الأراجيز للعجاج والزبني بمثابة Abilwardt من طبعة برلين ١٩٠٣ ص ٧٦ عدد ١٥ من الأبيات المقدرات ، فاليث الثاني مروي في لسان العرب ج ١٨ ص ١٠٤ والثالث مروي في كتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٦٤ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٩ من طبعة ليدن.

(٣) في سنة ٢١ هجرية فراجع J.WELLHAUSEN, *Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islams* (Skizzen und Vorarbeiten, Band VI, Berlin 1899) P. 108 n. 2; L. CAETANI, *Annali dell' Islam*, IV, P. 474-505.

(٤) يعني أبا جعفر محمد بن حبيب الهاشمي المتوفى في ذي الحجة سنة ٢٤٥ .

هذا المعجزة فتأتى منه بأبيات يسيرة فكان الأغلب أول من قصد الرجز ثم سلك الناس بعده طريقته . وقال ابن قتيبة ^(١) : « وهو أول من شبه الرجز بالقصيد وأطاله » . وفي الحقيقة كل ما وصل إلينا من شعره وهو قليل جداً منظوم في الرجز . فالواضح أن الذي ابتدعه الأغلب الأرجوزة أعنى القصيدة المصوغة في بحر الرجز المشطور وهي غير الأرجاز القديم استعمالها عند العرب .

والمحتمل أن نوابغ الشعراء امتنعوا عن سلوك أسلوب الأغلب مدة ولم يذهبوا إلى نظم الأراجيز إلا في منتصف القرن الأول أو بعده بقليل فإلى ذلك الفتور في هذا النوع من النظم لمع على المحتمل العجاج في أبياته المذكورة آنفاً . وعلى كل حال ما عثرت على ذكر شعراء أراجيز سوى الأغلب والشماخ بن ضرار ^(٢) فيما قبل خلافة يزيد بن معاوية . أما بعد منتصف القرن الأول فكثيرون اتخذوا بحر الرجز لسبك القصائد مع قطع النظر عن

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٨٩ من طبعة لندن . انظر أيضاً ما قيل فيه في كتاب الألفان ج ١٨ ص ١٩٦-١٩٧ وكتاب الممرين للسجستاني ص ٩٨ عدد ١٠٧ من طبعة لندن ١٨٩٩ ومزانة الأدب ج ١ ص ٣٣٢ - ٣٣٤ من طبعة بولاق وأمد القنابة لابن الأثير ج ١ ص ١٠٥ من طبعة مصر ١٢٨٠ ومحرلة الشعراء للأصمعي (في مجلة *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft* ج ٢٥ سنة ١٩١١) ص ٤٩٦-٤٩٧ .

(٢) وقال أيضاً قصائد غير مرتجة . أما أراجيزه فهي مروية في ديوانه المطبوع في مصر سنة ١٣٢٧ وأيضاً في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧ - ٢٨ و ١٧٨ - ١٧٩ من طبعة لندن وفي مشارف الأقاليم في محاسن الأراجيز (*Altarabische Dilemben* بتأية R. Geyer) عدد ٤٧ و ٤٨ و ٥١ و ٥٢ من طبعة ليسك ١٩٠٨ وقال الشماخ كلها إما هاجياً وإما مرتجلاً في المقرف تتضمن هذه الأخيرة كل الأشياء الموجودة في القسم الأول من القصائد كالنسب وذكر ما مضى من الزمان ووصف الناقة وذكر الرحلة والطرد والافتخار . قال ابن قتيبة (ص ٢٧) إن الشماخ ارتحل مرة بالرجز . ثم قطع به الروى وتعلم فيه فتركه وسمع بغيره على أثره فظن الأستاذ Geyer (P. 105-107) أن تلك الأبيات ليست من قصيدة وحيدة بل من قصيدتين ولذلك قسمها في عدد ٤٧ و ٤٨ . غير أننا نجد تغير الروى في رجز منسوب إلى بعض الأعراب في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١ - ١٥٢ .

الذين ارتجزوا قليلاً في الهجاء مثل الأخطل^(١) والفرزدق والبعيث^(٢) فهم أصحاب أرجاز لا أصحاب أرجيز . وبعض الذين اتبعوا مسلك الأغلب تعاطوا القصيدة والأرجوزة مع غلبة الأول على الثانية عندهم وهم جرير^(٣) وذو الرمة^(٤) وعمر بن لَجَأ^(٥) السابق ذكرهم . ومنهم أيضاً الشمرذل بن شريك اليربوعي^(٦) من معاصري الفرزدق كان ذا كَلَفٍ بالصيد فقال في الصقر والكلب والقنص أرجيز كثيرة . وبعض الشعراء غلب فيهم الأرجيز على القصائد ومنهم حميد بن مالك بن ربيع التميمي المعروف بحميد الأرقط^(٧) معاصر الحجاج بن يوسف (المتوفى سنة ٩٠/٧١٤) ومنهم

(١) ديوان الأخطل ص ٣٠٧ - ٣١٠ و ٣١٠ و ٣١١ .

(٢) انظر كتاب البيان والبيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٢ (وج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١) .

(٣) جمع R. Geyer ما اشتهر من رجز جرير في مشارف الأندلس في محاسن الأرجيز (Altarebiat) Dilemben عدد ٢٥ - ٤٤ وكلها مقطعات أرجوزة كما قال Geyer ص ٣ - ٤ وراجع أيضاً كتاب أرجيز العرب ص ٥٥ - ٥٦ من طبعة مصر ١٣١٢ (فيها مطبع) .

(٤) جمع R. Geyer ما أثر عليه من رجز ذي الرمة في كتابه الملاكور عدد ١٥ - ٢٤ في الأعداد ١٩ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ كلها أرجوزة كاملة أما غير هذه الأعداد فهي مقطعات وبعضها مروية في أرجيز العرب ص ٥ - ١٠ و ٣٩ - ٤٨ و ٦٢ - ٧٠ و ٩٧ - ٩٨ و ١٢٨ - ١٢٩ (أي خمسة أعداد) .
(٥) قال الجاحظ في كتاب الحيوان ج ٤ ص ٨ إنه « من جمع الرجز والقصيدة » وقال ابن رشيقي في كتاب الصلة ج ١ ص ١٢٣ : « وكذلك عمر بن بلأ كان راجزاً وقصداً » .

(٦) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٢ ص ١١٧ - ١٢٣ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٤٣ من طبعة ليدن - وترى له في الأغاني ج ١٢ ص ١٢٢ أرجوزة تشابه الطرديات وفي ص ١٢٢ - ١٢٣ أرجوزة يذكر فيها ذنباً « قد لازم مرعى غم الشمرذل فلا يزال يفرس منها شاة بعد الشاة لفرسه ليلة حتى جاء لمادته ثم رماه بسهم فقتله » .

(٧) انظر خزائن الأدب ج ٢ ص ٤٥٤ من طبعة بولاق وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٢ (أوج ٣ ص ٢٧٢ من ١٣٥١) وكتاب الصلة لابن رشيقي ج ١ ص ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ وفعولة الشعراء للأصمعي (في المجلة الألمانية المذكورة) ج ٦٥ ص ٤٩٩ - وترى له أرجيز في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٤٢ وحاشية أبي تمام ص ٧٩٥ - ٧٩٦ من طبعة بن أوج ٤ ص ١٦١ - ١٦٢ من طبعة بولاق .

أَبُو النَّجْمِ الْعِجْلِيَّ^(١) واسمه الفضل بن قدامة كان ينزل بسواد الكوفة ويُجيد القصيد والأرجوزة ويُراجز العجّاج وهو القائل في نفسه^(٢) :

إِنِّي وَكَلُّ شَاعِرٍ مِنَ الْبَشَرِ شَيْطَانُهُ أَنْتِ شَيْطَانِي ذَكَرْتُ
فَمَا رَأَيْتُ شَاعِرًا إِلَّا أَمْتَتَرْتُ فَعَلَ نَجُومِ اللَّيْلِ عَيْنُ الْقَمَرِ

وعاش في أيام عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) وخلفائه وأدرك خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ٧٤٣) واستعمل الرجز في المديح والهجاء ووصف الصيد والفهود وغير ذلك فبعدد من الشعراء النوايح .

أما بعض الشعراء فتركوا سائر الأعارض كلياً ولم يصوغوا القصيدة إلا بقلب الرجز . ولعلّ أول من فعل ذلك أبو الشعثاء عبد الله بن رؤبة بن ليبيد من بني سعد تميم الشهير بالعجّاج الذي وُلد على المحتمل في أوائل خلافة عثمان بن عفان (٦٤٤ - ٦٥٦)^(٣) وأدرك خلافة ساجان بن عبد الملك (٦٦٥ - ٦٦٧)^(٤) . ومدار ديوانه على المديح والمفاخرة والافتخار بنفسه

(١) راجع كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٨١ - ٢٨٦ من طبعة لندن ومخرّطة الأدب ج ١ ص ٥٠ من طبعة بولاق وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٢ وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٨ وج ٦ ص ٧٠ وكتاب الأغاني ج ٩ ص ٧٧ - ٨٣ وج ١٨ ص ١٤١ ونحوه الشعراء للأصمعي ص ٤٩٩ و ٥٠٣ . (ومطبوعات الشعراء لابن سلام الجسمي ص ١٤٨ و ١٤٩ - ١٥٠ من طبعة لندن) . تروى بعض أراجيزه في شرح التبريزي على حاشية أبي تمام وفي كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١٣٥ و ١٣٦ وج ٣ ص ١٤٩ وج ٤ ص ٤ و ٩٠ و ١٠٢ إلخ وج ٦ ص ٥٧ و ٥٨ و ٧٠ و ٧١ وفي شرح شواهد التنزيل للسيوطي ص ١٨٥ - ١٨٦ من طبعة مصر ١٣٢٢ وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ٤٨ - ٤٩ من طبعة ١٣٠٥ .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٨٢ من طبعة لندن ومخرّطة الأدب ج ١ ص ٥٠ من طبعة بولاق والبيت الأول مروي أيضاً في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٧٠ .

(٣) قال الأصمعي (فصول الشعراء في المحلة المذكورة ج ٦ ص ٤٩٩) إنه مولود قبل الإسلام .

(٤) لا تكاد نجد في تصانيف العرب أخبار حياة العجّاج وكل ما آتى به ختمه Ahlwardt في ص ١٢ - ١٧ من مقدمة كتابه التي سيأتي ذكره وجمع Ahlwardt نفسه أشعار العجّاج في الجزء الثاني من مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان الأراجيز للعجّاج والزيفان (Sammlungen arabischer Dichter. II) =

فَشَنُّ فِي الْإِبْرِيْقِ مِنْهَا نَزَقًا مِنْ رَصْفٍ نَازَعٍ سَيْلًا رَصَفًا
حَتَّى تَنَاهَى فِي صَهَارِيجِ الصُّفَا فَغَمَّهَا حَوْلَيْنِ ثُمَّ اسْتَوَدَقَا
صَهْبَاءَ خُرْطُومًا عُقَارًا قَرَقَمَا خَالَطَ مِنْ سَلَمَى خِيَاشِيمٍ وَفَا

وله أيضاً أرجوزة تبتلى بعبارات دينية ثم تخرج إلى ذكر متاعب
الشاعر ويأسه من العمر الطويل ومنها (١) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اسْتَقَلَّتْ بِإِذْنِهِ السَّمَاءُ وَأَطْمَأَنَّتِ
بِإِذْنِهِ الْأَرْضُ وَمَا نَعَتْ وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ
وَالْجَاعِلُ الْغَيْثَ غِيَاثَ الْمُسْتَنْتِ وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ
بَعْدَ الْمَمَاتِ وَهُوَ مُخَيِّ الْمَوْتِ رَبُّ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ الْقُنْتُ
مَنْ نُزِّلَ إِذَا الْأُمُورُ غَبَّتِ وَالْجَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمِ الْمَوْقُتِ
حَتَّى أَنْقَضَى قَضَائَهَا فَادَّتِ يَوْمَ تَرَى النَّفُوسَ مَا أَعْدَتْ
إِلَى الْإِلَهِ خَلْقَهُ إِذْ طَمَّتِ مِنْ سَعْيِ دُنْيَا طَالَ مَا قَدْ مُدَّتِ

وفي أرجوزة ثانية (٢) أيضاً مطلع ديني صاغه المعجّاج ليخرج بعده إلى
مدح عمر بن عبيد الله بن معمر الذي قاتل الحروريين وانتصر عليهم وقتل
رئيسهم أبا فديك سنة ٧٣٣ هـ . ولكن في سائر أراجيزه إنسا اقتدى بالأفكار
والمعالي المتعارفة عند شعراء الجاهلية من أهل البادية . ومن الغريب عدم الهجاء
فيما وصل إلينا من شعره مع أنه يفتخر بحدّ لسانه الذي أسكت به أخصامه
وأفحهم (٣) :

إِنِّي إِذَا مَا حُصْبَةٌ أَنْتَابُهَا ظَالِمَةٌ قَدْ سَرْنِي سِبَابُهَا

(١) ديوان المعجّاج عدد ٢ بيت ١ - ١٣ وكتاب خزنة الأدب ج ٣ ص ٥٠٩ .

(٢) ديوان المعجّاج عدد ١١ بيت ١ - ١٦ .

(٣) ديوان المعجّاج عدد ٢ بيت ١٥ - ٢١ .

أَصْدَقُهَا الشُّنْمُ وَلَا أَهَابُهَا حَتَّى تُرَى جَاخِرَةٌ كِلَابُهَا
إِذَا الْقَوَافِي حُسِرَتْ أَثْوَابُهَا وَجَدَّتْهَا مَفْتَحًا أَبْوَابُهَا
مُقْبِلَةً بِسَيْلِهَا شُعَابُهَا

فقال ابن قتيبة ^(١) : « قيل للعجاج إنك لا تحسن الهجاء فقال إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نظلم وأحساباً تمنعنا من أن نُظلم وهل رأيت بانياً لا يُحسِن أن يهدم » . - والرثاء أيضاً لا أثر له في ديوانه كنه عسر عليه فاستنكف منه . - وبعض أراجيز العجاج طويلة جداً تُذكر إحداهما ^(٢) عدد مائتي بيت وتشتمل أخرى ^(٣) على ٢٢٩ بيتاً، والعجاج متين العبارة جيد الألفاظ. كثير التصرف في الوصف وإن كانت الأشياء الموصوفة ممّا كثر ذكره عند الشعراء المتقدمين . أمّا عيوب شعره فنلجح إليها بعد الكلام على أراجيز ابنه رؤبة .

تقدم أن الكتب العربية المعروفة الآن لا تُفيدنا أخبار حياة العجاج سوى النوادر التي لا طائل فيها فهذه أيضاً حالة رؤبة بن العجاج الذي وُصفت حياته في كتاب الأغاني بهذه الألفاظ القليلة ^(٤) : « نزل البصرة وهو من مخضرمي الدولتين مدح بني أمية وبني العباس ومات في أيام المنصور » . ويُخبرنا صاحب الأغاني في موضع آخر ^(٥) عَرَضِيّاً بأن رؤبة حجّ مع سليمان ابن عبد الملك وشعرائه منهم الفرزدق (وذلك سنة ٩٧/٧١٦) . وقال ابن خلكان ^(٦)

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٢٨ و ٣٧٥ من طبعة لندن وكتاب الأماشي للنالي ج ٢ ص ٤٩ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أرج ٢ ص ٤٧ من طبعة ١٣٤٤] .

(٢) عدد ٤٠ من ديوان العجاج . (٣) ديوان العجاج عدد ٨ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٤ .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٨٥ من طبعة بولاق وراجع أيضاً نقائض جرير والفرزدق ص ٣٨٢ - ٣٨٤ من طبعة لندن .

(٦) وفیات الاميان لابن خلكان عدد ٢٣٧ من طبعة غوتنجن أو عدد ٢٢٤ من الطبقات المصرية وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٧٦ - ٣٨٠ من طبعة لندن .

إن روبة توفي سنة $\frac{145}{764}$ وهو مُسِنَّ . هذا جميع ما يُستخرج من الكتب الواصلة إلينا مع أن كتاب الفهرست ^(١) يفيلنا أن حمّاد بن إسحاق بن إبراهيم من علماء القرن الثالث قد ألّف كتاب أخبار روبة . ولكن من أطلع على ديوان أراجيزه ^(٢) التقط منه فوائد شتى يتوصّل بها إلى معرفة حقيقة حال الشاعر ^(٣) . فيتضح من نظمه أنه كان مدة من أهل الوبر مثل أبيه العجاج وأخذ يجهول في البلاد ويسافر إلى النواحي القاصية حتى قصد أكابر الناس والأمراء في خراسان وكرمان ليملحهم بأراجيزه فينال منهم الجوائز لأن الشعر كان له ولعياله الكثير مكسباً . فلما انكدرت أحوال المملكة بسبب الفتن التالية لانتهاه دولة بني أمية $\frac{132}{702}$ فكسدت أسواق الشعر في جملة من الأنحاء اختار الإقامة بالبصرة ليسهل عليه (وهو كبير السن) الوفد على أهل العقد والحلّ ونيل ما كان يرجو منهم من المال .

ويذكر أحياناً ما قد مرّ عليه من الزمان السعيد والثرف ^(٤) :

فقد أَرَانِي أَرْحَلُ المَرَحِلَا فِي الوَفْدِ أَوْ ذَا حَاجَةٍ مُنَاصِلَا
أَوْ زِيرَ بَيْضِ قَرْفُلٍ المَرَاغِلَا أَمَضَعُ مِسْوَاكِي وَأَعْدُو هَامِلَا
مَخْبِطَا وَلَا عِيَا مُهَازِلَا وَأَتَقِي الفَحْشَاءَ وَالنَّاعِلَا

(١) كتاب الفهرست ص ١٤٣ سطر ٢ من طبعة ليسك ١٨٧١ - ١٨٧٢ .

(٢) الجزء الثالث من مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان روبة بن العجاج طبع ببرلين سنة ١٩٠٣ بناية Ahlwardt (*sammlungen alter arabischer Dichter*) (وأرسل إليه بديوان روبة) وأراجيز العرب ص ٢٢ - ٢٨ و ٥٦ - ٦٢ و ٧٩ - ٨٥ و ٩٨ - ١٠٩ و ١٢٢ - ١٢٤ و ١٣٤ - ١٣٨ و ١٣٩ - ١٥٥ و ١٥٩ - ١٧٢ و ١٨٥ - ١٨٨ ومقطعات له مروية في مشارف الأقاويذ في محاسن الأراجيز (*Altarabische Diwanen*) عدد ٣ - ١٤ (٩٦٩ بيتاً) وراجع أيضاً *Sitzungsberichte der Akademie* (R. GEYER, *Beiträge zum Dialekt der Ru'bak*) وفيه ٥٨ أرجوزة .

(٣) راجع مقدمة ديوان روبة ص ٢٢ - ٢٣ .

(٤) ديوان روبة عدد ٤٥ بيت ٩٧ - ١٠٢ .

ويشكو ثَقُلَ قَتَبِ الدِّينِ وَلَوْمْ زَوَّجَتْهُ لَذَلِكَ (١) :

وَحَمَلَ الدِّينُ عَلَى الْبَرْكَاءِ وَجَرَ أَرْحَاءَ دَهْمَكُنْ دَهْمَكَا
أَهْلَكَنِي إِلَّا يَزَالَ يَلُكَا صَاحِبُ دَيْنٍ لَا يَنْتَ وَمَحَكَا
أَعْرُسُكَ عَنِّي فَيَأْتِي الْعَرْكَاءَ سَوَّقِ الْأَجِيرِ الْمُتَعَبِ الْأَفْكَاءَا

وإنما بعلتي الرجاء بمن اشتهر ندى يديه فلإيه يلتجئ الشاعر (٢) :

ويعتري مَنْ يَطْلُبُ الْوَسَائِلَا وَجَهَ الْكَرِيمِ وَالْجَوَادِ الْبَائِلَا
وَيُبَغِضُونَ الصُّمَعْرَى الْبَاخِلَا فَقُلْتُ إِذْ عَالَجْتُ دَيْنَا شَاغِلَا
لَا بُدَّ مِنْ قَوْلِي وَكُنْتُ قَاتِلَا يَمُّمُ مُلَيْمَانُ تَجِدُهُ وَاصِلَا
أَعَانَ مِنْهُ حَسْبًا وَنَائِلَا مُحْتَسِبَ الْأَجْرِ كَرِيمًا فَاعِلَا

فكثيراً ما يشكو إلى الأكابر مصائب الدهر وشدة الفقر (٣) :

إِلَيْكَ أَشْكُو عَضُّ دَهْرٍ مِكْسِرٍ أَبْقَى خُدُودًا كَالْحَرِيقِ الْيَشْرِيرِ
أَرْسِلْ فَاسْتَمْدِي بِأَمْرِ مُنْكَرٍ يَلْهَى وَحْشَرًا قَبْلَ يَوْمِ الْمَخْشَرِ
طَرَحَ مِنْ نَفْرِيهِ الْمُبْتَلِ مَوْتِي وَأَحْيَاءَ بَشَرٍ مُوقَرٍ
يَشْكُونَ فَقْرًا لَيْسَ بِالتَّفَقُّرِ

فيطلب من الكرماء الهدايا الجزيلة فقال مثلاً في أرجوزة مدح بها نصر
ابن سيار والي خراسان والسفد (٤) :

يَا نَصْرُ أَذْرِكْنِي بَغِيثٍ يُجْدِي بِرَحْضٍ آثَارَ السَّنِينِ الْجُرْدِ

(١) ديوان رؤية عدد ٤٤ بيت ٢٣ - ٢٨ .

(٢) ديوان رؤية عدد ٤٥ بيت ١٠٥ - ١١٢ . سليمان بن علي هو عم الخليفة السفاح .

(٣) ديوان رؤية عدد ٢٢ بيت ٢٢٤ - ٢٣٠ - خلود جمع خد وهو الحفرة المستطيلة في الأرض فراجع بيتا رؤية في ديوانه عدد ٤١ بيت ٨٧ - ٨٨ أو أرجيز العرب ص ١٠٤ يقول الشاعر فهما إن الناقة :

أَبَقَّتْ أَخَادِيدَ وَأَبَقَّتْ حَلَقَا بِصُحْبِ حَنِّ مُطَرِّقٍ وَفَلَقَا

(٤) ديوان رؤية عدد ١٩ بيت ٦ - ١٠ ويشير فيها إلى أهله الذين يترقبون الطعام .

إِنْ بَلَّ أَرْضِي لَمْ يُصِيبْنِي وَخَدِي قَدْ كُنْتُ فِي الْوَعْدِ وَعِنْدَ الْعَهْدِ
وَالْخَيْرُ يَأْتِي مِنْكَ قَبْلَ الْكَدِّ

ثم قال (١) :

وَمَا تَزَالُ مِدْحِي مِنْ نَجْدٍ تَأْتِيكَ فَأَذْكُرُ صَلَاتِي وَرَفْدِي
عِنْدَكَ خَيْرٌ يُبْتَنَى وَعِنْدِي أَبْقَى وَأَمْضَى مِنْ سَيْوفِ الْهِنْدِ
أَدْرَكْتُ مَنْ قَبْلِي فَمَنْ ذَا بَعْدِي يَنْسُجُ نَسْجِي أَوْ يَقْدُ قَدِّي

فلا عجب أن يكون معظم ديوانه في مدح الخلفاء والأمراء والأكابر
الموصوفين بالجود إلا أن المدح الحقيقي في أراجيزه قصير جداً مشتمل على أبيات
قليلة لأن باقي الأرجوزة جارية مجرى كل القصائد القديمة دائرة على ذكر
الدّمْن ومخاوف السفر والنسب ووصف البراري والسراب والمناهل والقوس
والسهام والصيد والناقة وهلم جرا فضلاً عن الحماسة والافتخار بقومه وبنفسه.
ومن مدائحه أرجوزة محتوية على ٢٧٢ بيتاً أنشدتها بحضرة مروان بن محمد
آخر خلفاء بني أمية (١٣٧ - ١٣٢) وبليدها (٢) :

أَرْقَى طَارِقٌ هَمٌّ أَرْقَا وَرَكُضٌ غَرِبَانٍ غَدَوْنٌ نُنَقَا

ومدارها هذا : يبتدىء رؤية بذكر رسوم الأطلال في موضع سكنته
زوجته أَرْوَى في الزمان الماضي وهو في رَيْعَانِ الشَّبَابِ ثم يشكو إلامَ الشَّيْبِ
برأسه وينصرف في وصف فيافي متسع طامسة الأعلام هائلة قطعتها العيساء
في لُجِّ الليل وهو راكبها كأنه راكب زَوْزَقاً أو نَعَامَةً أو حِمَاراً وحشياً . وبعد
ذلك يذكر تشبيهه بنساء قومه غاية الجمال ويفخر بحماسة قبيلته وعلى

(١) ديوان رؤية عدد ١٩ بيت ٣٧ - ٤٢ .

(٢) ديوان رؤية عدد ٤١ وأراجيز العرب ص ٩٨ - ١٠٩ وفي هذا الكتاب ١٨٣ بيتاً فقط .

وجه الاستطراد ينظم ٤٠ بيتاً في تفصيل شعره على أقوال خصومه من الشعراء
فإنتهى إلى نحو ثلاثة أرباع من الأرجوزة قبل أن يخرج إلى ذكر الخليفة (١)
وظفره على أصحاب الفتن في الشام والعراق بعون الله فيلعن الثائرين ويثنى
على جود مروان . ثم يرجع إلى الافتخار بقيبيلته تميم ويهتد ربيعة لميلها إلى
الدعوة العباسية التي عنده كُفِّرَ فيختم الشعر بتصريح صدق وفائه وإخلاصه
لمروان .

ولكن لم يمنعه هذه الأرجوزة عن إطراء بني العباس لما تولوا الخلافة
وتأليف أرجوزة تحتوي على ٤٠٠ بيت (٢) في مدح السفاح ختمها بطلب
الهدايا بل في أرجوزة أخرى مدح بها الخليفة المنصور (٣٦٦ - ١٥٨) لم
يستح من أن يسب الدولة الأموية (٣) التي قد أثنى عليها في أيامها السعيدة (٤) :

فترَكُوا مستسلمين جُنْحًا وَحَوْتِكَاتٍ وَنِسَاءً نُوحًا
وَمُهْلَكِينَ فِي الْجَحِيمِ كُلِّحًا وَعَادَ مُلْكُ اللَّهِ مُلْكًا مُرْدَحًا

واحتذى روبة مثال أبيه العجاج في إغفال تعاطي الرثاء والهجاء فقال (٥) :

إِنِّي أَمْرٌ لِلنَّاسِ غَيْرُ سَبَابٍ لِلْقُرْبِ الْأَثْنِ وَلَا لِلْأَجْنَابِ
أَجْتَنِبُ الْعَيْبَ أَنْقَاءَ الْأَعْيَابِ وَالْقَوْلُ يُلْقَى بَعْضُهُ فِي الْأَثَابِ
مَاضِيهِ أَمْضَى مِنْ حِدَادِ النَّشَابِ وَالْقَوْلُ يَنْمِي بَعْدَ غِبِّ الْأَغْيَابِ

ومما يستحق الذكر قوله في القدرتين في أرجوزة مدح بها مسلمة بن
عبد الملك بن مروان (المتوفى سنة ١٢٠ أو ١٢١) بعد أن أحمد نيران الفتنة

(١) ديوان روبة عدد ٥٥ وأراجيز العرب ص ١٣٩ - ١٥٥ .

(٢) ديوان روبة عدد ١٤ بيت ٢٧ - ٤٩ .

(٣) ديوان روبة عدد ١٤ بيت ٤٧ - ٥٠ .

(٤) ديوان روبة عدد ٢ بيت ٢٩ - ٣٤ وأراجيز العرب ص ١٦٠ - ١٦١ .

نحو سنة ١٠٢ و قتل يزيد بن المهلب من رؤساء الثائرين . فقال^(١) :

فلقتُ والمُملِي حفيظُ الكتابِ والقَلَرِيونَ بقولِ مُرتابِ
والقَلَرِيينَ بِحَبْلِ جَدَابِ بِقَدَرِ فِي حَلَقَاتِ الْأَسْبَابِ
يَنْزِعُهُمْ مِنْ شَاهِدِ وَغِيَابِ جَذَبَ الْمُعْلِينَ دِلَاءَ الْأَكْرَابِ
سَيِّفَرُونَ الْحَقَّ عِنْدَ الْمِيجَابِ دَعَاهُمْ سَيَلَقَرُونَ أَعْدَّ الْحُسَابِ
وَالْأَمْرُ يُقْضَى فِي الشَّقَا لِلْخِيَابِ

ولرؤية حِكَمِ جَسِلَةٍ نَسَجَهَا فِي أَرْجُوزَةٍ لَهَا ٣٧ بيتاً في معاتبة ابنه
عبد الله^(٢) منها :

وَأَصْدُقْ إِذَا قُلْتَ قَوْلًا وَأَقْصِدْ فَلَيْسَ مَنْ جَارَ كَهَادٍ يَهْتَدِي
إِنَّ السَّعِيدَ عَامِلٌ لِلْإِسْعِدِ وَالرُّشْدُ فَاغْلَمُهُ طَرِيقُ الْأَرْشِدِ
وَزَادُ تَفَوُّي أَفْضَلُ التَّرَوُّدِ

وحِكَمُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ وَرَدَتْ مُتَفَرِّقَةً فِي أَرَاجِيزِهِ . ثُمَّ مِنَ الْجَدِيدِ بِالذِّكْرِ
وَرُودُ عِبَارَاتٍ فِي شِعْرِهِ تَدُلُّ عَلَى ابْتِدَاءِ رَوَاجِ الْأَقْوَالِ بِعِلْمِ أَحْكَامِ النُّجُومِ عِنْدَ
العرب في أوائل عهد الدولة العباسية^(٣) فقال ملمحاً إلى انقراض الأمويين^(٤) :

مِرْوَانُ لَمَّا أَنْ تَهَاوَتْ أَنْجُمُهُ وَخَانُهُ فِي حَكِيمِهِ مُنْجُمُهُ

كَانَ رُؤْيَاً يَقْلُرُ شِعْرُهُ قَدْرًا عَظِيمًا فَلَوْ أَرَدْنَا جَمْعَ كُلِّ مَا قَالَهُ مَدْحًا

(١) ديوان رؤية عدد ٢ بيت ٤٣ - ٥٠ وهذه الأبيات غير موجودة في كتاب أراجيز العرب .

(٢) ديوان رؤية عدد ٢٠ بيت ٣٠ - ٣٤ ونقل Ahlwardt كل هذه الأرجوزة إلى اللغة الألمانية في ص ٣١ - ٣٢ من مقدمته .

(٣) قل رؤية (الديوان عدد ٥٥ بيت ٨٢ أو أراجيز العرب ص ١٤٥) إن السفاح

(٤) « فاز بنجم سَعْدِهِ مُنْجُمُهُ » (وفي الديوان « بنجمي ») .

(٤) ديوان رؤية عدد ٩٢ من الأبيات المقرحات بيت ١٧ - ١٨ وكتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٩ .

لصنعته في أراجيزه لا ضطررنا إلى إيراد أكثر من مائة بيت . فهاكم بعض الأمثلة من ذلك^(١) :

قلتُ والأقوالُ ممّا يَنْبَرِي ما أنا بالفاني ولا المُنْغَرِي
أَنْسِجَ نَسِجَ الصَّنْعِ الْمُجَبَّرِ كَيْفَ تَرَانِي أَنْتَحِي فِي الدَّفْتَرِ
على قضيبِ الذاهباتِ الشُّبْرِ لا ينظرُ النحويُّ فيها نظري
وإن لوى لَحْيَيْهِ بالتحَكُّرِ وهو دَهِيُّ الْعِلْمِ والتَّعَبْرِ
حتى استقامتْ بي على التيسرِ

وهذه أبيات من أرجوزة مدح بها القاسم بن محمد الشَّقَقِي الذي توفي سنة ٩٥ وهي مهمة لما فيها من أقدم التعريض في الشعر بعلم النحو . - ومما قال في مدح أبياته^(٢) :

قلتُ ولا يبلُغُ وَصْنِي واصفٌ لَأَمْدَحَنَّ والعُروفُ عارفٌ
بِمُسْتَجِدَّاتِهَا طرائفُ لها سِيرٌ ولها مَوَاقِفُ
أَسَّسَهَا صَنَعٌ بَيْنَ قَائِفِ

وقال أيضاً^(٣) :

ما كان تَحْيِيرُ الْيَمَانِي الْبِرَادِ يَرْجُو وَإِنْ دَاخَلَ كُلُّ وَصَادِ
نَسْجِي وَنَسْجِي مُجَرِّدُ الْجُدَادِ

إن من قائل أشعار العجاج ورؤية تعجب من جودة صناعتها ومهارتها في صوغ الأراجيز الطولي على روى صعب مسألة من الإقواء والإكفاء والإبطاء . فقد لاحظ مثلاً يونس بن حبيب^(٤) أن العجاج قال أرجوزته التي مطلعها

(١) ديوان رؤبة عدد ٢٢ بيت ١٣٤ - ١٤٢ .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٣٩ بيت ١٦ - ٢٠ .

(٣) ديوان رؤبة عدد ١٦ بيت ٢٥ - ٢٨ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٩ .

«قد جَبَرَ الدِّينَ الإِلَهَ فَجَبَرَهُ» وهي ٢٢٩ بيتاً موقوفة القوافي ولو أُطْلِقَتْ قوافيها كانت كلها منصوبة وكذلك عامة أراجيزهما . ولهما التوسع العجيب في اللغة لا سيما لرؤية ، فأصاب من قال فيه إنه كان بصيراً باللغة قيماً بحوثيَّتها وغريبها^(١) . فلكثرة الألفاظ الغريبة الموجودة في أبياتهما احتجَّت بها أهل اللغة كثيراً وإن كانوا أحياناً لا يفهمون معناها بالضبط . فغلطوا في تفسيرها . ومثال ذلك ما قالت علماء اللغة من العرب في أبيات رؤية^(٢) :

لَمَّا أَرْدَرْتَ نَقْدِي وَقُلْتَ إِنِّي تَأَلَّقْتُ وَأَنْصَلْتُ بِعُكْلٍ
خِطْبِي وَهَزَّتْ رَأْسَهَا تَسْتَبِلِي تَسْأَلُنِي مِنَ السَّنِينَ كَمْ لِي
فَقُلْتُ لَوْ عُمُرْتُ بَيْنَ الْجِشَلِ أَوْ عُمُرَ نُوْحٍ زَمَنَ الْفِطْحَلِ
وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطَبْنِ الْوَحْلِ صَرْتُ رَهِيْنًا مَرَمٍ أَوْ قَتْلٍ

قال الجاحظ في كتاب الحيوان^(٣) : « وهذا الشعر يذلل على طول عمر الجِشَلِ لأنه لم يكن ليقول « أَوْ عُمُرَ نُوْحٍ زَمَنَ الْفِطْحَلِ » والصخر مَبْتَلٌ

(١) كتاب وفیات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٢٧ من طبعة غوتنجن لو عدد ٢٢٤ من الطبقات المصرية وكتاب شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص لعبد الرحيم بن عبد الرحمن ابن أحمد الباسي ص ٨ من طبعة مصر ١٢٨٤ .

(٢) ديوان رؤية عدد ٤٦ بيت ٩ - ١٦ (فراجع ما قاله فيها Abihwardt في مقدمته ص ١٣ - ١٥) وكتاب أراجيز العرب ص ١٢٢ - ١٢٣ والأبيات مروية في لسان العرب ج ١٣ ص ٧٢ و ج ١١ ص ٤٣ وناج المروسي ج ٨ ص ٦٤ وصاح الجوهري ج ٢ ص ٢٢٧ من طبعة بولاق ١٢٨٢ (تنسب فيه إلى العجاج) ويجمع الأشبال للمبدئي ج ٢ ص ٦٢ - ٦٣ من طبعة مصر ١٣١٠ (في المثل : كان ذلك زمن الفطحل) والمزهر السيوطي (في النوع الحمين) ج ٢ ص ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ وبلوغ الأدب في أحوال العرب للأولوسي ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٠ من طبعة بنگلاد ١٣١٤ وحيوة الحيوان للدميري ج ١ ص ٢٠٣ من طبعة مصر ١٣١١ والكامل للمبرد ص ٢٤٨ من طبعة ليسانك وثمار القلوب للشعالبي ص ٥١٥ - ٥١٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ وكتاب الحيوان للجاحظ في المواضع التي سيأتى ذكرها في الحواشي التالية .

(٣) كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٥ - ٣٦ من طبعة مصر ١٣٢٢ - ١٣٢٥ ولا يذكر اسم الشاعر (راجع أيضاً ج ٤ ص ٦٧ و ٨) .

كطين الوحل * إلا وعمر الحسل عنده أطول الأعمار . وروى ابن الأعرابي عن بعض الأعراب أن سن الضب واحدة أبداً وعلى حال واحدة أبداً فكأنه قال لا أفعلها ما دام منها كذلك لا تنقص ولا تزيد . وقال زيد بن كثريرة سن الحسل ثلاثة أعوام وزعم أن قوله مثلاً لا أفعله سن الحسل غلط . ولكن الضب طويل العمر إذا لم يعرض له أمر وسن الحسل مثل سن القلوص ثلاث سنين حتى يلقح . ولو كانت سن الحسل على حالة واحدة لعرف الأعراب الفتي من الزكي وقد يكون الضب أعظم من الضب وليس بأكبر منه سناً . وقال الجاحظ في موضع آخر (١) :

« وقد يمكن أن يكون الحسل لا يبنى ولا يرفع فتكون أسنانه أبداً على أمر واحد ويكون قول العجاج (٢) في طول عمره حقاً ويدل على أن أسنانه على ما ذكروا قول الفزاري :

وجدناكم رباباً بنى أم فرقة كأسنان حسل لا وفاء ولا غدر

يقولون لا زيادة ولا نقصان » . - وقال في موضع ثالث (٣) : « ومن أمثالهم لا آتيك سن الحسل وقال العجاج : ثُمَّتَ (٤) لا آتيه سن الحسل . كأنه قال حتى يكون ما لا يكون لأن الحسل لا يستبدل بأسنانه أسناناً » . وفي كتاب لسان العرب (٥) ما نصه : « وقولهم في المثل لا آتيك سن الحسل أي أبداً لأن سنّها لا تسقط أبداً حتى تموت (٦) وأنشد ابن بري ثُمَّتَ لا

(١) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢) في الطبعة السجّاج - ومن المحتمل أن الجاحظ ينسب إلى العجاج أبيات رؤبة التي ذكرناها آنفاً أو أنه يشير إلى بيت العجاج المروي في ج ٦ ص ٦٢ .

(٣) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٤٢ . (٤) في الطبعة : ثمة .

(٥) لسان العرب ج ١٣ ص ٦١ من طبعة بولاق .

(٦) هكذا أيضاً في صحاح الجوهري ج ٢ ص ١٧١ من طبعة بولاق ١٢٨٢ .

أُرْسِلَهَا سِنَّ الْحِجْلِ . وقال أحد الحديثين وهو السيد محمد توفيق
الْبَكْرِيُّ الصَّدِيقُ شَارِحاً أَيْيَاتِ رُؤْيَا (١) : «الحِجْلُ ولد الضَّبِّ تنفَقَ عنه
البَيْضَةُ وقد خرجت سِنَّةً فلو بَقِيَ دَهْرًا لَمْ يَتَغَيَّرْ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ . يقول فلو عَمِرَتْ
لَا أَتَغَيَّرُ كَانَ آخِرُ حَالِي الْمَوْتَ .»

ولكن هذه التفسيرات جميعها بعيدة عن حقيقة الأمر فإن من قال بطول
عمر الضَّبِّ ومن قال بعدم تغير أسنانه إنما استخرج قوله على وجه الحدس
وال تخمين من نفس بيت رؤْيَا والمثل السائر المذكور فلم ينتبه لغرابة استعمال
لفظ الحِجْل في مثل هذا التشبيه الدالّ عنده على طول العمر أو عدم التغير
إذ كان الحِجْل اسم الضَّبِّ حين يخرج من بيضته أعني وقت ولادته (٢) .
فشرح الأبيات الحقيقي هذا (٣) لا يخرج الحِجْل من بيضته إلا بعد ما
ثَقَبَ قِشْرَتَهَا بِسِنَّ بَارِزَةٍ مِنْ فِيهِ تَسْقُطُ مِنْهُ بَعْدَ الْمَوْلِدِ . فقال رؤْيَا لو
عُمِرْتُ مَا خَرَجَ الْحِجْلُ مِنْ بَيْضَتِهِ بِوَسْطَةِ تِلْكَ السِّنِّ الْخَاصَّةِ يَعْنِي مَا
كَانَ فِي الدُّنْيَا ضَبًّا أَيْ دَائِمًا . فقوله من باب قول الشاعر (٤) :

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا قَبِيتِ الصَّبَا وَمَا فَرَقَرِ الْقِمَرِي فِي وَرَقِ السُّدْرِ

أو من باب قول العرب : لَا أَفْعَلُهُ السَّمَرُ وَالْقَمَرُ (٥) أَيْ مَا كَانَ
سَمَرًا وَالْقَمَرُ أَيْ أَبَدًا .

(١) كتاب أدب العز العرب ص ١٢٣ .

(٢) قال أبو زيد الأنصاري (المتوفى سنة ٢١٥ أو ٢١٤ أو ٢١٦) في النوادر في اللغة
ص ٩٢ من طبعة بيروت ١٨٩٤ « يقال لفرخ الضب حين يخرج من بيضته حِجْلٌ ثُمَّ يَكُونُ ضِدَاقًا
ثُمَّ يَكُونُ مَطْبَخًا ثُمَّ يَكُونُ ضَبًّا مَدْرَكًا » كلها أيضًا في كتاب المفصّل لابن سيده ج ٨ ص ٩٦ من
طبعة بولاق ١٣١٣ - ١٣٢١ .

(٣) راجع مقالة Ahlwardt لديوان رؤْيَا ص ١٤ - ١٥ .

(٤) انظر كتاب الظرف والظرفاء (أو كتاب الموشى) لأبي الطيب محمد بن إسحاق الوشاء
ص ١٣٠ من طبعة مصر ١٣٢٤ .

(٥) كتاب الأمل للقال ج ١ ص ٢٣٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ .

أما قول روية : أو عُمَرَ نُوحٍ زَمَنَ الْفِطْحَلِ • وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطِينِ
الْوَحْلِ . فهو أيضاً مما لم يتوصل إلى شرحه علماء اللغة . قال أبو نصر
الجوهري المتوفى في أواخر القرن الرابع في كتاب الصحاح ^(١) : « الْفِطْحَلُ
على وزن الهزبر زَمَنٌ لم يُخْلَقِ النَّاسُ فِيهِ بَعْدُ . قال الجزي ^(٢) سألتُ
أبا عبيدة ^(٣) عنه فقال الأعراب تقول إنه زمن كانت الحجارة فيه رطبة .
وأنشد للعجاج [كذا] : وقد أتانا زَمَنَ الْفِطْحَلِ • وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطِينِ
الْوَحْلِ » . - وفي لسان العرب ^(٤) ما نصه : الْفِطْحَلُ على وزن الهزبر دهرٌ
لم يُخْلَقِ النَّاسُ فِيهِ بَعْدُ وَزَمَنُ الْفِطْحَلِ زمن نوح النبي على نبينا وعليه
الصلاة والسلام . وسئل روية عن قوله زمن الْفِطْحَلِ فقال أيام كانت الحجارة
فيه رطاباً . وروى أن روية بن العجاج نزل ماء من المياه فأراد أن يتزوج
امراً فقالت له المرأة ما سَدُّكَ ما مَالُكَ ما كَذَا فأنشأ يقول : [الآيات] .
وقال بعضهم • زَمَنَ الْفِطْحَلِ إِذَ السُّلَامِ ^(٥) رِطَابٌ • وقال أبو حنيفة ^(٦)
يقال أَتَيْتُكَ عَامَ الْفِطْحَلِ وَالْهَدْمَلَةِ ^(٧) يعني زمن الخصب والريف . . .

(١) كتاب الصحاح ج ٢ ص ٢٢٧ من طبعة بولاق ١٢٨٢ .

(٢) دهر أبو هريرة بن إسماعيل الجزي المتوفى $\frac{٢٢٥}{٤٨٠}$ فانظر G.FLUEGEL, *Die grammatischen Schulen der Araber*, Leipzig 1869, p. 81-82.

(٣) يعني أبا عبيدة معمر بن لثمة من النحويين البصريين واختلف في تعيين سنة مائة بين

(٤) لسان العرب ج ١٤ ص ٤٢ - ٤٣ .

(٥) سلام جميع سنة أي الحبر .

(٦) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفى سنة $\frac{٢٨٢}{٨٩٥}$.

(٧) قال الجوهري في الصحاح : « الْهَدْمَلَةُ الرملة الكثيرة الشجر » وقيل في لسان العرب ج ١٤

ص ٢١٧ : « وَالْهَدْمَلَةُ الدهر الذي لا يقف عليه لطول التقادم ويضرب مثلاً الذي فات يقول بعضهم
لبعض كان هذا أيام الهدملة قال كثير :

كَأَنَّ لَمْ يَدْعَمْنَهَا أَنْيَسٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَعْدَ أَيَّامِ الْهَدْمَلَةِ عَامِرٌ

وراجع أيضاً كتاب مصيبي ما استعجم للبكري ص ٨٢٨ من طبعة خوتن ١٨٧٦ .

والفِطْحَلُ السَّيْلُ وَجَمَلٌ فِطْحَلٌ ضَخْمٌ مِثْلُ السَّيْحَلِ قَالَه الْقَرَّاءُ (١) . - وفي كتاب مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ لِلْمِيدَانِيِّ (٢) المتوفى سنة ٥١٨ : كَانَ ذَلِكَ زَمَنَ الْفِطْحَلِ . قالوا هو زمن لم يُخْلَقِ النَّاسُ . قال الجَرْمِيُّ سَأَلْتُ أَبَا عبيدة عنه فقال : الْأَعْرَابُ تَقُولُ ذَلِكَ زَمَنُ كَانَتِ الْحَجَارَةُ فِيهِ رَطْبَةٌ وَأَنشُدِ الْمَعْجَاجَ [كذا] : وقد أَنَانَا زَمَنَ الْفِطْحَلِ • وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطَيْنِ الْوَحْلِ . قلتُ روى غيره لرؤبة : [الأبيات] (٣) . - وعلى هذه الصفة أيضاً شرح البيت السِّدُّ مُحَمَّدٌ تَوْفِيقُ الْبَكْرَى حَيْثُ قَالَ (٤) : «وَالْفِطْحَلُ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ إِذَا قِيلَ لِلْأَعْرَابِ مَا أَرَادَ بِالْفِطْحَلِ قَالُوا زَمَنَ السَّلَامِ رَطَابٌ يَرِيدُ زَمَنَ الْحَجَارَةِ حِينَ كَانَتِ رَطْبَةً » .

فالواضح أَنَّ علماء اللغة لم يعثروا على تلك اللفظة بذلك المعنى إلا في بيت رؤبة والمثل المشتق منه ولم يعرفوا حقيقة معناها فتكلموا شرحها من نفس البيت على وجه التخمين . فلا عجب في عدم الإصابة إذ كان أصل اللفظ بعيداً جداً مأخوذاً من اعتقادات المندائية وهم فرقة دينية خاصة قديمة الأصل سكنت أصحابها بطائع العراق لا سيما نواحي البصرة في عهد بني أمية ، يسمون الآن عند العامة بالصُّبَّةِ . وهم أخذوا كثيراً من آرائهم من مذاهب gnostiques (٥) فزعموا أَنَّ أصل جميع الأشياء بيرا رباً أي اللجة العظيمة الذي شاركه أيرزيفاً رباً أي الأثير المضيء العظيم ومآناً رباً أي

(١) أبرزكريه يحيى بن زياد المتوفى ٢٠٧ هـ من التحويين الكوفيين فليراجع ٨٢٢-٨٢٣

FLUEGEL, *Die grammatischen Schulen der Araber*, s. 129-136.

(٢) كتاب مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ٦٢ - ٦٣ من طبعة مصر ١٣١٠ والظاهر أن القطعة الأولى كلها منقولة من صحاح الجوهري .

(٣) فراجع أيضاً كتاب الزهر للسيوطي في تنوع الحسنيين ج ٢ ص ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٤) كتاب أراجيز العرب ص ١٢٣ .

(٥) أو من مذاهب أصحاب المعرفة العليا .

الروح العظيم فأصبحوا معاً على صفة ثالث إلهية . ومانا ربنا هو المسمى أيضاً نفس العالم أو ملك النور (مَلَكًا كَنْهَوْرًا) وَلُقِّبَ بالحياة الأولى (هَيَّيْ قَدَمَائِي) لَأَنَّ الْأَشْيَاءَ أَخَذَتْ تَصَوُّرَ عَنْهُ وَذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْفَيْضِ وَهُوَ يَسْكُنُ عَالَمًا نَوْرَانِيًّا (أَلَمَّا كَنْهَوْرًا) . فَأَقُولُ مِنْ قَاضٍ مِنْهُ الْحَيَاةُ الثَّانِيَّةُ (هَيَّيْ تَنْيَانِي) أَوْ يَوْشَامِينَ ثُمَّ مَعْرِفَةُ الْحَيَاةِ (مَنْدَاذْهَيَّيْ الْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ اسْمُ الْمُنْدَائِيَّةِ) الَّذِي يَظْهَرُ فِي الْعَالَمِ الْمَرْتَنِيِّ أَيْ الْأَسْفَلِ بَعْدَ تَجَسُّدَاتِ أَقْدَمِهَا الْإِخْوَةُ الثَّلَاثَةُ هَيْيلَ وَشَيْتِيلَ وَأَنْوُشَ^(١) . أَمَّا الْحَيَاةُ الثَّانِيَّةُ أَوْ يَوْشَامِينَ فَصَدَرَ عَنْهُ الْحَيَاةُ الثَّلَاثَةُ (هَيَّيْ تَلَيْتَانِي) الْمُسَمَّى أَيْضًا أَبَانُورَ فَلَمْ يَكُنْ تَحْتَهُ أَصْلًا إِلَّا فَرَاغٌ جَسِيمٌ فِي قَعْرِهِ مَاءٌ أَسْوَدٌ . وَأَرَادَ أَبَانُورُ مُشَارَفَةَ تِلْكَ الْأَصْفَاقِ فَرَأَى فِي الْمَاءِ صُورَتَهُ فَانْقَلَبَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ صُورَةَ ابْنِهِ غَيْرِ الْمَوْجُودِ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ وَكَانَتْ صُورَةُ خَادِعَةٍ كَاذِبَةٍ أَوَّلًا ثُمَّ تَصَلَّبَتْ فَأَصْبَحَتْ ابْنَهُ بَتَاهِيلَ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ طَبِيعَةِ الْمَادَّةِ . وَمِرَاعَاةً لِطَلْبَةِ أَبِيهِ خَلَقَ بَتَاهِيلَ الْأَرْضَ ثُمَّ آدَمَ وَحَوَاءَ لَكِنَّهُ لَمْ يَتِمَّكَزْ مِنْ إِعْطَاءِ الْجَسَدِ الْمَخْلُوقِ نَفْسًا تُحْيِيهِ فَأَرْسَلَ الْحَيَاةَ الْأَوَّلَى (أَيَّ مَانَا رَبَّنَا) هَيْيلَ وَشَيْتِيلَ وَأَنْوُشَ لِيَنْفُخُوا فِي الْجَسَدَيْنِ رُوحًا مِنْهُ . أَمَّا بَتَاهِيلُ فَخُرِمَ سُلْطَتُهُ عَلَى الْبَشَرِ وَحُكِمَ عَلَيْهِ بِالنَّفْيِ عَنْ عَالَمِ النُّورِ وَالْبَقَاءِ فِي مَوْضِعٍ تَحْتَهُ مَصْفَدًا بِالسَّلَاسِلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . - فَالْوَاضِحُ أَنَّ رُؤْيَا عِنْدَ إِقَامَتِهِ الطَّوِيلَةَ بِالسَّوَادِ وَالْبَصْرَةَ سَمِعَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَعْتِقَادَاتِ الْمُنْدَائِيَّةِ وَعَرَّبَ بَتَاهِيلَ بِالْفِطْحَلِ (وَهُوَ فِي الْعَرَبِيَّةِ الضُّخْمُ مِنَ الْإِبِلِ)^(٢) حَسْبَمَا هُوَ

(١) وَالْوَاضِحُ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ الثَّلَاثَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ هَايِيلَ وَشَيْتَ وَأَنْوُشَ .

(٢) وَنَجِدُ عِنْدَ الْمُؤَلِّفِينَ الْمَعَاصِرِينَ لَنَا الْفِطْحَلُ بِمَعْنَى كِبَارِ الْعُلَمَاءِ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْبَاهِجِيُّ لَسَالِ (فِي مَجْلَةِ الْفَيَاحِ ج ٣ ص ٢٠٨) : « وَأَمَّا اسْتِحْمَالُ الْفِطْحَلِ » بِالْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْتُمُوهُ فَهُوَ مِنْ مَوَاضِعَاتٍ لِعَامَّةٍ وَلَا شَيْءَ مِنْهُ فِي كِتَابِ اللَّغَةِ . وَاسْتَحْسَنَ الشَّيْخُ بَعِيثُ الْحَضْرِي هَذَا الِاسْتِحْمَالَ وَقَالَ (فِي مَجْلَةِ الْمَشْرِقِ ج ٤ - ١٩٠١ - ص ٢٢٢ - ٢٢٤) : « هُوَ مِنْ مَوَاضِعَاتِ الْقَصَصِ وَالْبَلَاغِ قَدْ اسْتَعْمَلُوهُ بِهَذَا الْمَعْنَى مِنْ بَابِ -

الغالب في التعريب من تشبيه الألفاظ. الأعجمية بالألفاظ والأوزان العربية وزعم رؤبة أن بتهليل أو القطحل اسم رجل عاش في الزمان القديم وعاصر نوحاً فذكر في البيت لرغبته المعروفة في استعمال الكلمات والأسماء الغريبة . أما الشراح وعلماء اللغة فحاروا في تفسيره لعدم معرفة لهم بديانة المندائية ولم يُذكر كوا أنه اسم علم فاستنتجوا من القرائن خطأ أن معناه دهر لم يُخلق الناس فيه بعد وكانت الحجارة فيه رطبة فقيّدوا في القواميس معنى لا يوجد حقيقة في اللغة .

وهذا الغلط من قبيل ما وقع فيه بعض قدماء أهل اللغة لما أرادوا شرح لفظ الأندرين الوارد في المطلع المعزى إلى معلقة عمرو بن كلثوم^(١) . فلأنهم لجهلهم أن أندرين^(٢) موضع بالشام عن جنوب حلب على طرف البادية ذهبوا إلى أن ذلك اللفظ اسم جنس لا اسم علم فقال الخليل في كتاب العين^(٣) « الأندريّ ويجمع الأندرين يقال هم الفتيان يجتمعون من مواضع شتى » . ثم قال صاحب لسان العرب^(٤) : « والأندرون فتيان من مواضع شتى يجتمعون للشرب قال عمرو بن كلثوم : ولا تُبقي خُمورَ الأندرينا » . فجاء في القاموس تعريف اللفظ على هذه الصفة : « الأندرون

= المهز لأن من معان القطمل الضخم من الإبل فتقلد إلى معنى العظيم أو الكبير من العلماء كما نقل العرب القدماء مثل ذلك في كثير من الألفاظ ومن ذلك الكيش . . . والوجل . . . والسنور . . . والفعل . . . والقناس ؛ فإن معناه في الأصل معنى القطمل بتمامه . . . والقنم » .

(١) وهو مطلع منقول لما فراجع ما قاله TH. NOLDEKE, *Fayy Mo'allafat*, I, Wien 1899 P. 19-15.

(٢) وأندرين (كذا ويدون لام التعريف) اسم القرية إلى أيامنا والاسم القديم Andron راجع معجم ما استعجم للبكري ص ١٠٨ ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ من طبعة ليبسك وشرح لتهريزي على القصائد العشر ص ١٠٩ من طبعة كلكتة ١٨٩٤ و Noldke ص ٢٢ - ٢٢ من الكتاب المذكور في الحاشية المتقدمة .

(٣) المروى في كتاب معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٢٧٣ من طبعة ليبسك .

(٤) لسان العرب ج ٧ ص ٥٣ - ٥٤ من طبعة يولاك .

فتيان شتى يجتمعون للشرب «^(١). فأخذه من القاموس بطرس البستاني في محيط المحيط^(٢) وسعيد الخوري الشرتوني في كتاب أقرب الموارد^(٣) فهما فرقا ما بين الموضع بالشام واسم الجنس فقالا : « الأنثرون » فتيان شتى يجتمعون للشرب و « أندرين » قرية « فتخمين خاطئ صار لفظاً مقيداً في كتب اللغة .

أما البيت « والصخر مبتل كطين الوخل » فإشارة إلى قول بعض العرب برطوبة الحجارة فيما قبل الطوفان أو بعده بمدة وعليه تدل الأبيات المنسوبة إلى أمية بن أبي الصلت^(٤) :

وإذ هم لا لبوس لهم تقيهم وإذ هم السلام لهم رطاب
عشية أرسل الطوفان يجرى وفاض الماء ليس له جراب

وقال الجاحظ في كتاب الحيوان^(٥) : « وأنشدني عبد الرحمن بن كيسان :

فكان رطياً يومَ ذلك صخرها وكان خضيداً طلحها وسيالها
« فزعم كما ترى أن الصخور كانت لينة وأن الأشجار الطلع والسيال كانت خضيدة لا شوك عليها. وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن

(١) القاموس ج ١ ص ٤٥٧ من طبعة بولاق ١٢٧٢ .

(٢) محيط المحيط ج ٢ ص ٢٠٥٥ - ٢٠٥٦ من طبعة بيروت ١٨٦٧ - ١٨٧٠ .

(٣) أقرب الموارد ج ٢ ص ١٢٨٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩ .

(٤) يردى البيتان وغيرهما في كتاب البدء والتاريخ للطاهر بن طاهر المقدسي ج ٣ ص ٢٥ من طبعة باريس ١٨٩٩ - (١٩١٩) وفيها : « وإذ حضر السلام » وهو تصحيف ويوجد البيت الأول وغيره في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٦٥ من طبعة مصر ١٢٢٣ - ١٣٢٥ وفي بلوغ الأرب للألوسي ج ٣ ص ٢٢٠ من طبعة بغداد ١٣١٤ (وكل الأبيات مروية في ديوان أمية عدد ٣٠ من طبعة ليبسك ١٩١١ أو ص ١٨ من طبعة بيروت ١٣٥٢) فراجع أيضاً ثمار القلوب للعالبي ص ١٦ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

(٥) كتاب الحيوان ج ٤ ص ٦٨ - ٦٩ .

الشوك إنما اعتراها في صبيحة اليوم الذي زعمت النصارى فيه أن المسيح ابن الله . وكان مقاتل يقول حدثنا بذلك أبو عقيل السواق وكان أحد رواة والحاملين عنه أن الصخور كانت لينة وأن قَدْحِي إبراهيم عليه السلام أثرتنا في تلك الصخرة كتأثير أقدام الناس في ذلك الزمان إلا أن الله تعالى توفى تلك الآثار وعنى عليها ومسحها ومحاه وترك أثر مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم والحجة إنما هي في إفراده بذلك ومحو ما سواه من آثار أقدام الناس ، ليس أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان وطئ على صخرة بابسة فآثر فيها .

فبعد هذا الاستطراد الطويل نرجع إلى سياق الكلام على رؤية . - لا شك أن فرط قصد الغريب من الألفاظ في أشعار العجاج ورؤية سبب استعجابها الشديد على القارئ فلولا عناية صاحب الصحاح وصاحب لسان العرب وصاحب تاج العروس بجمع أقوال اللغويين القدماء لسنى كثير من أبيات تلك الأراجيز كأنها أغاز لا يمكننا التوصل إلى حل معانيها . - ثم من خصائص صناعة العجاج ورؤية شدة ميلهما إلى أنواع المجانسة لا سيما التجنيس المحقق أو المستوفى الذي اتفقت فيه الحروف دون الوزن رجع إلى الاشتقاق أم لم يرجع^(١) والجناس المضارع أو المضارعة الكائنة بتقارب مخارج الحروف مع تقديم وتأخير أو مع زيادة ونقصان . وللمجانسة محل عال في علم البيان ولكن الإفراط في استعمالها (والأمثلة منها ألو في أراجيز ذينك الشاعرين)^(٢) يُشتتقل فيضُرَّ جودة الشعر . - ومن خصائصها

(١) إني أستفيد من الاصطلاحات المتصلة في كتاب السمة لابن رشيق ج ٢ ص ٢٢٠ -

٢٢٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٢) انظر الأمثلة المروية في مقلتي Ahlwardt للحيوان المجاج ص ٤٨ - ٥٠ وديوان

رؤية ص ٩٣ - ٩٧ .

أيضاً وفرة إدراج فقر وحكم في سياق الكلام ^(١) فيضطرب أحياناً المعنى ويستغلق على القارئ . وقد سبق مثال ذلك في الأبيات المروية (ص ١٧٨ - ١٧٩) ومن هذا القبيل قول روية بعد وصف حماسة قومه ^(٢) :

عَبَلِ الْمَدَارِيسِ مُنِيفِ الشُّنَخَابِ أَحْزَمَ تَخْشَاهُ قُهْرِبُ الْأَقْهَابِ
يَخْطِرْنَ مِنْ خَشْيَتِهِ بِالْأَذْنَابِ وَالْجَزْلُ أَبْغَى مِنْ قُمَاشِ الْأَخْطَابِ
وَالْهَمُّ لَا يُقْضَى كَمَلُ الْأَوْصَابِ أَرْجُو أَنْتِسَابِي بِقُرُوبِ الْأَقْرَابِ
وَرُؤْيَى قَبْلَ اعْتِبَاقِ الْأَعْطَابِ وَجَّةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَرَابِ

ومن هذا الباب قول روية ^(٣) :

إِنَّ لِرَيْتَانِ الشَّبَابِ غَيْهَقًا كَانَ بِي مِنْ أَلْقِي جِنُّ أَوْلَقَا
وَلَا أَحِبُّ الْخُلُقَ الْمَعْدَقَا وَالْغُرُّ مَفْرُورٌ وَإِنْ تَلْهَوْكَا
وَشَرُّ آلَافِ الصُّبَا مَنْ آتَقَا بَلْ أَبْصَرْتَ شَيْخًا وَنَى وَأَشْفَقَا
وَضُطْرِبَ الدَّهْرُ بِهِ فَرَقَقَا وَاللَّغْرُ إِنْ لَمْ يُبْلِ طَوْلًا عَوَّقَا

وحب الغريب حمل روية أحياناً على الإسهاب الممل في الوصف والتشبيه مثل قوله في ذكر الطلال ^(٤) :

كَأَنَّهُ بَعْدَ رِيَّاحٍ تَذْهَمُهُ وَمُرْتَعِنَاتِ الدُّجُونِ تَشْمُهُ
لِأَنْجِيلٍ أَخْبَارٍ وَخَى مُنْمِنُهُ مَا خَطَّ فِيهِ بِالْهَدَادِ قَلَمُهُ
إِذَا فَهَجَى قَارِئٌ يَهْيِمُهُ أَخْرَجَ أَسْمَاءَ الْبَيَانِ مُعْجَمُهُ

(١) راجع مقدمتي Ahlwardt لديوان السلاج ص ٤٦ - ٤٧ وديوان روية ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) ديوان روية عدد ٢ بيت ١٧٧ - ١٨٤ من طبعة برلين وأراجيز العرب ص ١٧٠ .

(٣) ديوان روية عدد ٤١ بيت ١٧ - ٢٤ وكتاب أراجيز العرب ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٤) ديوان روية عدد ٥٥ بيت ١٢ - ٢١ وأراجيز العرب ص ١٤١ -

ارتعن المطر كثر - وحيث الكتاب أي كتيبه .

وَحَلَقُ التَّرْقِينِ أَوْ مُوسَّئَةُ يُبْدِي لِعَيْنِي عَابِرَ نَفْسُهُ
مَا فِيهِ لَوْلَا أَنَّهُ يُتَرْجَمُهُ

وربما غير روية وزن الألفاظ. لضرورة القافية فانتقد عليه الأصمعي^١
انتقاداً مدققاً مروياً في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة^(٢). - هذه عيوب
شعر روية وهي على كل حال أقل من فضائله بكثير.

ومن شعراء الأراجيز المشهورين دكين الراجز وهو دكين بن رجاء من بني
فقيم الذي لم نقف على تعيين عصره إلا بما رواه ابن قتيبة^(٣) وصاحب
الأغاني^(٤) من مدحه لعمر بن عبد العزيز وقت توليه المدينة أعنى قبل
سنة ٩٩٧. ولم يصل إلينا من أراجيزه إلا أبيات قليلة جداً^(٥). - ومن شعراء
الأراجيز أبو نخيلة الحماني الراجز^(٦) الذي تناثر العجاج في الشعر وأقام
مدة بالشام ومدح هشام بن عبد الملك (١٢٠ - ١٢٤) بأرجوزة ذكر بعض

(١) كتاب الشعر ص ٣٧٨ - ٣٨٠ من طبعة لندن.

(٢) كتاب الشعر والشعراء ص ٢٨٧ - ٢٨٩ من طبعة لندن.

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٥٥ من طبعة بولاق وراجع أيضاً العقد الفريد لابن عبد ربه

ج ١ ص ١١٤ - ١١٥ من طبعة ١٣١٥.

(٤) ويرى بعض آياته في كتاب الحيوان للبساط ج ٢ ص ١١٢ من طبعة مصر ١٣٢٢ -

١٣٢٥ وخزانة الأدب لمبد القادر البغدادي ج ٢ ص ٤٨٨ و ج ٣ ص ٢٩٧ - ٢٩٨ من طبعة

بولاق - (قال ياقوت في إرشاد الأريب ج ٤ ص ٢٠٠ من طبعة لندن ١٩٢٧ ما نصه : دكين بن

سيد الداري التميمي الراجز وهو غير دكين بن رجاء المتقدم واشتهر على ابن قتيبة في طبقات الشعراء

فجمعها واحداً ودكين بن سعيد هذا هو الذي كان منقطعاً إلى عمر بن عبد العزيز حين كان والياً

بالمدينة . . . مات دكين سنة ١٠٩ هـ . أما دكين بن رجاء الفقيمي فقال ياقوت (ج ٤ ص ١٩٨ - ٢٠٠)

إنه وفد على الوليد بن عبد الملك ومدح مصعب بن الزبير ومات سنة ١٠٥ هـ . وفي كتاب العقد في الموضع

المذكور ينسب مديح عمر بن عبد العزيز إلى دكين بن رجاء الفقيمي كما في كتاب الشعر لابن قتيبة أما

صاحب كتاب الأغاني فقال إن مديح عمر بن عبد العزيز لدكين للراجز بغير تعيين اسم أبيه ونسبه).

(٥) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٨١ من طبعة لندن وكتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٢٩ - ١٣٢

من طبعة بولاق وكتاب الإيافة لأبي سعيد محمد بن أحمد العميد ص ٥٧ - ٥٨ من طبعة مصر بغير تاريخ

الطبع.

أبياته في كتاب الأغاني^(١) وخرانة الأدب لعبد القادر البغدادي^(٢)، فلما انتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني العباس سنة ١٣٢ نقلها إلى السفاح فبقيت في ديوانه منسوبة إلى هذا الخليفة العباسي. ومات بعد بيعة المنصور أعني بعد سنة ١٣٦. وشعره ليس بالألفاظ مجرد عن الغريب مصوغ في بحر الرجز المشطور إلا شيء قليل جداً ورد على غير قالب الأرجوزة. - ومنهم أبو مرقال عطاء بن أسيد السعدي المعروف بالزفان الذي لم يرد ذكره في أكثر كتب الأدب والتراجم مع أن مؤلفي كتب اللغة ربما احتجوا بأبياته لا سيما صاحب تاج العروس الذي روى نحو ثلاثين بيتاً من أراجيزه. وسنة ١٩٠٣م جمع المستشرق الألماني أهلوذت^(٣) هذه الأبيات المفردة المتفرقة ونشرها مع عشر مقطعات من أراجيزه موجودة في نسخة خطية محفوظة في المكتبة الخديوية. ولم نعرف من أخباره إلا ما يستفاد من بقايا ديوانه أعني أنه كان في قيد الحياة نحو سنة ٧٣ وقت ثورة أبي فديك بهجر من أعمال البحرين. وشعره غير مُفَرِّط في استعمال الغريب مجرد عما ذكرناه آنفاً من وفرة المجانسة والإدراج وهو يدور على ما تدور عليه سائر الأراجيز أعني وصف الغرام وتوجع الفراق والنساء والشباب والنوق والحمير الوحشية والفيافي والصيد وجميع ذلك تمهيداً للخروج إلى مدح قومه أو أمير أو أحد أكابر الناس يُرجى منه الجوائز. - ومنهم أيضاً عتبة بن ربيعة بن العجاج على ما يُستنتج من حكاية مروية في كتاب الشعراء لابن قتيبة^(٤) ومن كتاب الأغاني^(٥).

(١) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٤١.

(٢) كتاب خزانة الأدب ج ١ ص ٧٨ - ٧٩ من طبعة بولاق.

(٣) الجزء الثاني من مجموع أشعار العرب المأثور وهذا الجزء مشتمل على ديوان الأراجيز للعجاج والزفان فراجع أيضاً R. GEYER, *Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter: 3. al-'Ajjāz und al-Zafayān* (Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, 23. Band, 1909) P. 100-101.

(٤) كتاب الشعر ص ٤٧٧ من طبعة ليدن.

(٥) كتاب الأغاني ج ٣ ص ٣٧ من طبعة بولاق.

إن رؤية بن العجاج آخر التوابع الذين قالوا الأراجيز الحقيقية أعنى القصائد الجارية مضمونها على الأسلوب القديم مع أنها مصبوغة في بحر الرجز المشطور . وبعده بقليل اندرس هذا النوع من الشعر تماماً ونُحِمَ بِأبي العباس محمد بن ذُوَيْبِ القُتَيْبِيِّ المعروف بالعمالي^(١) الذي نظم بالرجز أكثر قصائده^(٢) . وكان من أهل البدو ومدح يزيد بن الوليد $\frac{١٢٦}{٧٩٦}$ والخليفة بن الأخيرين من الدولة الأموية ثم السفاح والمنصور والمهدي وهارون الرشيد $(\frac{١٧٠}{٧٨٩} - \frac{١٩٣}{٨٠٩})$.

إذا قطعنا النظر عن أصحاب الأراجيز الحقيقية وجدنا أن شعراء القرن الأول وأوائل الثاني حصروا استعمال الرجز المشطور في المقطعات الدائرة على مواضيع خاصة وإن كانوا يستعملون فيها أيضاً سائر الأغاريض . فنراهم يرتجزون في وصف أحوال شخصية ارتجالاً^(٣) أو في الرثاء والهجاء ووصف الحيوان والصيد وفي المُلح والحكايات لا سيما المضحكة . ومن هذا الباب

(١) راجع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٧٥ - ٤٧٦ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١٧ ص ٧٨ - ٨٢ من طبعة بولاق وكتاب الحيوان للملاحظ ج ٤ ص ٨ (أبيات له من الرجز في ج ٢ ص ٦١ و ج ٩ ص ٣٠ و ٦٧) وكتاب البيان للملاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٢ (١ و ج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١) وكتاب خزائن الأدب ج ٤ ص ٢٩٢ من طبعة بولاق .

(٢) إن الملاحظ في كتاب البيان والتبيين ج ٢ ص ١٨٤ ص ٢٢ عد بشار بن برد (المقتول سنة ١٦٧ في خلافة المهدي) من الذين جمعوا القصيد والرجز مثل أبي النجم وحيد الأرقط والمهاني . - ولكن من جملة أشعاره التي نقلت إلينا لا نجد إلا أرجوزة واحدة قالها في ملح عقبة بن سلم (ولا هـ بن مسلم هـ كما في الأغاني ج ٣ ص ٣٧ من طبعة بولاق) فيتضح من رواية ابن قتيبة (ص ٤٧٧ من طبعة ليدن) والأغاني (وانظر أيضاً البيان للملاحظ ج ١ ص ٢٢ من طبعة ١٣١٢) (أوج ١ ص ٥٧ من طبعة ١٣٥١) أنه إنما اتخذ بحر الرجز لنسجها لأن عقبة بن رؤية قد أفكر في حضرة عقبة بن سلم قدرة بشار على إحصان الأراجيز .

(٣) أو بلا ارتجال كالآيات (٢٠ رجزاً) التي نسجها أبو حمزة عمر بن مسلم بن أبي طرالة الهذلي داعياً الله أن يأذن له في الاشتراك في غزوة أبي لطف . راجع : J. WELLHAUSEN, *Letzter Teil der Lieder der Hudhailiten*, Berlin 1884, No. 297.

الأخير رجز رَدَيْثِيَّ بن عَبَّسٍ الْفَقْعَسِيِّ^(١) في ذكر طريقة تَخْلُصِهِ من دفع ما كان عليه من الدَّيْن لتاجر فارسي بالكوفة ومنه أيضاً قصّة العذافر بن الرِّبَّانِ الْكِنَانِيِّ^(٢) في تَنْجِيهِهِ لَخِيَانَةِ غُرَمَائِهِ بَيْعِينَ « كَمَثَلِ سَيْلٍ جَاءَ مِنْ رَأْسِ جَبَلٍ » . ومن هذا الباب أيضاً الأبيات الاثنان والعشرون من الرجز التي قالها مسعود بن كبير الْجَزْمِيِّ في حمار اشتراه فوجده على خلاف ما وصفه به النَّخَّاسُ^(٣) أو مخاطبة الأعرابي والضَّبْعِ التي أكلت شاة^(٤) أو قول الرجل الذي سُْرِقَ له الدُّلْوُ^(٥) وهلمَّ جرّاً . وقد سبق (ص ١٩٠) ذِكر ما قاله الشُّمْرُذَلُ بن شُرَيْكٍ الْيَرْبُوعِيِّ بعد منتصف القرن الأول من الأرجاز العديدة اللطيفة في الصَّقْر والكلب والصيد فتُرْوَى لِعَوْفِ بن ذُرَّةٍ تسعة أبيات من الرجز في وصف الجراد^(٦) ولعبد الله بن كُرَاعٍ من شعراء النصف الأول من القرن الأول أرجاز في وصف الضَّبْعِ^(٧) ولأَحْيَحةَ بن الجُلَّاحِ الْأَوْسِيِّ أشعار من بحر الرجز في الكلاب^(٨) ولبعض^(٩) الأعراب من القرن الأول أرجاز في

(١) حماسة البحتري ص ٣٨٦ - ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٨ عدد ١٤٣٤ من طبعة بيروت .

(٢) حماسة البحتري ص ٣٨٤ - ٣٨٥ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٧ عدد ١٤٣٢ من طبعة بيروت .

(٣) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ ولم أجد ذكره في كتاب الأدب ولكنه إسلامي بغير ارتياب .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١ - ١٥٢ وهو من شعراء الإسلام والرأي هو أبو زياد الكلابي من معاصري إسماعيل الموصلي المتوفى سنة ٢٢٥ .

(٥) حماسة أبي تمام ص ٨٠٠ - ٨٠١ من طبعة بن أوج ج ٤ ص ١٦٥ - ١٦٦ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ١٦١ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ والنوادر

في اللثة لأبي زيد الأنصاري ص ٤٨ من طبعة بيروت ١٨٩٤ (عن الأصمعي) وكتاب أراجيز العرب ص ٧٩ من طبعة مصر ١٣١٣ ونصه يطابق نص النوادر مطابقة تامة - ولا يذكر الشاعر في كتاب الحزاة ولا في كتاب الأغاني ولا في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في الأصمعيات ولا في حماسة أبي تمام ولا في حماسة البحتري .

(٧) كتاب الحيوان ج ٦ ص ١٦٠ .

(٨) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٢ ص ٢٠ - ٢٢ .

(٩) كتاب الحيوان ج ٧ ص ٥٦ .

صفة الفيل واليربوع^(١) وغيرها من الحيوان^(٢) . ولا أحتاج إلى ذكر أمثلة من استعمال الرجز في الرثاء والهجاء .

ومن الحرى بالاعتبار أن شعراء الدولة العباسية لا سيّما في القرن الثاني والثالث والرابع اتبعوا هذا المنهج في حصر استعمال الرجز المشطور في مواضع خاصة معينة فكثرت عندهم الأرجاز في الطرديات وهي وصف القنص وحوادثه وجوارح الصيد مثل الكلاب والفهود والبيزان فكاد يغلب الرجز على سائر الأعاريف في هذا النوع من الشعر الذي تعاطاه كثير من النوايع مثل الفضل ابن عبد الصمد الرقائشي^(٣) من شعراء هرون الرشيد وأبي نؤاس الحسن بن هاني^(٤) المتوفى في العشر السنين الأخيرة من القرن الثاني والناشي الأكبر المتوفى سنة ٢٩٣ وابن المعتز^(٥) المتوفى سنة $\frac{296}{908}$ وأبو فراس الحمداني^(٦) المتوفى سنة ٣٥٧ وغيرهم . ومن المشهور رجز عبد الصمد بن المذل من شعراء القرن الثالث في وصف العقرب المروى في كتاب الكامل للمبرد^(٧) .

(١) كتاب الحيوان الجاحظ ج ٦ ص ١٣٠ .

(٢) دوى في كتاب الحيوان ج ٢ ص ٨٢ رجز في وصف السك لابن أبي العنبر بن أبي نخيلة الرأزي .

(٣) دوى له الجاحظ في كتاب الحيوان ج ٦ ص ١٦١ (١٨ بيتاً) و ص ١٦١ - ١٦٢ (١٣ بيتاً) أراجيز في وصف الفهد .

(٤) دوى له في كتاب الحيوان ج ٢ ص ١٠ - ١٥ أراجيز في الكلاب والطرد فراجع ديوانه في باب الطرد .

(٥) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٩٥ من طبعة مصر ١٨٩١ (في باب الطرد) .

(٦) تروى له طردية مزدوجة في W. AHLWARDT, *Ueber Poesie und Poetik der Araber*, Gotha 1856, P. 2-4.

(٧) الكامل في القنة لمبرد ص ٥١٩ من طبعة ليبك أو ج ٢ ص ١١٤ - ١١٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ وعاش عبد الصمد بن المذل في العصر العباسي فتوجد ترجمته في الأغانى ج ١٢ ص ٥٧ - ٧٢ ويروى له فيه قصيد لا رجز - نقل المبرد (المتوفى سنة ٢٨٥) عنه قول الأصمعي (المولود سنة $\frac{122}{720}$ المتوفى $\frac{216}{832-831}$) وإسحاق بن إبراهيم الموصلي (المولود سنة $\frac{150}{797}$ والمتوفى $\frac{230}{918}$) . راجع الكامل ص ٥١٩ و ٣٨٧ سطر ١٣ من طبعة ليبك .

وسبب حفظهم هذا العروض في الطرديات وصفات الحيوان ظاهر وهو أن هذا النوع من الشعر كان أصله بدوياً ومضمونه أقرب إلى أحوال أهل الوبير منه إلى عيشة سكان المدن وأهل الحضر .

وربما اتخذوا بحر الرجز أيضاً في نسج الرثاء^(١) وذكر المُلح واللطائف والحكايات فضلاً عما ذهبوا إليه مبتدعين من استعمال الرجز لا سيما المزدوج لتأليف المنظومات الطويلة في الأخبار التاريخية أو شرح الفنون والعلوم ولكنهم في الغالب امتنعوا عن الاقتداء بالسلف في الارتجاز في الهجاء ، ولا شك أن سبب هذا الاستثناء كان ما وقع في الهيئة الاجتماعية العربية من التقلب العظيم بعد انقراض دولة بني أمية حيث زال النظام القديم المنبثق على قسمة الناس في القبائل فلهذا الزوال وللتغير الداخل في الأخلاق والأميال حُمِلت الشعراء ضرورياً على سلوك طريقة جديدة في الهجاء غير الطريقة المألوفة في أيام الجاهلية وعند الأعراب لأن هجاء قبيلة العدو وأقارب الخصم أصبح شيئاً لا أساس ولا معنى له .

كان الرجز في القرن السابق للإسلام وفي القرن التالي لظهوره البحر العادي في أشعار العامة من أهل البادية لسهولة ومناسبتها لمقتضى الارتجال . فقدّر انتشاره عندهم ظاهر ظهور الشمس من العدد الوافر من أبيات الرجز المنسوبة إلى الأعراب الواردة في كتب الأدب واللغة جماً غفيراً حتى إن أبا زيد الأنصاري المتوفى نحو سنة ٢١٥ الذي قد سبق (ص ١٨٦) أنه ميّز في كتاب النوادر في اللغة أبواب الشعر وأبواب الرجز قال في توطئة كتابه ما نصه^(٢) : « ما كان فيه (أي في » الكتاب » من شعر القصيد فهو

(١) ومن هذا الباب مرتبة أبي نواس في خلف الأحمر راجع W. AHLWARDT, *Chalef dabmar's*

Qasida, Greifswald 1859, P. 414

(٢) كتاب النوادر في اللغة ص ١ من طبعة بيروت ١٨٩٤ .

سَمَاعِي من الْمُفَضَّل بن مُحَمَّد النَّصِّي وما كَانَ من اللُّغَات وَأَبْوَاب الرِّجَز فَذَلِكَ سَمَاعِي من الْعَرَب . فَاَلْمَحْتَمَل عَلَى ظَنِّي أَنَّ الَّذِينَ صَاغُوا الْقَصَائِدَ فِي ذَلِكَ الْعَرُوض فَقَط . وَاخْتَرَعُوا الْأَرْجُوزَ بِمَعْنَاهَا الْخَاصُّ (وَهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ كُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقِبَائِلِ) إِنَّمَا أَرَادُوا الْاجْتِهَادَ فِي رَفْعِ شَأْنِ الشَّعْرِ الْعَامِّيِّ الْبَدَوِيِّ سَكَّانُ هَذَا الْاجْتِهَادِ رَدُّ عَلَى أَصَالِيبِ الشَّعْرِ الْمَدَنِيِّ فَأَدَارُوا الْأَرْجُوزَ عَلَى مَجَرَّدِ الْمَوَاضِيعِ الْمَأْلُوفَةِ عِنْدَ سَكَّانِ الْبَرَارِيِّ وَمَاؤُومَا أَلْفَاظًا غَرِيبَةً خَاصَّةً لِأَهْلِ الْبَادِيَةِ بَعِيدَةً عَنْ مَتَعَارِفِ أَهْلِ الْحَضَرِ^(١) .

أَمَّا أَسْبَابُ فَنَاءِ نَوْعِ الْأَرْجُوزِ الْحَقِيقِيَّةِ وَزَوَالِهَا فِي أَوَائِلِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فَأُظَنُّهَا مِنْ ضَرْبَيْنِ : صِنَاعِيَّةٍ وَطَبِيعِيَّةٍ وَالصِّنَاعِيَّةُ عُشْرُ حِفْظِ رَوَيٍّْ وَاحِدٍ فِي الْأَشْعَارِ الطَّوِيلِ ذَاتِ أَبْيَاتٍ قَصِيرَةٍ جَدًّا مِنْ مَشْطُورِ الرِّجَزِ ثُمَّ الْمَلَلُ النَّاشِئُ عَنْ هَذَا الرُّوْيِ الْوَحِيدِ لِلْأَبْيَاتِ الْقَصِيرَةِ إِنْ طَالَ الشَّعْرُ ثُمَّ صَعُوبَةُ حَصْرِ مَعْنَى تَامٍّ فِي بَيْتٍ مِنَ الرِّجَزِ الْمَشْطُورِ وَمَا يَنْتُجُ مِنْهَا مِنَ الْاضْطِرَارِّ إِلَى تَقْسِيمِ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ عَلَى بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ أَوْ أَكْثَرَ ، وَذَلِكَ يَضُرُّ وَضَرْحَ الْمَعْنَى وَيُسَبِّبُ التَّعْقِيدَ . أَمَّا السَّبَبُ الطَّبِيعِيُّ فَهُوَ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْأَرْجُوزَ الْحَقِيقِيَّةَ إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ مَخْتَرَعَاتِ شُعْرَاءِ الْبَادِيَةِ لَمْ يَلْهَبْ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الْحَضَرِيِّينَ وَهِيَ شَعْرٌ بَدَوِيٌّ مُحَضٌّ لُغَةً وَمَوْضُوعًا فَامْتَنَكَفَ عَنْهُ شُعْرَاءُ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ لِأَنَّهُمْ بَعْدَاءُ عَنْ هَيْشَةِ الْأَعْرَابِ فَمِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي الْأَغْلَبِ لَا يَتَكَلَّفُ مَا لَا يَكُونُ مَعْهُودًا فِي طَبْعِهِ وَلَا مَوْجُودًا مِنْ خُلُقِهِ .

هـ - قَدْ لَسَمْنَا الشَّعْرَ الْعَرَبِيَّ فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةٍ تِسْعَةَ أَقْسَامٍ أَوْ أَصْنَافٍ وَفَرَعْنَا مِنْ ذَلِكَ الْأَصْنَافِ الْأَرْبَعَةَ الْأُولَى أَعْنَى الْغَزَلَ فِي مَدَنِ الْحِجَازِ وَالنَّسِيبِ وَالشَّعْرَ الْغَرَامِيَّ عِنْدَ الْأَعْرَابِ وَالشَّعْرَ عَلَى الْأَسْلُوبِ الْقَدِيمِ الْمُتَدَاوِلِ عِنْدَ فَحُولِ

(١) وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ دَسْوَعًا إِلَى الْأَسْلُوبِ الْقَدِيمِ كَمَا يَحْسَبُ N. Rhodokanakis

الجاهلية والأراجيز . فنبتلى الآن الكلام الوجيز على شعر الصنف الخامس وهو الذى يتعلّق بالاغتراب والفتوح والحروب أى شعر الجنود فى خارج جزيرة العرب .

إنّ الحرب لم تنزل تدور رحاها فى عهد الأمويين سواء فى الثغور لتوسيع حدود المملكة الإسلامية غرباً وشرقاً وشمالاً أم فى داخل نفس دار الإسلام بسبب عصبية الأقوام العربية أو الفتن السياسية والدينية . لا أحد يجهل أن عرب البادية لم يألّفوا أبداً نظاماً اجتماعياً سياسياً غير القبائل المستقلة فأقصى ما انتهوا إليه إنما كان تحالف جملة من القبائل مدّة ما بصفة ألاّ يُفسد به استقلالها فلم يتمكن الدين الإسلامى على ما أتى به من تعليم مساواة المؤمنين ولا جهل الخلفاء لاسيّما عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان من استئصال عصبيتهم وإزالة ما جُبِلَ لهم من كراهة الانقياد والنظام المتين . ولم تبرح تغلب فيهم روح المنافرة والمشاجرة فنشبت بين أقوامهم الحروب بل زاد استعارها بعد منتصف القرن الأول حين أخذ ينمو تضادّ الزناريين واليمانيين الذى لا يقدر تأثيره فى تاريخ الأمم الإسلامية وأحوال الخلافة فى المشرق وفى الأندلس . لا يخفى أن دوزى الهولاندى^(١) وكُلْدزِيهَر^(٢) المجرى أفرغا كثانة جهدهما فى البحث عن أسباب ذلك التضادّ وكيفية نموه وشرّ نتائجها ولكن ليس هذا محلّ الخوض فى هذا الموضوع الذى يُخصّ بيانهُ بأستاذ التاريخ الإسلامى . فيكفينى إيراد ما قاله المسعودى فى الباب

(١) راجع R.P. DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides* (711 - 1110), Leyde 1861, 4 vol. [2ème édition, revue et mise à jour par E. F. Lévi-Provençal. Leyde 1992, 3 vol.]

(٢) راجع I. GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, Halle a. S. 1888-1890, vol. الذى يصحّ بعض أقوال دوزى ويكتب رأى العرب أن هذه المضادة جاهلية . I. P. 78-100

الثالث بعد المائة من كتاب مروج الذهب^(١) : «افتخرت نزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار وأدلى كل فريق بما له من المناقب وتحزبت الناس وثارَت العصبية في البدو والحضر فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدي^(٢) وتعصبه لقرمه من نزار على اليمن واتحرف اليمن عنه إلى الدعوة العباسية وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أمية إلى بني هاشم » .

فإن اعتبرتم أن معظم الذين ارتحلوا إلى الثغور مجاهدين كانوا من عرب القبائل وأنه منهم أيضاً كان أكثر المقاتلين في الحروب الداخلية القوية ثم إن تذكركم ما سبق بيانه غير مرة من بقاء الأعراب في القرن الأول والثاني على أغلب ما كانوا عليه في الجاهلية من الأهواء والأميال والعوائد ما استغريتم وجود نوع من الشعر سمّيته شعر الجنود لأنه زها في العسكر . إن مثل هذا الشعر في أمة غير العربية لم يكن إلا شيئاً قليلاً جداً حتى القدر حقيراً أما عند الأعراب فلم يكن الأمر كذلك لولوعهم المشهور بالشعر وهزارهم به كأنه من غريزة خاصهم وعاتهم . فبدل بعض الأخبار دلالاً مبيناً على شدة كلف الجنود بالشعر وتعظيمهم إيّاه . منها ما يروى في كتاب الأغاني^(٣) نقلاً عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني من رواية القرن الثاني قال : «بينما المهلب بن أبي صفرة ذات يوم بفارس وهو يقاتل الأزارقة^(٤) إذ سمع المهلب في عسكره جلبة وصياحاً فقال ما هذا ؟ قالوا جماعة من العرب تحاكموا إليك في شيء فأذن لهم فقالوا : إننا اختلفنا في جرير والفرزدق فكل فريق منا يزعم أن أحدهما أشعر من الآخر وقد رضىنا بحكم الأمير . فقال كأنكم

(١) مروج الذهب ج ٦ ص ٤٥ من طبعة باريس .

(٢) يعني آخر الأمويين الذي تولي الأمر من سنة ١٢٧ إلى سنة ١٣٢ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٥٥ ورواية أخرى في الأغاني ج ٧ ص ٣٩ - ٤٠ من طبعة بولاق .

(٤) وهم من الخوارج .

أردتم تعرّضوني لهذين الكلبين فيمزقان جلدي لا أحكم بينهما ولكني أدلكم على من يهون سؤال جرير وسؤال الفرزدق ، عليكم بالأزارقة فإنهم قوم عرب يبصرون الشعر ويقولون فيه بالحق . ففعلوا كما قال وسألوا في الغد أزرقياً قد خرج دعاهم إلى المبارزة . - وفي تاريخ الطبري^(١) عشرت على خبر آخر مهم لما نحن فيه وهو أن عتاب بن ورقاء الرياحي قبل الواقعة التي حدثت بينه وبين شبيب الخارجي سنة ٧٧ سار في الناس يحرضهم على القتال . قال الطبري عن أبي مخنف لوط بن يحيى المتوفى نحو سنة ١٣٠ عن أحد العساكر : « وقف [عتاب] علينا فقصر علينا قصصاً كثيراً كان مما حفظت منه ثلاث كلمات قال : يا أهل الإسلام إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه المصابرين ، ألا ترون أنه يقول : أضيروا إن الله مع الصابرين^(٢) فمن حمد الله فعمله فيما أعظم درجته . وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي ، ألا ترون أن عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه لا يرون إلا أن ذلك لهم قرينة عند الله فهم شرار أهل الأرض وكلاب أهل النار أين القصص ؟ قال ذلك فلم يجبه والله أحد منا فلما رأى ذلك قال أين من يروي شعر عنثرة ؟ قال فلا والله ما ردّ عليه إنسان كلمة . فقال إننا لله كاتني بكم قد فررتم عن عتاب بن ورقاء وتركتموه نسفي في استه الرياح « أراد أنه يشس من الظفر إذ لم يكن أحد يشجع قلوب الناس ويحثهم على القتال بقصص الروايات عن أيام العرب المشهورة وبإنشاد قصائد عنثرة في الحماسة . فقيسوا على ذلك قدر الشعر الجيد من قواد الأعراب في الحرب .

(١) تاريخ الطبري الجزء الثاني من ٩٥٠ - ٩٥١ وبالاختصار في تاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ٣٤١ من طبعة لندن ١٨٥١ - ١٨٧٦ (في سنة ٨٧٧) .

(٢) القرآن سورة ٨ (الأقوال) : ٤٧ .

وصلت إلينا الأشعار من هذا النوع متفرقة في عدة كتب لا سيما تاريخ الطبري وكتاب الأغاني وهي تدور على خمسة أمور : الحماسة والمفاخرة وهجاء العدو ورثاء القتلى وحزن الاغتراب مع الشوق إلى الوطن البعيد^(١). ومن الحرى بالاعتبار أن الهجاء قليل لأنهم لم يتعاطوه في الغالب إلا إذا كانت المحاربة بين أقوام عربية كأنه عندهم من خصائص أولاد عدنان وقحطان فرأبهم هذا متعلق بأصل الهجاء ومنصبه عند قدماء العرب حسبما سنبينه إن شاء الله بعد الفراغ من هذا التمهيد العام فإن الهجاء لم يُعقل عندهم إلا إذا رُدَّ عليه جواب فمن الواضح أن هذا الرد مستحيل إذا كان العدو من العجم .

إذا دارت المحاربة بين أقوام من العرب أصبحت أشعارهم شبيهة بما ورد منها في الحكايات المطولة عن أيام العرب في الجاهلية فترون شعراء فريق يردون على شعراء خصماتهم بأبيات أخرى حسبما كان عادة الأعراب منذ الزمان القديم . ومثال ذلك ما جرى من الأشعار بين زفر بن الحارث العامري من أصحاب مُضْعَب بن الزُبَيْر وبين جُوَاس بن قَعْلٍ وغيره حين وقعت مَرَج رايط سنة ٦٥ وهي مروية في تاريخ الطبري^(٢) وكتاب الأغاني^(٣) فلولا الأخبار المتعلقة بها لحرنا في الحكم أهي من عهد الجاهلية أم من زمان الإسلام . قال مثلاً زفر بعد انهزامه من أبيات كثيرة^(٤) :

(١) وقد أشرت إلى شعر الاغتراب والشوق إلى الوطن عند ما تكلمت عن شعر الأعراب الذين كانوا خارج أنحاء جزيرة العرب (١١٥ - ١١٧) .

(٢) كتاب تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٨٢ - ٤٨٦ من طبعة لندن وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥ - ١٢٧ من طبعة لندن .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ١١٠ - ١١٣ .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ٢٠٣ من طبعة باريس (في الباب الثالث والتمين)

وراجع أيضاً التنبيه للمسعودي ص ٢٠٩ - ٢١٠ من طبعة لندن ١٨٩٤ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٨٢ -

لَعَمْرِي لَقَدْ أَبْقَتْ وَقِيعَةً رَاهِطًا
 فَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْغَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى
 أَرِينِي سِلَاحِي لَا أَبَا لَكَ إِنِّي
 أَتَذْهَبُ كَلْبٌ لَا تَنْلَهَا رِمَاحُنَا
 فَلَمْ تُرَ مِنِّي نَبْرَةٌ قَبْلَ هَلِهِ
 عَشِيَّةً أَغْدُرُ فِي الْفَرِيقَيْنِ لَا أَرَى
 أَيُّذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَاقُهُ
 أَبَعَدَ ابْنِ عَمْرٍو وَابْنِ مَعْنٍ تَنَابَعَا

وكلام الشعر من هذا النوع في الأغلب بسيط. مثل قول عُوَيْجِ الطَّائِي
 يَمْدَحُ كَلْبًا وَحُمَيْدَ بْنَ بَخْدَلٍ^(١) :

لَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ وَقَعَ ابْنُ بَخْدَلٍ
 يَقُودُونَ أَوْلَادَ الرَّجِيهِ وَلَا حَقَّ
 فَهَذَا لِهَذَا ثُمَّ إِنِّي لِنَافِضُ
 فَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَأَصْبَحْتُ
 وَأُخْرَى عَلَيْهِمْ إِنْ بَقِيَ سُبُعُهَا
 مِنَ الرِّيفِ شَهْرًا مَا يَنْبِي مَنْ يَقُودُهَا
 عَلَى النَّاسِ أَقْوَالًا كَثِيرًا حَدُودُهَا
 قَضَاعَةُ أَرْبَابًا وَقَيْسُ عَبِيدُهَا

أو مثل قول سحبان وإثل (وهو غير الخطيب الشهير) يذكر قتال
 المسلمين بخُجَنْدَةَ سنة ٩٤ ويمدح رئيسهم قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ^(٢) :

فَسَلَّ الْفَوَارِسُ لِي خُجَنْدَةَ لَمَّةً تَحْتَ مُرْهَقَةِ الْعَوَالِ
 هَلْ كُنْتُ أَجْمَعُهُمْ إِذَا هَزَمُوا وَأَقْلَمُ فِي قِتَالِ

٤٨١- وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥ - ١٢٦ من طبعة لندن وكتاب الألفاني ج ١٧ ص ١١٢ وسيم
 البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٤٤ .

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٨٧ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٢٥٧ (في سنة ٩٤) وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ٤٦٠ من

طبعة لندن .

أَمْ كُنْتُ أَضْرِبُ هَامَةً أَلْ حَاتِي وَأَصْبِرُ لِلْعَوَالِي
هَذَا وَأَنْتِ قَرِيعُ قَيْدٍ بِسِ كَلِّهَا ضَخْمُ النُّوَالِ
وَفَضَّلْتَ قَيْسًا فِي الْقُدَى وَأَبُوكَ فِي الْحِجَجِ الْخَوَالِي
وَلَقَدْ تَبَيَّنَ عَدْلُ حَكْمِكَ أَتَى فِيهِمْ فِي كُلِّ مَالٍ
نَمَتْ مُرُوءَتُكُمْ وَنَا آغَى عِزُّكُمْ غَلَبَ الْجِبَالِ

لكنه شعر صادر من تَلَقَّاء القلب بدون تكلف وتصنع معبر عما في
الصدر حقيقة فكثيراً ما يُعْجِبُنَا وَإِنْ قَلَّ تَنْمِيقُهُ . ومن نسج القريض من
هذا الصنف بعض الشعراء المُجِيدِينَ الْبَارِعِينَ أَيْضاً فِي سَائِرِ أَنْوَاعِ الشَّعْرِ
منهم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث المعروف بِأَعْشَى هَمْدَانٍ ^(١) وهو
شاعر فصيح كوفي قيل إِنَّهُ «شاعر أهل اليمن بالكوفة وفارسهم» ^(٢) . وكان
مَنْ أَغْزَاهُ الْحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ بِلَادَ الدَّيْلَمِ الْقَرِيبَةَ مِنْ شَطْءِ بَحْرِ الْخَزَرِ
الْجَنُوبِيِّ فَأُسِرَ وَبْنَى أَسِيرًا فِي أَيْدِي الدَّيْلَمِيِّينَ مَدَّةَ ثَمٍّ سَارَ فِي جَيْشِ أَهْلِ
الْكُوفَةِ إِلَى بِلَادِ مُكْرَانَ ^(٣) وَطَالَ مَقَامُهُ بِهَا . وَذَكَرَ فِي قِصَائِهِ مَا لَحِقَهُ مِنْ
أَسْرِ الدَّيْلَمِ وَمَا شَهِدَ مِنَ الْوَاقِعِ ^(٤) :

وَأَغْبِرُ غَارَاتِ وَأَشْهَدُ مَشْهَدًا آتَى قَلْبُ الْجَبَانِ بِهِ يَطْبِرُ وَيَرْجُفُ
وَأَرَى مَنَاسِمَ لَوْ أَشَاءَ حَوَيْتَهَا فَيُصَلِّئُ عَنْهَا غِنًى وَتَعَفُّفُ
وَلَهُ قَصِيدَةٌ رَائِقَةٌ وَصَلَتْ مِنْهَا إِلَيْنَا ٥٧ بَيْتًا يَشْكُو بِهَا مَا قَامَاهُ مِنَ الْمَشَاقِّ

(١) وهي قبيلة من قبائل جنوب جزيرة العرب .

(٢) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٥١ من طبعة بولاق .

(٣) مكران ولاية في جنوب بلاد الفرس على شاطئ خليج عمان .

(٤) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٤٨ من طبعة بولاق [وديوان أعشى همدان في ذيل ديوان أعشى

ميمون الذي طبع بلندن سنة ١٩٢٨ عدد ٢٢ بيت ٢٤ - ٢٥] .

والمرض في مكران^(١) ومبتدوها :

طلبت الصبا إذ علا المكبر وشاب القذال وما تقصير
وبان الشباب ولذاته وشك في الجهل لا يغتر
ثم يذكر فيها العواذل ويشكو لوهمه فيقول :

كأنني لم أر تجل جصرة ولم أجفها بعد ما تضمر
فأجشمتها كل ديمومة ويعرفها البلد المغير
ولم أشهد البأس يوم الوغى على المفاضة والمغير
ولم أخرق الصف حتى تمل ذراعة القوم والحضر
وتحتي جرداء خفانة من الخيل أو سابح مجفر
أطاعن بالرمح حتى الليا ن يجرى به العلق الأحمر

ويخرج إلى ذكر ما كان عليه من رخاء العيش وتعيمة :

وإذ أنا في عنفوان الشبا ب يعجيني اللهو والسمر
أصيد الحسان ويصطدني ونعجيني الكاعب المغير
وبعد الإطباب في الكلام عن تغزله وقت شبابه بصفة يلوح منها أنه
كان من سكان المدن يأخذ يشكو شر حاله في العسكر في البلاد البعيدة التي
بُعث إليها كارهاً وذلك في أبيات كثيرة .

وفي سنة ٨٢ لما خرج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج بن يوسف
وحشد معه أكثر الكوفيين كان أعطى همدان ممن خرج معه وجعل يقول
الشعر في مدح ابن الأشعث ولا يزال يحث أهل الكوفة بأشعاره على القتال
حتى أصر فقتل صبراً بأمر الحجاج^(٢) . وله أيضاً شيء من الشعر يخرج

(١) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٤٩ - ١٥٠ (واللهيان عدد ٢٠) .

(٢) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٥٩ - ١٦١ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي في الباب
الخامس والتعين ج ٥ ص ٣٥٥ - ٣٥٨ من طبعة باريس.

عن هذا الصنف ويلتخل في الصنف السادس للماره على الاختلافات الدينية
منه الأبيات المروية له في كتاب الحيوان للجاحظ^(١) يثلب فيها أصحاب
المختار من أهل الشيعة .

ومن هذا الصنف أكثر أشعار عُمَيْر بن شَيْبَم التغلبي المشهور بالقُطامي^(٢)
المتوفى سنة ١١٠ كان نصرانياً كهُمُظَم التغلبيين ثم أسلم وقال أغلب شعره
في ذكر الحروب الجارية بين قبائل العرب لا سيما بين تغلب وقيس
عيلان إلى أن أسير في واقعة مأكسين فأخذت إبله . فنجاه زُفَر بن
الحارث رئيس القيسيين وخلق مبيله ورد عليه مائة ناقة فمدحه القطامي في عدة
أشعار . ومما يستحق الذكر في شعره من حيث اللغة ما ذهب إليه أحياناً من
جزم عين الفعل الثلاثي في الماضي حتى قال نَشَبَتْ وتُرَكَّتْ بدلاً من نَشَبَتْ
وتُرَكَّتْ^(٣) ولعل ذلك لغة تغلب لأنه غير نادر أيضاً في ديوان الأخطل .

ومن هذا الصنف أيضاً ما يُروى لكعب الأشقرى^(٤) في غزوات قتيبة
ابن مسلم في بلاد خوارزم^(٥) سنة ٩٣ أو قصيدته الطولى التي وصف فيها
وقائع الجند مع المهلب بن أبي صفرة في بلد حين محاربة الأزارقة ببلاد
العجم^(٦) - فترون أن هذا النوع من شعر عهد الأمويين يتصل بما سميئناه
شعر الفشوحات في أيام الخلفاء الراشدين وبالأشعار المشهورة في أيام العرب
في الجاهلية .

٦- أما الصنف السادس من شعر الدولة الأموية وهو شعر الفتن السياسية

(١) كتاب الحيوان ج ٢ ص ٩٩ من طبعة مصر ١٣٢٢ - ١٣٢٥ .

(٢) راجع ترجمته في كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١١٨ - ١٢١ وديوانه مطبوع ببلد سنة

١٩٠٢ بمناية J. Barth

(٣) انظر كامل للبره ص ٥٣٧ من طبعة ليك .

(٤) راجع ما قاله فيه صاحب كتاب الأغاني في ج ١٣ ص ٥٦ - ٦٤ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٦٣ - ٦٤ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٠٠٨ - ١٠١٧ .

(٦) كتاب الأغاني ج ٣١ ص ٥٧ .

والدينية فهو من وجهٍ ليس ببعيد عن الصنف السابق بيانه لأنَّ قسماً غير يسير منه يتعلّق أيضاً بأحوال الحروب والثورات . فحِثُّ مدّة في أيّ شيء أوفق : أجمّع الصنفين أم التفريق بينهما ؟ وفضلت التفريق اعتباراً لما آتٍ شرحه . إنّ الاتصال بالغزوات والحروب ضروريّ للشعر من النوع المتقدّم وليس ضرورياً للشعر من الصنف السادس . ثمّ الحروب التي يتعلّق بها الصنف السابق ضربان بالأخصّ : أحدهما الجهاد في حدود المملكة الإسلامية أو خارجها والآخر غارات قبائل الأعراب بعضها على بعض لأسباب خاصّة لها لا يمسّ أغلبها الأحزاب السياسية الحقيقية ولا المذاهب الدينية اللهمّ إلاّ عَرَضاً . أمّا الصنف السادس من الشعر فإذا ارتبط قوله بالحروب كانت هذه الحروب من جنس غير الجنسيتين السابقين لأنّها إمّا حروبٌ دائرة بين حزبين سياسيين أو حروب من النوع المسمّى عند الفقهاء بحروب المصالح لا سيّما في قتال المرتدين وأهل البغي^(١) . ثمّ إنّ الصنف السادس يحتوى أيضاً على أشعار مدارها على مذاهب سياسية ودينية من دون تعلّق بأيّ جنس كان من الحروب .

قلت مذاهب سياسية ودينية لتكون العبارة عن فكري أوضح بالإضافة إلى أحوال زماننا الحاضر ولكنّ حقيقة الأمر في القرن الأول والثاني بعد خلافة عثمان بن عفّان أنّ كلّ حزب سياسيّ كان عند المسلمين مذهباً دينياً أيضاً لعدم تمييز الدنيا والدين في أمور الحكومة على أحكام الشريعة الإسلامية؛ وذلك واضح إن قابلتم نظام الأمة الإسلامية بنظام الأمم الإفرنجية سواء في الزمان القديم أم في القرون الوسطى أم في العصر الجديد . عند الأمم

(١) راجع الأحكام السلطانية المأوردي في الباب الخامس من ٤٤ - ٥٣ من طبعة مصر

١٣٢٧ أو من ٨٩ - ١٠٧ من طبعة بن ١٨٥٣ .

الإفريقية لا يتأسس النظام الاجتماعي المياسي على العقائد وإن كانت العقائد تؤثر فيه أحياناً كما تؤثر في الأميال والأهواء والأخلاق والآداب . فعلاقة المُلْك بأمور الدين عندهم كملاقته بأخلاق الأمة وتغلُّبها أعنى على وجه طبيعي محض إذ لا يقوم مُلْك من غير وجود أمة ولا تُعْقَل أمة ليست لها آراء وأهواء وأميال وحاجات خاصة . فإن كانت مثلاً جملة من الباباوات في الزمان السالف شملوا سلطة دينية وسلطة دنيوية في أيديهم كان هذا الجمع عَرَضِيًّا لا جوهريًّا لأنهم كانوا أئمة جميع النصارى الكاثوليك في أمور العقائد ولم يكونوا ملوكاً إلا على سَكَن مملكتهم غير الواسعة ثم ما كان هذا المُلْك ممَّا يستوجبه الدين النصراني . وكذلك كانت القياصرة في القرون الوسطى والملوك غير الدستوريين في العصر الجديد يقولون إنَّ سلطتهم من الله ولكن معنى قولهم هذا أنهم قياصرة أو ملوك بإرادة الله ومَنُّه وأنَّ سلطانهم حق لم يتوصلوا إليه بالاعتصاب والتعدي فلا تجوز للأمة المعضية عليهم . - وكذلك لا علاقة عندهم بين الأحكام الدينية وبين أصول التشريع إلا عَرَضاً فليس لهم فقه بحصر معناه المصطلح عليه عند الفقهاء وإنَّما لهم أحكام سلطانية وقوانين أُثْبِتَتْ قواعدها بالاجتهاد من غير استخراجها من شريعة منزلة أو سنن أنبياء . فواضح أنَّ مسألة اختيار الدولة وهيئة الحكومة عندهم مسألة سياسية محضة متجردة عن العقائد والأحكام الدينية . وكذلك ما اشترك إليه في القرون الوسطى من جمع كل النصارى في مملكة واحدة يتولَّى أمرها قبصر لم يكن من توابع قواعد النصرانية .

أما الإسلام القديم فلا فرق بائن فيه بين تولَّى أمور الدنيا وتولَّى أمور الدين ومسألة الإمامة مسألة شرعية مثل سائر مباحث الفقه . قال أبو الحسن الماوردي^(١)

(١) الأحكام السلطانية ص ٢ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ص ٢ من طبعة بن .

إن الإمامة أصل تستقرّ عليه قواعد الملة وتنتظم به مصالح الأمة ثم^(١) إنها موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا . فمنصب الخليفة أى الإمام دنيوى من حيث قيامه بمصالح جميع سكان دار الإسلام والمسلمين المقيمين بدار الحرب وهو دينى من حيث كونه ولاية الله على الأرض لحفظ الإسلام البدع والفساد وإبقاء وحدة الأمة الإسلامية على مقتضى الشريعة . وبما أن الأحزاب السياسية في عهد الأمويين إنما نشاجرت فيمن تكون الإمامة من حقّه فكانت هذه المسألة فقط سبب الحروب سوى الجهاد وغزوات الأعراب وفتن أهل البدع ، ظاهر أننا لا نتمكن من التفريق فيما بين الأشعار في حروب الأحزاب السياسية والأشعار في الاختلافات الدينية .

إن الشعر من هذا الصنف السادس ذو شأن خطير سواء لنفس قيمته الأدبية أم لما يستفيدة منه من أراد البحث العميق الدقيق المنصف عن تاريخ المشرق الإسلامى في ذلك العصر . لا يخفى عليكم أن القدماء الذين صنفوا الكتب في الأخبار والسير قلما ذهبوا إلى إيضاح الأحوال الاجتماعية والأغراض العاملة في الحوادث وإنما اقتصروا أو كادوا على ذكر ما يظهر من التقلبات والوقائع والحروب والأخبار من دون الإفادة عن أسبابها الباطنة الخفية مثل آراء طبقات الناس وأهوائهم وأمالهم ومصالحهم فأصبح أكثر ما ألف إلى الآن [يعنى إلى سنة ١٩١١] بالعربية من تواريخ بلاد الإسلام أقرب إلى الأخبار البرقية المنشورة في الجرائد منها إلى ما يُعتبر الآن غاية التاريخ الحقيقى الباحث عن علل الحوادث وتسلسلها وعن انقلابات الأحوال الاجتماعية والأفكار . ثم من آفات الكتب العربية في التاريخ أنها

(١) الأحكام السلطانية ص ٣ من طبعة مصر ١٣٢٧ و ص ٣ أيضاً من طبعة بن .

في الغالب لم تستشَقْ إلّا من المصادر الرسمية أو روايات الفريق الفائت على غيره فبعد الاطلاع عليها كثيراً ما تُضحى كحكم سميع أحد الخصميين فقط فلا يتمكن من الإنصاف في الحكم . وغير مرة تساعدنا الأشعار من الصنف السادس على تدارك هذا الخل . فلها قامت في عصرها مقام الجرائد والمناقشات الدائرة الآن في المجالس العمومية وهي في الغالب لم تكن ترجمان فكر قائلها فقط . بل كانت صوت جميع الحزب أو المذهب المنتسب الشاعر إليه . فإنّ العرب في ذلك العصر الذي لم يُعرَف فيه فنُّ الطباعة بعد اتخلدوا الشعر وسيلة لنشر آرائهم وأفكارهم وعواطفهم لأنّ الشعر أُسبر على ألسنة الناس وأوقع في قلوبهم من الكلام المنشور العادي . فالراوى المرتحل من بلد إلى بلد يُنشد الأشعار كان لهم بمنزلة الجريدة المشيعة آراء حزبها في الجمهور . فكفى ذلك دلالة على أهمية تلك الأناشيد لمن أراد الوقوف التام على حياة العرب الاجتماعية وعلى الأهواء والعواطف التي لا غنى عن حق معرفتها لمن عزم النقيب عن حوادث الزمان السالف وإزالة الشك واللبس في تقدير عللها .

لَمَّا قُتِلَ عُمَانُ بْنُ عُمَانَ يَوْمَ الْأَضْحَةِ مِنْ سَنَةِ ٢٥٦ هـ اضطربت الناس اضطراباً شديداً فذهب قوم غير يسير منهم إلى أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْ شَارَكَ الْقَاتِلَ فَأَنْكَرُوا بَيِّنَتِهِ وَمِنْهُمْ أَغْنَى مِنَ الْعُمَانِيَةِ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَصْصَارِيُّ شَاعِرُ النَّبِيِّ سَابِقاً الَّذِي رثا عُمَانُ فَقَالَ فِي مَرثِيَتِهِ الْأَبْيَاتِ الشَّهِيرَةِ^(١)

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٩٨ من طبعة تونس أو عدد ٢٠ ص ٢٢ من طبعة ليدن - أما البيت الأول فهو ناقص في طبقات الديوان ولكنه موجود في كتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٠٦ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفي بيان الملاحظ ج ١ ص ٩٠ مطر ٧ من طبعة ١٣١٣ وفي كتاب التنبية للمسعودي ص ٢٩٢ من طبعة ليدن وفي خزنة الأدب ج ٤ ص ١١٨ من طبعة بولاق وفي تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٥١ من طبعة ليدن وكل الأبيات مروية في NGLDEKE, *Dialects veterum carminum arabicorum* من ٧٧ - أما عنوان السجود فانظر القرآن ٤٨ (سورة التوح) : ٢٩ .

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ
 بَلْ لَيْتَ شِعْرِي وَلَيْتَ الطَّيْرُ يُخْبِرُنِي
 لَتَسْمَعُنَّ وَشَيْكًا فِي دِيَارِكُمْ
 وَقَدْ رَضِيتُ بِأَهْلِ الشَّامِ زَافِرَةً
 إِنِّي لَمِنْهُمْ وَإِنْ غَابُوا وَإِنْ شَهِدُوا
 صَرًّا فِدَى لَكُمْ أُمِّي وَمَا وَلَدَتْ
 شُدُّوا السُّيُوفَ بِشْنِي فِي مَنَاطِقِكُمْ
 لَعَلَّكُمْ أَنْ تَرَوْا يَوْمًا بِمَغْبِطَةٍ

يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا
 مَا كَانَ شَأْنُ عَلِيٍّ وَأَبْنِ عَفَّانَا
 اللَّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَا
 وَبِالْأَمِيرِ وَبِالْإِخْوَانِ إِخْوَانَا
 حَتَّى الْمَمَاتِ وَمَا سُمِّيتُ حَسَانَا
 قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فِي الْمَكْرُوهِ أَحِبَانَا
 حَتَّى يَحِينَ بِهَا فِي الْمَوْتِ مَنْ حَانَا
 خَلِيفَةُ اللَّهِ فِيكُمْ كَالَّذِي كَانَا

فكانت هذه الأبيات كأنها مقدمة المعرفة بالمستقبل فتداعت أصوات
 من طلب نأر عثمان وجاوبتها الأصداة لاسيما في الأنحاء الشامية فاشتعلت
 نار الحرب وتصلصلت الدروع من وقع البيض وتتمت العداوة بين أهل العراق
 وأهل الشام كما قال كعب بن جعيل التغلبي شاعر الشاميين^(١):

أَرَى الشَّامَ تَكَرَّرَ مُلْكُ الْعِرَاقِ
 وَكُلًّا لِصَاحِبِهِ مُبِغِضًا
 وَكُلُّ يُسَرُّ بِمَا عِنْدَهُ
 إِذَا مَا رَمَوْنَا رَمَيْنَسَاهُمْ
 فَقَالُوا عَلِيٌّ إِمَامٌ لَنَا
 وَقَالُوا نَرَى أَنْ تَدِينُوا لَنَا

وَأَهْلَ الْعِرَاقِ لَهُمْ كَارِهِينَا
 يَرَى كُلُّ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ دِينَا
 يَرَى غَثَّ مَا فِي يَدَيْهِ سَمِينَا
 وَدِنَاهُمْ مِثْلَ مَا يُقْرَضُونَا
 فَقُلْنَا رَضِينَا أَبْنَ هِنْدٍ رَضِينَا
 فَقُلْنَا لَهُمْ لَا نَرَى أَنْ تَدِينَا

(١) كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ١٧٠ - ١٧١ من طبعة ليدن ١٨٨٨
 و NÖLDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, P. 79-80. وأجابه النجاشي (راجع كتاب
 الأخبار الطوال ص ١٧١ وكتاب Nöldeke ص ٨٠ وانظر أيضاً F. SCHULTHEISS, *Ueber den*
Dichter al-Nagāṣī und einige Zeitgenossen, *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*,
 54, 1900, P. 64).

ومن دُونِ ذَلِكَ خَرَطُ الْقِتَادِ وَخَرْبُ وَطْعُنُ يُقَرُّ الْعِيُونَا
 وَمَا فِي عَلِيٍّ لِمُتَّخِذِهِ مَقَالُ سِوَى عِصْمَةِ الْمُحَدِّثِينَا
 وَإِثَارِهِ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ وَرَفْعُ الْقِصَاصِ عَنِ الْقَائِلِينَا
 إِذَا سَبَلَ عَنْهُ زَوْيَ وَجْهَهُ وَعَمَى الْجَوَابَ عَلَى السَّائِلِينَا
 فَلَيْسَ بِرَاضٍ وَلَا سَانِحٍ وَلَا فِي النُّهَاءِ وَلَا الْآمِرِينَا
 وَلَا هُوَ مَنَاءٌ وَلَا سَرَّةٌ وَلَا بُدٌّ مِنْ بَعْدِهِ إِذَا أَنْ يَكُونَا

كان المسلمون بعد قتل عثمان إلى أيام صفين منقسمين إلى فريقين كبيرين متحاربين : العثمانية وشيعة علي . وبينهما ناس يكرهون سفك دماء المؤمنين ويتجنبون التحزب وهم المسنون بالمعتزلة ^(١) منهم أبو موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص والمغيرة بن شعبة وغيرهم . ثم رضى علي باقتراح التحكيم في خلافته في صفر سنة ٣٧ هـ (أغسطس ٦٥٧ م) كان سبب فتنة في شيعته لأن قوماً من أصحابه استقبلوا تحكيم الرجال في دين الله أي تفويض حل مسألة الإمامة إلى رجلين لقرلهم لأنه لا حكم إلا لله فخرجوا عن جيشه إلى حرورية ^(٢) فسموا الحرورية أو الخوارج ^(٣) - وفي سنة ٣٨ هـ التقى الحكماني وهما أبو موسى الأشعري وعمر بن العاص بأفدح في أرض

(١) (أما علاقة هؤلاء المعتزلة بالمعتزلة المشهورين في تاريخ علم التوحيد الإسلامي وأصل اسم هؤلاء المعتزلة الآخرين فراجع CANALLINO, *Raccolta di scritti editi e inediti*, vol. II, 1940, P. 146-169.

(٢) وهو موضع غير بعيد عن الكوفة .

(٣) هذا أصل الاسم فما سماه به - كما يقال - لأنهم خرجوا على علي . فراجع ألكي حلقه

بمسرة النماء : ١٠١ R. BRUNNOW, *Die Chariidschiten unter den ersten Omayyaden*, Leiden 1884, P. 28,

J. WELLHAUSEN, *Die religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam*, Berlin 1901, P. 40-2, (F. GABRIELI, *Sulle origini del movimento Kharijite* (R. Accademia d'Italia, Rendiconti classe scienze morali, 8e série, vol. 3, PP. 110-177); M. GUIDI, *Sui Kharijiti* (Rivista degli Studi Orientali, XXI 1944, P. 1-14).

البقاء فنتيجة الأمر المرجو منه توافق النفوس واطمئنان القلوب إنما خلع على معاوية معاً . قد دهش كثير من أهل العراق والحجاز أي دهش حين سمعوا خبر ذلك الحكم الذي أسرع على في إنكاره فلشدّة استغرابهم وبغضهم لمعاوية أنشئت عندهم وذاعت الرواية المتداولة حتى الآن عن الخيانة المنكرة القبيحة التي دبّرها وارتكبها عمرو بن العاص . أمّا الحقيقة التي لم يتوصل إلى كشفها إلا من رجع إلى المصادر الأصلية القديمة وأدمن فيها النظر والبحث فإن عمرو بن العاص ما أثبت معاوية ألبتة ولكن بما عهد له من الدهاء والمهارة في أمور السياسة قد بلغ مرآة ومرام معاوية حين حمل أبا موسى الأشعري على الرضى بالتفخّص عن حقوق كل من الخصمين كأنهما متساويا القدر وكان خليفة بايعة جملة وافرة من المؤمنين لا يُفَضَّل على من كان والياً على الشام فقط . فنتيجة الحكم أي خلع كلا الخصمين إنما كان أن علياً عزّل عن الخلافة فلم تبق له إلا ولاية العراق أمّا معاوية فخلع ممّا لم يكن له فبقى على ما كان عليه قبلاً بل زاد حظوة عند أصحابه إذ ساواه الحكم بمن كان مدّة أعلى منه بكثير^(١) .

فبالجملة كان أمر الحكّامين سبب أكثر الاختلافات التي حدثت في الأمة الإسلامية بعد موت عثمان إلى أواخر القرن الثاني . خرجت الخوارج عن شيعة علي لمجرد قبوله لاقتراح التحكيم وبعد خروجهم بأربع وعشرين سنة اختلفوا في جواز السكنى في غيرهم من المسلمين ووجوب مجاهدتهم على الدوام فافترقوا وصاروا على أربعة أضرب : الأزارقة والصُفْرىة والبيّهسية والإباضية^(٢) . - أمّا ختام أمر الحكّامين ففرق بين المسلمين تفريقاً عظيماً

LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia* 1, P. 125-140.

(١) راجع

(٢) هذا تفرقهم القديم في سنة ٦١ هـ تقريباً . انظر الكامل في اللغة المعبر ص ٦٠٤ من طبعة ليسك لمرج ٢ ص ١٧٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٧٩٧ .

لم يزل إلى الآن فإنَّ العلويين قالوا بتوارث الإمامة في أهل البيت فنكر الآخرون ذلك وقالوا باتخاذ الإمامة بانتخاب أهل الحل والعقد أو بعهد من قبل . وزاد البون بين الفريقين نحو أواخر القرن الأول لزيادة محازبة الموالي من الفرس لشبهة على فهم أدخلوا في مناهجهم اعتقادات غريبة وبدعا من بقايا آرائهم ودياناتهم القديمة . - وحدث أيضاً بعد أمر الحكيمين حزب المُرَجَّة ومنزلتهم فيما بين شيعة العلويين وشيعة بني أمية كمنزلة المعتزلة المشار إليهم فيما تقدم (ص ٢٣١) بين العثمانيين وأصحاب علي بن أبي طالب . - ومن عواقب الحكم أيضاً حزب الزبيريين لا سيما في الحجاز والعراق فإنه من المشهور أنَّ عبد الله بن الزبير ادعى الخلافة بعد موت الحسين سنة ٦١/٦٨ وتولى الأمر بحمكة إلى سنة ٧٢/٧٩ . - ثم في أوائل القرن الثاني ابتدأت الدعوة العباسية بخراسان فقام فريق سادس من المسلمين يدعون الخلافة لبني هاشم لقرباتهم من علي بن أبي طالب . - فكلَّ هذه الأفرقاء شعراء كانوا يدافعون عن أغراضهم وعما ادعى الفريق من الحقوق .

كثُر ذكر شعراء الخوارج وخطبائهم في كتب الأدب القديمة مثل كتاب البيان والتبيين للجاحظ^(١) وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه^(٢) بل أفرد المبرِّد لأخبار الخوارج فصلاً غير صغير من كتابه المسمى بالكامل في اللغة والأدب^(٣) . وشعرهم شعر خُلِّتاه في الغالب من نظم أهل البادية أسلوباً ولغة

(١) كتاب البيان والتبيين ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة مصر ١٣١٢ (أوج ٣ ص ١٦٥ - ١٦٦ مع طبعة ١٣٥١) .

(٢) كتاب العقد ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٧ من طبعة مصر ١٢٠٥ .

(٣) الكامل ص ٥٢٧ - ٦٠٠ من طبعة ليكسك أوج ٢ ص ١١٩ - ٢٣٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ (ونقل الأستاذ Roscher هذا القسم إلى اللغة الألمانية وطبعه بالمعنوان : *Die Kharidschitenkapitel aus dem Kamil*, Stuttgart 1923).

(واضح الأستاذ Gabrieli يجمع أشعار الخوارج الذين عاشوا في مصر بين أمة :

F. GABRIELI, *La poesia kharijita nel secolo degli Umayyadi* (Rivista degli Studi Orientali, vol. XX, 1949, P. 331-372).

وهو فصيح العبارة دائر أكثره على الحماسة والحرب . فلو أردنا الحكم فيهم بناء على شعرهم لقلنا إنهم أقرب بكثير إلى أهل الوبر منهم إلى أهل المدر . ولكن إذا راجعنا النصوص التاريخية القديمة وجدنا جمًّا غفيراً من الأخبار عن تقامم ونسكهم وشدة عنايتهم بقراءة القرآن وإقامة الصلاة ليلاً ونهاراً وغير ذلك ممَّا يخالف أميال الأعراب وشعائرتهم . فما الحقيقة في تناقض هذين الأمرين ؟

لا شك أن الذين رأسوا خروج الحروريين عن جيش علي بن أبي طالب لم يكونوا أعراباً بل كانوا قراء من أهل الحضر منهم مسعر بن قدس القميني وزيد بن حصين الطائي وذلك لأنهم رأوا التحكم إفساداً للدين . هذا الثابت في جميع الأخبار . فترون أن أصل الخروج إنما كان مسألة نظرية لا يمكن أن تهّم ناساً مثل الأعراب . ولكن بعد قليل أكثر أهل القبائل الذين كانوا هاجروا من بلادهم في أواسط جزيرة العرب وأقاموا بالكوفة والبصرة بعد الفتح الإسلامي اتبعوا القراء لسببين أحدهما مجاوزتهم لهم من حيث السكنى والآخر موافقتهم لهم في مسألة الخلافة . لا يخفى عليكم أن القطب الذي يدور عليه مذهب الخوارج هو وجوب انعقاد الإمامة بالاختيار غير المحدود لأن كل مسلم صالح يمكن عندهم أن يقلد الخلافة وحق الاشتراك في الاختيار مطلق عندهم على الجماعة بأسرها ولا يختص بأهل الحل والعقد . فعلى هذا الرأي كان منصّب الخليفة في الأمة الإسلامية كمنزلة السيد في القبيلة فرضى به الأعراب طبعاً لما لهم من حب الاستقلال والتمسك بعاداتهم القديمة والكراهة لكل نظام مخالف نظامهم الخاص . فعن جمع هذين العنصرين المختلفين القراء والأعراب صدر التناقض الظاهري الموصى إليه فيما سبق .

ومن شعراء الخوارج وخطبائهم قَطْرِي بن الفُجَّاءة رئيس الأزارقة الذي خرج على ولاية العراق فبقى ٢٠ سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة حتى قُتل سنة ٧٧^(١) ومن أشعاره الأبيات الشهيرة المروية في حماسة أبي تمام^(٢) :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تُراعى
فإنك لو سألت بقاء يومٍ على الأجل الذي لك لم تُطاهى
فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيلُ الخلود بمسئطاعٍ
ولا ثوبُ البقاء بثوب جزٍ فيطوى عن أخى الخنع اليراعِ
سبيلُ الموت غاية كل حَيٍّ فداعيه لأهل الأرض داعي
ومن لا يُغْتَبَطْ يَسَامُ وَيَهْرَمُ وتُسَلِّمُهُ المَنُونُ إلى أنقطاعِ
وما للمرء خَيْرٌ في حياة إذا ما عُذَّ من سَقَطِ المتاعِ

قال ابن خلكان^(٣) : «وهي تشجع أجبن خلق الله وما أعرف في هذا الباب مثلها وما صدرت إلا عن نفس أبيه وشهامة عربية . . . ومن شعرائهم المقدمين عمران بن حِطَّان السُّدُوسِيَّ^(٤) كان من علماء الصُّفَرِيَّة وخطبائهم فحين أسنَّ وضعف عن الحرب اقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه . وهو

(١) كذا في تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٠١٨ وقال ابن خلكان (وفيات الأعيان عدد ٥٥٦ من طمة غرتنجين أو عدد ٥١٧ من الطبقات المصرية) أنه قتل في سنة ٧٨ هـ .

(٢) حماسة أبي تمام ص ٤٤ من طبعة بن أو ج ١ ص ٤٩ - ٥٠ من طبعة بولاق ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٥٦ من طبعة غرتنجين أو عدد ٥١٧ من الطبقات المصرية وشرح الشواهد الكبرى لمينى ج ٣ ص ٥١ - ٥٣ من طبعة بولاق بهامش خزانة الأدب .

(٣) وفيات الأعيان في الموضع المذكور .

(٤) راجع الكامل للمبرد ص ٥٣٠ - ٥٣٤ من طبعة ليملك أو ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٤ من مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٢ - ١٥٧ وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٢ و ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة ١٣١٣ [أو ١ ص ٥٥ و ج ٣ ص ١٦٦ من طبعة ١٣٥١] وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ٦٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

من الذين مدحوا ابن مُلْجَم قاتل علي بن أبي طالب وقوله في ذلك مشهور^(١). وأطرده الحجاج بن يوسف وليج في طلبه فنجاه منه هارباً منتقلاً في القبائل حتى مات في قبيلة الأزد ببلاد عمان . وكان ممن عاصر الفرزدق ولكن شتان ما بينهما فإن الفرزدق لم يزل يمدح الأكابر والرؤساء طمعاً في هداياهم وعمران بن حِطَّان يرى من مثل ذلك وهو القاتل^(٢) (من بحر الخفيف) :

أَيُّهَا الْمَادِحُ الْعِبَادَ لِيُعْطَى إِنَّ اللَّهَ مَا بِأَيْدِي الْعِبَادِ
فَاسْأَلِ اللَّهَ مَا طَلَبْتَ إِلَيْهِمْ وَأَرْجُ فَضْلَ الْمُقْسَمِ الْعَوَادِ
لَا تَقُلْ فِي الْجَوَادِ مَا لَيْسَ فِيهِ وَتُسَمِّى الْبَخِيلَ بِاسْمِ الْجَوَادِ

ومن شعرائهم معاذ بن جُوَيْن بن حُصَيْن الخارجي سجنه المغيرة بن شعبة إلى الكوفة (١١١ - ٩٧) فقال في الحبس يحرض أصحابه على الخروج^(٣) :

أَلَا أَيُّهَا الشَّارُونَ قَدْ حَانَ لِأَمْرِي شَرَى نَفْسَهُ لِلَّهِ أَنْ يَتَرَحَّلَا
أَقْمَتُمْ بِدَارِ الْخَاطِئِينَ جَهَالَةً وَكُلُّ أَمْرِي مِنْكُمْ يُشَادُّ لِيُقْتَلَا
فُشِدُوا عَلَى الْقَوْمِ الْعُدَاةَ فَإِنَّهَا أَقَامَتَكُمْ لِلذَّبْحِ رَأْيَا مُضِلَّلَا
أَلَا فَاقْصِدُوا يَا قَوْمَ لِلْمَغَايَةِ الَّتِي إِذَا ذُكِرَتْ سَكَتَ أَبْرٌ وَأَعْدَلَا
فِيَا لَيْتَنِي فِيكُمْ عَلَى ظَهْرِ سَابِحٍ شَدِيدِ الْقُصَيْرِ دَارِعاً غَيْرَ أَعْزَلَا
وَيَا لَيْتَنِي فِيكُمْ أَعَادَى عَدُوِّكُمْ فَيَسْقِيَنِي كَأْسُ الْمَيْيَةِ أَوْ لَا
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُخَافُوا وَتُطْرَدُوا وَلَمَّا أُجْرَدُ فِي الْمُحِلِّينَ مُنْصَلَا

(١) الأبيات مروية في الكامل للمبرد ص ٥٣١ من طبعة ليبسك أوج ٢ ص ١٢٢ من طبعة مصر ١٢٢٣ - ١٢٢٤ وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٦٢ من طبعة مصر ١٢١٧ - ١٢٢١ بهامش كتاب الملل والأهواء والنحل لابن حزم أو ص ٩٠ من طبعة لندن ١٨٤٦ .
(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٦ و ج ٧ ص ٦ وقل فيه إن الأبيات منسوبة إلى السيد الحميري في رواية أخرى .

(٣) تاريخ الطهي ج ٢ ص ٣٦ من طبعة لندن .

ولمّا يُفَرِّقْ جَمْعَهُمْ كُلُّ مَاجِدٍ إِذَا قُلْتَ قَدْ وَلَّى وَأَدْبَرَ أَقْبَلَا
مُشِيحاً يَنْصُلُ السَّيْفَ فِي حَمْسِ الْوَعَى يَرَى الصَّبْرَ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَمْثَلَا
وَعَزَّ عَلَى أَنْ تُضَامُوا وَتُنْقَصُوا وَأَصْبَحَ ذَا بَثٍّ أَسِيرًا مَكْبَلَا
ولو أَنَّنِي فِيكُمْ وَقَدْ قَصَدُوا لَكُمْ أَثَرْتُ إِذَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ قَسْطَلَا
فِيَا رَبِّ جَمْعٍ قَدْ قَلْتُ وَغَارَةً شَهِدْتُ وَقَرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مُجَدَلَا

ومنهم الطَّرِمَاحُ بْنُ حَكِيمٍ المشهور أيضاً لبراعته في الخطابة ^(١) كان على قول صاحب الأغاني ^(٢) « من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحاهم ومنشؤه بالشام وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك مع من وردها من جيوش أهل الشام واعتقد مذهب الشراة الأزارقة » . وروى في الأغاني أيضاً ^(٣) : « كان الكميت بن زيد صديقاً للطَّرِمَاحِ لا يكادان يفترقان في حال من أحوالهما فقبل للكميت : لا شيء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطَّرِمَاحِ على تباعد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلاد وهو شامي قحطاني وأنت كوفي نزاری شيعي فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية ؟ فقال اتفقتما على بُغْضِ العامة » . وقبل انضمامه إلى الخوارج قد مدح أمراء الأمويين وهجا قبيلة نعيم هجاء مُفْرِطاً في الشتم والاحتقار رواه ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء ^(٤) . ومن شعره بعد تملُّهه بالخوارج ^(٥) :

(١) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٢١٣ (أوج ٢ ص ٢٧٢ من طبعة ١٢٥١) .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٥٦ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٥٦ و ج ١٥ ص ١١٣ و راجع أيضاً كتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٢١٣ (أوج ١ ص ٥٤ - ٥٥ من طبعة ١٢٥١) .

(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧٢ و ٢٧٣ من طبعة لندن . وثروى أربعة أبيات من الهجاء الأول بغير اسم الشاعر في الباب السابع بعد المائة من مروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ١٢٨ من طبعة باريس .

(٥) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧٣ - ٢٧٤ من طبعة لندن و راجع أيضاً كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٦٠ (و ديوان الطرماح طبع ٣٥ من طبعة لندن ١٩٢٧) .

فيا رب لا تجعل وفائي إن دنت على شرجع يعل بدسكن المطارف
ولكن أحن يوى شهيداً وعصبة يصابرون في فج من الأرض خائف
عصائب من شتى يؤلف بينهم هدى الله نزالون عند المواقف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى موعود ما في المصاحف
فأقتل قصفا ثم يرمى بأعظمي كضغث الخلا بين الرياح العاصف
وبضريح لخمى بطن طير مقيله دوين السماء في نسور عوائف

يذكرنا البيتان الأخيران توحش بعض أشعار الجاهلية لا سيما أشعار
الشنفرى ونابط. شراً إلا أن سبب التوحش عند هذين الشاعرين يختلف
عن سببه عند الطرماح فإن همجية بعض شعراء الجاهلية صدرت عن أحوال
حياتهم القريبة من أحوال الصعاليك اللصوص وقطاع الطريق أمّا ما ورد منها
في شعر الطرماح فصادر عن مله الأزارقة الذين رأوا الموت في الحرب وقتل
من لم يكن من الخوارج أهون الأشياء عليهم فلم يزالوا مقاتلين إلى انقراض
فرقتهم مخطرين أنفسهم بجرأة عجيبة لا نظير لها كأنهم مشتاقون إلى
الموت الأحمر وكانوا أيضاً أصحاب الاستعراض أى أصحاب الرأي بإباحة
قتل جميع الناس من المخالفين في أى وقت وبدون تمييز الرجال والأطفال
والنساء . فلذلك إن معاني مثل الواردة في أبيات الطرماح ليست نادرة في
أشعار الخوارج فقال قطري بن الفجاعة (١) :

ألا أيتها الساغي البراز تقربن أسافك بالموت المدعاف المقتب
فما في تساقى الموت في الحرب سبة على شاربيه فاستقنى منه وأشرباً
وقال عمران بن حطان لما قتل أبو بلال مرداس بن أدية (٢) :

(١) سلسة أبي تمام ص ٣٣١ من طبعة بن أوج ٢ ص ١١١ من طبعة بولاق .
(٢) الكامل للمبرد ص ٥٣٠ من طبعة ليبيك أوج ٢ ص ١٢١ من طبعة مصر ١٣٢٣-١٣٢٤

لقد زاد الحياة إلى بُغضًا وحبًا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذرا العوالى
ولو أننى علمت بأنَّ حَتَّى كحُتف أبى بلال لم أبال
فمن يكُّ همَّة الدنيا فإنى لها والله رب البيت قال

هذا أمر الخوارج . أما الشيعة فأغلبهم قليلو الميل إلى الحرب مستنكفين من جفاء الخوارج فشعرهم بعيد عن توحش شعر الأزارقة كثير المدار على مدح أهل البيت وبيان الاختلافات الدينية . ومن شعرائهم كثير بن عبد الرحمن الخزاعي المتوفى سنة ١٠٥ المعروف بكثير عزة^(١) لتشبيهه بعزة الضمرية في شعره وإن قيل إنه مُدَّع غير صادق الصبابة والعشق . فهذا القسم من شعره وهو غير يسير يدخل في الصنف الذى سميناه بالشعر الفرائى عند أهل البادية فعُدَّ كثير لذلك من العشاق المشهورين . لكنه لاتصاله بذهب الكبشانية من الشيعة وإظهار هذا المذهب فى أشعاره غير الفرامية يستحق أن يُجعل فى شعراء الصنف السادس الذى نحن فى بيانه لا سيما إذ كان ما أبداه فى أبيانه من آرائه الغريبة خطير الشأن لمن يفحص عن أصول اعتقادات الفرق الشيعية . إن الذين ألفوا التصانيف الثمينة فى الملل والنحل مثل ابن حزم والشهرستاني لم يميزوا فى بيانهم القديم والحديث من اعتقادات كل فرقة فرما نسبوا إلى أوائل الفرقة ما لم يتكون أو لم يُدخل فيها إلا بمرور الزمان فإذا أردنا التوصل إلى كشف حقيقة الأوائل

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغانى ج ٨ ص ٢٦ - ٤٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣١٢ - ٣٢٩ من طبعة ليدن وكتاب وقفات الأعيان لابن خلكان حد ٥٥٨ من طبعة غوتنجن ل١٩٥٩ من الطبقات المصرية (وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٢٢ - ١٢٥ من طبعة ليدن وديوانه مطبوع بعناية Pich في الجزائر وباريس سنة ١٩٢٨ - ١٩٣٠) .

فلا بد لنا من الرجوع إلى أقوال شعراء هذا الصنف السادس التي يترتبة نصوص صحيحة موثوق بها .

من المشهور أن ركن مذاهب أهل الشيعة توارث الإمامة في أعقاب علي بن أبي طالب . فهو رأى لم تذهب أغلب العرب إليه أبداً لنفس مخالفته لنظامهم القديم الذي لم يزل إلى الآن عند الأعراب أعنى أن سيد القبيلة لا ينال منصبه إلا باختيار رجال القبيلة إتياء فلا تتوارث السيادة فإن خلف ابن أبيه فيها كان ذلك باختيار القوم أيضاً لا لحق ميراث . أما الأمم المجاورة للعرب في أيام غرة الإسلام لا سيما الفرس فمن زمان طويل ألقت نظاماً سياسياً أسسه توارث الملوك في عائلة فلم يكونوا يتصورون إمكان ملك عظيم متين اختارت العامة رأسه . قتالت الفرس طبعاً إلى رأى أهل الشيعة في الإمامة . وزيدوا على ذلك سبباً آخر قومياً أحسن أن العجم بعد موت علي بن أبي طالب رأوا مقاومة أهل الشيعة لبني أمية كمثل قيام على سلطة العرب فانضموا إليها أفواجاً لبغضهم السري للمتغلبين على بلادهم . فلتأثير مذاهب الفرس واليهود تغيرت شيئاً فشيئاً مسألة الإمامة عند أهل الشيعة عما كانت في وقت علي أمير المؤمنين . قد جاء في القرآن أن محمداً خاتم النبيين فبدل هذا القول ظاهراً أن الشريعة الإسلامية ستقوم بعده مقام النبوة فيما سلف من الزمان . ولكن خالف هذا آراء كثير من أمم الشرق واعتقاديتها القديمة فلم يستصوبوا في قلوبهم انقطاع النبوة وعدم بقائها في رجل من الرجال لأن النبوة عندهم تمثيل قدرة الله على الأرض وعنايته بأمور الناس فلم تكن النبوة في أحد من الأحياء لمنعت عندهم الدنيا العناية الإلهية . فحملهم هذا الظن بعد إسلامهم على اعتقاد توارثها في أهل البيت بصفة أن يكون الخلف حياً موجوداً في وقت سالفه حسبما كان مثلاً يشوع موجوداً في أيام موسى أو علي في أيام محمد . غير أنهم تركوا طبعاً لفظ.

النبي لتسمية أعقاب رسول الله والتجسُّوا إلى لفظ الوصي أو المهدي أو الإمام^(١). فإلى بقاء رسالة الله في أهل البيت يشير أبو داود خالد بن إبراهيم أحد دُعاة أبي مسلم بخراسان في مخاطبته للنُّقباء بِمَرُور سنة ١٢٩^(٢): وقال: أفتشكون أن الله تعالى نزل عليه [أي على النبي] كتابه فاتاه جبريل عليه السلام الروح الأمين أحلَّ فيه حلاله وحرم فيه حرامه وشرع فيه شرائعه وسنَّ فيه سُنَّته وأنبياء فيه بما كان قبله وما هو كائن بعده إلى يوم القيامة؟ قالوا: لا. قال: أفتشكون أن الله عزَّ وجلَّ قبضه إليه بعد ما أدَّى ما عليه من رسالة ربِّه؟ قالوا: لا. قال: أفتظنون أن ذلك العلم الذي أنزل عليه رُفِعَ معه أو خُلفه؟ قالوا: بل خُلفه. قال: أفتظنون خُلفه عند غير عِترته وأهل بيته الأقرب فالأقرب؟ قالوا: لا. قال: فهل أحد منكم إذا رأى من هذا الأمر إقبالاً ورأى الناس له محبين بدا له أن يصرف ذلك إلى نفسه؟ قالوا: اللهم لا وكيف يكون ذلك؟ قال: لست أقول لكم فعلتم ولكنَّ الشيطان ربما نزع النزعة فيما يكون وفيما لا يكون. قال: وهل فيكم أحد بدا له أن يصرف هذا الأمر عن أهل البيت إلى غيرهم من عِترَةِ النبي صلى الله عليه؟ قالوا: لا. قال: أفتشكون أنهم معدن العلم وأصحاب ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: لا. .

يتضح من هذا النص أن أهل الشيعة أو كثيراً منهم في أوائل القرن الثاني قالوا ببقاء رسالة الله في عِترَةِ النبي أي أهل البيت على سبيل التوارث من الأقرب إلى الأقرب. وفي القرن الأول وما يليه من الثاني لتداول الزعم عندهم أن الساعة قريبة ختموا سلسلة أئمتهم بثالث أبناء علي وهو محمد

(١) راجع J. WELLHAUSEN, *Die religiös-politischen Oppositionsparteien* P. 92

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩٦١ في سنة ١٢٩.

ابن الحنفية^(١) فقالوا إنه ما مات ولا فارَّق الدنيا بل إنه يغيب مدّة بجبل رَضْوَى على مسيرة يوم من يَنْبُع ثم يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلاً كما مُلئتُ شراً وجوراً . فإلى هذا المعتقد أشار كثير^(٢) بقوله المشهور :

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قَرِيشٍ وَلِلَّهِ الْحَقُّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ
عَلَى وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءٌ
فَسِبْطٌ سِبْطٌ إِيْمَانٌ وَبِرٌّ وَسِبْطٌ غَيْبَتُهُ كَرَبْلَاءُ
وَسِبْطٌ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْجَيْشَ بِقُدْمَةِ اللِّوَاءِ
تَغَيَّبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ

وهذا أيضاً معتقد السيد الحِمَيْرِيِّ كما يلوح من أبياته المروية في كتاب الأغاني^(٣) التي قالها بعد موت ابن الحنفية (أو غيبته على ظنه) بستين سنة . أما فرقة أخرى من الكيسانية فقالوا بانتقال محمد بن الحنفية إلى رحمة الله وانتقال الإمامة وأمه رار العلوم منه إلى ابنه أبي هاشم وهذا القول مهم جداً لعلاقته بظهور الدعوة العباسية بخراسان والعراق فلما تأسست على مذهب

(١) توفي في الأول من محرم سنة ٨١ (يقول في سنة ٨٣ أو ٧٢ أو ٧٢) بالمدينة . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٧٠ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥٣١ من الطبقات المصرية وقال ابن سعد في الجزء الخامس من طبقاته ص ٨٥ - ٨٦ إن محمد بن الحنفية مات في محرم سنة ٨١ وهو ابن ٦٥ سنة قسرية .
(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٢٢ (وانظر أيضاً ج ٧ ص ١٠ - ١١) ومروج الذهب للمسعودي في الباب الثالث والتسعين ج ٥ ص ١٨٢ وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٠٠ من طبعة مصر بهامش كتاب الملل لابن حزم أو ص ١١١ من طبعة لندن ومقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٥٨ من طبعة باريس ١٨٥٨ أو ص ١٧٢ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٩٨ - ١٩٩ من طبعة بيروت ١٩٠٠ (لا يذكر اسم الشاعر في الطبقات الشرقية) [وديوان كثير عدد ١٥٠ بيت ٣ و ٤ و ٧ و ١٠ و ١١ (ج ٢ ص ١٨٦ - ١٨٨)] وديوان الأختيان في وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٧٠ من طبعة غوتنجن أو ٥٣١ من الطبقات المصرية .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٤ و ج ٨ ص ٢٢ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ١٨٢ - ١٨٣ في الباب الثالث والتسعين (خمسة أبيات وفيها « سبعين » بدلا من « ستين ») .

القائلين إن أبا هاشم المتوفى في أيام سليمان بن عبد الملك (٩٦/٧١٥ - ٩٩/٧١٧) أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أخيه أبي العباس عبد الله السفاح. ولولا ذِيعَان هذا الاعتقاد عند أهل الشيعة لما توصل السفاح إلى تأسيس الدولة العباسية.

ومن الحرى بالاعتبار قول جملة من أهل الشيعة في القرن الأول والثاني بالرجعة فإنهم جعلوه تأييداً لآرائهم في نوارث الإمامة في أهل البيت وعزّها . فزعموا أن الرسالة أي النبوة وهي عندهم روح الله نُزِلَتْ في النبي وصارت روحه فلما مات تحوّلت روحه أي الرسالة أو الإمامة إلى علي بن أبي طالب ووقت موت علي تحوّلت روحه وانتقلت الإمامة إلى ابنه الأكبر وهلم جرا . وممن ذهب إلى هذا القول بالرجعة كُتِبَ عِزَّة^(١) الشاعر المذكور سابقاً فيروى أنه نظر مرة إلى بني الحسن بن الحسن بن علي وهم صغار فقال : «بأي أنتم هؤلاء أنبياء صغار»^(٢) . واحتج في اعتقاده بالرجعة بالآية^(٣) : «أَلَيْدَى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ»^(٤) . فلا يخفى عليكم ما لهذه الآراء من النتائج المهمة وهي : ١ أن الإمامة أو الخلافة ليست في الحقيقة إلا نبوة . ٢ أن الإمام أي الخليفة صاحب صفات الأنبياء . ٣ أن الإمامة أي الخلافة لا تنتقل إلا من ميت إلى حي فانقطاعها أو عزل الإمام مستحيل . ٤ أن الأرض لا تخلو عن إمام أبداً وإن كان هذا

(١) كتاب الأغاني ج ٨ من ٢٧ و ٣٣ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٨ من ٢٤ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ من ٣٣ .

(٤) القرآن سورة ٨٢ (الانقطار) : ٧ - ٨ . واحتج أصحاب اعتقاد الرجعة بالسورة ٢٨

(القصص) : ٨٠ .

الإمام مستوراً غائباً عن عيون الناس . ٥ أن وجود إمامين في آن واحد كما زعم بعض الفرق محال . ٦ أن الإمامة أى الخلافة لا تُقلد باختيار الناس سواء كانوا جماعة المسلمين أو أهل الحل أو العقد . - فيتضح أيضاً من جميع ذلك ما لمَحْتُ إليه سابقاً من عدم فرق حقيقى بين الاختلافات الدينية والأحزاب السياسية عند المسلمين أثناء القرون الأولى للهجرة وأن التاريخ السياسى لا يُثقل من دون الفحص عن المذاهب والفرق الإسلامية . ثم يلوح أيضاً ما كان لشعراء تلك الفرق من الشأن العالى فى أحوال السياسة . ومن الشعراء الذين ذهبوا مذهب الكيسانية وأنكروا وفاة محمد بن الحنفية وقالوا بغيبته بجبل رضى أبو هاشم إسماعيل بن محمد الملقب بالسيد الحميرى^(١) من مخضرى الدولتين الأموية والعباسية بل لعل أكثر عمره وقع فى أيام بنى العباس إذ مات سنة $\frac{171}{788-787}$ قال صاحب الأغالى^(٢) : « كان شاعراً متقدماً مطبوعاً . . . وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يُقرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وأزواجه فى شعره ويستعمله من قذفهم والطعن عليهم فتحوى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس . تخوفاً وتراقباً وله طراز من الشعر ومذهب قلماً يلحق فيه أو يقاربه ولا يُعرف له من الشعر كثير وليس يخلو من مدح بنى هاشم أو ذم غيرهم »

(١) راجع كتاب الأغالى ج ٧ ص ٢ - ٢٤ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ١٨٢ - ١٨٤ وكتاب الملل للشهرستانى ج ١ ص ٢٠٠ من طبعة مصر بهاشم الملل لابن حزم أو ص ١١١ من طبعة لندن فانظر أيضاً .

BARBIER DE MEYNARD, *Le Sîd Elmagharite, recherches sur la vie et les œuvres d'un poète hérétique du II siècle de l'hégire* (Journal Asiatique, 7ème série, t. IV, 1874) P. 159-284.

ترى له أبيات مباسية (إما منسوبة إليه أو أصلية) فى كتاب الحيوان الجاحظ ج ٣ ص ١٢٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ وأبيات مروية له أيضاً فى مقلة ابن خلدون ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٩٩ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ١ ص ٤٠٦ من الترجمة الفرنسية فى كتاب العمدة لابن رشيى ج ٢ ص ٥٩ من طبعة مصر ١٣٣٥ (أبيات فى النبى ونقد ابن رشيى لها) .

(٢) كتاب الأغالى ج ٧ ص ٢ من طبعة بولاق .

ممن هو عنده ضدّ لهم . . وأخباره كلها تجرى هذا المجرى ولا نخرج عنه . وفي موضع آخر بعد إيراد بعض أبيات السيّد الحميري قال صاحب الأغاني^(١) على ميله المعروف إلى التشيع : « وهي قصيدة طويلة حُذِفَ باقيها لُتُبِحَ ما فيه » يعني الإفراط في التشيع . ومما يدلُّ على علو منزلته عند أهل الشيعة أنَّ بعضهم نحل إليه أشعاراً في مذهب الإمامية^(٢) القائلين بإمامة جعفر الصادق فواضح أنَّ الذي فعل ذلك رجا من زوره تأكيداً لآراء الإمامية ولم يرج ذلك لو كان السيّد الحميري من الشعراء غير المقدمين . وشعره موصوف بالمتانة والرونق والجزالة مع الامتناع عن غريب الألفاظ . فيروى عن إسحق بن ثابت العطار^(٣) : « قال كنّا كثيراً ما نقول للسيّد ما لك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تسأل عنه . كما يفعل الشعراء . قال لأنّ أقول شعراً قريباً من القلوب يُلْهُ من سيعه خير من أن أقول شعراً متعقداً تَضَلُّ فيه الأوهام » .

كان كثير عزّة والسيّد الحميري من الكيسانية أي من غلاة الشيعة . أما شعراء الشيعة المعتدلون في أيام بني أمية فاشتهروا الكُمَيْت بن زيد الأسدي^(٤) المولود سنة ٦٠ المتوفى سنة ١٢٦ كان من أهل الحضرة ويعلم في أول أمره الصبيان في مسجد بالكوفة . ووصفه صاحب كتاب الأغاني^(٥)

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٩ . (٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٣ و ٥ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١١ .

(٤) راجع كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١١٢ - ١٣٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٦٨ - ٢٧٢ وفضائل الأدب ج ١ ص ٢٩ - ٧٠ و ٨٦ - ٨٧ وروج النعم السعدي ج ٦ ص ٢٦ - ٤٥ من طبعة باريس (في الباب الثالث بعد المائة) وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٢٦ - ٢٧ و ١٥٢ و ١٦٧ من طبعة مصر ١٢٢٣ - ١٢٢٥ وكتاب المعلة لابن رشيح ج ٢ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٢٢٥ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٥٧٤ - ١٥٧٥ (شعر يثك الكيت إلى أهل مرو ناشر الدعوة لبي اسباس سنة ١١٧ هـ) [وللدائع النبوة في الأدب العربي لزكي مبارك ص ٦٧ - ١٠١ من طبعة مصر ١٣٥٤] . (٥) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١١٣ .

على هذه الصفة : « شاعر مقدّم عالم بلغات العرب خبير بآيائها من شعراء مُضَرّ وألسنتها والمتعصبين على القحطانية المقارنين المقارعين لشعرائهم العلماء بالمشالب والآيام المفاخرين بها . . ولم تزل عصبية العدنانية ومهاجراته شعراء اليمن متصلةً والمناقضة بينه وبينهم شائعة في حياته وبعد وفاته حتى ناقض دُحَيْل وابن أبي عُيَيْنَةَ قصيدته المذهبة بعد وفاته وأجابها أبو الزُّأَمَاء البَصْرِيّ مولى بني هاشم » . فإذا اعتبرنا هذا النص فقط. ظننا أن الكميت من شعراء الصنف الخامس المفتخرين بقومهم المهاجرين قبائل خصومهم . ولكن كيف ذلك إذ كان الكميت كوفيّاً من أهل الحضرة بعيداً عن أحوال حياة الأعراب ؟ والحق يقال إننا إن تأملنا ما بلغنا من أهاجيه وجدناها على عصبيتها مخالفةً لأساليب هجاء أهل البادية من وجوه فالواضح أن غرضها الحقيقي غيرُ المنافرة المألوفة عند القبائل . قال صاحب الأغاني^(١) : « سبب هجاء الكميت أهل اليمن أن شاعراً من أهل الشام يقال له حَكِيم بن عِيَّاش [الأحور] الكلبيّ كان يهجو عليّ بن أبي طالب عليه السلام وبني هاشم جميعاً وكان منقطعاً إلى بني أمية فانتدب له الكميت فهجاء وسبه فأجابه ولجّ الهجاء بينهما وكان الكميت يخاف أن يفتضح في شعره عن عليّ عليه السلام لما وقع بينه وبين هشام [بن عبد الملك] وكان يُظهر أن هجاءه إتياء في العصبية التي بين عدنان وقحطان » فبدلنا هذا القول على أن هجاءه يُعدُّ من الشعر في الاختلافات السياسية الدينية وإن كان ظاهره غير ذلك . وفي كتاب مروج الذهب للمسعودي^(٢) رواية تؤيد ما قلناه وهي أن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أراد أن

(١) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١٢٨ وتزانة الأدب ج ١ ص ٨٧ من طبعة بولاق .

(٢) مروج الذهب ج ٦ ص ٤١ - ٤٤ من طبعة باريس (في الباب الثالث بعد المائة) وراجع تزانة الأدب ج ١ ص ٨٦ .

يُهْدَى للكميت هدايا ثمينة لقصائده في مدح العلويين فأبى الكميت قبولها فقال عبد الله : «أما إذ أبيت أن تقبل فإنني رأيت أن تقول شيئاً تُغضب به بين الناس لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما تُحب ، فابتدأ الكميت وقال قصيدته التي يذكر فيها مناقب النزاريين ويُطنب في تفضيلهم على قحطان وهي زهاء ثلثمائة بيت لم يترك فيها حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم . وعرض بأخذ الفُرس والحَبشة نساء اليمن بقوله :

لنا قمرُ السماء وكلُّ نجم تُشير إليه أبدي المهتدينا
وجدتُ الله إذ سئى نزاراً وأسكنهم بمكة قاطنيننا
لنا جعل المكارم خالصاتٍ وللناس القفا ولنا العجينا
وما ضربت هجائن من نزار فوالج من فحول الأعجمينا
وما حملوا الحَمِيرَ على عناق مطهمة فيلَفُوا مُنْغَلِينا
وما وُجِدَتْ بناتُ بني نزار حلالَ أشودين وأحمرينا
ولكني أظن أن صاحب الأغاني والمسعودي لم يُصيبا في قولهما كلَّ الإصابة وأنَّ غرض الكميت من هجائه أهل اليمن غير المبين في النصوص التي نقلتها . تذكروا ما شرحته لما تكلمت عن أحوال الشام بعد منتصف القرن الأول (ص ١٤٣) أعني أن اليمنيين أو المنتسبين إلى قحطان وردوا الشام أفواجا حتى كان عددهم هناك أوفر من عدد النزاريين فإن بني أمية اعتمدوا عليهم خصوصاً لتأييد ملكهم وإثبات أمرهم . فإذا تأملتم هذا فهمم أن هجاء الكميت اليمنيين كان في الحقيقة هجاء أشد المتعصبين للدولة الأموية وأوثقهم . وهذا غرض أهل الشيعة .

كان الكميت قبل مهاجته القحطانييْن قد نظم القصائد الهاشميات وهي من جيد شعره مدح فيها بني هاشم أي أهل البيت وأبدى فيها تعصبه

للمذهب الشيعة . ولكنه لم يكن من الغلاة وامتنع عن الحكم القاطع في
أبي بكر وعمر فقال^(١) :

أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَى بِشَيْئٍ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عُمَرَ
وَلَا أَقُولُ وَإِنْ لَمْ يُعْطِيَا فَدَكَاً بِنْتَ النَّبِيِّ وَلَا مِيرَاثَهُ كَفَرًا
اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا بِأَتْيَانِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ عُدَّ إِذَا عُدَّارًا
أَمَّا بَنُو أُمَيَّةَ فَشَتَّمُهُمْ فِي الْهَاشِمِيَّاتِ فَقَالَ مَثَلًا بَعْدَ ذِكْرِ فَضَائِلِ بَنِي
هَاشِمٍ^(٢) :

سَاسَةً لَا كَمَنْ يَرَى رِغِيَّةَ النَّاسِ سِوَاءَ وَرِغِيَّةِ الْأَنْعَامِ
لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَرَلِيدٍ أَوْ سَلِيمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهَشَامٍ
رَأْيُهُ فِيهِمْ كَرَأْيِ ذَوِي الثَّلَاثَةِ فِي النَّاتِجَاتِ جُنْحَ الظَّلَامِ
وَمَنْ أَغْرَبَ الْغَرَائِبَ أَنَّهُ مَدَحَ بَنِي أُمَيَّةَ فِي غَيْرِ الْقَصَائِدِ الْهَاشِمِيَّاتِ
فَمِنْ قَوْلِهِ^(٣) :

أَبْنَى أُمَيَّةَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ
ثَقَى لِكُلِّ مُلِمَّةٍ وَعَشِيرَتِي دُونَ الْعَشَائِرِ
أَنْتُمْ مَعَادُنُ لِلْخِلَاقِ فَكَابِرًا مِنْ بَعْدِ كَابِرِ
بِالتَّسْعَةِ الْمُتَتَابِعِينَ خِلَافًا وَبِخَيْرِ عَاشِرِ
وَالِى الْقِيَامَةِ لَا تَزَالُ لَشَافِعٍ مِنْكُمْ وَوَاتِرِ

(١) الهاشميات ص ٦٣ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٨ بيت ١ - ٣ من طبعة ليدن ١٩٠٤
أما فذلك فانظر ما قبل في حاشية ٣ من ص ٦٣ من طبعة مصر .

(٢) الهاشميات ص ٧ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ١ بيت ٣٥ - ٣٧ من طبعة ليدن .
عبد الملك بدلا من عبد الملك لضرورة الشعر وكلنا أيضا في بيت جواس بن الفضل الكلابي المروى
في حاشية أبي تمام ص ٦٥٨ من طبعة بن أوج ٤ ص ٣٣ من طبعة بولاق وحاشية البحري ص ١٢٢
من طبعة ليدن أو ص ٨١ عدد ٣٧٧ من طبعة بيروت وفي معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣ - ٤ من طبعة
ليبسك - ثلة جماعة النضال للكثير ونأج الغم ص ٤ .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١١٨ من طبعة بولاق .

فاستغرب ذلك بعضُ كتّبة العرب فقال ابن قتيبة في توطئته لكتاب الشعر والشعراء^(١) عند ذكر طمع بعض الشعراء : «وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب فإنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأى والهوى وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبين ولا أرى علّة ذلك إلّا قوّة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة . . ويروى في الأغاني^(٢) أنّه قد استأذن أبا جعفر محمد بن عليّ في مدح الأمرين فأذن له فيه . ومن الجدير بالذكر من هذا الباب شعر له مدح فيه النبيّ بما ليس في محله فقبل أنّه لم يرد النبيّ وإنّما أراد عليّاً فوزى عنه بذكر النبيّ خوفاً من بني أمية^(٣) .

ليست هذه المداهنة مختصة بالكميت بل توجد أيضاً في شعر غيره من شعراء الشيعة في ذلك العصر^(٤) . ورأى فيها أنّ أسبابها ثلاثة عيانت فيهم معاً : الطمع في الجوائز والخوف من أهل السلطان ورأى الشيعة في التقيّة^(٥) من المشهور أنّ أهل السنة قالوا بإباحة الحرام وتظاهر الكفر عند الخوف من القتل من السلطان كأنّها رخصة من عند الله للضعفاء أمّا الإمامية من فرق الشيعة فلهم كلام كثير في استعمال التقيّة أو الكتمان فاعتبروه واجباً ووضعوا للنبيّ الحديث : «مؤمن لا تقيّة له كمثّل جسد لا رأس له» ونسبوا إلى الإمام جعفر بن محمد القول : «نفّس المهموم لظلمنا

(١) كتاب الشعر ص ١٨ من طبعة ليدن .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١٢٦ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الممثلة لابن رقيق ج ٢ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ . الآيات مرجوعة في

المناشيات عند ٣ بيت ٣١ - ٣٦ من طبعة ليدن .

(٤) منهم كثير وأيمن بن عريم مثلاً (راجع كتاب الأغاني ص ٢١ - ١٢) .

(٥) (٥) راجع J. GOLDZIEHER, *Das Prinzip der "takijja" im Islam* (Zeitschrift der deutschen

morgenländische Gesellschaft, 60, 1906, P. 213-226)

تسبيح وهمه لنا عبادة وكنان سرّ جهاد في سبيل الله » فقال الإمام أبو عبد الله : يجب أن يكتب هذا الحديث بماء الذهب . فإذا لا غرور أن شعراء مذهبهم في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني لم يروا في مدح بني أمية بأساً وإن كانوا في قلوبهم يلعنونهم ويقولون بكفرهم . ويؤيد هذا الرأي ما قاله الكميت في إحدى الهاشميات ^(١) :

ولمّا على حُبِّهِمْ وتطلّعي إلى نصريهم أمّني الضراء وأخجلت
تجوّد لهم نفسي بما دون وثبة تظل بها الغربان حوّلي تحجل
ثم قال أيضاً ^(٢) :

ولمّا على أني أرى في نقبة أخالط أقباماً لقوم لميزل
ولمّا ذلك أيضاً يرجع ما يروى في كتاب الأغاني ^(٣) : « دخل الكميت ابن زيد الأسديّ على أبي جعفر محمّد بن عليّ عليهما السلام فقال له يا كميت أنت القاتل :

فالآن صرّحت إلى أميّة في الأمور إلى المصائر
قال نعم قد قلت ولا والله ما أردت به إلّا الدنيا ولقد عرفت فضلكم .
قال أمّا إن قلت ذلك إنّ النقبة لتجلّ » .

وقبل أن نختم كلامنا الوجيز على شعراء الشيعة لا بدّ لنا من ملاحظة .
قد أشرت غير مرّة إلى قلّة العواطف الدينيّة الخالصة في منظومات غير هؤلاء الشعراء وعلى مننوح المناسبة أوضحت أسباب ذلك مثل كلّ شعراء المدن الحجازيّة بلذات الدنيا وطبيعة أهل البادية القليلة الميل إلى أمور الدين

(١) الهاشميات ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٤ بيت ٨٦ - ٨٧ من طبعة لندن .

(٢) الهاشميات ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٤ بيت ١٠٥ من طبعة لندن .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة بولاق .

وهلم جرأ. إن شعراء بني أمية كانوا شعراء الدولة فمدحوا خلفاء وأمراء ورجالاً كان في أيديهم القوة المادية والسلطة والمُلْك فلا غرور إن غلبت فيهم الدنيا على الدين. أما شعراء الخوارج فأفسدت ووحشهم التعبير عن العواطف الرقيقة اللائقة بالقطرة الدينية الحقيقية فإن أبدوا مثلاً كراهة الدنيا فعلوه على ما قد أوضحته فيما سبق أعنى على صفة أقرب إلى الحماسة منها إلى التقوى والزهد. أما شعراء الشيعة لتعلقهم بحزب عزل عن كل سلطة مادية ولدحهم رجال ورع وتقى زعموا بقاء روح النبوة والرسالة فيهم مالوا طبعاً إلى الحلم فغلب فيهم الدين على الدنيا فأتوا في شعرهم بما لا يوجد عند غيرهم من شعراء عهد الأمويين حتى قيل عن قصيدة للسيد الحميري إنها لو قرئت على منبر ما كان فيها بأس^(١). فلا شك أن النوع من الشعر الديني الذي نما فيما بعد فاشتهر به البرعي يتصل من وجه بقصائد شعراء الشيعة من القرن الأول والثاني.

إذا أردتم الإفادة عن الترجمة وراجعتم ما قيل فيهم في النصائيف مثل كتاب اليل والنحل للشهرستاني وجدتمهم موصوفين فيها كأنهم من المذاهب الكلامية لا غير. قال الشهرستاني إنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والقصد... ويقولون لا تنصرف مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وقيل الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى القيامة فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار. وجميع ذلك صوابه بالنظر إلى المتأخرين منهم لا بالنظر إلى المقلعين الكائنين في عصر الدولة الأموية وأوائل العباسية. فإنهم في أول أمرهم لم يكونوا إلا من الأحزاب التي تكونت بسبب مسألة الإمامة والفتن التابعة لقتل عثمان بن عفان؛

فكانوا حزياً دينياً من جهة مَبْدَتِهِم النظرى وحزياً سياسياً من جهة النتائج العملية الصادرة عن ذلك المبدأ . قد مرَّ (ص ٢٣٢) تشبيه منزلتهم بين أصحاب الأمويين وأهل الشيعة بمنزلة المعتزلة بين العثمانيين والعلويين في أوائل خلافة عليّ ويلوح ذلك من بعض التعارض الواردة اتفاقياً في تاريخ الطبرى ومن أشعار شعرائهم فإنهم قالوا بوجوب الامتناع عن الحكم في عثمان وعليّ وأصحابهما ثم بجواز طاعة بنى أمية ومقاتلة من ثار على السلطان^(١) . قال محارب بن دثار الدهلي^(٢) (المتوفى سنة ١١٦) :

يَعِيبُ عَلَى أَقْوَامٍ سَفَاهًا بَأْنَ أَرْجُو أَبَا حَسَنٍ عَلِيًّا
وإِرجائي أبا حسنٍ صوابٌ عن العُمَريِّينِ بَرًّا أو شَقِيًّا
فإن قَدَمْتُ قوماً قال قوم أسأتَ وكنتَ كَذاباً رديًّا
إذا أيقنتُ أَنَّ اللهَ رَبِّي وأرسلَ أحمدًا حقًّا نبيًّا
وَأَنَّ الرُّسُلَ قد بُعِثُوا بِحقٍّ وَأَنَّ اللهَ كانَ لَهُمُ وليًّا
فليس على في الإرجاء بأسٌ ولا لبسٌ وليست أخاف شيئاً

فتأملوا أهمية هذا التوقف وكم كان له من التأثير في العمل والسياسة فإنه حمل أصحابه على التسليم بالمقضى والاعتراف بخلافة الأمويين فغاظ.

(١) راجع G. VAN VLOTEN, *Irjd* (Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft, 45, 1891, P. 161-171.

(٢) انظر كتاب الأغاني ج ٧ ص ١١ من طبعة بولاق - وفي البيت الأول أرجو (كلدا ١) والصحيح أرجى [كما في طبعة دار الكتب المصرية ج ٧ ص ٢٤٨] - أما البيت الثاني فتركبه هو: « وإِرجائي أبا حسنٍ بَرًّا وشَقِيًّا عن العُمَريِّينِ صوابٌ » راجع van Vloten في مقالته المذكورة آنفاً ص ١٦٥ حاشية ٢ .

هذا الإرجاء أهل الشيعة أي غيظ. فقال فيه السيد الحميري^(١) :

خليلٌ لا تُرجى وأعلما بأن الهدى غير ما تزعمان
وأن عَمَى الشك بعد اليقين وضُغفَ البصيرة بعد البيان
ضلالٌ فلا تلججاً فيهما فبئست لعمركما الخصلتان
أُبرجى على إمام الهدى وعثمان ما أغند المرجيان
ويُرجى ابنُ حَرْبٍ وأشياؤه وهوجُ الخوارج بالنهران
يكون إمامهم في المعاد خبيثُ الهوى مؤمنُ الشيصبان

ومن شعراء المرجئة غير محارب بن دثار السابق ذكره ثابت قُطنة^(٢) أحد
الفرسان الشجعان في ثغور خراسان بل والى على حمل من أعمالها غزا عدة
غزوات في بلاد تركستان في أيام قُتيبة بن مسلم فكان كثير من شعره مما
سميئناه الصنف الخامس أي دائراً على الحماسة والمغازي ومما قال سنة ٦٥^(٣) :

فَدَتْ نَفْسِي فَوَارِسَ مِنْ تَيْمٍ على ما كان مِنْ ضَنْكِ الْمَقَامِ
يَقْصُرُ الْبَاهِلُ وَقَدْ أَرَانِي أَحْيَى حِينَ قُلْتُ بِهِ الْمُحَامِي
بَسْبَقِي بَعْدَ كَثْرِ الرُّمَحِ فِيهِمْ أَذُودُهُمْ بَنَى شَطْبِ حُسَامِ
أَكْرُ عَلَيْهِمُ الْيَحْمُومَ كَرًّا كَكَرُّ الشَّرْبِ آيِيَةِ الْمُدَامِ
فَلَوْلَا اللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ وَضَرْبِي قَوْنَسَ الْمَلِكِ الْهُمَامِ
إِذَا فَازَتْ نِسَاءُ بَنِي دِثَارٍ إِمَامَ التُّرْكِ بَادِيَةِ الْخِدَامِ

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٦ من طبعة بولاق . أربعا وأربعى آخر - لج الحمادي في المصنوعة
- عند فلانا عارضه بالوفاق - ابن حرب هو معاوية - أخرج طبري و به تسرع وحق و طيش -
النهران مركز من مراكز الخوارج .

(٢) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٤٩ - ٦٤ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٠٠
- ٤٠١ من طبعة لندن ونزاة الأدب ج ٤ ص ١٨٥ - ١٨٦ فليظن أيضاً وفهرست تاريخ الطبري .

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٩٤ من طبعة لندن وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٣٠ - ١٣١
من طبعة لندن في سنة ٦٥ (وفيه اسم الشاعر ثابت بن قطنة بدلا من ثابت بن قطنة) .

ولما تولّى سليمان بن عبد الملك أمور الخلافة (٩٦ - ٩٩) وفضل قحطان على مضر لأغراض سياسته فثار عليه قتيبة بن مسلم وإلى خراسان لتعصبيه لعدنان كف ثابت قطنة عن الثورة بل تألف الوالي الجديد يزيد ابن المهلب بن أبي صفرة ولم ينحرف عن شخصيته على صروف الزمان . فلما تقلبت أحوال القحطانيّين في أيام يزيد بن عبد الملك (١٠٠ - ١٠٣) ورجعت الشوكة إلى مضر أخذ ثابت يحرض ابن المهلب على المقاومة والقتال^(١) واتّبعه لما توجه إلى العراق راغباً في خلع يزيد بن عبد الملك طالباً الخلافة لنفسه وكان معه في يوم العقر في صفر سنة ١٠٢ حين خذل أهل العراق يزيد بن المهلب وفروا عنه فقتل . فقال ثابت قطنة يرثيه^(٢) :

كلّ القبائل بايعوك على الذي تدعو إليه . وتابعوك وساروا
حتى إذا حمى الوغى وجعلتهم نصب الأسمنة أسلموك وطاروا
إن يقتلوك فإنّ قتلك لم يكن عاراً عليك ورُبّ قتلٍ عار

وتعاطى أيضاً الهجاء فوصلت إلينا قطع منه . أما الذي حملني على ذكر ثابت قطنة هنا فهو شعره مشهور فصل فيه آراء المرجئة في زمانه أي في النصف الثاني من القرن الأول وهو شعر مهم جداً لموضوعه ولكونه من أقدم الأشعار قبلت في وصف اعتقادات دينية بعد ظهور الإسلام . ومن أبياته^(٣) :

يا هندُ فاستمعي لي إن سیرتنا أن نعبّد الله لم نُشرك به أحد

(١) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٤ - ٥٥ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٥ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٠١ من طبعة ليدن وخراتة الأدب ج ٤ ص ١٨٤ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ٤٥٥ من طبعة باريس في الباب التاسع والتسعين (بغير اسم الشاعر) .

(٣) كتاب خراتة الأدب ج ٤ ص ١٨٦ - ١٨٧ من طبعة بولاق وكتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٢ ورواية خراتة الأدب أحسن من رواية الأغاني .

نُرجى الأمور إذا كانت مشبهة
المسلمون على الإسلام كلهم
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً
لا نسفك الدم إلا إن يراد بنا
من يتق الله في الدنيا فإن له
وما قضى الله من أمر فليس له
كل الخوارج مخطئ في مقاله
أما علي وعثمان فإنهما
وكان بينهما شغب وقد شهدا
يُجزى علي وعثمان بسعيهما
الله يعلم ماذا يحضران به
ونصدق القول فيمن جار أو عندا
والمشركون أشد دينهم قددا
من الناس شركاً إذا ما وحدا الصمدا
سفك الدماء طريقاً واحداً جَددا
أجر التقى إذا وفى الحساب غدا
رد وما يقض من شيء يكن رَشدا
ولو تعبد فم قال واجتهدا
عبدان لم يشركا بالله مَدَّ عبداً
شق العصا وبعين الله ما شهدا
ولست أدري بحق آية وردا
وكل عبد سيقى الله منفردا

تأملوا هذه الأبيات يتضح أن جميع المسائل المدلول عليها فيها إنما هي
من نتائج الاختلافات في من تكون الإمامة من حقّه . ففي البيت الثاني يرّد
ثابت قطنة على أهل الشيعة القائلين بظلم الخلفاء الأمويين ووجوب عصيانهم
لجورهم . ثم في البيتين التاليين يُجيب الخوارج وأهل الشيعة معاً القائلين
بكفر من لا يذهب مذهبهم من المسلمين ويرّد عليهم جميعاً أيضاً بقوله
« لا نسفك الدم إلخ » لأن الخوارج قالوا بوجوب جهاد سائر المسلمين بل
ذهب قوم منهم إلى استحسان الاستعراض المومأ إليه سابقاً (ص ٢٣٨)
أما أهل الشيعة فكفروا من سفك دماء المؤمنين وأردوا بذلك تكفير الخلفاء
والأمراء من بني أمية . ثم أظهر ثابت قطنة في باقي أبياته الإنصاف فيما بين
علي وعثمان فجعلهما متساويي القدر وكف عن الحكم فيما جرى بينهما من
الخلاف مقتدياً بالآية المشار إليها عند آخر الشعر وهي على المرجح :

«وَأَخْرُوجُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»^(١). فترون أن جميع ذلك متعلق ضرورياً بمسألة الخلافة والحكومة شديد التأثير في السياسة والعمل . ولكن لما رُسخت الدولة العباسية وثبتت شوكتها في جميع بلاد الشرق فزالت فعلاً الاختلافات في الإمامة عند رجال السياسة والسلطان - تقلب حال المرجئة كما تقلب حال كثير من سائر المذاهب أو الأحزاب الإسلامية القديمة أعني أن آرائهم الدينية السياسية التي أصلها مسألة الإمامة لا غير تحولت إلى آراء كلامية عامة متجردة عن علاقة ضرورية بمسائل الخلافة فعدلوا مثلاً عن القول بإرجاء عثمان وعلى وبنى أمية وقالوا بتأخير حكم من ارتكب الكبيرة إلى يوم القيامة . فدورهم هذا الجديد هو الموصوف في التأليف المشهورة في الملل والنحل .

قل الشعراء المساعدون للزبيريين على ادعائهم بالخلافة أو بالحرى قل ذكرهم في الكتب التي وصلت إلينا فإن الذين مدحوا مُصَنَّبَ بن الزبير أرادوا الثناء على شجاعته وجوده كما يلوح من أشعار عُبَيْدِ اللَّهِ بن قيس الرقيّات^(٢) أحد شعراء قريش المقدمين المشتهر بالغزل أيضاً وهو صاحب مُصَنَّباً وخرج معه على عبد الملك بن مروان ولم يفارقه إلى أن قُتل مصعب سنة ٧٢/٦٩١ وبعد مدة استشفع بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى عبد الملك فعفا عنه فقال ابن قيس الرقيّات البيتين الشهيرين^(٣) :

(١) القرآن سورة ٩ (التوبة) : ١٠٦ .

(٢) أما اسمه فانظر ما قال N. Rhodakanakis في ص ٤ - ٧ من مقدمته للديوان المطبوع بجنات في وينا سنة ١٩٠٣ - والشاعر المذكور في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٤٣ - ٣٤٥ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٤ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٤ ص ١٦٠ من طبعة بولاق والكامل في اللغة للمبرد ص ٣٩٨ من طبعة ليبسك وعزارة الأدب ج ٣ ص ٢٦٩ والديوان عدد ١

ما نَقَمُوا من بنى أُمِيَّةٍ إِلا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِن غَضِبُوا
وَأَنَّهِنَّ سَادَةُ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ

قد كثر ولا غرو في ذلك الشعراء المادحون لبنى أُمِيَّةٍ : منهم بل أشهرهم
الأخطل السابق ذكره (ص ١٥١) . لكني لا أريد هنا إلا الذين تعصبوا
للأُمويين في مسألة الإمامة ودافعوا عن حقوقهم وأدعائهم وجادلوا الخصوم
في أشعارهم مثل ما فعل كعب بن جَعْفَل الذي قرأت أبيانه في الحروب بين
أصحاب معاوية وشيعة عليّ (ص ٢٣٠) .

فمن هؤلاء الشعراء أَعْنَى بن ربيعة وهو عبد الله بن خارجة من سكان
الكوفة « كان مرواني المذهب شديد التعصب لبنى أُمِيَّة »^(١) . فقال ردّاً على
آراء الخوارج والشيعة^(٢) :

وما أنا في أمرى ولا في خصومتى بمهتضمٍ حَقِي ولا قارعٍ سَنِي
ولا مُسَلِّمٍ مولايَ عند جنابة ولا خائفٍ مولايَ من شرٍّ ما أجنى
وإنَّ فزاداً بين جنبيَّ عالمٌ بها أبصرتُ هينى وما سمعتُ أذنى
وفضلى في الشعر واللُبُّ أننى أقول على حلمٍ وأعرف من أعنى
فأصبحت إذ فضلتُ مروانَ وابنةً على الناس قد فضلتُ خيرَ أب وابن

وحثَّ عبد الملك على مقاتلة الزُّبَيْرِيِّين المدَّعين بالخلافة في الحجاز وقال^(٣) :
آلُ الزُّبَيْرِ من الخلافة كالتى عَجَلَ النَّتَاجُ بِحَمَلِهَا فَتَحَالَهَا
أو كالضَّعَاف من الحمولة حُمِلَتْ ما لا تُطِيقُ فَضَيْعَتْ أَجْمَالُهَا

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٦٠ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٦١ [ديوانه عدد ١٧ من طبعة لندن ١٩٢٨] في ذيل
ديوان أَعْنَى ميمون] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٦١ [ديوانه عدد ١٤] الحمولة هي الإبل التي تحمل -
التمال هو النيات التي يقوم بأمر قومه .

فوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلنمو إمامها
إن الخلافة فيكمو لا فيهم ما زلنمو أركانها وثمانها
أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً فانهض بيمنك فاقتتح أقفالها

ومن هؤلاء الشعراء عبد الله بن الزبير^(١) الأسدي قال فيه صاحب الأغاني
ما نصه^(٢) : وشاعر كوفي المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأموية وكان من
شيعة بني أمية وذوي الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم. فلما غلب
مُصعب بن الزبير على الكوفة أتى به أسيراً فعن عليه ووصله وأحسن إليه
فمدحه وانقطع إليه فلم يزل معه حتى قُتل مصعب ثم حمى عبد الله بن
الزبير بعد ذلك ومات في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) ...
وهو أحد الهجائيين للناس . فإذا طالعتم أشعاره المروية في كتاب الأغاني
عرفتم قدر إطرانه للأمويين .

ومنهم أيضاً السائب بن فروخ المعروف بابي العباس الأعمى^(٣) مولى
بني الدَّيْل سكن مكة وقال الشعر في النصف الثاني من القرن الأول فقل
إنه كان من شعراء بني أمية المعدودين المقدمين في مدحهم والتشجيع لهم
وانصباب الهوى إليهم^(٤) فنظم أشعاراً كثيرة في مدائحهم وهجاء آل
الزبير فكانت الأمويون يبعثون إليه الجوائز من الشام . ومديحه جرى مجرى
مدح عرب الجاهلية لسادتهم فلولا ذكر المنابر في شعر أبي العباس لما وجدنا

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٢٣ - ٤٩ من طبعة بولاق وخرقة الأدب
ج ١ ص ٢٤٥ و ج ٢ ص ١٠٠ إلخ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٢٣ من طبعة بولاق .

(٣) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٥٩ - ٦٤ من طبعة بولاق ولم يذكره ابن
تتية (ولعله هو المشار إليه عرضاً في ص ٢٦٦ سطر ١٤) ولا صاحب خزانة الأدب [ولا ابن سلام
ولا الأعمى] ولكن يدل اسم أبيه وكونه مولى على أنه فارسي الأصل .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٥٩ من طبعة بولاق .

بينه وبين أشعار القدماء فرقاً . ومن قوله في بني أمية^(١) (من بحر الخفيف) :

خُطْبَاءٌ عَلَى الْمَنَابِرِ قُرْمًا نُ عَلَيْهَا وَقَالَةُ غَيْرُ خُرْمٍ
لَا يُعَابُونَ صَامَتِينَ وَإِنْ قَا لَوْ أَصَابُوا وَلَمْ يَقُولُوا بَلْبِسَ
بِحُلُومٍ إِذَا الْحُلُومُ تَقَضَّتْ وَوَجْهُهُ مِثْلُ الدَّنَانِيرِ مُلْسِ

ومن شعراء الأحزاب يزيد بن ربيعة بن مفرغ الجنبري المعروف بابن مفرغ^(٢) المتوفى سنة ٦٩ في بلاد كرمان . كان حليف قريش وصاحب عباد بن زياد بن أبي سفيان حين ولّاه معاوية بلاد سجستان ولم يَحْمَدْهُ ثم لما وقع بينهما أخذ بهجوه ويهجو معه عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان وإلى العراق (المتوفى سنة ٦٦) وخبرهما من آل زياد ومعاوية فانتشرت أهاجيه حتى كانت أهل البصرة تغني بها فطلبه عبيد الله بن زياد وحبسه مدة إلى أن غضبت أهل اليمن بالشام وطلبوا من الخليفة الأمر بتخليه سبيله ففعل . وكان ابن مفرغ من شعراء الفزل أيضاً فأشعاره في أناهيد بنت أحد دهاقين الفرس مشهورة . وسيأتي الكلام عليه ثانية عند ذكر الشعر القصصي اليمني .

لما شرعت في الكلام عن الشعر من هذا الصنف السادس قلت إنه مرآة أحوال الأحزاب السياسية الدينية وترجمان أهواء الناس وآرائهم في مسائل الدنيا والدين فما تقدم برهان على ذلك قاطع . فأشرت إلى أشعار العثمانية والخوارج والشيعة والمرجئة والزبيريين وأصحاب الأمويين، فلا بد لنا الآن من

(١) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٩٠ .

(٢) ذكر في كتاب الأغاني ج ١٧ ص ٥١ - ٧٣ ونخزاة الأدب ج ٢ ص ٢١١ - ٢١٦ من طبعة بلاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٠٩ - ٢١٣ من طبعة ليدن ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٨٢١ من طبعة غوتنبرج أو ٧٩٢ من الطبقات المصرية ومروج الذهب للمسعودي في أبواب السادس والثمانين ج ٥ ص ٢٦ من طبعة باريس [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٣ - ١٤٤ من طبعة ليدن] .

لَمَّحَةٌ فِي الشَّعْرِ الْمَعْبُورِ عَنْ أَسْبَابِ انْحِطَاطِ قُوَّةِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ غَيْرِ الْفِتَنِ
وَالْاِخْتِلَافَاتِ فِي مَسْأَلَةِ الْإِمَامَةِ .

أَفْضَتْ الْخِلَافَةُ سَنَةَ ١٢٥/٧٤٣ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ فَهُوَ لَمْ يَزَلْ مُذَمِّناً عَلَى الصِّبَدِ
وَاللَّهُوِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ مُحْتَجِجاً عَنِ النَّاسِ مِنْهُمْ كَأَنَّ الْمَلَذَّاتِ فَمَلَّ النَّاسُ أَيَّامَهُ
وَكَرِهُوا فَرَأَى بَعْضُ أَهْلِ بَيْتِهِ خَلَعَهُ سِوَاهُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ بَغْضٍ سِوَهُ
سِيرَتِهِ أُمُّ الطَّمَعِ وَحُبِّ الْأَحْدَاثِ . فَوَقَعَتِ الْفِتْنُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ
ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمُسَمَّى بِفَارِسِ بْنِ مَرْوَانَ لَشَهَامَتِهِ : « يَا بَنِي مَرْوَانَ أَظُنُّ
أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ فِي هَلَاكِكُمْ » ثُمَّ أَخَذَ يُنْذِرُهُمْ فَقَالَ (١) :

إِنِّي أَهَيْدُكُمْ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنٍ مِثْلَ الْجِبَالِ تَسَامَى ثُمَّ تَنْدَفِعُ
إِنَّ الْبَرِيَّةَ قَدْ مَلَّتْ سِيَاسَتَكُمْ فَاسْتَمْسِكُوا بِعَمُودِ الدِّينِ وَارْتَدِّعُوا
لَا تُلْحِمَنَّ ذُنُوبَ النَّاسِ أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الذَّنَابَ إِذَا مَا أُلْحِمَتْ رَتَعُوا
لَا تُبْقِرُنَّ بِأَيْدِيكُمْ بَطُونَكُمْ فَشَمُّ لَا حَسْرَةَ تُفْنِي وَلَا جَزَعُ
وَمِنْ أَهَمِّ الْمَصَادِرِ وَأَوْثَقِهَا لِمَعْرِفَةِ حَالِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ بِخُرَاسَانَ فِي أَوَاخِرِ
الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ أَشْعَارُ أَمِيرٍ لَا تَأْتِي الْكُتُبُ فِي طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ بِتَرْجُمَتِهِ وَإِنْ
كَانَ مَا نَظَّمَهُ فِي فِتْنِ زَمَانِهِ أَتَمَّ وَصْفٍ وَأَوْضَحَ تَبْيَانٍ لِمَا وَقَعَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ مِنْ
الشَّرِّ بَيْنَ الْيَمَنِيِّينَ وَالنَّزَارِيِّينَ وَلَعَلَّ نَمُوَّ الدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَازْدِيَادَ قُوَّةِ الْمَوَالِي
وَزَوَالَ أَمْرِ الْعَرَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا عَمِلَ فِي انْتِقَالِ الْخِلَافَةِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِلَى
بَنِي الْعَبَّاسِ . أَعْنَى نَصْرَ بْنِ سَيَّارٍ أَمِيرِ خُرَاسَانَ الْمَتَوَفَّى فِي رَجَبِ الْأَوَّلِ مِنْ
سَنَةِ ١٢١/٧٤٨ . فَلَوْلَا أَشْعَارُهُ مَا تَوَصَّلْنَا إِلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالتَّقْلِبَاتِ
السِّيَاسِيَّةِ وَتَغْيِيرِ بَعْضِ الْمَذَاهِبِ الدِّينِيَّةِ فِي الثَّلَاثِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّانِي

(١) كِتَابُ الْأَمَانِي - ٦ ص ١٣٧ مِنْ طَبْعَةِ بُلَاقٍ وَتَارِيخُ الطَّبَرِيِّ ج ٢ ص ١٧٨٨ مِنْ
طَبْعَةِ لَهْدَن .

منها مثلاً ما مالت إليه المرجئة في بلاد العجم الشمالية بعد ما انضمت إلى مذهبهم جملة من الفرس . قد مرَّ (ص ٢٤٥ - ٢٥٢) أنَّ الإرجاء عند العرب في القرن الأول كان التوقف عن الحكم بين شيعة علي وشيعة بني أمية وأنه كان للثانية أجلى منه للأولى إذ أدَّى أصحابه إلى استقباح قيام الشيعة على دولة بني أمية . أمَّا بخراسان في أوائل القرن الثاني فانعكس الأمر إذ ذهبت إلى رأى المرجئة جملة من العجم الكارهيين سُلطة العرب عليهم الشاكين جُور الأمويين وأمرائهم الراجين الصلاح من تغيير الإمارة فعدل الإرجاء عما كان عند العرب قبلاً وأصبح توقُّفاً عن التعصُّب لبني أمية بل كرهاً لمساعدتهم على مقاتلة أصحاب الدعوة العباسية التي مالت إليها المرجئة شيئاً فشيئاً . وذلك يلوح من شعر قاله نصر بن سيار سنة ١١٧ حين أقبل الحارث بن سريج المرجئي إلى مرو ومن أبياته (١) :

وَالْعَابِسِينَ عَلَيْنَا دِينَنَا وَهُمْ شَرُّ الْعِبَادِ إِذَا خَابَرْتَهُمْ دِينَا
وَالْقَائِلِينَ سَبِيلُ اللَّهِ بُغْيُنَا لُبْعَدَ مَا نَكَبُوا عَمَّا يَقُولُونَا
فَأَقْتُلَهُمْ غَضَبًا اللَّهُ مُنْتَصِرًا مِنْهُمْ بِهِ وَدَعِ الْمُرْتَابَ مَقْتُونَا
إِرْجَاؤُكُمْ لَزَّكُمْ وَالشُّرْكُ فِي قَرْنٍ فَأَنْتُمْ أَهْلُ إِشْرَاكِ وَمُرْجُونَا
لَا يُبْعِدُ اللَّهُ فِي الْأَجْدَاثِ خَيْرَكُمْ إِذْ كَانَ دِينُكُمْ بِالشُّرْكِ مَقْرُونَا
فِيُشَبِّهُ هَذَا الْكَلَامَ مَا كَانَتْ الشَّيْعَةُ يَقُولُونَهُ فِي مَرْجِئَةِ الْعِرَاقِ الْمُشْتَعِينَ عَنْ
مَعْصِيَةِ مَعَاوِيَةَ وَخِلَافِهِ . - ومن الشهير من شعر نصر بن سيار في ذكر أحوال

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٥٧٦ في سنة ١١٧ . ويذكر ابن حزم على ما هو الإرجاء الفارسي في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ١٨٨ من طبعة مصر ١٢١٧ - ١٢٢١ وهذا نصه : « اعترف الناس في ماحية الإيمان فذهب قوم إلى أن الإيمان إنما هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط وإن أظهر اليهودية والنصرانية وسائر أنواع الكفر بلسانه وعبادته فإذا عرف الله تعالى بقلبه فهو مسلم من أهل الجنة وهذا قول أبي حمزة الجهم بن صفوان وأبي الحسن الأشعري البصري وأصحابهما » .

خراسان وإهمال الخلفاء الأمويين الآخرين الذين كانوا من أشدّ العوامل في انقراض دولتهم^(١) :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِضَ جَعْدِهِ وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ
فَإِنَّ النَّارَ بِالْعَوْدَيْنِ تُدَكِّي وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا الْكَلَامُ
وَلَمْ تَطْفِئْهَا تَجَنِّ حَرْبًا مُشْمَرَةٌ يَحْشِبُ لَهَا الْغَلَامُ
أَقُولُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شَعْرَى أَأَيْقَظُ أُمِّيَّةً أَمْ نِيَامُ
فَإِنَّ يَكُ قَوْمُنَا أَضْحَوْا نِيَامًا فَقُلْ قَوْمُوا فَقَدْ حَانَ الْقِيَامُ
فَقِرِّي عَنْ رِحَالِكِ ثُمَّ قُولِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ السَّلَامُ
وقال يخاطب مُقَرَّرَ الْيَمَنِ وَيَحْذَرُهُمُ الْعَدُوَّ الدَّاخِلَ عَلَيْهِمْ^(٢) :

أَبْلِغْ رَبِيعَةَ فِي مَرَوٍ وَإِخْوَتَهَا أَنْ يَغْضَبُوا قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعُ الْغَضَبُ
وَلْيَنْصَبُوا الْحَرْبَ إِنْ الْقَوْمَ قَدْ نَصَبُوا حَرْبًا يُحَرِّقُ فِي حَافَاتِهَا الْحَطَابُ
مَا بِأَلْسِنَتِكُمْ تُلْفِحُونَ الْحَرْبَ بَيْنَكُمْ كَأَنَّ أَهْلَ الْحِجَابِ عَنْ فِعْلِكُمْ خَبِيبُ
وَتَتَرَكُونَ عَدُوًّا قَدْ أَظْلَمَكُمْ مِمَّنْ تَأْتِبُ لَا دِينَ وَلَا حَسَبُ
لَيْسُوا إِلَى عَرَبٍ مِنَّا فَتَعْرِفَهُمْ وَلَا صَحِيبَ الْمَوَالِي إِنْ هُمْ نُزِمُوا
قَوْمًا يَدِينُونَ دِينًا مَا سَمِعْتُ بِهِ عَنِ الرَّسُولِ وَلَا جَاءَتْ بِهِ الْكُتُبُ
فَمَنْ يَكُنْ سَائِلِي عَنْ أَصْلِ دِينِهِمْ فَإِنَّ دِينَهُمْ أَنْ تُقْتَلَ الْعَرَبُ
وقبل أن نختم هذه النبذة في الصنف السادس من الشعر في أيام بني
أُمِّيَّة علينا أن نذكر شعراء من العجم نسجوا القريض بلغة العرب . - لما
جري الكلام على الشعر في مدن الحجاز أوضحت أنه بعد الفتح وقبل

(١) مروج الذهب للمسعودي في الباب السادس بعد المائة ج ٦ ص ٦٢ . من طبعة باريس
وكتاب المقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٧٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ وكتاب الأخبار الطوال
لأبي حنيفة الدينوري ص ٢٥٦ من طبعة ليدن .
(٢) كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ٣٦١ من طبعة ليدن والمقد الفريد
لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٧٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ (لا يوجد فيه البيت الخامس) .

أواسط القرن الأول جلبت إلى بلاد الحرمين الجوارى المغنيات بالفارسية والروى وشرحت ما كان لذلك من التأثير في اعتناء شعراء المدن الحجازية بالغزل دون سائر أفتان الشعر . وفي ذلك العصر كثر أيضاً بمكة والمدينة عدد الممالك من سبي القوس فصار أولادهم موالى أهل الجحاز وتدرّبوا بلغة أصحابهم حتى إن بعضهم نحر أواسط القرن الأول أخذ ينظم الشعر بالعربية . وهذا الأمر مهم جداً لأن الشعر تعبير عن عواطف الأمة وأهواها وأمالها وأخلاقيها وعوائدها فإذا شاركها في الشعر بلغت أمة أخرى فلا بد من وقوع تقلب واضح في مضمون ذلك الشعر وإن لم تتغير اللغة والأعراف التي صيغ فيها . فبسبب الموالى بعد منتصف القرن الأول أخذ شعر العرب يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى شعر أمة إسلامية شتى بلغة عربية .

ومن الموالى الذين أصلهم من آذربيجان ومنشئهم وسكنهم بمكة أو المدينة أبو العباس الأعمى السابق ذكره ومنهم أيضاً موسى شهوات^(١) الذي قال الشعر في المديح والهجاء والتشبيب بالمدينة في أيام سليمان بن عبد الملك (٩٦٠ - ٩٦٩) أو قبله وأدرك خلافة هشام بن عبد الملك (٩٦٩ - ٩٧٤) ومنهم محمد بن يسار الذي قلّ ما وصل إلينا من أخباره . ومنهم زياد بن سلمى الأعجمي^(٢) مولى عبد القيس قال بعض الرواة إنه كان ينزل إصطخر .

(١) « شهوات » على الصفة وعلى الإضافة وهو أصح - والشاعر المذكور في كتاب الأغاني ج ٢ ص ١١٨ - ١٢٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٦ - ٣٦٧ من طبعة لندن ونخاعة الأدب ج ١ ص ١٤٤ من طبعة بولاق - وقيل في الأغاني ج ٣ ص ١١٨ إنه موسى بن يسار وفي نخاعة الأدب ج ١ ص ١٢١ من إخوة إسماعيل بن يسار ولكن هذا تصحيف - فإني وصف صاحب كتاب الأغاني (ج ٤ ص ١٢١) من إخوة إسماعيل بن يسار إلا محمداً وإبراهيم بصناعة الشعر فلم يذكر اسم أبيه في كتاب الشعر لابن قتيبة . [وفي معجم الشعراء لمرزباني ص ٣٧٦ من طبعة مصر ١٣٥١ : قيل إنه موسى بن يسار] .

(٢) ذكر في كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ - ١٠٩ ونخاعة الأدب ج ٤ ص ١٩٣ - ١٩٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ج ٢٥٧ - ٢٥٩ من طبعة لندن ووفيات الأعيان لابن

وقال البعض إن أصله ومولده ومنشأه بأصبهان ثم انتقل إلى خراسان فلم يزل بها حتى مات وكان شاعراً جزل الشعر فصيح الألفاظ. على لُكنة لسانه وجريه على لفظ. أهل بلده^(١). وله قصيدة طويلة عُدَّت من غرر المراثي قالها لما مات المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة سنة ٨٣ منها^(٢) :

قُلْ للقوافل والغزاة إذا غزوا والباكرين وللمجدِّ الراتح
إنَّ السَّاحَةَ . والمروعة ضُمَّنَا قَبْرًا بِمَرَوْ عَلَى الطَّرِيقِ . الواضِح
فلَمَّا مَرَرْتْ بِقَبْرِهِ فَأَعْقِرِي بِهِ كَوْمَ الْهَيْجَانِ وَكُلَّ طَرْفٍ سَابِح
وَأَنْصِيحْ جَوَانِبَ قَبْرِهِ بِلِمَاتِهَا فَلَقَدْ يَكُونُ أَخَا دَمٍ وَذُبَابِ

ومن الغريب ما له من الهجاء الكثير الجارى مجرى هجاء الأعراب^(٣) كأنه منهم فمن أطلع عليه بدون أن يعرف اسم قائله لما ظنَّ أنه شعر مولى فارسي . وأدرك زياد خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٠ - ١٢٥) .

ولكن خَرَضَى هنا إنما هو الكلام على بعض الموالى يدخل قسم من شعرهم

= عُلُكَاثَنُ في ترجمة المهلب بن أبي صفرة عدد ٧٦٣ من طبعة غوتنبيرج أو عدد ٧٢٣ من الطبقات المصرية وسامسة أهد تمام ص ٦٧٨ و ٧٨٠ من طبعة بون أو ج ٤ ص ٥٢ و ١٤٨ من طبعة بولاق [وكتاب المؤلف للأندلس ص ١٣١ - ١٣٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] واسم أبيه هو سليمان في كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ وفي وفيات الأعيان لابن خلكان [وفي كتاب المؤلف للأندلس] .

(١) كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ .

(٢) في كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ : و المهلب بن المغيرة « وهو قلط . تروى القصيدة (٥٠ بيتاً) في ذيل أمالي القائل ص ١٠ - ١٢ من طبعة بولاق ١٣٢٤ (أو ص ٨ - ١٢ من طبعة ١٣٤٤) واستخرج ابن خلكان منه ٢٧ بيتاً (انظر الموضع المذكور من وفيات الأعيان) وبعض الأبيات مروية في كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٥٨ من طبعة لندن وكتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٢ (فراجع F. KRENKOW, *The elegy upon al-Mughīrah ibn al-Muhallab* (Islamica, II, 1926, P. 344-354) .

مرو هو مرو الشاهجان - أما البيت الثاني فهو الشاهد في تذكير المؤلف .

(٣) راجع في كتاب الأغاني ج ١١ ص ١٦٥ - ١٦٧ و ١٧١ و ١٧٢ . ا قاله هجو بن بشكر وفي ج ١٣ ص ٥٨ - ٥٩ ما قاله هجو كعباً الأشقرى .

في هذا النوع السادس . إنَّ الناس أحبُّوا في كلِّ وقتٍ تخليدَ ذكرِ مآثرِ آبائهم والافتخارَ بها فنعم هذا الافتخار إن لم يُفسدْهُ التعصُّبُ المفرطُ المنكَّرُ لأنَّه إذا لم يعدل عن سبيل الإنصاف أصبح حثاً نافعاً على احتذاء مثال الأفاضل وتخريصاً شليداً على طلب المعالي وصونٍ ما يجب على كلِّ أمةٍ لإيراثه الخلف من مجد السلف وعلو شأنهم في الاجتماع البشري . ولا أحتاج إلى وصف قدر اهتمام الغرب بإبقاء ذكر أفعالهم ومفاخرهم التي ملؤوا من تذكارها دواوين أشعارهم . فلما خرجوا عن جزيرتهم وفتحوا البلاد أهانوا الأمم التي تغلبوا عليها كأنها أدنى منهم بكثير شرفاً ومجداً . أما هذه الأمم المتقدمة في سبيل التقدم من زمان عتيق فأخذت تفتخر بملوكها القدماء وما لهم من الآثار المعجبة فإلى ذلك أشار جرير بقوله (١) :

إذا افتخروا عدواً الصَّهْبَهْدَ منهم وكِشْرَى وآلَ الهَرْمُزَانَ وقَبَصَرَا
تري منهم مستبصرين على الهدى وذا التاج يُضحي مَرْزُبَاناً مسوراً
أغرَّ شبيباً بالفنيق إذا ارتدى على القبطريِّ الفارسيِّ المزوراً
وكان كتابٌ فيهم ونبوَّة وكانوا بإصطخَرِ الملوكِ وتُسْتَرَا
لقد جاهد الوضاحُ بالحقِّ مُلاحاً فأورث مجداً باقياً أهلَ بَرَبَرَا

فنشأ نوع من الشعر في مدح العجم وتفضيلهم على العرب وهو داخل في هذا الصنف السادس المفرد لشعر الأحزاب السياسية والأختلافات الدينية . ولعلَّ أوَّلَ القُرُص الذي نظم الشعر بلغة العرب وسلك فيه المسلك المذكور عليه المسمَّى عند كُتَّبة القرن الثالث والرابع بالشعريَّة هو إسماعيل بن يسار

(١) ديوان جرير ج ١ ص ١٠٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [لو ص ٢٤٢ - ٢٤٣ من

طبعة مصر ١٣٥٤] .

النسائي الذي روى صاحب كتاب الأغاني^(١) بعض أخباره فقال إنه «مولى
 بنى تميم بن مرة تميم قريش وكان منقطعاً إلى آل الزبير فلما أفضت الخلافة إلى
 عبد الملك بن مروان وفد إليه^(٢) مع عروة بن الزبير وملحه ومدح الخلفاء من
 ولده بعده وعاش عُمراً طويلاً إلى أن أدرك آخر سلطان بنى أمية ولم يدرك
 الدولة العباسية وكان طبيباً مليحاً منذراً^(٣) بطالاً مليح الشعر وكان
 كالمنقطع إلى عروة بن الزبير . وإنما سُمي إسماعيل بن يسار النسائي لأنَّ
 أباه كان يصنع طعام العرس ويبيعه فيشتريه منه . من أراد التعريس من
 المتجملين ومن لم تبلغ حاله اصطناع ذلك^(٤) . وما وصل إلينا من أشعاره
 يلوح أنه تعاطى المديح والرثاء فضلاً عن الغزل اللطيف الغالب عند شعراء
 مدن الحجاز في ذلك العصر . أما الذي يُهمُّني في هذا المقام والذي أُحِبُّ أن
 تتأملوه فإنَّ إسماعيل بن يسار كان «شعوبياً شديداً التعصب للعجم وله شعره
 كثير يفخر فيه بالأعاجم»^(٥) ففي قصيدة له بعد إظهار التشبيب بهند قال^(٦) :

رُبُّ خال متَّوجٍ لي وعمُّ ماجدٍ مُجْتَدِي كَرِيمِ النَّصَابِ

(١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٤ ص ١١٩ - ١٢٧ ولا يذكر في كتاب الشعر
 لابن قتيبة (ص ٢٦٦ من طبعة لندن) وخزانة الأدب (ج ١ ص ١٤٤ من طبعة بولاق) إلا اسمه
 فراجع أيضاً J. GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, I, 160

(٢) وهذا بعد مقتل عبد الله بن الزبير (كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٤ سطر ٢٢ من طبعة
 بولاق) أي بعد سنة $\frac{٧٣}{٢٩٦}$.

(٣) [كلا في طبعة بولاق وفي طبعة دار الكتب المصرية : « منذراً » وفي الحاشية : « متدراً »
 يأتي بالنواد من قول لؤي فعل . وبطلان كثير الخزل والمزاج :]

(٤) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١١٩ من طبعة بولاق . وقيل « إنما سمي إسماعيل بن يسار
 النسائي لأنه [وليس أبوه] كان يبيع النجد والفرش التي تتخذ للرائس » .

(٥) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢١ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٠ - اجتنى سأله حاجة أو طلب بطواه - نصاب أول
 كل شيء : الأصل - ضامى شاكله وشابهه - حقب وجمعه أحقاب الدهر - دس الشيء تحت التراب
 وغيره ودسه فيه أدخله فيه ودفنه تحت وأخفاه - أما اشتقاق فواضع ما قاله ابن بدرون في شرحه على
 قصيدة ابن جبرون ص ٨ من طبعة لندن ١٨٤٦ .

إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ بِالْفَرْسِ س مضاهاة رفعة الأنساب
فَاتْرُكِي الْفَخْرَ يَا أَمَامَ عَلَيْنَا واتركي الجور وأنطق بالصواب
وَأَسْأَلِي إِنْ جَهِلْتِ عَنِّي وَعَنْكُمْ كيف كنّا في مالف الأحقاب
إِذْ نَرَبِّي بِنَاتِنَا وَتَلَسُّو ن سفاهاً بناتيكُم قد التراب

وجسر يوماً بالرصافة على إنشاد قصيدة بحضور هشام بن عبد الملك
قال فيها^(١):

إِنِّي وَجَدْتُ مَا عُودِي بِهِ ذِي خَوَرٍ عند الحفاظ. ولا خَوْضِي بِمَهْدُومٍ
أَصْلِي كَرِيمٌ وَمَجْدِي لَا يُقَاسُ بِهِ ولي لسانٌ كَحَدِّ السيف مسمومٍ
أَخْبَى بِهِ مَجْدَ أَقْوَامِ ذِي حَسَبٍ من كلِّ قَرَمٍ بَتَاجِ الْمُلْكِ مَعْمُومٍ
جَعَّاجٍ سَادَةٍ بُلُجٍ مَرَايِبَةٍ جُرْدٍ عَنَاقٍ مَسَامِيحٍ مَطَاعِمٍ
مَنْ مِثْلَ كِسْرَى وَسَابُورِ الْجُنُودِ مَعَا وَالْهُرْمُزَانِ لِفَخْرٍ أَوْ لَتَعْظِيمٍ
أَسَدُ الْكَتَائِبِ يَوْمَ الرُّوعِ إِنْ زَحَفُوا وَهُمْ أَذَلُّوا مَلُوكَ التُّرْكِ وَالرُّومِ
يَمْشُونَ فِي حَلْقِ الْمَآذِي سَابِغَةٍ مَشَى الضَّرَاغِمَةِ الْأَسَدِ اللَّهَامِ
هَنَّاكَ إِنْ تَسَلَّى تُنَبِّئُ بَأَنَّ لَنَا جُرْثُمَةً قَهَرَتْ عَزَّ الْجَرَائِمِ

ويروى أنَّ هشام بن عبد الملك لما سمع هذه الأبيات غضب وأمر بدفع

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٥ من طبعة بولاق - خور نصف - قرم: الفعل أوما لم
يمه حمل ولم يحمل عليه وترك الفحلة وقيل السيد أو العظيم على التشبيه بالفعل - بصحيح السيد
المسارع في المكارم - أبلج ذو الكرم والمعروف وجمعه بلج - الأجرد الذي له جرد يعني قصر شعر الجلد
في الفرس وهو من الأوصاف المصودة في الخيل - التلق (جمع حقيق) من الخيل: النجائب - مسامح
(وجمعه مساميح) ذو جواد ذو سمحة - مطام (وجمعه مطاعم) كثير الأضياف والقرى -
ملك كسرى الأول أنور شروان من ٥٣١ إلى ٥٧٩ بعد المسيح وسابور الأول من ٢٤١ إلى ٢٧١
وسابور الثاني ذو الأكاف من ٣٠٩ إلى ٣٧٩ وسابور الثالث من ٣٨٢ - ٣٨٨ . - زحف مشى
- الحلقة (وجمعه حلقي) كل شيء استدار والحلقة الفرع خاصة - (درع) سايئة تامة طويلة - لميم
(جمعه لهاميم) السابق الجواد من الخيل والناس - جرثومة أصل .

إسماعيل في بركة كانت أمامهما في القصر ففعلوا وغطوه في الماء حتى كادت نفسه تخرج ثم أمر بإخراجه ونقاه من وقته إلى الجحاز .

فعلَّ إسماعيل بن يسار كان أولَ شاعر استعمل اللغة العربية لتفضيل الفرس على العرب . وابنه إبراهيم كان أيضاً مبتلياً بالعصبية للعجم والفخر بهم فحدا حدّوا أبيه في إظهار تعصُّبه في الشعر^(١) . وذلك دلالة على تقرب عهد جديد أعنى عهد الخلفاء العباسيين الذي غلبت فيه العجم على العرب في أمور السلطان والسياسة .

سمعنا إلى الآن أقوال تعصب ويغض وخلافات وفتن وحروب فقبل أن نفارق هذا الصنف من الشعر ينبغي لنا الإشارة إلى القليل البعيد عن مثل ذلك القريب من الآية القرآنية : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »^(٢) .

ليس مجهولاً لكم أن أكثر الخوارج اجتمعوا على جواز تقليد الإمامة لكل رجل صالح مهما كان أصله وجنسه فلا فرق عندهم بين عربيّ وفارسيّ وزنجيّ وبربريّ وغيرهم من أصحاب مذهبهم . وذلك مخالف لعصبية قبائل الأعراب موافق للقول بتساوي كلّ المؤمنين . فلما هرب عُمَرَان بن حِطَّان الخارجي المذكور سابقاً (ص ٢٣٦) . من الحجاج بن يوسف وارتحل من قبيلة إلى قبيلة طالباً للمثوى ونزل مدة عند رَوْح بن زُنباع الجُدَاميّ ثم بزُفَر بن الحارث الكِلَابيّ ثم عند قوم من الأزد قال في نزوله بهم^(٣) :

نَزَلْنَا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي خَيْرِ مَنَازِلٍ نُسَبُّ بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْخَفَرِ

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٦ سطر ٢٢ من طبعة بولاق .

(٢) القرآن سورة ٤٩ (المحجرات) : ١٠ .

(٣) الكامل للبهرد ص ٥٣٣ - ٥٣٤ من طبعة ليبيك أوج ٢ ص ١٢٤ من طبعة مصر

١٢٢٢ - ١٢٢٤ (وفيه شرح الآيات) وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٤ .

نَزَلْنَا بِقَوْمٍ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَهُمْ وليس لهم عُدٌّ سِوَى الْمَجْدِ يُقْتَصَرُ
 مِنَ الْأَزْدِ إِنَّ الْأَزْدَ أَكْرَمُ مَعَشَرٍ بِمَانِيَّةٍ طَابُوا إِذَا نُسِبَ الْبَشَرُ
 فَأَصْبَحَتْ فِيهِمْ آمِنًا لَا كَمَعَشَرٍ أَتَوْنِي فَقَالُوا مِنْ رَبِيعَةٍ أَوْ مُفَرٍّ
 أَمْ الْحَيُّ قَحْطَانٍ فَتِلْكَمْ سَفَاهَةٌ كَمَا قَالَ لِي رَوْحٌ وَصَاحِبُهُ زُفَرٌ
 وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا يُسَرُّ بِنُسْبَةٍ تُقَرِّبُنِي مِنْهُ وَإِنْ كَانَ ذَا نَفَرٍ
 فَنَحْنُ بَنُو الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ وَاحِدٌ وَأَوَّلَى عِبَادِ اللَّهِ بِاللَّهِ مَنْ شَكَرَ
 وَلَكِنْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَغْتَرُّوا بِهَذَا الْقَوْلِ الْمَعْبُورِ عَنْ شُكْرِ الشَّاعِرِ لِمَنْ أَلْجَأَهُ
 وَأَثَوَاهُ هَارِبًا خَائِفًا فَقِيرًا لَا غَيْرَ . فقد سبق (ص ٢٣٦) أَنَّ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانٍ
 كَانَ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْمَعْرُوضِينَ حَزْبِهِمْ عَلَى قِتَالِ غَيْرِهِمْ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْخَوَارِجَ قَالُوا
 بِكُفْرِ جَمِيعٍ مِنْ لَمْ يَتَّبِعْ مَذْهَبَهُمْ وَكَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ تَعَصُّبًا حَتَّى تَفَرَّقُوا
 أَنْفُسَهُمْ عِدَّةَ فِرْقٍ مُبْتَغِضِينَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى قِلَّتِهَا . وَالْحَقِيقَةُ أَنََّّهُمْ مَحَوُّ
 التَّعَصُّبِ الْقَوِيُّ الْمَأْلُوفِ لِلْأَعْرَابِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ وَبَدَلُوهُ بِتَعَصُّبِ مَذْهَبٍ أَشَدَّ
 مِنَ الْقَوِيِّ حِدَّةً مُعَادِلٍ لَهُ سَعَةً لِأَنَّ عِدَّةَ أَصْحَابِ فِرْقَةٍ مِنْ فِرْقِهِمْ لَمْ يَتَجَاوَزْ
 فِي الْغَالِبِ عِدَّةَ أَبْنَاءِ قَوْمٍ مِنْ أَقْوَامِ الْأَعْرَابِ - أَمَا الَّذِي لَمْ تُحِثْ إِلَيْهِ إِنَّمَا
 هُوَ مِثْلُ قَوْلِ الصَّلْتَانِ الْعَبْدِيِّ مُعَاوِيَةَ الْفَرَزْدَقِ وَجَرِيرٍ (١) :

أَرَى أُمَّةً شَهْرَتْ سِيْفَهَا وَقَدْ زِيدَ فِي سَوْطِهَا الْأَصْبَحِي
 بِنَجْلِيَّةٍ وَحَرُورِيَّةٍ وَأَزْرَقَ يَدْعُو إِلَى أَزْرَقِي
 فَمِلْتُنَا أَنْتَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى دِينِ صَدِيقِنَا وَالنَّبِيِّ

(١) التَّكْمَلُ لِلْمَبْرَدِ ص ٤٤٠ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢٩ من طبعة مصر ١٣٢٢ -
 ١٣٢٤ - أَمَا الْأَصْبَحِي فَقَالَ الْمَبْرَدُ : « تَمْسَى هَذِهِ السَّيَاطِلُ الَّتِي يَتَلَقَّبُ بِهَا السُّلْطَانُ الْأَصْبَحِيُّ وَتَنْسَبُ
 إِلَيْهِ أَسْبَحَ الْحَمِيرَى . . . وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أُنْطَلِقَ » [وَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنَّ الشَّاعِرَ يُشِيرُ إِلَى الْإِمْنِيِّينَ الَّذِينَ
 نَالُوا الْخِطْرَةَ عِنْدَ بَنِي أُمَيَّةٍ] . - أَمَا النَّجْدِيَّةُ فَقَالَ الْمَبْرَدُ : « تَنْسَبُ إِلَى نَجْدَةَ بْنِ حَوْرَمَرٍ . . . كَانَ رَأْسًا
 ذَا مَقَالَةٍ مُنْفَرَدَةٍ مِنْ مَقَالَاتِ الْخَوَارِجِ » - الْحَرُورِيَّةُ مِنَ الْخَوَارِجِ أَيْضًا - وَأَزْرَقُ يَدْعُو إِلَى أَزْرَقِ
 فَقَالَ يَعْنِي مَنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ قُلُوحِ بَنِي الْأَزْرَقِ .

أو مثل قول تَهَارِ بْنِ تَوْسِعة شاعرِ بَنِي بَكْرِ بْنِ واثِلٍ بِخِراسَانَ فِي أَيَّامِ قَتِيبةِ بْنِ مُسْلِمٍ^(١) :

أَبِي الْإِسْلَامِ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا هَتَفُوا بِبَكْرِ أَوْ تَعِيمِ
دَعِيَ الْقَوْمَ يَنْصُرُ مُدْعِيَهُ فَيُلْحِقَهُ بِذِي النَّسَبِ الصَّمِيمِ
وَمَا كَرَّمَ وَلَوْ شَرُفَتْ جُدُودُ وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ الْكَرِيمُ

لكن مثل هذه الأقوال الكريمة نادرة جداً عند شعراء عهد الأمويين.

٧- فلنشرع في بيان الصنف السابع من الشعر في أيام بني أمية وهو شعر أهل الحضر في مدن العراق والشام .

بُنِيَت الكوفة والبصرة بعد تمام فتح العراق سنة $\frac{١٧}{١٣٨}$ تقريباً في خلافة عمر بن الخطاب . فكان لهذا الخليفة الأجل الماهر بأمور السياسة غرضان من تأسيس تينك المدينتين^(٢) أعنى نقصان شأن المدن العراقية الفارسية الأصل مثل المدائن والحيرة لئلا تفوق المعجم العرب قدرة وتأثيراً وجعل مقامات للأعراب المفتحين في أطراف البادية متوسطة بين البدو والحضر ليعتادوا العيشة المدنية شيئاً فشيئاً وتزال رغبتهُم في الرجوع إلى براريهم وكراهتهُم للاستقرار في المدن كما تقدم بيان ذلك في أحد الأبواب الماضية (ص ١٤٣) . فزاد عدد من استوطن الكوفة سريعاً لا سيما لما نقل على ابن أبي طالب دار الخلافة إليها سنة $\frac{٣٦}{١٠٧}$ فأضحت مدة أربعة أعوام قاعدة المُلْك للمَنقُطِعين إلى شيعة علي . ثم في أيام الدولة الأموية لم تنزل عامرة

(١) انظر كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٨٢ من طبعة ليدن والكامل للمبرد ص ٥٣٨ من طبعة ليسك أو ج ٢ ص ١٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ (فيه البيت الأول والثاني فقط) والبيت الأول مروي أيضاً في الفصل الحادي والمائة من كتاب المفصل للزنجشري (ص ٧٨ من طبعة مصر ١٣٢٣) .
(٢) راجع أيضاً : J.L. GAETANI, *Annali dell' Islam*, vol. III, P. 774-776; 833-845

زاهرة في غاية النضارة^(١) بل صارت للآداب العربية سوقاً خفيلاً لم ينقص
نفاقه عن در مثله بدمشق فوفدت الشعراء إليها جمّاً خفياً وإن كانت سكناتهم
الاعتيادية في أنحاء بعيدة عنها . كيف لا وأغلب ولائها مائلون إلى سماع
الشعر مُتَعَمِّون على الشعراء الصّلات الجزيلة محبوبون للأنس والاجتماع والسرور
مثل بشر بن مروان الذي يروى فيه أن أَيْمَنَ بن خُرَيْم الشاعر لما أتاه
«نظر الناس يدخلون عليه أفواجا فقال من يؤذن لنا الأمير أو يستأذن لنا
عليه ؟ فقيل له ليس على الأمير حجاب ولا يستر فدخل وهو يقول^(٢) :

يُرى بارزاً للناس بِشْرُ كَأَنَّهُ إذا لاحَ في أثوابِهِ قَمَرٌ بَدُرٌ
ولو شاءَ بِشْرٌ أَغْلَقَ البابَ دونه طَمَاحُ طِمٍ سَوْدٌ أو صِقَالِيَّةٌ شَقَرٌ
أَبَى ذَا وَلَكِنْ سَهْلَ الإِذْنَ لَلَّتِي يكون له في غِيْبِهَا الحَمْدُ والشُّكْرُ

فضحك إليه بشر وقال : إنا قوم نحجب الحرّم وأما الأموال والطعام
فلا ، ثم تأملوا أمراً آخر وهو أن دمشق حينئذ كانت دار الخلافة وأهلها
وأهل جميع الشام كثيروا التعصب للأمويين بل أشدّ أركانهم حتى إن لفظ
الشامى استُعملَ أحياناً بمعنى المنقطع إلى بنى أمية^(٣) فربما من لم يزل من
الشعراء إلى الدولة الأموية كره دخول الشام خوفاً من حداوة أهلها أو من
أن يُتهمَ بخيانة حزبه . أما العراق فإن قطعنا النظر عن ولاية الحجاج
ابن يوسف كانت رعاية الأمويين فيها أخفّ منها بالشام فصارت البصرة
والكوفة مقصداً للناس من كلّ شيعة وحزب ومذهب فنزل فيها بلون عائق
ومانع من لعلّ صعب عليه قدوم الشام . فكثير من الشعراء المذكورين فيما

(١) أما رفاة العيش في الكوفة والحيرة في عصر بني أمية فانظر ما قيل مثلاً في كتاب الأغانى ج ٢

ص ١٢٢ و ١٢٤ و ١٢٥ من طبعة بولاق .

(٢) انظر كتاب الأغانى ج ٢١ ص ١٢ .

(٣) ويوجد « الشامى الأخطل » بهذا المعنى في قصيدة لفرزدق فانظر التاليف ص ٢٠٢ عدد

٣٩ بيت ٦٢ من طبعة لندن [وديوان الفرزدق ص ٧٢١ سطر ٧ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

تقدّم وفدوا الكوفة مراراً أو أقاموا بها على اختلاف مذاهبهم ومنهم الأخطل والفرزدق وجريير وفوارسة والراعي وعبد الله بن الزبير وأعشى بنى ربيعة من مدّاح الخلفاء والأمراء الأمويّين وكثير الكميت من أهل الشيعة والطّرماس من الخوارج وهلمّ جرّاً . فإذا لا غرو أن تكون للكوفيين منزلة خاصّة في تاريخ الشعر العربيّ في أيام بنى أميّة .

أمّا أنواع الشعر المألوفة لأهل مدن العراق سوى الشعر السياسيّ المتقدّم بيانه والمرأى فثلاثة: الخمريات والغزل والمديح . وجميع ذلك متصل بأنواع الشعر العربيّ الجاهليّ في أقطار العراق الجنوبيّة الغربيّة .

أسست مدينة الكوفة على مسافة قليلة أي ستة كيلومترات تقريباً من الحيرة فلا شك أن جملة من أهل الحيرة انتقلوا إلى المدينة الجديدة واستوطنوها للتجارة فيها . وأحوال الحيرة قبل الفتح الإسلاميّ وتأسيس الكوفة معروفة فلا أحد يجهل أنها كانت قاعدة ملوك اللخميّين إلى نحو سنة ٢٠ قبل الهجرة وأنّ معظم سكّانها نصارى معروفون بالعباد اشتهروا عند عرب البادية في الجاهليّة لبيع الخمر. ونبتت فيها الشعراء من أهل الحضر ووفدت إليها أيضاً شعراء أهل الوبر من بلاد نجد واليمامة والبحرين لما كانوا يجدون فيها من رواج الشعر وحسن القبول عند ملوك بنى لخم ومن سعة الأرزاق ورغد العيش وكثرة الحوائث والخمّارات التي كانوا يبيتون فيها معاقرين للشراب مستمعين لأغاني القينات . فخمريات أهل الحيرة أو من نزل فيها من الفحول مثل عديّ بن زيد والأعشى وطرفة والناطقة الديبانيّ أشهر من أن احتاج إلى الإطناب في الكلام عليها . فإن تأملت هذا وتأثير أهل الحيرة وعاداتهم في العرب الذين عمروا الكوفة واختلط المسلمون بأصحاب ديانات شتى في العراق ثم إن تذكرتم ما تقدّم بيانه من تمسك الأعراب بعاداتهم

القلدية وكراحتهم لبعض الأحكام الإسلامية ما استغربتم وفرة الأشعار في وصف الخمر ومدحه عند من نسيج القريض في الكوفة والبصرة في أيام بني أمية . وزيدوا على ذلك كله حب شعراء العرب لاحشاء مثال المتقدمين والاقتداء بأنسابهم وأخذ معانيهم فكما تجنون حتى الآن شعراء يكون على أطلال قوم المشوقة ويشكون مشاق قطع الفياض التي لم يروها أبداً ولا من بعيد كذلك ليس من المحال أن بعض الشعراء ذهبوا إلى وصف الخمر وذكر لذاتها بدون أن ذاقوا منها قطرة كأن غرضهم تقليد أشعار فحول الجاهلية لا التعبير عما في قلوبهم حقيقة .

وعلى كل حال لم يزل خمارو الحميرة مشهورين إلى نحو أواخر القرن الثاني أو بعدها بقليل كما يستنتج مما رواه صاحب كتاب الأغاني في ترجمة بكر ابن خازجة شاعر من أهل الكوفة مفرم بشرب الخمر . قال (١) : « حرم بعض الأمراء بالكوفة بيع الخمر على خمارة الحيرة وركب فكسر نبيذهم فجاء بكر يشرب عندهم على عادته فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق فبكى طويلاً وقال :

يا لقوى لِمَا جَنَى السُّلْطَانُ لَا يَكُونُنْ لِمَا أَهَانَ الْهَوَانُ
قهوة في التراب من حَلَبِ الْكَرْمِ عَقَارًا كَأَنَّهُ الزَّعْفَرَانُ
قهوة في مكانٍ سَوٍ لَقَدْ صَا دَفَّ سَعْدُ السَّعُودِ ذَاكَ الْمَكَانُ
من كُتِبَتْ بِدَا الْمَزَاجُ لَهَا لَوْ لَوْ نَظَمَ وَالْفُضْلُ مِنْهَا جُمَانُ
... كيف صبري عن بعض نفسي وهل يصبر عن بعض نفسه الإنسان

والشواهد على انتشار شرب الخمر عند بعض الأفاضل المسلمين في العراق في القرن الأول غير نادرة منها ما يروى في كتاب سيرة الرسول لابن هشام

(١) كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ٨٧ . القار : الخمر . جهان : التلوة الواحدة .

أن النعمان بن عدى^(١) بعد ما استعمله عمر بن الخطاب على ميسان موفيع
من أرض البصرة قال :

ألا هل أتى الحشاء أن حليلها بميسان يُسقى في زجاج وحنتم
إذا شئت عنتى دهاقين قرية ورُقاصة تجدوا على كل منسم
فإن كنت فلذماني فبالأكبر أسقني ولا تسقني بالأصغر المتثلّم
لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادئنا في الجوسق المتهدّم

فلما بلغت عمر هذه الأبيات عزله . فنذكر عن قريب أمثلة أخرى
متعددة من حب الخمر في العراق في عهد بني أمية .

أما الغزل فهو عند أهل الحضرة المترفين كالنسيب عند أهل البادية
فقد أحسن ابن رشيقي القيرواني في وصف الفرق بينهما حيث قال^(٢) :
« ومقاصد الناس تختلف فطريق أهل البادية ذكر الرحول والانتقال وتوقع
البين والإشفاق منه وصفة الطلول والحمول والتشوق بحنين الإبل ولعم
البروق ومرّ النسيم وذكر المياه التي يلتقون عليها والرياض التي يجولون بها
من غزاي وأقحوان وبهار وحنوة وظبان وعرار وما أشبهها من زهر البرية الذي
تعرفه العرب وتنبته الصحارى والجبال وما يلوح لهم من النيران في الناحية
التي بها أحبابهم ولا يعدون النساء إذا تغزلوا ونسبوا فإن وقع مثل قول
طرفة^(٣) :

وفي الحي أخرى ينقض المرء شادين مظاهير سملّى لؤلؤ وزبرجد

(١) سيرة الرسول ص ٧٨٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨ - ١٩٥٩ ويروى البيت الأول والرابع
في معجم ما استعجم للبكري ص ٥٦٧ من طبعة غوتنجن والبيت الأول في لسان العرب ج ١٥ ص ٥١
- حنم الجرة الحصراء - الجوسق القصر معرب كوشك بالفارسية وهو أيضاً من مصانع الفرس بالكوفة
(راجع معجم البكري ص ٢٥٧) .

(٢) كتاب المعلة ج ١ ص ١٥٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٣) وهو البيت السادس من معلقة طرفة .

فإنما هو كناية بالغزل عن المرأة . وأهل الحاضرة يأتى أكثر تغزلهم في ذكر الصدود والهجران والواشين والرقباء ومنعة الحرس والأبواب وفي ذكر الشراب والنداء والورد والتشريق والتيلوفر وما شاكل ذلك من النواوير البلدية والرياحين البستانية وفي تشبيه التفاح والتحية به ودرس الكتب وما شاكل ذلك مما هم به منفردون .

أما المديح فسبب اعتناء الشعراء به واضح لا يحتاج إلى شرح . ومن الشعراء المقيمين بالكوفة والبصرة حارثة بن بدر الغدائي^(١) من فرسان بني تميم ووجههم حسب صاحب الأغاني على وجه التخمين أنه قد أدرك النبي في صباه وحداثته وكان له حظ عظيم عند زياد بن أبي سفيان الذي لم يزل طول عمره مكرماً له وقابلاً لرأيه محتملاً لما يعلمه من تناوله الشراب^(٢) وكذلك أكرمه عبيد الله بن زياد والى الكوفة من سنة ٦٨٦ إلى سنة ٦٨٦ حتى استعمل مدة على نيسابور . وأكثر أشعاره من الخمريات منها^(٣) .

أَذْهَبَ عَنِّي الْغَمُّ وَالْهَمُّ وَالَّذِي بِهِ تَطَرَّقُ الْأَحْدَاثُ شَرِبُ الْمُرُوقِ
فَوَاللَّهِ مَا أَنْفَكُ بِالرَّاحِ مَهْتَزًّا وَلَوْ لَمْ فِيهَا كُلُّ حُرٍّ مَوْقِ
فَمَا لَأُمِّي فِيهَا وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا بِأَعْلَمَ مِنِّي بِالرَّحِيقِ الْمَعْقُوقِ
وَلَكِنْ قَلْبِي مُسْتَهَامٌ بِعُيُوبِهَا وَحُبُّ الْقِيَانِ رَأَى كُلَّ مُحَقِّقِ
أَحِبُّ النَّيِّ لَا أَمْلِكُ اللَّخْرَ بَعْضُهَا وَذَلِكَ فِعْلٌ مُعْجِبٌ كُلُّ أَنْعَرَفِ
سَأَشْرَبُهَا حِرْفًا وَأَمْنَقِي صَحَابَتِي وَأَطْلُبُ غِرَاتِ الْغَزَالِ الْمُنْطَقِ

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٠ - ٤٤ وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١١ - ٣١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ (وفي اسم الشاعر حارثة بن زيد) ر ٣١٢ .
(٢) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢١ وراجع أيضاً ص ٣٩ - ٤٠ .
(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٤١ . وفي لشرط الثاني من البيت الخامس اقرأ : « وذلك فعلٌ معجبٌ كل أنرق » بدلا من « وذلك فعلٌ معجبٌ كل أنرق » كما في الطبع .

فلنقه أنس بن زُفَيْم اللُّيْثِيَّ ووعظه قائلاً (١) :

أَحَارِ بَنَ بَدْرِ بَاكِيرِ الرَّاحِ إِنَّهَا تَنْسِيكَ مَا قَدَّمْتَ فِي سَائِلِ الدُّفْرِ
تَنْسِيكَ أَسْبَاباً عِظَاماً رَكِبَتْهَا وَأَنْتَ عَلَى عَمِيَاءَ فِي مَسْنٍ تَجْرِي
... فَلَدَّ عَنْكَ شَرْبُ الْخَمْرِ وَارْجِعْ إِلَى الَّتِي بِهَا يَرْتَضَى أَهْلُ النَّبَاهَةِ وَالذُّكْرِ
عَلَيْكَ نَبِيذُ التَّمْرِ إِنْ كُنْتَ شَارِباً فَإِنَّ نَبِيذَ التَّمْرِ خَيْرٌ مِنَ الْخَمْرِ
أَلَا إِنَّ شَرْبَ الْخَمْرِ يُزْرِى بَدَى الْحِجَى وَيَذْهَبُ بِأَمْوَالِ التَّلَادِ وَبِالْوَفْرِ
فَصَبِّرْ! عَنِ الصَّهْبَاءِ وَأَعْلَمْ بِأَنْتَى نَصِيحٌ وَأَنْتَى قَدْ كَبُرَتْ عَلَى الزُّجْرِ
ولكن لم تنفعه المواعظ والنصائح .

ومن الشعراء الكوفيَّين الذين كانوا في أواخر القرن الأوَّل وأوائل الثاني
عمار بن عمرو الملقَّب بذي كِنَاز (٢) قال فيه صاحب الأغاني ما نصه :
« كَانَ لَيْنَ الشَّعْرِ مَاجِئاً خَمِيْراً مَعَاظِراً لِلشَّرَابِ وَقَدْ حُدَّ فِيهِ مَرَّاتٍ وَكَانَ
يَقُولُ شَعْراً ظَرِيفاً يُضْحِكُ مِنْ أَكْثَرِهِ شَدِيدَ التَّهَانَةِ جَمَّ السُّخْفِ .. وَكَانَ
هُوَ وَحَمَادُ الرَّاوِيَةِ وَمُطِيعُ بْنُ إِيَّاسٍ يَتَنَادَمُونَ وَيَجْتَمِعُونَ عَلَى شَأْنِهِمْ
لَا يَفْتَرِقُونَ وَكُلُّهُمْ كَانَ مِنْهُمْ بِالزُّنْدَقَةِ ، وَعَمَّارٌ مِمَّنْ نَشَأَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ
وَلَمْ أَسْمَعْ لَهُ بِخَبَرٍ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ » . ومن الجدير بالذكر أنَّ شعر عمار
ذِي كِنَاز أَوْ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْهُ كُلُّهُ مَنْسُوجٌ فِي الْأَعَارِيضِ الْقَصِيرَةِ دَائِرٌ عَلَى
الْمِزَاجِ وَالْخَمْرِ وَالْغَزَلِ وَمِثَالُهُ (٣) :

شَجَا قَلْبِي غَزَالٌ ذُو دَلَالٍ وَاضِحٍ السُّنَّةُ
أَسِيلٌ الْخَدُّ مَرْبُوبٌ وَفِي مَنَاطِقِهِ غُنَّةُ
أَلَا إِنْ الْغَوَائِي قَدْ بَرَى جِسْمِي هَوَاهُنَّ

(١) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٣٢ .

(٢) توطئة ترجمته في كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٧٤ - ١٨٠ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٧٩ .

وقالوا شَفَّكَ الحورُ هَوَى قلت لهم إِنَّهُ
ولكنى على ذاك معنى بأذاكُنَّة
أراح الله عَمَّاراً من الدنيا ومنهنة
بعبدات قريبات فلا كان ولا كنه
نقد أذهل منى العقد لَ والقلب شجَاهُنَّ
يُمَنِّينَ الأباطيلَ ويَجْحَدُنَ الذى قُلْنَه

ومن هؤلاء الشعراء حُنين بن بلوع الحيرى^(١) ، كان شاعراً مغنياً
فحلاً من فحول المغنين وله صنعة فاضلة متقدمة وكان يسكن الحيرة ويكرى
الجمال إلى الشام وغيرها وكان نصرانياً وهو القائل بصف الحيرة ومنزله
بها : (من المنسرح)

أنا حُنينٌ ومنزلى النَجَفُ وما ندى إلا الفنى القَصِفُ
أقرعُ بالكأس نَغْرَ باطية . مُتَرَعَّة تارة وأخريفُ
من قهوة باكرَ التَّجَارُ بها بيتَ يهودٍ قرأها الخَزَفُ
والعِيشُ غَضُ ومنزلى خَصِبُ لم تُغْلِنِي شَقْوَةٌ ولا عَنَفُ^(٢)

وكان من معاصري هشام بن عبد الملك وبشر بن مروان ونخالد القسرى.
وفى ترجمته فى كتاب الأغاني تجلدون علة أخبار دالة على رغد العيش والرفاهية
بمدينتى البصرة والكوفة بعد منتصف القرن الأول .

ومن الشعراء الكوفيين الذين غلب فى أشعارهم ذكر الشراب والمزاج والمجون

(١) راجع كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٢٠ - ١٢٧ من طبعة بولاق والشاعر طبر مذكور فى
غزاة الأدب ولا فى كتاب الشعر لابن قتيبة [ولا فى طبقات الشعراء لابن سلام ولا فى كتاب المؤلف
والمتلف للأندلسى . أما اسم أبيه فهو فى طبعة دار الكتب المصرية (ج ٢ ص ٢٤١) بفتح الباء وسكون
اللام وفتح الراء] .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٢٠ من طبعة بولاق .

الأقيشِر الأَسَدِيّ^(١) الذي ابتداءً يقول الشعر في أيام الخلفاء الراشدين ومات في حدود الثمانين تقريباً^(٢) وهو الذي يقول لنفسه^(٣) :

فإنَّ أبا معرضٍ إذ حَسَا من الراح كئاساً على المنبرِ
خطيبُ أبيبٍ أبو مُعْرِضٍ فإنَّ ليمَ في الخمرِ لم يَصْبِرِ
أحلُّ الحرامِ أبو مُعْرِضٍ فصار خليعاً على المكبرِ
يُجِلُّ اللثامَ وَيَلْحَى الكرامَ وإنَّ أقصروا عنه لم يُقْصِرِ
فقبل إنَّه كان لا يسأل أحداً أكثر من خمسة دراهم يجعل درهمين
في كِراء بغلٍ إلى الحيرة ودرهمين للشراب ودرهماً للطعام^(٤)، وحكاياته مع أهل
الشُرطة معروفة^(٥). وإليه ينسب ابن قُتَيْبَةَ هذه الأبيات^(٦) :

(١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٤ - ٩٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٥٢ - ٣٥٤ من طبعة لندن وخرزانة الأدب ج ٢ ص ٢٧٩ - ٢٨٢ . وثروى له ثلاثة أبيات في شرح التبريزي على حاشية أبي تمام ص ٨١١ - ٨١٢ من طبعة بن أوج ٤ ص ١٧٦ من طبعة بولاق (وراجع أيضاً كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٧) فاختلف في اسمه وقيل في كتاب الأغاني وخرزانة الأدب وكتاب المقاصد للنسوة للمبني (ج ٣ ص ٥٠٨ و ج ٤ ص ٥١٦ من طبعة بولاق ١٢٩٩ بهامش الخزانة) [وكتاب التنبيه للبكري (ص ٣٨ - ٣٩ من طبعة مصر ١٣٤٤)] إنه المفيرة بن عبد الله بن معرض فقال ابن قتيبة إنه المفيرة بن الأسود بن وهب وقال المبني (ج ١ ص ٣٧٧) إنه المفيرة بن أسود بن عبد الله بن معرض [وقال الأمدى في المؤلفات واختلف (ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٥٤) إنه المفيرة بن عبد الله من بني معرض بن عمرو بن أسد وقال المزدباني في معجم الشعراء (ص ٣٦٩ من طبعة مصر ١٣٥٤) إنه المفيرة بن عبد الله بن أسود بن وهب من بني ناصح بن عمرو بن أسد وقيل من بني معرض بن عمرو بن أسد أما اسم معرض ف ضبط في طبعة مصر ١٣٤٤ من كتاب التنبيه للبكري بضم الميم وفتح العين وكسر الراء المشددة فأظن أن الصحيح معرض بضم الميم وسكون العين وكسر الراء لأن أبا معرض كنية الشاعر وهي مذكورة في ثلاثة أبيات له (وسأذكرها) فالقراءة « معرض » بتشديد الراء غير ممكنة لأنها لأجل الوزن فلا ذكر صاحب تاج العروس (ج ٥ ص ٥٤) على معرض (يسكون العين) ومعرض (بتشديد الراء) .

(٢) خزانة الأدب ج ٢ ص ٢٨٢ ملح بشر بن مروان وهو والي الكوفة من سنة ٧١ إلى ٧٤ / ٦٩٠ - ٦٩٤ .

(انظر كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٩٤ من طبعة بولاق) .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٥ .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٩ وانظر ص ٩١ .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٩٠ و ٩١ و ٩٢ .

(٦) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٥٤ من طبعة لندن وفيه لا يروى البيت الثاني فأخذته من كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٥ ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٥١ من طبعة ليصلك .

وصهباء جرجانية لم يطف بها حنيف ولم تنفر بها ساعة قدّر
ولم يشهد القس المهينم ناراها طروقاً ولا صلى على طبعها حبر
أتاني بها يحيى وقد نمت نومة وقد غابت الشغرى وقد خفق النسر
فقلت اضطبعها أو لغيري فأقديها فما أنا بعد الشيب ونحك والخدر
إذا المرء وفي الأربعين ولم يكن له دون ما يأتي حياء ولا يستر
فدعة ولا تنفس عليه الذي أتى وإن جرّ أرسان الحياة له الدهر

أما صاحب كتاب الأغاني^(١) فينسبها إلى شاعر كوفي آخر وهو أيمن
ابن خريم الأسدي^(٢) من الشعراء المتغزلين والمادحين لعبد العزيز وبشر ابن
مروان. وأيمن هذا مع تفرقه ومدحه لأمرء من بني أمية كان يتشبع في أيام
عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) نسج في مديح بني هاشم قصيدة
رائقة منها^(٣) :

نهاركم مكابلة وصوم وليلتكم صلاة وافتراء
وليتم بالقران وبالتزكى فأسرع فيكم ذاك البلاء
بكي نجد غداة غد عليكم ومكة والمدينة والجواء
وحن لكل أرض فارقوها عليكم لا أبا لكم البكاء
أجعلكم وأقواماً سواء وبينكم وبينهم الهراء
وهم أرض لأزجلكم وأنتم لأرويسهم وأعينهم سماء
ومثل هذا الكلام التقى غريب جداً عند شاعر مثل هؤلاء الكوفيين .

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٥ .

(٢) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٧ - ١٢ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٥ -

٢٤٧ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٠ . - والجواء جبل يته وبين الريلة شمالية فراسخ (معجم

البكري ص ٣٥٥) .

ومنهم مالك بن أمية بن خارجة الفزاري^(١) كانت آياؤه من سادة غطفان لكنه حضريّ مقيم بالكوفة فتزوج الحجاج بن يوسف أخيه هندياً . وللك أشعار في الخمر تشبه خمريات شعراء بغداد في عهد بني العباس منها^(٢) :

حَبْدًا لَيْلَتِي بَتَلْ بُونًا إِذْ نُسَقَى شَرَابَنَا وَنُغْنَى
من شراب كأنه دم جوف يترك الشيخ والفني مُرَجَحِنًا
حيث دارت بنا الزُّجاجة دُرْنَا يحسب الجاهلون أننا جُنُنًا
ومررنا بنسوة عطبرات وسَمَاعٍ وَفَرْقَفٍ فَزَلْنَا

وله أشعار ظريفة أيضًا من نوع الغزل وروى البُخترى^(٣) له أبيات في ذهاب الشباب وابتداء الشيب .

ومنهم إسماعيل بن عمار بن عبيدة^(٤) الذي أدرك أوائل الدولة العبّاسية وقال الشعر في الرثاء والهجاء والمديح والغزل والفكاهات والخمر وله وصف طويل لقيان بن رامين بالكوفة .

ومنهم الحكم بن عبدل الأسدئ الأعرج^(٥) منزله ومنشؤه بالكوفة إلا أنه انتقل إلى الشام لما بويج لعبد الله بن الزبير بالعراق سنة ٦٨٤ فكان من

- (١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤١ - ٤٧ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٩٢ - ٤٩٣ من طبعة ليدن ويروى له بيتان في خزنة الأدب ج ٢ ص ٤٨٤ من طبعة بولاق .
- (٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٩٢ من طبعة ليدن ومعجم البلدان لياقوت ص ٨٦٥ من طبعة ليبك وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٠ ويختلف في الرواية .
- (٣) حماسة البخري ص ٢٨٧ - ٢٨٨ من طبعة ليدن أو ص ١٩٧ - ١٩٨ عند ١٠٢٨ و ١٠٣٩ من طبعة بيروت (وفيها « للمردى » بدلًا من « الفزاري ») .
- (٤) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٣٥ - ١٤٢ وليس بمذكور في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في خزنة الأدب [ولا في طبقات الشعراء لابن سلام] .
- (٥) راجع كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٤٩ - ١٥٩ من طبعة بولاق وخزنة الأدب ج ٤ ص ٩٥ [والمؤلف للأدب ص ١٦١] وأبيات له مروية في كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١١٧ و ١١٨ - ١٢٠ و ١٧١ و ج ٢ ص ١١١ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ .

الداخلين إلى عبد الملك بن مروان (٢٨٥ - ٢٨٦) السامريين عنده ثم رجع إلى الكوفة وصار منقطعاً إلى بشر بن مروان فلما مات بشر جزع عليه ورثاه. وكان شاعراً مجيداً خبيث اللسان مُلَمِّعاً للخمر كالشعراء المتقدم ذكرهم وشعره كله في الهجاء والمجون والمديح. وكان له الشعر مكسباً كما كان لسائر شعراء طبقته فقال (١) :

أَطْلُبُ مَا يَطْلُبُ الْكَرِيمُ مِنْ الـ رَزَقَ لِنَفْسِي وَأَجِزُ الْطَلْبَا
وَأَحْلُبُ الثَّرَّةَ الصَّافِيَّ وَلَا أَجْهَدُ أَخْلَافَ غَيْرِهَا حَلْبَا
إِنِّي رَأَيْتُ الْفَقْرَ الْكَرِيمَ إِذَا رَغِبْتَهُ فِي صَنِيعَةٍ رَغْبَا
وَالْعَبْدُ لَا يَطْلُبُ الْعِلَاءَ وَلَا يُعْطِيكَ شَيْئًا إِلَّا إِذَا رَغْبَا
مِثْلُ الْحِمَارِ الْمَوْقِعِ السَّوِّ لَا يُحْسِنُ مَشْيًا إِلَّا إِذَا ضَرْبَا
ويروى أَنَّ الشعراء اجتمعوا إلى الحجاج وفيهم ابن عبدل فقالوا
للحجاج إنما شعر ابن عبدل كله هجاء وشعر سخيّف فقال له قد سمعت
قولهم فاستمع مني قال هات (٢) فأنشده قصيدة مروية في كتاب أُمّالي القالي (٣)
وصف نفسه فيها بما لم يكن له حقيقة من الشوق إلى المكارم والمعالى منها :

وَإِنِّي لِأَشْفَقُ فَمَا أَبْطَرُ الْغِنَى وَأَعْرِضُ مَيْسُورِي لِمَنْ يَبْتَغِي عَرَضِي
وَأَغِيرُ أَخْبَانًا فَتَشْتَدُّ عُسْرَتِي فَأَذْرِكُ مَيْسُورَ الْغِنَى وَمَعَى عَرَضِي
وَمَا نَالِي حَتَّى تَجَلَّتْ فَأَسْفَرْتُ أَخُوْتَقَةٍ فِيهَا بِقَرَضٍ وَلَا قَرَضٍ
وَلَكِنَّهُ سَيْبُ الْإِلَهِ وَجَرَقَتِي وَشَلَى حَيَازِيمِ الْمَطِيَّةِ بِالْفَرَضِ

(١) ساجدة أبي تمام ص ٥٣٥ من طبعة بن لوج ج ٣ ص ١١٠ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٥٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأُمّالي لقال (المتوفى سنة ٣٥٦) ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ من طبعة بولاق

١٣٢٤ [لوج ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١ من طبعة مصر ١٣٤٤] .

لَأُكْرِمَ نَفْسِي أَنْ أَرَى مَتَخَشُّعًا لِيَذِي مِنَّةٍ يُعْطَى الْقَلِيلَ عَلَى النَّحْضِ
وَأَخْرَاهَا :

ولستُ بذي وجهين فيمن عرفته ولا البخلُ فاعلم من سبائي ولا أرضي
إنَّ كلَّ من سبق من هؤلاء الشعراء الكوفيين يليق به أن يوصف بهذا
القول : « شاعر خليع ماجن منهمك في شرب الخمر » فنذكر الآن من كان
عن الخمر عفيفاً وهو المتوكل بن عبد الله اللبني^(١) من أهل الكوفة الذي
كان في عصر معاوية (٤١١ - ٤٨٠) وابنه يزيد (٦٨٠ - ٦٨٣) فصاغ
في مدحهما عدة قصائد . وربما تعاطى الهجاء مُعْرِضاً عَنْ هجاء ولم يفعل
ذلك إلا كارهياً كما يظهر من قوله^(٢) :

نَدِمْتُ عَلَى شَنْعِي الْعَشِيرَةِ بَعْدَ مَا تَغْنَى بِهَا حُودٌ وَحَنٌّ يَمَارِي
قَلْبْتُ لَهُمْ ظَهَرَ الْعِجَنُ وَلِبَتْنِي رَجَعْتُ بِفَضْلٍ مِنْ يَدِي وَلَسَالِي
عَلَى أَنَّنِي لَمْ أَرَمْ فِي الشَّعْرِ مُسْلِمًا وَلَمْ أَهْجُ إِلَّا مِنْ رَوِي وَهْجَانِي
ومثل هذا الكلام لعمرى نادر في ذلك العصر . ومما يدل أيضاً على رقة
عواطفه الشعر اللطيف الذي قاله في امرأته أم بكر وصف فيه قدر هواه لها^(٣)
وله أبيات في الحكم منها^(٤) :

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١١ ص ٣٩ - ٤٤ وخزانة الأدب ج ٢ ص ٦١٧ - ٦١٨ من طبعة بولاق [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٢ - ١٤٣ ومجموع المرزبان ص ١٠٩ - ١١٠] وحجاسة أبي تمام ص ٥٢٧ و ٧٧٢ و ٧٧٥ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٠٣ و ج ٤ ص ١٤٠ و ١٤٣ من طبعة بولاق وحجاسة البحتري ج ١٧٤ و ٣٤٥ من طبعة ليندن أو ص ١١٧ و ٢٣٨ عدد ٥٧٣ و ١٣٠٠ من طبعة بيروت .

(٢) كتاب الأغاني ج ١١ ص ٤٢ وراجع حجاسة البحتري ص ٣٤٥ من طبعة ليندن أو ص ٢٣٨ عدد ١٣٠٠ من طبعة بيروت .

وقلب له ظهر الهجن مثل يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد (راجع مجمع الأمثال لميداني ج ٢ ص ٣٢ من طبعة مصر ١٣١٠) .

(٣) كتاب الأغاني ج ١١ ص ٤٠ و ٤١ من طبعة بولاق .

(٤) حجاسة أبي تمام ص ٧٧٢ من طبعة بن أوج ٤ ص ١٤٠ من طبعة بولاق .

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ يوماً على الأحسابِ نَتَكَلَّمُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَّلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
ومنها أيضاً^(١) :

إِنِّي إِذَا مَا الْخَلِيلُ أَحْدَثَ لِي صُرْماً وَمَلَّ الصَّفَاءُ أَوْ قَطْعاً
لَا أُخْتَمِي مَاءَهُ عَلَى رَتْقِي وَلَا يَرَالِي لِبَيْتِهِ جَزْعاً
أَفْجَرُهُ ثُمَّ يَنْقُضِي غُبْرُ الْـ هِجْرَانٍ عَنَّا وَلَمْ أَقُلْ قَذَعاً
إِخْذَرِ وَصَالَ اللَّثِيمُ إِنَّ لَهُ عَضْبَةً إِذَا حَبَلُ وَضَلِ انْقَطَعاً

ثم من شعراء الكوفة المشهورين الرماد بن أبيرد (وقبل يزيد) من بني مرة بن عوف المعروف بابن ميادة^(٢) كان في أيام هشام بن عبد الملك (١٢٩ - ١٢٤) وأدرك خلافة المنصور العباسي (١٢٦ - ١٣٨) . وأشعاره في الهجاء والمدح والنسيب فقبل إنه كان متعرضاً للشعر طالبا لمهاجاة الناس ومساواة الشعراء وكان مع ذلك فصيحاً يحتاج أهل اللغة بشعره . ومدح بني أمية لا سيما الوليد بن يزيد (١٢٥ - ١٢٦) . ومدح من العباسيين المنصور وجعفر بن سليمان وإلى المدينة . ومن شعره في الوليد بن يزيد^(٣) :

هَمِمْتُ بِقَوْلٍ صَادِقٍ أَنْ أَقُولَهُ وَإِنِّي عَلَى رَغَمِ الْعَدُوِّ لَقَائِلُهُ
رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مَبَارِكاً شَدِيداً بِأَخْنَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلُهُ
أَضَاءَ سِرَاجِ الْمُلْكِ فَوْقَ جَبِينِهِ غَسَدَاةً تُنَاجِي بِالنَّجَاحِ قَوَائِلُهُ

(١) رسالة أبي تمام ص ٥٢٧ من طبعة بن لويج ٢ ص ١٠٣ من طبعة بولاق .
(٢) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٢ ص ٨٨ - ١٢٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٨٤ - ٤٨٥ من طبعة لندن وخزانة الأدب ج ١ ص ٧٧ - ٧٨ و ٢٢٧ - ٢٢٨ من طبعة بولاق .
(٣) كتاب خزانة الأدب ج ١ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ من طبعة بولاق - أما البيت الثاني فهو الشاهد في أن العلم إذا وقع فيه اشتراك اتفاق جاز تعريفه باللام - أخناء جمع خنو وهو الجالب والجهة وقيل هو عنا بمعنى السرج والفتب كنى به عن أمور الخلقة .

ومن جيد شعره في الاشتياق إلى بلاده وطلب الجوائز من الوليد بن يزيد^(١) :

ألا كنتِ شغرى هل أبيتنَّ ليلةً بحرّة ليلى حيثُ ربتني أهلى
بلادنا بها نيطت على تماثلي وقطّعت عني حين أدركني عقلى
وهل أسمعنَّ الدغر أصواتاً هجّمة تطالع من هجل خصيب إلى هجل
فإن كنت عن تلك المواطن حابسي فأفئس على الرزق وأجمع إذا شئلى

ومن ساكنى الكوفة أيضاً أبو كلدة بن عبيد البشكري^(٢) كان أولاً من أنخص الناس بالحجاج بن يوسف ثم ثار عليه مع ابن الأشعث وصار شديد التحريض عليه بالشعر فقتله الحجاج . وأقام أبو كلدة مدة بمدن وقرى شتى من بلاد العجم مثل سجستان وخراسان وكان كثير الغزل والهجاء معاقراً للخمر . فقال في آخر إحدى خمرياتة^(٣) :

سأركض في التقوى وفي العلم بعدما ركضت إلى أمر الغوى المشهر
وبالله حولى وأحبابى وقوى ومن عنده عرق الكثير ومُنكرى

وفي نفس بلاد العجم التي أقام أبو كلدة بها أعنى خراسان وسجستان عاش شاعر عربى مطبوع آخر لا أعرف أهو كوفى الأصل أيضاً أم لا وهو أبو الهندي^(٤) الذي مات بسجستان في أوائل الدولة العباسية . قال فيه

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٨٥ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٢ ص ١٠٨ من طبعة بولاق وسم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٥١ من طبعة ليبسك .

(٢) راجع ترجمته في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١١٠ - ١٢٠ ولم يذكر في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في خزائن الأدب [ولا في طبقات الشعراء لابن سلام] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١١٩ .

(٤) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٧ - ٢٨٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٩ - ٤٣٠ من طبعة ليدن وأسمه غالب بن عبد القدوس في كتاب الأغاني وعبد المؤمن بن عبد القدوس في كتاب الشعر .

صاحب كتاب الأغاني^(١) « كان جَزَل الشعر حَسَن الألفاظ. لطيف المعاني
وإنما أخمله وأمات ذكره بَعْدَهُ من بلاد العرب ومقامه بسجستان وبخراسان
وشغفه بالشراب ومعاقرته إِيَّاه وفسقه وما كان يُتُّهم به من فساد الدين
واستفرغ شعره بصفة الخمر ». ومن قوله^(٢) :

إذا ما أَلَحَّ البَرْدُ فَاجْعَلْ دِثَارَهُ إذا التَّحَفَ الأَقْوَامُ دُكْنَ المَطَارِفِ
ثَلَاثَةَ أَرْطَالٍ نَبِيذًا مُعَصَّلًا تَكُنْ آمِنًا مِنْهُ لَهْ غَيْرِ خَائِفِ
فإنَّ التحافَ المرءَ في جَوْفِ بطنِهِ أَشَدُّ وَأَذَقًا مِنْ جِيَادِ المَلَاكِفِ
وهو أيضاً القائل^(٣) :

اجْعَلُوا إِن مِتُّ يَوْمًا كَفَنِي وَرَقَ الكَرَمِ وَقَبْرِي مَقْصَرَةً
إِنِّي أَرْجُو مِنْ اللَّهِ غَدًا بَعْدَ شُرْبِ الرَّاحِ حُسْنَ المَغْفِرَةِ
فلنتكلم الآن في شعر أهل الحضرة بالشام في أيام بني أمية .

إنَّ قدر نبوغ الشعر العربي في الأصقاع الإسلامية فيما مضى من الزمان
مختلف باختلاف أمرين وهما ميل الخلفاء والسلاطين والأمراء وأكابر الناس
إلى استماع الأشعار وأحوال البلاد من حيث العمران والرفاهية والأخلاق
والتقلبات السياسية . أمَّا ميل الخلفاء والأمراء الأمويين إلى الشعر فلا يُنكَر
فتشهد عليه جملة وافرة من الحكايات والأخبار والأشعار نُعْثِرُ عليها في كتب
الأدب والتاريخ . فلو تأملتم مثلاً حال معاوية مؤسس الدولة الأموية لوجدتم أنَّ
والده أي أبا سفيان بن حرب كان له اليد الطولى في الشعر فضلاً عن التجارة

(١) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٧ .

(٢) كتاب الشعر لابن خنبة ص ٤٣٠ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٩ وحلقة الكيكة للتواحي ص ٩٧ من طبعة مصر ١٢٩٩

(في الباب التاسع) وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٢١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

والسياسة فتروى مقطعات من أشعاره في سيرة الرسول لابن هشام وكتاب الأغاني وغيرهما . أما هند بنت عتبة أم معاوية فهي أيضاً من شواعر العرب فمن أبياتها المشهورة معانيتها الخنساء بمصائبها^(١) .. وكان معاوية كثير الميل إلى قصائد فحول الشعراء الجاهلية محباً لسماح إنشادها عارفاً بفضائلها ومحاسنها حافياً بمن أتاه من أهل الشعر كما يتضح أيضاً مما جاء في كتاب العقد الفريد^(٢) من ذكر الوافدات عليه وأكثرهن شواعر كان معاوية يعرف جملة من أبياتهن . ولم يقتصر على سماع الإنشاد بل كان هو ذاته ينسج الشعر أحياناً ويُدْرِج الأبيات في مكاتباته الرسمية ويتمثلها في محاورته حسبما يلوح مما يروى منها في كتب الأدب والتاريخ^(٣) . أما يزيد بن معاوية فكان شاعراً^(٤) مولعاً بالمنادمة على الشراب ومصاحبة الشعراء فصِّلَتْهُ بالأخطل شهيرة . ومن المشهور أيضاً عِظَم قدر الشعر عند أكثر سائر الخلفاء الأمويين

(١) كتب الأغاني ج ٤، ص ٣٥ من طبعة بولاق وأنيس الجلنداء في ديوان الخنساء ص ٥٨ - ٥٩ من طبعة بيروت ١٨٩٦ وقيل في ص ٥٨ : « وبجملت تماظم العرب في مصيبتها وتقول : أنا أهلم العرب مصيبة . وتبكيهم (يعني أباهما وإخوتها) في شمرها حتى عرفت العرب ذلك منها » .

(٢) كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١١٩ - ١٢٥ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٣) راجع LAMMENS, *Études sur ... Mo'awia Ier*, P. 235 ومحاوره معاوية في كتاب العقد ج ٢ ص ١٠٧ و ١١٣ من طبعة مصر ١٣٠٥ - يروى له أبيات في الباب السادس والثمانين من مروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ٣٠ - ٣١ من طبعة باريس وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ٣٣ .

(٤) تروى له أبيات في كتاب الأغاني ج ١ ص ١٠٤ وج ٢ ص ١٣٦ وج ٧ ص ١٧٨ وج ١٢ ص ١٤ و ١٥٤ وج ١٤ ص ٦٣ و ١١٩ وج ١٦ ص ٢٣ و ٨٨ وفي الباب الثاني والتسعين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٥ ص ١٥٧ و ١٦١ - ١٦٢ من طبعة باريس) وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٢٢ من طبعة ١٣٢٢ - ١٣٢٥ (وينسب هذان البيتان إلى « بعض شعراء الشام » في الباب الثاني والتسعين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٥ ص ١٥٨) وديوان الأخطل ص ٣٥٩ و ٣٦٠ و ٣٨٩ وله ديوان مشهور وقيل إن معظم الشعر المنسوب إليه منقول «

(LAMMENS, *Études sur ... Mo'awia Ier*, P. 419)

(و راجع أيضاً : P. SCHWARZ, *Le Califat de Yazid Ier*, Beyrouth 1921, P. 453; P. SCHWARZ, *Escorial-Studien zur arabischen Literatur und Sprachkunde*, Stuttgart 1922, I, P. 28-72; G. LEVI DELLA VIDA, *Alcuni versi del califfo Yazid I.* (Islamica, II, 1926, p. 373-379).

وجليل خطبه في قلوبهم لاسيما عبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد . فبالجملة كان الشعر لهم غريزة كما كان من سليفة أغلب العرب الصميم . ولتحضيتهم هذا على الشعر دواع أخرى أيضاً عدا ما وصفناه من ميلهم الطبيعي إليه . قد تقدم غير مرة الإشارة إلى عظيم مرتبة الشعر في سياسة العرب في الجاهلية والقرن الأول للهجرة فشبهنا منزلة الأبيات والقصائد السائرة على ألسنتهم بجرائد عصرنا الشائعة في الأقطار المتكلمة عن لسان رجال الأحزاب . فجميع ما بينناه عند الكلام في الصنف السادس من الشعر في أيام بني أمية برهان على ذلك واضح قاطع فلا غرور إذا أن الأمراء قصدوا اجتذاب الشعراء إليهم بالمكافآت الجميلة والصلوات الجزيلة لينتفعروا بهم ويتخذوهم دفاعاً عن أغراضهم بالمديح ومضادةً للأخصام بالهجاء . فترون أحياناً والياً من الولاة ذاهباً إلى مركزه الجديد ومعه بعض الشعراء كأنهم من مستعمليه ومعاونيه في أمور ولايته . وفي الحقيقة ربما استعملت أرباب الدولة الشعراء وأبياتهم لتغيير الرأي العام حسب أغراضهم الخاصة وحمل الناس على ما كانوا في أول الأمر يكرهونه فمثال ذلك مسألة بيعة يزيد في أيام والده معاوية . لا يخفى عليكم أن العرب الصميم كانوا أبعد الناس عن الرضاء بثوارث الخلافة كابراً عن كابر لمصادقة سننهم القديمة المألوفة في اختيار سادة أقوامهم فلما أراد معاوية إثارة أبنه بالعهد دون من سواه أظهر قوم في المجلس شدة كراحتهم لذلك وبعد ما غلب في الوفد الرأي بقبول تولية يزيد العهد احتاج معاوية إلى إغراء سائر الناس بذلك لا سيما في العراق والحجاز فأصبحت شعراء الدولة مساعدين له على هذا الأمر فجاء في كتاب الأغاني ما نصه^(١) : « كان يزيد بن معاوية يؤثر مسكيناً الدارمي

(١) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ٧١ .

ويصله ويقوم بحوائجه عند أبيه فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهيب ذلك وخاف أن لا يحالفه عليه الناس لحسن البقية فيهم وكثرة من يرشح للخلافة وبلغه في ذلك ذرو كلام^(١) بلغه كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر فأمر يزيد مسكيناً أن يقول أبياتاً وينشدها معاوية في مجلسه إذا كان حافلاً وحضره وجوه بني أمية فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس وابنه يزيد عن يمينه وبني أمية حوالته وأشرف الناس في مجلسه فمدل بين يديه وأنشأ يقول « شعراً منه هذه الأبيات^(٢) :
 ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد
 بني خلفاء الله مهلاً فإنما يبوئها الرحمن حيث يريد
 إذا المنبر الغربي خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد
 ومن الشعراء الذين قالوا الشعر في هذه البيعة الأنحط^(٣) العظيم الحظ
 عند يزيد فكثرة صباع مثل تلك الأبيات كانت تؤثر في نفوس الناس تأثيراً
 خفياً وتعودهم شيئاً فشيئاً ما كانوا ينكرونه - ومن هذا الباب أيضاً ما رواه
 أبو زكرياء يحيى التبريزي في شرح الحماسة^(٤) أن عبد الله بن همام السلولي
 كان « مكيناً عند آل مروان وهو الذي بعث يزيد بن معاوية على البيعة
 لابنه معاوية في قوله » :

نَعزُوا يا بني حرب بصبر فَمَنْ هَذَا الذي يرجو الخُلودا
 خلافة ربكم حاموا عليها ولا ترموا بها الغرض البعيدا
 تلقفها يزيد عن أبيه فخذها يا معاوي عن يزيدا

(١) قال الميداني في المثل « ذرى بما عندك يا ليغاه » : « القرو الطرف والقليل من الكلام . . .
 يقال سمعت قرواً من الخبر إذا لم تستقبه » .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ٧١ ، فراجع كتاب الشعر لابن تقيّة ص ٢٤٧ من طبعة

ليدن ونزاة الأدب ج ١ ص ٤٦٦ . (٣) ديوان الأعطل ص ٩٥ سطر ٦ .

(٤) حماسة أبي تمام ص ٥٠٧ من طبعة بن أو ج ٢ ص ٨٤ من طبعة بولاق .

وجاء في كتاب البيان والتبيين للجاحظ^(١) أن عمران بن عصام العنزي^(٢) الشاعر الخطيب وهو الذي أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز والبيعة للوليد بن عبد الملك في خطبته المشهورة وقصيدته المذكورة . فإليه ملح صاحب كتاب الأغاني^(٣) في رواية أوردها بحروفها : « قال الحجاج يوماً لأهل - ثقتي من جلسائه : ما من أحد من بني أمية أشدّ نصيباً لي من عبد العزيز بن مروان وليس يومٌ من الأيام إلا وأنا أتخوف أن تأتيني منه قارعة فهل من رجل اتدّوني عليه له لسان وشعروجلد ؟ قالوا نعم عمران بن عصام العنزي فدعاه فأخلاه ثم قال له اخرج بكتابي هذا إلى أمير المؤمنين فاقدح . في قلبه من ابنه شيئاً في الولاية . فقال له عمران : دس أيها الأمير إلى دس . فقال له الحجاج : إن العوان لا تعلم الخيرة . فخرج بكتاب الحجاج فلما دخل على عبد الملك دفع إليه الكتاب وسأله عن الحجاج وأمر العراق فاندفع يقول :

أمير المؤمنين إليك أهدى على السخط النجبة والسلاما
 أمير من بنيك يكن جوابي لهم أكرومة ولنا نظاما
 فلو أن الوليد أطاع فيه جعلت له الإمامة والذماما
 فكفى بذلك برهاناً على أحد أسباب ميل أهل العقد والحل إلى الشعراء .
 وسبب آخر ما في طبيعة أكثر الناس من حب الفخر والتعريف والمدح فمن

(١) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٣ من طبعة مصر ١٣١٢ .

(٢) ليست نسبة الشاعر بالعرف بل هي العنزي في كتاب الأغاني (ج ١٦ ص ٦٠) . ولم يذكر الشاعر في خزنة الأدب ولا في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في حاشي ابن تمام والبحري [ولا في طبقات ابن سلام ولا في المؤلف للأندلس . ف ضبط العنزي بضم العين وفتح الراء في كتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٥١] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٦٠ - حوان النصف في سنها من كل شيء . قال الميداني في مجمع الأمثال (ج ١ ص ١٣ من طبعة مصر ١٣١٠) : « والخبر من الاختيار كالحلمة من الجلوس اسم للهبة . والحال أي أنها لا تحتاج إلى تعليم الاختيار . يضرب للرجل المجرّب » .
 تاريخ الآداب العربية

سليقتهم أن يَصْغَوْا إلى مباح كلام يلقهم لا سيما إذا كان ذلك الكلام محبباً شديداً الوقوع في القلوب لرونقه وانعجامه . وإن راجت مذائح الشعراء عاد الرواج على المملوحين بمنفعة لا تُنْكَر فلم تفت الجاحظ. (١) أهمية ذلك حيث قال : « ولولا أن دولة بني العباس أعجمية خرسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية ولئى أجناد شامية والعرب أوعى لما تسمع وأحفظ . لما تأتى ولها الأشعار التى تُقيد عليها مآثرها وتخلد لها محاسنها رجرت من ذلك فى إسلامها على مثل عاداتها فى جاهليتها فبنت بذلك لبني مروان شرفاً كثيراً ومجداً كبيراً وتديبياً لا يُحصى ، ولو أن أهل خراسان حفظوا على أنفسهم وقائعهم فى أهل الشام وتديبى ملوكهم وسياسة كبرائهم وما جرى فى ذات من فوائد الكلام وشريف المعانى ، كان فيما قال المنصور وما فعل فى أيامه وأسس لمن بعده ما يبنى بجماعة ملوك بني مروان » . فإن تأملنا ذلك ما استغربنا ما يروى فى كتاب الأغاني (٢) : « أتى نَصِيبُ عَبْدِ اللَّهِ بن جعفر فحمدله وأعطاه وكساه فقال له قائل يا أبا جعفر أعطيت هذا العبد الأسود هذه العطايا فقال والله لئن كان أسود لئن ثناءه لأبيض وإن شعره لعربى ولقد استحق بما قال أكثر مما نال وما ذاك إنما هى رواحل تُنْفَى وثياب تُبلى ودراهم تُنْفَى وثناء يبنى ومذائح تُروى » .

إلا أن المديح كان سبب هيجان طمع الشعراء فى المال وهمتهم الساقطة فقل عدد الذين لم يجعلوا الشعر متجراً وأنفوا من السؤال بالمذائع مثل جميل ابن عبد الله بن معمر الذى يُحكى أنه لم يمدح أحداً قط سوى ذويه وأقاربه (٣) .

(١) كتاب البيان الجاحظ ج ٢ ص ١٥١ من طبعة مصر ١٣١٣ (أوج ٣ ص ١١٧ من طبعة ١٣٥١) .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٣٧ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب العملة لابن رشيق ج ١ ص ٥١ من طبعة ١٣٢٥ .

أما أغلبهم فلم يستحوا من إظهار طمعهم أي إظهار وجعل أنفسهم بمنزلة
الفقراء السائلين كما قال نصيب^(١) :

لعبد العزيز على قسومٍ وغيرهم من غامرة
فبابك ألين أبوابهم ودارك مأهولة هامة
وكلبك آنس بالمعتفين من الأم بابنتها الزائرة
وكفك حين ترى السائلين ن أذدى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومننا الثناء بكل محبرة سائرة

فألف حاجب بن ذبيان المازني قصيدة يمدح بها يزيد بن المهلب بخراسان
فابتداً قاللاً^(٢) :

إليك امتطيت العيس تسعين ليلة أرجى ندى كفئك يا ابن المهلب
وأنت امرؤ جادت مياهه يمينه على كل حى بين شرق ومغرب
ومن هذا الباب أيضاً ما قاله إسماعيل بن يسار في قصيدة أنشدها بين
يدى عبد الملك بن مروان^(٣) :

إليك إمام الناس من بطن يشرب ونعم أخو ذى الحاجة المتعمد
رحلنا لأن الجود منك خليفة وأنت لم يذم جنابك معبد
قد مر عند بيان سائر أصناف الشعر أو عند الكلام في الكوفيين
ذكر شعراء متعددين امتدحوا بنى أمية في بعض قصائدهم الشهيرة ولهم منزلة
عالية في الصناعة مثل كعب بن جعيل والمتوكل اللبكي في أيام معاوية والأخطل

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٤ من طبعة لندن وكتاب الأغاني ج ١ ص ١٣٢ وشرح

التبريزي على سباسة أبي تمام ص ٥٦٧ من طبعة ابن أوج ص ٣ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٠ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٥ من طبعة بولاق .

في أيام يزيد وهلم جراً وسندكر غيرهم أيضاً فيما يتلو . غير أننا نجد مع هؤلاء
النوابغ عدداً غير يسير ممن لم يغفل أبداً عن رتبة الشؤيعر أو الشغور واجتهد
على ذلك في نسج القصائد على أسلوب فحول الجاهلية في المديح وملاها
ألفاظاً طنانة رنانة وتشابيه غريبة وبالع في إطرانه أي مبالغة مثل قول طريح
ابن إسماعيل الثقفي من أهل الطائف في الوليد بن يزيد بن عبد الملك^(١) :

أنت ابنٌ مُسَلَّنَطَحِ البِطَاحِ ولم تُعْطِفْ عَلَيْكَ الْحُسْنَى وَالْوَلَجُ
لَوْ قُلْتَ لِلسَّيْلِ دَعْ طَرِيقَكَ وَالْ حَوْجُ عَلَيْهِ كَالْهَضْبِ يَغْتَلِجُ
لَا تَنْدُ أَوْ سَمَاحَ أَوْ لَكَانَ لَهُ فِي سَائِرِ الْأَرْضِ عَنْكَ مُنْعَرَجُ

ومثل هذه الأبيات التي لا يستحسنها من له النوق السليم ومثل هذه
التشابيه المضحكة لم تندر عند أصاغر المذاح فيروى^(٢) أن عبد الملك بن
مروان قال يوماً : يا معشر الشعراء تشبهوننا مرةً بالأسد الأبخر ومرةً بالجبل
الأوعر ومرةً بالبحر الأجاج ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم في
بنى هاشم ، (الأبيات المروية ص ٢٧٩) .

فخلاصة القول أن أسباب نبوغ الشعر ونضارته بالشام في أيام بنى
أمية خمسة :

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٨ من طبعة ليدن فراجع في كتاب الأغاني ج ٤ ص ٧٩
- ٨٩ ترجمة طريح بن إسماعيل الثقفي الذي (ص ٧٧) « نشأ في دولة بنى أمية واستفرغ شعره في الوليد
ابن يزيد وأدرك دولة بنى العباس ومات في أيام المهدي وقيل الهادي » وقرئ الأبيات المذكورة في كتاب
الأغاني ج ٤ ص ٨٠ - ٨١ وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ وقيل فيه
إن طريح قالها في أبي جعفر المنصور وهذا غير صحيح فانظر كتاب الأغاني في الموضع المذكور وكتاب العقد
ج ٢ ص ٢١٩ .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٠ ويوجد قول عبد الملك هذا أيضاً في كتاب الأغاني ج ١٣
ص ٦٣ ولكن الخليفة ينشد فيه آياتاً لكعب الأشقرى .

(١) ما هو مغرور في قلوب العرب الصميم من الوازع بالشعر منذ الزمان القديم .

(٢) ميل الخلفاء والأمراء الأمويين إلى الشعر وتعطفهم على قائله بل كون كثير منهم شعراء مطبوعين .

(٣) محلُّ الأشعار وتأثيرها فيما يتصل بالأمور السياسية .

(٤) حُظوة المديح عند الخلفاء والولاة وأكابر الناس سواء لمجرد استلذاذهم المذق أم لانتفاعهم بالمدائح السائرة في الأقطار .

(٥) زيادة الترف والرغاية التي يزيد بها نفاق أسواق الآداب .

ومما يستغرب بادئ نظر قلة الشعراء الشاميين من أهل الحضر في خلافة معاوية وابنه يزيد على كثرة الوافدين إليهما المجتمعين بأبوابهما من شعراء أهل البادية . قد بينا فيما سبق (ص ١١٩ - ١٣٥) قدر نبوغ نوع جديد من الشعر وهو الغزل عند الحضريين الحجازيين حتى لا نكاد نعثر عندهم على غيره من فنون الشعر مدة القرن الأول (بعد خلافة عمر بن الخطاب) وفي أوائل القرن الثاني . ووضحنا أيضاً ما بلغه من الانتشار والرونت الشعر في الغزل والخمرات في مدن العراق الجنوبية في ذلك الزمن فضلاً عن الكلام المنظوم المتصل بأغراض الأحزاب والفرق . فمن أين حمل الشعر ذلك عند الحضرة بالشام ومن أين فتورهم في الاعتناء بنسج القريض ؟ ولم امتنعوا مدة عن الغزل والخمرات على الأسلوب المحدث بالحجاز والعراق كما أنهم لم يعرفوا إلا القصائد على منوال القدماء وأهل البادية . إنَّ لذلك أسباباً . تفكروا أولاً فيما تقلم بيانه الطويل عند الكلام عن الصنف الثالث من الشعر أعني أن الذين انتقلوا إلى الشام من جزيرة العرب حين الفتح الإسلامي وبعده كانوا أعراباً ما عدا القليل ونصفهم أو

أكثر كانوا يمتنعون أو منتسبين إلى قبائل اليمن . وقد سبق أن هؤلاء المنتقلين لم يعتادوا الإقامة بالأمصار ولا ألفوا عيشة المدن إلا شيئاً فشيئاً بعد مدة غير قليلة فمكثوا يأنفون سُكنى المدن يحذون إلى التعرُّب أى الرجوع إلى براريهم المتسعة ومفاوزهم الفيحاء بل ذات الخلفاء الأمويين سوى معاوية وعبد الملك كانوا يقصرون البادية وقصورهم في أرض البلقاء كلما لم يمنعه عن الخروج إليها مانع مهم . - أمّا العراق فما ارتحل إليها الأعراب فقط بل توجهت إليها واستقرت فيها جملة من حضريي الحجاز لما نقل علي بن أبي طالب دار الخلافة إلى الكوفة ثم في أيام ذهاب الحسن بن علي وآل الزبير إلى نواحي السواد .

ثم تأملوا ما وقع من الفرق بين أحوال العرب في العراق وأحوالهم في الشام قبيل ظهور الإسلام . من المشهور أن المسلمين حين احتلالهم العراق وجدوا في الجنوبية حضريين من العرب وهم قسم من سكان مملكة الحيرة قد تركوا البداوة منذ الزمان الطويل واتخذوا جزءاً من الحضارة العجمية . فرأينا أن الخمريات التي اشتهر بها شعراء الكوفة والبصرة في أيام بني أمية إنما كانت من جنس الخمريات المتداولة عند شعراء الحيرة أو الوافدين إليها في عهد الجاهلية كأنها بأسرها مذهب شعري واحد متواتر لم يزل في تلك البلاد من قديم الزمان إلى أيام الدولة العباسية . فواضح أيضاً أن وجود أولئك العرب الحضريين في العراق سهل وعجل اختلاط المحتلين الإسلاميين بمن جاورهم من العجم هناك . - أمّا في الشام فالأمر خلاف ذلك . كان الكخميون في العراق في القرن السابق للهجرة من أهل الحضرة أمّا بنو غسان بالشام فلم يزالوا متوسطين فيما بين البداوة والحضارة فكان رؤسائهم قبائلهم يقيمون تارة بمساكن ثابتة بالبناء والمدرة وتارة بنوع من المعسكرات والمضارب

كانوا ينقلونها من مكان إلى مكان للدفاع غارات قبائل الأعراب المستقلة عن حدود مملكة الروم فأصبحت محلاتهم مثل جلق والجابية قارنة بين صفات المعسكر المتنقل والقرية الثابتة جامعة بين أحوال البادية وخواص الحضارة . وكانت نتيجة ذلك أن الجيوش الإسلامية لما فتحو بلاد الشام ما وجدوا في مدنها وقراها سكناً من العرب خلافاً لما اتفق لهم في العراق فأعتمدتهم من يكون واسطة بينهم وبين الأهالي . ولكن أغلب المحتلن من أهل البادية الكارهين القرار في الأمصار تهادى بالشام اليون الكبير بين العرب وبين سكان المدن وهم سريان وروم فما ابتدأ اختلاط عام بينهم بالمعاشرة والمصاهرة إلا نحو أواخر القرن الأول . فبتأخر الاختلاط تأخر انتقال معظم المتغلبين من حال بداوتهم إلى حال الحضارة وتأخر أيضاً عندهم نبوغ الشعر من النوع المؤلف للحضر .

ثم لبقاء الشعر في الشام على منوال قصائد النوايع من عهد الجاهلية سببان آخران أعنى ميل الخلفاء الأولين من بني أمية إلى ذلك النوع من الشعر وشدة سلطة معاوية في بلاد الشام . يروى في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه (١) أن هذا الخليفة الأجل قال مرة لعبد الرحمن بن الحكم : « يا ابن أخي إنك شهرت بالشعر فإنيك والتشبيب بالنساء فإنيك زهر الشريفة في قومها والعفيفة في نفسها ، والهجاء فإنيك لا تعدو أن تعادى كريماً أو تشدبير به لثيماً ولكن افخر ببيت قومك وقل من الأمثال ما توقر به نفسك وتؤدب به غيرك » . فلا شك أن هذا القول ولو لم تصح روايته على هذه الصفة هو ترجيحان فكر معاوية في الشعر كما يظهر من غيره من الأخبار . وحرم معاوية بالشام شرب الخمر وصناعة الغناء على جواز هذه الصناعة بالحجاز . فيروى على صفة استثناء أن عبد الله بن جعفر بن

(١) كتاب العقد ج ٢ ص ٨٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

أبي طالب قدم عليه بالشام فأنزله معاوية في دار عياله ولم ير به بأساً أن يغنى ليلة في تلك الدار ^(١) . ونفذ ذلك التحريم بالشام مدة القرن الأول على غرام بعض الخلفاء بسماع الألحان . ويرى في موضع من كتاب الأغاني ^(٢) أن يزيد بن معاوية كان « أول من سنّ الملامى ^(٣) في الإسلام من الخلفاء وآوى المغنين وأظهر الفتك وشرب الخمر . . وكان يأتيه من المغنين سائب خاثر فيقيم عنده فيخلع عليه ويصيله » . ولكن إن راجعتم الأخبار عن يزيد والمغنين وجدتم أنه كان يلقاهم عادة بالحجاز ولم يقبلهم بدمشق إلا في أندر النادر وسراً بمساعدة أصدقائه المدنيين لا سيما عبد الله بن جعفر ^(٤) . وسائب خاثر المذكور فيما تقدم إنما كان من ساكني المدينة ^(٥) . أما أول الأمويين الذي أدخل المغنين في الشام فالوليد بن يزيد (١٠١ - ١٠٦) وهو أراد أولاً أن يذخلهم خفية مراعاة لخواطر أهل تلك البلاد كما يلوح من رواية كتاب الأغاني ^(٦) : « إن الوليد بن يزيد لما ولي الخلافة بعث إلى المغنين بالمدينة ومكة فأشخصهم إليه وأمرهم أن يتفرقوا ولا يدخلوا نهراً لشألاً يعرفوا وكان إذ ذاك يتستر في أمره ولا يظهره فسبقهم ابن عائشة فدخل نهراً وشهر أمره فحبسه الوليد وأمر به فقيد وأذن للمغنين وفيهم معبد فدخلوا عليه دخلات ثم إنه جمعهم ليلة فغنوا له حتى طرب وطابت نفسه إلخ » .

(١) كتاب المقدّم لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٣ من طبعة مصر ١٣٠٥ وراجع الحكاية في كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٨٩ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٧٠ .

(٣) والملامى (جمع ملهى) هنا الآلات الموسيقية .

(٤) ولعله لم يقبل شاعراً في الشام إلا مرة واحدة (راجع كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٠٣ - ١٠٤ و ١٨٩ من طبعة بولاق) .

(٥) قتل سائب خاثر في سنة ٦٢/٦٨٣ يوم الحرة (راجع آتقاً ص ١٢٣ حاشية ٢) .

(٦) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٨١ - ٨٢ من طبعة بولاق وراجع كتاب المقدّم لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٦٩ من طبعة ١٣٠٥ (وفيه محمد بن أبي عائشة بدلاً من محمد بن عائشة) .

لعلكم تسألون لماذا هذا الكلام في صناعة الغناء وإدخالها في بلاد الشام ؟ ألم تكن نبحت عن صناعة الشعر لا غير ، أقول إن بين الصناعتين صلة قوية لا يجوز إهمال الفحص عنها لمن يريد بيان سير الشعر وتقلباته في أيام بنى أمية . لما تكلمت عن الغزل الحقيقي ببلد الحجاز أثناء القرن الأول أوضحت تعلقه بتقلب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الحرمين وزيادة الترف والرّفه بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى وما فاز المسلمون من الأموال والرقاب وأشرت إلى الاتفاق الواقع بين قدم المغنين والمغنيات من الموالي بمكة والمدينة وبين أوائل انتشار الشعر الغزليّ فيهما . وذكرت أن أولئك الموالي كانوا في بدء الأمر يغنون بالروميّ أو الفارسيّ ثم عدلوا إلى الغناء بالعربيّ فأصبحوا من أشدّ العوامل في إهمال نسج القصائد على منوال المعلقات وتغيير ذوق الظرفاء والمتأدّبين . إنّ الألحان التي دخل بها الموالي والمماليك في المدن الحجازية كانت من الأنواع الميسرة والمطربة وهي مما اخترعه الروم والفرس من أصحاب صناعة الأنغام قروياً للنفوس وبسيلة للقلوب لا سيما في أيام العيد والفرح أو عند المنامة والمجالسة، لما صلحت لها الأهاريف الطويلة الثقيلة ولا أشعار مداوها على وصف أعضاء الناقة ومخاوف الفياض ومتاعب السفر في الرمال وغزوات القبائل إذ لا يُنكر الارتباط الواقع بين نوع النغمة والغناء المتقن الصنعة وبين عروض الشعر وفحواه . وزيدوا على ذلك أن أولئك المغنين أصلهم من العجم والحضر استصعبوا فهم القصائد على المنوال القديم وحفظها بما فيها من غريب الألفاظ وتوحش المعنى . فإن تأملتم أيضاً أن الشعراء من حضريّ العراق والحجاز وجدوا الشعر أسرع رواجاً وأوسع شهرةً وألذ للنفوس وأوقع في قلوب الناس إذا غنّى على آلات السماع تمكّنتم من تقدير ما كان لصناعة الغناء

والألحان من التأثير في تقلب أفانين الشعر . - فالمحتمل عندي أنه أولا منع الغناء المُنْتَقَن والسماع إلى أواخر القرن الأول في بلاد الشام لما تأخر نبوغ الغزل والخمریات عن وقت نبوغهما بالعراق والحجاز بمدة طويلة .

فلجملة هذه الأسباب قلُّ بالشام الشعراء من الحضر (١) إلى أواخر القرن الأول فشعرهم على ما أدخلت فيه العيشة المدنية من رقة العواطف ولينة الألفاظ. وعدوبة الكلام لم يزل متوسطاً بين الشعر الجاهلي وبين الغزل الغالب عند شعراء مدن الحجاز والعراق . أما الخمریات فامتنعوا عنها أثناء القرن الأول وما ذكروا الخمر إلا لمجرد وصفها أو للنشبيه بها مثل قول عدی ابن الرقاع (٢) :

أَمِيدُ كَأَنِّي شَارِبٌ لَعِبَتْ بِهِ عَقَارُ ثَوْتٍ فِي سَجَنِهَا حَبَبٌ سَبَّحَا
مَقْدِيَّةٌ صَهْبَاءُ تُنْخِنُ شَرِبَهَا إِذَا مَا أَرَادُوا أَنْ يَرَاوُهَا بِهَا صَرَحَى
عُصَارَةٌ كَرَمٍ مِنْ حُدَيْجَاءَ لَمْ يَكُنْ مَنَابِتُهَا مُسْتَحْدَثَاتٌ وَلَا قُرْحَا
أَوْ مِثْلُ قَوْلِهِ (٣) :

كُمَيْتٌ إِذَا شَجَّتْ فِي الْكَأْسِ وَزْدَةٌ لَهَا فِي عِظَامِ الشَّارِبِينَ دَبِيبٌ

(١) لا أحد في شعراء الشام من الحضر عبد الرحمن بن الحكم أخا الخليفة مروان بن الحكم (٦٤٤ - ٦٨٣) لأنه أقام بالحجاز مدة بطول من إقامته بالشام بل لم يزل في بلاد البحرين حتى لقاه عبد الله بن الزبير عنها مع سائر بني أمية . وكان متوسط الحال في شعراء زمانه وكان يهاجى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت « (كتاب الأغاني ج ١٢ ص ٧٢) ومن شعره اقريب من نوع الخمریات والخلاصة الأبيات الثلاثة المروية له في كتاب الكامل للمبرد (ص ٧٢ من طبعة لييك أو ج ١ ص ٩٠ من طبعة مصر ١٣٢٣-١٣٢٤) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٢ ص ٧٢-٧٦ .
(٢) كتابه معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٨٩ من طبعة لييك . يروي البيت الأول والثاني في لسان العرب ج ٤ ص ٤١٧ من طبعة بولاق بالرواية « باكونت يهر بها » وهذه الرواية حصار الشاعر شارب خمر .
(٣) كتاب العقد لأبن عبد ربه ج ٢ ص ١١٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

تُريك القَدَى من دونها وهى دونه لوجد أخيها في الإناء قُطوبُ
 فيروى أن سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩) لما سمع هذين البيتين
 قال لعدى بن الرقاع : شربتها ورب الكعبة . قال عدى والله يا أمير المؤمنين
 لئن رأيتك وصنى لها قد رابى معرفتك بها . فتضاحكا وأخذوا في الحديث .
 - فنفس هذه الحكاية تلك على ما أردنا بيانه أى ندرة شرب الخمر عند
 أهل الحضرة بالشام وإمساك شعراءهم عن الخمرات أثناء القرن الأول خلافاً
 لحضر العراق . وما هو مشهور من انهماك الأخطل في الشراب وأشعاره فيه
 لا يدحض قولى إذ كان الأخطل بدوياً عراقياً نصرانياً .

كان عدى بن الرقاع ^(١) السابق ذكره من أقلام شعراء الحضرة بالشام
 مداحاً لبني أمية كثير الحفظ . عندهم لاسيما الوليد بن عبد الملك (٨٦ -
 ٩٦) ومنزله بدمشق وهو من المتجملين في الملبع والنسب الرقيق اللطيف
 الخالى عن تغزل شعراء الحجاز والعراق . ومن أبيانه التى ذكر فيها عنائه
 بإثقان بنية شعره وخبرته بأحوال الحياة ^(٢) :

وقصيدة قد يت أجمع بينها	حتى أقوم ميلها وسادها
نظر المثقف في كُبوب قنائه	حتى يقيم ثقافته منادها
أوما ترى شيباً تفشغ لى	حتى علا وضع بلوح سوادها
فلقد تببت يد الفتاة وسادة	لي جاعلاً لى بدي وسادها
ولقد أصبت من المعيشة للة	ولقيت من شطاف الخطوب شدادها
وعمرت حتى لست أشأل عالماً	عن حرف واجدة لى أزدادها
صلى المليك على امرئ ودعته	وأتى نعمته عليه وزادها

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٧٩ - ١٨٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر
 لابن قتيبة ص ٣٩١ - ٣٩٣ (ج ١ ص ١٧) من طبعة ليدن وترى له أبيات في الكامل المبرد ص ٨٥ من
 طبعة ليسك أ ج ١ ص ٧١ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٤
 - ١٤٥] .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٩٢ من طبعة ليدن .

ومن لطيف شعره^(١) :

ومما شجاني أنني كنتُ نائماً أعْلُلُ من برْدِ الكرى بالتَّسَمِّ
إلى أن بَكَتْ وَرَقَاءُ في غُصْنِ أَيْكَةٍ تُرَدُّ مَبْكَاهَا بِحُسْنِ التَّرَنُّمِ
فلو قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً بِسُعْدَى شَفِيئَتِ النَّفْسِ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
ولكن بَكَتْ قَبْلِي فَهَاجَ لِي الْبُكَاءُ بُكَاهَا فَقُلْتُ الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ
ومن نصّ وارد في كتاب الأغاني^(٢) ومما نقلته آنفاً من كتاب العقد
الفريد يستنج أنه أدرك خلافة سليمان بن عبد الملك .

ومن معاصري عدى بن الرقاع المشهورين شاعر ليس أصله من العرب وهو
أول من قال الشعر الجيد اللطيف بالعربي من السود أحق به نصيب بن
رباح^(٣) مولى عبد العزيز بن مروان . واختلفوا في أصله فلو صحّت رواية
من قال إنه من أهل وُدَّان^(٤) وعبد لرجل من بني كنانة الساكنين هناك
اشتراه عبد العزيز لكان من المغاربة . والمحتمل إذاً أن عبد العزيز^(٥) اشتراه
في أيام ولايته مصر في خلافة معاوية وعبد الملك بن مروان . وعلى كل حال
عاش نصيب بالشام وبها قال . أكثر شعره فيُعَدُّ من المقدمين عند خلفاء

(١) الكامل للبهره ص ٥١٤ من طبعة ليسك أو ج ٣ ص ١٠٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ -
١٣٢٤ ، ويرى البشتان الأخيران أيضاً في شرح التبريزي على حاشية أبي تمام ص ٥٦٧ من طبعة
بن أوج ٣ ص ١٤٢ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٧٩ من طبعة بولاق .

(٣) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١ ص ١٢٩ - ١٥٠ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن

قتيبة ص ٢٤٢ - ٢٤٤ من طبعة ليدن [وراجع *U. RIZZITANO, Add. Mihgan-Naqab ibn*

Rabāh [Rivista degli Studi Orientali, XX, Roma 1949, P. 421-472; XXII, 1947, P. 29-35]

(٤) وهل الأبيح ليست ودان نصيب الملهة المشهورة في أفريقية بل هي موضع بين مكة والمدينة

المنورة يذكره نصيب في أبياته (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٩١٠ من طبعة ليسك) .

(٥) توفي عبد العزيز بن مروان سنة ٨٥٠
٧٠٤

بنى أمية الذين أثنى عليهم الثناء الوافر ونال منهم الجوائز الجزيلة^(١) وهو أجاد المديح والمراثي والنسيب، ونسيبه عفيف بعيد عن الغزل الخليع فيقال إنه لم ينسب قط إلا بامرأته . وتجدر أن أشعاره في كتاب الأغاني فاقصرت على ذكر بيتين له مرويين في حماسة أبي تمام^(٢) معناه كثير الشبه بمعنى أبيات عدى بن الرقاع المذكورة آنفاً :

لقد هتفت في جنح ليل حمامة على فتن وهنا وإني لنائم
كلبت وبيت الله لو كنت عاشقاً لما سبقتني بالبكاء الحالم
رما وقفت على سنة وفاته فالواضح عما جاء في كتاب الأغاني^(٣) أنه كان في قيد الحياة حين أفضت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك سنة ٨٠٤.

كفى ما تقدم دليلاً على قدر الفرق بين شعر الحضر بالشام وشعرهم بالعراق والحجاز في القرن الأول غير أن هذا الفرق اضمحل بعد أوائل القرن الثاني بقليل إذا تقلبت أحوال مدن الشام لاختلاط العرب والأعجمين فيها ولزوال شدة الخلفاء في حكومتهم وأخدم في تقليد أبهة قدماء الملوك من بني ساسان بالمدائن وفخامة ملوك الروم بالقسطنطينية في اللباس والطعام والأواني وجميع أنواع الترف . وجلبت الخيضان من بلاد الروم وأدخلت في دمشق المغنون والمغنيات علنا في أيام الوليد بن يزيد (١٢٤ - ١٢٦) حسبما شرحته فيما تقدم، وأظهر شرب الخمر وفساد الأخلاق ودبت في عرب المدن الخلاعة فبتقلب الأخلاق والعوائد والأهواء تقلبت أفانين الشعر فعمت الشام الأشعار في الخمر والغزل .

ورئيس هؤلاء الشعراء الذين ذهبوا - بلعشق المذهب الجديد الوليد بن

(١) انظر الآيات المروية له سابقاً ص ٢٩١ .

(٢) كتاب الحماسة لأبي تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٤١ - ١٤٢ من طبعة

برلاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٤٨ من طبعة بلاق .

يزيد^(١) الذي وصفه صاحب الأغاني قائلاً^(٢) : « وكان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشعرانهم وأجوادهم وأشدائهم وكان فاسقاً خليعاً مثهما في دينه مرمياً بالزندقة وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكروه الناس فقتل وله أشعار كثيرة تدل على نجبته وكُفِّره ومن الناس من ينسب ذلك عنه ويُنْكِرُه ويقول إنه نحله وألصق إليه والأغلب الأشهر غير ذلك » . وقال بعض الرواة إن الذي أضله مودبه عبد الصمد بن عبد الأعلى وهو كان فيها يقال زنديقاً فحمل الوليد على الشراب والاستخفاف بدِينِهِ^(٣) . فلو جمعنا ما يُعزى إلى الوليد من الأشعار وما يُروى في حقه من الأخبار وما يُنسب إليه من الكلام الكثير الوقاحة والدناءة لاستغربناه كل الاستغراب وتعجبنا منه بتقلده منصب الإمام ولو مدة يسيرة . كيف لا إذ هو القائل على ما نطلع عليه في بعض الكتب^(٤) :

أنا الإمام الوليدُ مفتخراً أجراً بُردى وأسمع الغزلا
أشعبُ ذبلي إلى منازلها ولا أبالي من لام أو عدلا
ما العيش إلا سماعٌ مُحسِنٌ وقهوةٌ تترك الفتي ثملا
لا أرتجى الحورَ في الخلود وهل يأمل حورَ الجنان من عقلا
إذا حبَّتك الوصالَ غانيةً فجازها بذلها كمن وصل

(١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٠١ - ١٤١ و ج ٨ ص ١٦١ - ١٦٢ من طبعة بولاق وكتاب المقدس لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٦٩ - ٢٧١ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفي باب الحادي بعد المائة من مروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ٥ - ١١ من طبعة باريس ورسالة الففران لأبي العلاء المعري ص ١٤٥ - ١٤٦ من طبعة مصر ١٣٢١ [١٣٢٥] ويروى له بيتان « في الهجاءات بالخير والشر مثلاً يمثل » في سماء البحري ص ٢٣٧ من طبعة لندن أو ص ١٦١ عدد ٨٥٤ من طبعة بيروت [وراجع F. GABRIELI, *al-Walid ibn Yazid, il califfo e il poeta* (Rivista degli Studi Orientali, XV, 1934, PP. 1-64)] .

(٢) كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٠١ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٧٨ .

(٤) رسالة الففران ص ١٤٦ من طبعة مصر ١٣٢١ - ١٣٢٥ .

ويقال إنه لما أحيط به دخل القصر وأغلق بابه وقال^(١) :

دَعَا نِي هِنْدًا وَالرَّيَّابَ وَفَرْتَنَى وَمُسَيْعَةً حَسْبِي بِذَلِكَ مَا لَا
خُدُوا مُلْكِكُمْ لَا ثَبَّتَ اللَّهُ مُلْكَكُمْ فَلَيْسَ يُسَاوِي بَعْدَ ذَلِكَ عِقَالًا
وَعُدُوا سَبِيلِي قَبْلَ حَبْرِ وَمَا جَرَى وَلَا تَحْسُدُونِي أَنْ أَمُوتَ هُنَا لَا

غير أن الحكم المُنْصِف في الوليد بن يزيد صعب علينا إذا تأملنا مصادر أخباره وأخبار أكثر الأمويين . فقدت التصانيف التاريخية القديمة فمعظم ما نعرفه من سِيرِ بنِي أُمِيَّة منقول من مؤلفات أعدائهم سواء من أهل الشيعة أم من المنقطعين إلى الدولة العباسية . فأهل الشيعة أفرطوا في تسويد معاريفه ويزيد لما جرى بينهما وبين علي بن أبي طالب وآله . أما المنعصبون ببني العباس فاجتهدوا في تسويد ذكر الآخرين من خلفاء بنِي أُمِيَّة لما وقع من العداوة بينهم وبين بنِي هَاشِم . ثم تفكروا في أمر آخر تقدم التلميح إليه فيما سبق وهو أن الدولة الأموية كانت دولة عربية محضة فأبغضها المسلمون من غير العرب وأسرعوا في قبول روايات العقاديين على بنِي أُمِيَّة بدون إجراء النقد فيها لميل الناس إلى تصديق ما يوافق أهوائهم ، فنتيجة كل ذلك أن المؤرخين المتأخرين مثل ابن الأثير وأبي الفداء اغتصروا وضلوا أي ضلال في بعض ما رووه من أخبار الأمويين . ومن الجدير بالاعتبار ما ذهب إليه بعض الناس منذ أواخر القرن الأول من وضع الأحاديث بُغْضاً لبني أُمِيَّة وأمرائهم فعزوا مثلاً إلى النبي القول بأن سيقوم في بنِي ثَقِيف كاذب ومُبهِّر فلإنهم فسروا هذا الحديث قائلين بأن الكاذب مخار بن أبي عبيد والمُبهِّر الحججاج

(١) رسالة النفران ص ١٤٦ راجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١٦ من طبعة

مصر ١٣٠٥ وفيه تنسب الأبيات إلى يزيد بن الوليد .

ابن يوسف^(١) . وفي حديث آخر مختلف كالسابق يُظهر النبي وهو مُشرف على الموت كراهته لثلاث من قبائل العرب أي بنى ثقيف وبنى حنيفة وبنى أمية^(٢) . وكذلك تُسبب إلى النبي أنه لقي رجلاً قد سعى ابنه الوليد فقال له : أقم تسمون أولادكم بأسماء فراعنتكم إنه سيقوم رجل اسمه الوليد يضرب أمي أكثر مما ضرب فرعونُ شعبة^(٣) . فلو راجعنا الأحاديث الموضوعة من باب الفتن والملاحم والمهدى^(٤) عثرنا على مثل ذلك مما زور لتسويد أغراض الأمويين أو غيرهم من أصحاب الأحزاب السياسية . وفي وضع الأحاديث هذا لمثل هذه الأغراض في القرن الثاني والثالث دلالة على الثقل العظيم الذي حدث في ذلك العصر في هيئة المسلمين الاجتماعية . إن العرب الصميم إلى أواخر الدولة الأموية إذا أرادوا تشنيع أخصائهم وشتمهم إنما استعملوا الأشعار كما سبق بيان ذلك بالتفصيل عند الكلام على الصنف الخامس والسادس من الشعر لأن الشعر فقط كان عند العرب منذ الزمان القديم ديوانَ مفاخرهم ومثالبهم . أما الشعوب الإسلامية غير العربية فما اتخذوا الشعر كسلاح في تخاصم الأحزاب والفرق والملل والتجشوا إلى المصنّفات المنشورة على كثرة أنواعها . ومنها الأحاديث الموضوعة . فمن يرد البحث العميق في تاريخ الأمم الإسلامية فلا بد له من الاطلاع على تلك الأحاديث المختلفة المزورة لأنها في الحقيقة خزانة آراء الفرق وأغراض الأحزاب التي كثيراً لا تتضح من الكتب المؤلفة في العلوم التاريخية فتشبه منزلتها بمنزلة الأشعار السياسية إلى منتصف القرن الثاني.

(١) رآه Goldziher في كتابه *Muhammedanische Studien* ج ١ ص ١٠٠ عن صحيح مسلم ومصابيح السنة للبغوي وابن بدرون .

(٢) راجع الموضع المذكور من كتاب Goldziher ومن الممكن أن بنى حنيفة لم يذكروا في هذا الحديث إلا لكون نافع بن الأرقم وليس الأزارقة منهم .

(٣) راجع GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, II, 109-110

(٤) انظر مثلاً الترمذي وأبا داود وراجع GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, II, P.127

وبعد هذا الاستطراد أرجع إلى سياق الكلام فأقول إن الوليد يروي على المحتمل من أقبح ما يروي عنه من الأخبار والأشعار . ولكن ولو سلمنا ورود التزوير فيها والافتراء في حقه فلا ريب أنه تمادى في الشرب واللذات وأفرط وأن كثيراً مما يُروى من غزلياته وخمرياتة صحيح الرواية موثق به . ولعل غرامه سماع أشعار القدماء الذين عاشوا في مملكة الحيرة لا سيما عدى ابن زيد العبادي أثر في أسلوب شعره تأثيراً عظيماً كما رأينا أنه أثر في شعر الحضر من العراقيين أثناء القرن الأول والثاني للهجرة . فواضح أن منظومات شعراء الكوفة وشعراء دمشق في أواخر الدولة الأموية كانت كواسطة بين خمريات الجاهلية وخمريات البغداديين في أيام بني العباس .

٨- فعلياً الآن أن ننتقل إلى الصنف الثامن من الشعر في أيام بني أمية وهو الذي سمّيته الشعر القصصي البقي .

لما تكلمت عن شعر النصارى في زمن الجاهلية أومأت إلى ما جاء به عدى بن زيد العبادي في بعض قصائده من ذكر حوادث الملوك والأمم السالفة ليكون ذلك الذكر عبرة للمعتبرين، وبرهاناً على زوال الأرضيات بأسرها وعدم بقاء هذه الدار على أحد ، ونصيحة لأولى الألياب لئلا يغرّوا بطيب العيش وأبهة الملك . ومن هذا الباب أيضاً قصيدة حاثية مشهورة منسوبة إلى نصراني آخر من أيام الجاهلية أعنى قس بن ماعدة الإيادي يذكّر فيها بعض من هلك من ملوك حمير الكبار ليتفكّر الإنسان في فناء جميع ما رثما يبغيه وينافس فيه من السودد والمال واللذات^(١) .

ومن المشهور أن بعض المتأخرين سلكوا هذا المسلك من الزهديات لنظم

(١) راجع مثلاً شعراء النصرانية ص ٢١٧ - ٢١٨ أيضاً VON KREMER, *Arabische*

Gedichte, Leipzig 1867, no. 12, p. 16-17.

ما يُشبه مختصر تاريخ الدول منهم عبد المجيد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٩ هـ ناظم القصيدة الطويلة المسماة بالبشامة ألفها عند انقراض دولة بني الأفتس بمدينة يابرة بيد المرابطين سنة ٤٨٥ هـ فلمح فيها إلى أحوال جميع دول الأندلس منذ الفتح الإسلامي فبادرت العلماء إلى شرحها بشرح مطولة أصبحت كتاباً تاريخياً لا غير^(١). ومن أولئك الشعراء أيضاً الذين اتخذوا الزهديات سبيلاً إلى وصف حوادث الدول تشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ صاحب القصيدة الحميرية^(٢) المشتملة على ١٣٥ بيتاً فعلى صفة سؤال أين فلان ذكر فيها مآثر جميع ملوك حمير. وهي قصيدة حائية مثل القصيدة المنسوبة إلى قس بن ساعدة وأولها :

الأمرُ جدُّ وهو غيرُ مزاحٍ فاعملْ لِنَفْسِكَ صالحاً يا صاحِ
كَيْفَ البَقَاءُ مَعَ انْخِلَافِ طَبَائِعِ وَكَرُّ لَيْلٍ دَائِمٍ وَصَبَاحِ
وبعد المطلع المحتوى على تسعة أبيات في الزهد يبتدىء الشاعر يقول :

أفأين هودٌ ذو النقيِّ وَوَحِيَّةٍ قَحْطَانُ زَرْعُ نُبوَةٍ وَصِلَاحِ
أَمْ أَيْنَ يَغْرُبُ وَهُوَ أَوَّلُ مُغْرِبٍ فِي النَّاسِ أَبْدَى النُّطْقِ بِالْإِفْصَاحِ
ثم ألف تشوان شرحاً مطولاً على قصيدته ليفصل بيان الأخبار الملمح إليها في النظم وأدرج في الشرح جملة من أشعار منسوبة إلى أهل حمير القدماء وملوكهم فتعزى أبيات إلى الحارث الرائش أول التباينة على رأى أصحاب الكتب في السير والتواريخ من العرب وتعزى أبيات أخرى إلى أسعد تبع والتبع الأكبر الرائد وأسعد كامل وغيرهم فضلاً عما يُنسب إلى الشعراء

(١) فليراجع مثلاً شرح ابن بدون المطبوع بليدن سنة ١٨٤٨ [و بمصر سنة ١٢٤٠].

(٢) احتق المشتق A. von Kremer بشر من القصيدة ونقلها إلى اللغة الألمانية

(A. VON KREMER, Die himjarische Kasisch, Leipzig 1863).

غير الملوك ومدار الأشعار على مآثر أهل حمير ومفاخرهم وقصورهم المشيدة
ومبانيهم العظيمة وما فتحوا من البلاد في أقاصى الأرض مثل فارس والهند
والصين من جهة الشرق وطنجة وكانتنبو من جهة الغرب وبلاد السودان .
فمثال هذا الشعر ما يُنسب إلى التبع الأكبر^(١) (من بحر الطويل) :

أنا تبع الأملاك من نسل حمير ملكنا عباد الله في الزمن الخالي
ملكناهم قهراً وسارت خيولنا إلى الهند والأنبار تروى بأبطال
وكلّ عباد الله قد وطئت لنا خيولاً لعمرى غير نكس وأعزال
فجالت لدى شرق البلاد وغربها لهتك ستور (فتية) ذات أحجال
وعُطلّ منها كل حصن منع ونقل منها ما حوتهُ من المال
وتلك (تروع) الأرض منها وطاءها إلى الصين والأمراك حالا على حال
فأبنا جميعاً في السبايا وكلّنا على كل محبوبك من الخيل صهال
بكلّ فتاة لم ترَ الشمس وجهها أسيلة مجرى الدمع بيضاء مكسال
صموت البُرى غرّى الوشاح كأنها من الحسن بلر زال عن غيم هطال

وبعض أبيات النبابعة المروية في شرح نشوان قد جاءت أيضاً في كتاب
المعارف لابن قُتَيْبَة^(٢) المتوفى سنة ٢٧٦ من دون ذكر المصادر التي نُقلت
عنها وقليل منها وَاِرد أيضاً في كتب غيره . - ومن المشهور القصيدة الطريفة
لَعَلْقَمَة ذى جَدَنَ الحِمَيْرِي^(٣) الشاعر الذي وصف فيها ما ذاق من اللذات

(١) طبع للث في A. VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, No. 19, P. 17-18 والنقل في

VON KREMER, *Uebers. die sudarabische Sage*, Leipzig, 1856, p. 75-76.

(٢) كتاب المعارف ص ٣٠٤ - ٣١٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٠ أو ص ٣٠٩ - ٣١٤

من طبعة مصر ١٣٠٠ .

(٣) تروى له قصيدة أخرى في جمهرة أشعار العرب في باب أصحاب المرائى ص ١٢٧ - ١٢٨

من طبعة بولاق ١٣٠٨ وفي نيل الأريب في قصائد العرب ص ٧٠ - ٧١ من طبعة مصر ١٨٩٥ وطأ ستة

ومشرون بيتاً وقيل في جمهرة أشعار العرب إن اسمه علقمة وقيل في كتاب الأغاني (ج ٤ ص ٢٧ - ٢٨ من

طبعة بولاق) إنه هلس . أما ذو جدن فهو قوم شريف في اليمن فراجع HARTMANN, *Die arabische*

Frage, Leipzig 1909, P. 324-325.

سابقاً وما كان لقصر عُمدان من الفخامة قبل كَرِّ الدهور عليه وذَكَرَ هلاك
ذى نواس آخر ملوك حِمَيْر وهي قصيدة تُروى في سيرة الرسول لابن هشام^(١)
وتاريخ الطبرى^(٢) وغيرهما . ويرى لدى رُعيْن الحميرى الشاعر أبيات
مشهورة متعلّقة بأحوال اليمن القديمة^(٣) :

أَلَا مَنْ يَشْتَرِي يَوْماً بِدَهْرٍ قَلِيلاً مَا بِبَيْتٍ قَرِيبٍ رُعيْنِ
أَبَيْنَا الْغَدْرَ إِذْ رَغِبْتَ إِلَيْهِ مَقَاوِلُنَا فَأَمْسُوا رَهْنَ حَيِّنِ
فَإِنْ نَكَ حِمَيْرٌ غَدَرَتْ وَخَانَتْ فَمَعْدِرَةُ الْإِلَهِ لَدَى رُعيْنِ

وجميع هذه الأبيات والقصائد المتصلة بأخبار اليمن ومفاخرها في زمان
الجاهلية المتداولة في القرن الأول للهجرة حسبما نبينه عن قريب هي ما
سمّيته الشعر القصصى اليمنى مستنداً في اختيار لفظ القصصى إلى اصطلاح
كُتّبة العرب في القرون الوسطى . وهذا يستلزم شرحاً قصيراً على سبيل
استطراد .

لَمَّا نُقِلَتْ كُتُبُ أَرِسْطُوطَالِيْس في صناعة الشعر إلى العربية اشتد تحير
المرجمين في تعريب الموضوع والاصطلاحات لعدم موافقة أنواع الشعر عند
اليونان لأنواعه عند العرب . ومن الأنواع المجهولة عند الناطقين بالضاد المسمى
باليونانية *epikē* وهو لفظ معناه الأصلى قَصَصٌ (من قَصَصَ القِصَصَ) غير
أنَّ اليونان اصطَلَحوا به على جنس من الشعر ليس له مقابل في الآداب
العربية . فلَمَّا قام ابن رشد الأندلسى بتلخيص كتاب أَرِسْطُوطَالِيْس في صناعة
الشعر استعمل لفظ القصصى وبينه بياناً يُظهِر أَنَّهُ لم يكن يُحِيط بذلك

(١) سيرة الرسول من ٣٦ - ٣٧ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ١ ص ٩٢٨ - ٩٢٩ من طبعة لندن .

(٣) ترى الأبيات في سيرة الرسول لابن هشام ص ١٨ من طبعة غوتنجن وكتاب المعارف

لابن قتيبة ص ٣٠٩ من طبعة غوتنجن و A. VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, p. 13, No. 49

النوع من الشعر اليوناني علماً يقيناً ولا رصنه معرفة فقال ^(١) : «الأشعار القصصية مسبلها في الأجزاء التي هي المبدأ والوسط. والنهاية سبيل أجزاء صناعة المديح وكذلك في المحاكاة إلا أن المحاكاة لا تكون للأفعال فيها وإنما تكون للأزمنة الواقعة فيها تلك الأفعال وذلك أنه إنما يحاكي في هذه كيف كانت أحوال المتقدم مع أحوال المتأخر وكيف تُنقل الدول والممالك والأيام . ومحاكاة هذا النوع من الوجود قليل في لسان العرب وهو كثير في الكتب الشرعية . وذكر مُجيدٍ في هذا الصنف من شعراهم وأثنى ثناء عاماً على أوميرش . ومن جيد ما في هذا المعنى للعرب قول الأسود ابن يعفر :

ماذا أومل بعد آل مُحرق تركوا منازلهم وبعد إيراد
أرض الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سندان
نزلوا بأنقرة يسبل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد
فأرى النعيم وكل ما يلتهى به يوماً يصير إلى بل ونفاد ^(٢)

لنتضح من هذا النص أن ابن رشد لعدم دراية له بشيء من الآداب اليونانية لم يتوصل إلى فهم كلام أرسطوطاليس وزعم أن الأشعار القصصية هي الأشعار المتوسطة بين الزهد وتاريخ الأمم على منوال ما أشرت إليه من قصائد

(١) تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر لأبي الوليد بن رشد ص ٤٠ - ٤١ من طبعة فيرنسنة سنة ١٨٧٢ وكتاب علم الأدب : مقالات مشاهير العرب لشيخوخ ج ٢ ص ٢٩٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩ . [راجع أيضاً F. GABRIELI, *Estetica e Poesia araba nell' interpretazione della poetica Aristotelica ... (Rivista degli Studi Orientali, XII, 1929-1930), p. 394 n. 2, PP. 322-324*]

(٢) الأبيات مروية في شعراء النصرانية ص ٤٨١ وكتاب الأغاني ج ١١ ص ١٣٤ - ١٣٥ من طبعة بولاق وكتاب صفة جزيرة العرب لهما ص ١٧١ و ٢٢١ من طبعة لندن ١٨٨٤ وسمي البلدان ليهوت ج ١ ص ٣٩١ و ج ٢ ص ١٦٥ من طبعة ليملك .

عدي بن زيد وقّس بن ساعدة . - وفي كتاب حديث وهو « تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو » تأليف المقليمي^(١) سمي ذلك النوع من شعر اليونان بالشعر الحماسي وهو تعريب بعيد جداً يدلّ على قلة المعرفة بآداب الغرب . فقال المؤلف إنّ ذلك الشعر « رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشجعان » وإنّ « موضوعه الوقائع الملققة المشتعلة على خرائب الشجاعة وتوادر الفروسيّة » ثم إنّ الشعر العربيّ « يوجد فيه [أيضاً] من الشعر الحماسي وهو الذي روى فيه أخبار الحروب وأطنب بشجاعة الشجعان » وبعد ذكر أسماء الأناشيد الشهيرة من ذلك النوع من الشعر عند أمم مختلفة أضاف إليها « كتب الحماسة للعرب وأشهرها كتاب الحماسة لأبي تمام » . فالواضح أنّ المقدسيّ اغترّ في وصفه هذا بنفس الاصطلاح الذي اختاره لتعريف ذلك الشعر .

إنّ الشعر القصصيّ المراد في كتب أرسطوطاليس الموجود عند اليونان والرومان والهند والفرس والأمم الإفرنجية عبارة عن أناشيد طويلة جداً مشتملة على ألوف أبيات لم يصنفها الشاعر للتعبير عما في صدره من العواطف والشعائر أو عما رآه وعائنه وحضره من الأفعال والبلاد والحوادث والرجال كما هي العادة في أشعار العرب التي لا تلمح إلى آثار السلف إلا على سبيل الافتخار أو الهجاء أو الاعتبار الزهديّ، بل نسجها الشاعر القصصيّ متكلماً عن لسان أمة بأسرها راوياً ما حدث لكلّها من الحوادث العظمى في عصر من العصور القديمة أو ما اتفق لرجل من الأكابر أنخذ كالبطل الممثل لجلالة جميع الأمة وعمراتها فكانت الأنشودة القصصية عند القدماء مرآة أخلاق الأئمة وأميالها ومستودع مآثرها وخلاصة مفاخرها المتوارث ذكرها جيلاً عن جيل ،

(١) طبع في مصر سنة ١٩٠٩ انظر ص ١٥٩ و ١٦٠ و ١٦١ .

وهي آثار نظمها الشاعر بعد مدة طويلة وزينها وحلّها بمسحر البيان وجعلها متصلة بعضها ببعض وفيها الروايات الغرامية وحكايات شتى ليس لها صلة ضرورية بالحروب والحماسة وفيها ذكر الحوادث العجيبة لشداخل الآلهة والجنّ والشياطين وغيرهم مما كانت تلك الأمم تعتقد وجوده والغرض من تلك الأناشيد حفظ آثار الأمة المجيدة القديمة وتحريك النفس لقبول الفضائل والحث على الشجاعة وأنواع الكرم. فيسهل عليكم تصور ماهية تلك الأناشيد إذا أطلعتم على الوحيدة منها التي نقلت إلى العربية أعني إلياذة هوميروس ترجمها حديثاً سليمان البستاني بما له من طول الباع في اللغتين اليونانية والعربية وبما له من الحفظ الوافر في صناعة القريض^(١).

فلنرجع إلى ما كنا فيه من الكلام . قد رأيت أن الأشعار المشار إليها المتعلقة بأخبار اليمن توافق تعريف ابن رشد للشعر القصصي توافقاً تاماً فحملني هذا الوفاق على انتخاب هذا الاصطلاح . فينبغي علينا أن نوضح ما أصل هذه الأشعار الحقيقية وما غرضها .

إن عدم الموافقة بين أخبار الأشعار المنسوبة إلى الثبابعة وبين أخبار الكتابات الحميرية الحقيقية أدل دليل على أن الأشعار مختلفة . ولكن ولو لم نكتشف في السنين الأخيرة تلك الكتابات أو لم نتوصل إلى قراءتها وتفسيرها لكان تزوير الأشعار واضحاً من نفسه إذ من المعلوم أن قدماء اليمن لم يعرفوا العربية وإنما استعملوا السبئية أو الحميرية فليست رواية أبيات الثبابعة أصح من رواية الأبيات العربية التي تعزى في بعض الكتب إلى سيدنا آدم . — هذا من أمر أشعار الملوك ومعاصريها .

(١) ولم يفت نقصان هذا النوع من الشعر ضياء الدين بن الأثير الجزري فليراجع ما قاله في آخر كتاب المثل السائر من ٥٠٣ من طبعة بولاق ١٢٨٢ له من ٣٢٤ من طبعة مصر ١٣١٢ .

أما الأشعار المنسوبة إلى علقمة ذي جَلَدَن وإلى ذي رُعَيْن المتأخرة عن موت ذي ترأس فيلوح من بعض عباراتها أَنَّ أصحابها مسلمون . فليس من المُحال أَنَّ علقمة ذا جلدن وذا رعين شاعران عاشا في أوائل الإسلام . غير أن وجودهما لا يخلو من ريب فيه كما يتضح مما يتلو من كلاهما .

يُستنتج من مقابلة الأشعار المتفرقة في كتب ابن قتيبة وابن هشام والطبري وغيرهم على روايتها الواسعة في شرح نشوان بن سعيد على قصيدته أن المصدر الأصلي لجميعها إنما هو كتاب الملوك وأخبار الماضين^(١) لعبيد^(٢) ابن شُرَيْبَة الجَرْمِي الذي أدرك خلافة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) وكان من اليمنيين الذين وفدوا على معاوية بن أبي سفيان . وقيل إنه جمع أخبار اليمن من ألسنة أهل صنعاء ومن قدرته على اختلاق الأخبار مثال في كتاب ابن خلكان في ترجمة الشريف الرضي^(٣) . وتعرفون أيضاً أن القصص من اليمن كثيرون في القرن الأول ومن أشهرهم وهب بن منبه (المتوفى سنة ١١٠ أو ١١٤) صاحب الإسرائيليات وغيرها من الكتب التي هي أقرب إلى الخرافات منها إلى التواريخ الحقيقية . ومن المزورين المعاصرين لعبيد بن شربة يزيد بن مفرغ الحميري المتوفى سنة ٦٩ الذي سبق ذكره في شعراء الصنف السادس قيل في حقه في كتاب الأغاني^(٤) : وقال [أبو العيناء] : سئل الأصمعي عن شعر نُبُع وقصته ومن وضعها فقال

(١) [راجع ما قاله في هذا الكتاب وتوابعه الصحيح O. Brockelmann في *Geschichte der arabischen Literatur, Erster Supplementband, P.100*]

(٢) واسمه عبيد بن يزيد بن مفرغ الحميري المتوفى سنة ٦٩ الذي سبق ذكره في شعراء الصنف السادس قيل في حقه في كتاب الأغاني^(٤) : وقال [أبو العيناء] : سئل الأصمعي عن شعر نُبُع وقصته ومن وضعها فقال

(٣) واسمه عبيد بن يزيد بن مفرغ الحميري المتوفى سنة ٦٩ الذي سبق ذكره في شعراء الصنف السادس قيل في حقه في كتاب الأغاني^(٤) : وقال [أبو العيناء] : سئل الأصمعي عن شعر نُبُع وقصته ومن وضعها فقال

(٤) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ٥٢ .

ابن مفرغ وذلك أنَّ يزيد بن معاوية لما سيَّره إلى الشام وتخلَّصه من عباد ابن زياد أنزله الجزيرة وكان مقيماً برأس عين وزعم أنه من حمير ووضع سيرة تبَّع وأشعاره .

أما أسباب الاختلاق فظاهرة وهي ميل الناس إلى الأخبار العجيبة وما رجا الرواة من المكسب بها وحبَّ كلَّ شُعْبٍ للافتخار بأجداده ولاسيَّما ما وقع من التخاصم والمنافرة بين عرب عدنان وعرب قحطان في القرن الأول للهجرة . وغرض بعض الذين وضعوا تلك الأشعار في أخبار ملوك حمير افتخار اليمنيين وحطَّ عرب نزار الذين لم يكن لهم مآثر تقابل مآثر أهل اليمن في قديم الزمان . وهي الطريق التي سلكها سائر الأمم الإسلامية في مثل ذلك كما شرحته في دروس السنة الفاتنة^(١) لما تكلمت عما اختلق ابن وحشية (أو بالحرى أبو طالب الزيات) من الكتب المنسوبة إلى النبط . وهي أيضاً منهج المصريين عند تزويرهم أخبار الفراعنة وتدوينها في الكتب وهو أيضاً الداعى الذى حمل الشعراء الفارسيين دقيقى وفردوسى إلى تأليف الأنشودة العظيمة المحياة بشاهنامه . غير أنَّ الفرس قد حفظوا كثيراً من كتبهم القديمة باللغة البهلوية في السير والتواريخ فما اضطرُّوا إلى تلفيق ما وصل إليهم من الأخبار .

ومن الجدير بالذكر أنَّ المزورين اليمنيين لئلاً يُظهروا غرضهم بل لئنال أشعارهم القبول عند الخلفاء وسائر العرب وضعوا أبياتاً للحارث الرائي أول التبابعة تنبئ مجىء النبی بعد قرون^(٢) ورووا أنَّ أسعد كاملاً كان مؤمناً وآمن بالنبي (صلعم) قبل مبعثه بسبعمئة سنة وقال :

(١) [راجع علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى لكرلو فلينو ص ٢٠٨ - ٢١٠] .

(٢) كتاب مروج الذهب للمسعودى في الباب السادس ج ١ ص ١٢٣ من طبعة باريس .

شهدتُ على أحمد أنه رسول من الله باري النسم
 فلو مُدَّ عُمُرِي إلى عمره لكنت وزيراً له وابنَ عمٍّ^(١)
 فستروا غشهم بإظهار التقى^(٢).

٩- وعلينا الآن أن نتكلم عن النوع التاسع الأخير وهو المراثية وإننا نجد في معظم شعر الشعراء المتقدم ذكرهم شيئاً من المراثي ولكن هذا النوع نفسه إنما خصت به النساء فلئن لم يأخذن يقلن الشعر في غير هذا الجنس إلا في عصر بني العباس وما يعجبنا عند قراءة مراثي العصر الأموي مشابعتها لمراثي الجاهلية ولذلك أسباب شتى منها قلة التنوع الشعري والإلهام الشعري عند العرب القدماء وعادتهم أن ينسجوا على منوال الأولين وأخيراً اختصاص النساء بهذا النوع وهن محافظات لسنة السلف دون غيرهن.

(١) يشير إلى ذلك von Krenner في كتابه *Ueber die seldarabische Sage*, P. 63

(٢) [انتهت هنا النسخة العربية من هذه الدروس فنقلت السطور التالية من المصودة التي كتبها أبي باللغة الإيطالية].

فهرست الأعلام

- ابن أبي عبيدة ٢٤٦
 ابن صريح (ممن) ١٢٣
 ابن سبحة ١٢٩
 ابن عبدون ٣٠٦
 ابن محرز (ممن) ١٢٣
 ابن المعتز ٣٩ ، ٢١٥
 ابن مفرغ ٢٥٩ ، ٣١٣
 ابن ميادة ٢٨٣
 أبو تمام ٥٨
 أبو خراش خويلد بن مرة الحلبي ١١١
 أبو دهب الجمحي ١٢٢
 أبو دؤاد الإيادي ٨٩
 أبو ذؤيب خويلد بن خالد الحلبي ١١١
 أبو الزلفاء البصري ٢٤٦
 أبو السائب الخزوي ١٣٤ ، ١٣٥
 أبو سفيان بن حرب ١٠٨ ، ٢٨٥
 أبو هجر الحلبي ١٤٢
 أبو العباس الأحمي ٢٥٨ ، ٢٦٣
 أبو العتاهية ١٤٠
 أبو عطاء أفلح بن يسار السندي ٢٧
 أبو فراس الحمداني ٢١٥
 أبو كلدة بن عبيد اليشكري ٢٨٤
 أبو محسن الثقفي ١٠٩
 أبو النجم العجلي ١٩١
 أبو نخيلة الحماني الرازي ٢١١
 أبو نواس الحسن بن هاني ٢١٥
 أبو الهندي ٢٨٤
- الأحوص الملقب الأنصاري ١٣٠
 أحيحة بن الجلاح الأوسي ٢١٤
 الأختل ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٧ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ،
 ٢٧٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٩
 إسماعيل بن عمار بن عيينة ٢٨٠
 إسماعيل بن يسار النسائي ٢٦٥ ،
 ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٩١
 الأسود بن يعفر ٣٠٩
 أعتشى بن ربيعة ٢٥٧ ، ٢٧٢
 الأعتشى ميمون ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٥
 أعتشى همدان ٢٢٣ ، ٢٢٤
 الأغلب بن جشم المعجل ١٨٧ ، ١٨٨
 الأفوه الأودي ٧٩
 الأقيشر الأسدي ٢٧٨
 أم الثواب من بني حزان ٢٦
 امرؤ القيس بن حجر ٦٧ ، ٧٤ ،
 ٧٥ ، ٨٩ ، ١٨٦
 أمية بن أبي الصلت الثقفي ٩٣ ، ٢٠٨
 أنس بن زعيم الليثي ٢٧٦
 أوس بن حجر التميمي ٨٤ ، ٩٨
 أيمن بن خريم الأسدي ٢٧١ ، ٢٧٩
 البحري ٤١
 البيث المجاشعي ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٩٠
 بكر بن خارجة ٢٧٣
 ثابت شراً النهدي ٧٢

التبع الأكبر ٣٠٧
 توبة بن الحمير ١٣٧
 ثابت قطنة ٢٥٣ ، ٢٥٥
 جامع بن مـ نخبة الكلابي ١٣٣
 جبير بن أيمن ١٢٩
 جروك بن أوس الخطيئة ١٠٩
 جريب ١٣٥ ، ١٦٨ ، ١٧٨ ، ١٧٩
 ١٩٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢
 جزم بن ضرار ١١١
 جميل بن عبد الله بن معمر العذري
 ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٢٩٠
 جواس بن قطبة ١٤٠
 جواس بن قعطل ٢٢١
 حاتم بن عبد الله الطائي ٧٩
 حاجب بن ذبيان المازني ٢٩١
 الحارث بن حازة ٧٤ ، ٧٥
 الحارث بن خالد العاصي الخزوي ١٢٤
 الحارث بن الراش ٣٠٦
 الحارث بن هشام بن المغيرة ١٠٨
 حارثة بن بدر الغداني ٢٧٥
 حسان بن ثابت الأنصاري ٨٧ ، ٨٨
 ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٢٩
 الخطيئة انظر: جروك بن أوس الخطيئة
 الحكم بن عبد الله الأسدي ٢٨٠ ، ٢٨١
 حكيم بن عياش الأعور الكلبي ٢٤٦
 حميد الأرقط ١٩٠
 حنين بن بلوغ الحميري ٢٧٧
 خالد بن أبي أيوب ١٢٩
 الحسناء ٨١
 دريد بن الصمة الجشمي ٨٠
 دعلج ٢٤٦

دكين بن رجاء من بني ققيم ٢١١
 دكين بن سعيد الداري ٢١١
 ذو الإصبع العلواني ٨٠
 ذو الرمة ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٩٠
 ٢٧٢
 ذو رعين الحميري ٣٠٨ ، ٣١٢
 ذو كنان انظر : عمار بن عمرو
 الراعي ١٨١ ، ٢٧٢
 الربيع بن أبي الحقيق ٧١
 ردي بن عيسى النقعسي ٢١٤
 الرماد بن أبرد انظر : ابن ميادة -
 رؤية بن العجاج ١٩٤ ، ٢١١
 زفر بن الحارث العامري ٢٢١
 الزبيان ٢١٢
 زهير بن أبي سلمى المزني ٧٤ ، ٧٧ ، ١٨٧
 زهير بن جناب الكلبي ٨١
 زياد بن سلمى الأعجمي ٢٦٣
 زيد بن عمرو بن نفيل ٩٨
 سائب خاثر (مغن) ١٢٣ ، ٢٩٦
 سبحان بن زفر الوائلي ١١٨
 سبحان وائل ٢٢٢
 السري بن عبد الرحمن ١٢٩
 سعيد بن المسيب ١٣٢ ، ١٣٣
 سلامة بن جندل التيمي ٨٠
 السموم بن عاديا ٧١
 سهم بن حنظلة الغنوي ٢٥
 السيل الحميري ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣
 سبعة بن غريص ٧١
 شعبة بن غريص انظر : سبعة بن
 غريص
 الشماخ بن ضرار النسياني ١١٠ ، ١٨٩

العجاج ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٠

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١

العجير السلولى ١٨٣

على بن الرقاق ٢٩٨ ، ٣٠١

على بن زيد للعبادى ٨٩ ، ٩١ ،

١٥٤ ، ٢٧٢ ، ٣٠٥

الحديل بن الفرخ العجلى ١٨٢

العرجى انظر : عبد الله بن عمر العرجى

عروة بن أذينة ١٣٣

عروة بن حزام العذرى ١٣٨ ، ١٣٩ ،

عروة بن الورد ٧٨

عطاء بن أبى رباح ١٣٥

عقبة بن رؤبة بن العجاج ٢١٢

عقيل بن علفة المرى ١٨٣

علقمة ذو جلدن الحميرى ٣٠٧ ، ٣١٢ ،

علقمة الفضل ١٨٧

على بن أبى طالب ١١٧

عمار بن عمرو ذو كئاز ٢٧٦

العمانى ٢١٣

عمر بن أبى ربيعة الخزوى ١٢٤ ،

١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٥

عمر بن بلأ ١٨٣ ، ١٩٠

عمران بن حطان السدوسى ٢٣٥ ،

٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩

عمران بن حصام العربى ٢٨٩

عمرو بن كلثوم ٧٤ ، ٧٥ ، ١١٤

عمرو بن معد يكرب الزبلى ١١١

عنزة بن شلاد العبسى ٧٤ ، ٧٦ ،

١٢٠ ، ١٨٧

عوف بن ذروة ٢١٤

عويج الطائى ٢٢٢

الشمر دل بن شريك اليربوعى ١٩٠ ، ٢١٤

الشنقرى الأزدى ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤

الصلتان العبدى ١٨٣ ، ٢٦٩

ضرار بن الخطاب القهرى ١٠٨

طرفة بن العبد ٢٨ : ٧٤ ، ٨٣ ، ٨٩

١٨٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤

الطرماع بن حكيم ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٧٢

طريح بن إسماعيل الثقفى ٢٩٢

طويس (مغن) ١٢٣

العباس بن الوليد بن عبد الملك ٢٦٠

عبد الله بن أبى معقل بن نبيك بن

إساف الأنصارى ١٢٩

عبد الله بن الزبيرى ١٠٨

عبد الله بن الزبير الأسدى ١٦٤ ،

٢٥٨ ، ٢٧٢

عبد الله بن عمر العرجى ١٣١

عبد الله بن كراع ٢١٤

عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلى ١٣٢

عبد الله بن همام السلولى ٢٨٨

عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى ١٣٥

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت

الأنصارى ١٥٥ ، ٢٩٨

عبد الرحمن بن الحكم ٢٩٥ ، ٢٩٨

عبد الصمد بن المعدل ٢١٥

عبد الوهاب بن على البغدادى ١٥٣

عبيد بن الأبرص الأسدى ٨٢ ، ٨٣

عبيد بن شربة الجهمى ٣١٢

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن

مسعود ١٣٢

عبيد الله بن قيس الرقيات ٢٥٦

عثمان بن الوليد بن عمارة القرشى ١٥٠

عويص القوافي الفزاري ١٨٤

الفريض (مغن) ١٢٤

القرزوقي ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ،

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢٧٢

الفضل بن عبد الصمد الرقاشي ٢١٥

قس بن مساعدة الإيادي ٩٨ ، ٣٠٥

القطامي ١٤٦ ، ٢٢٥

قطري بن الفجاعة ٢٣٥ ، ٢٣٨

قيس بن الخطيم الأوسي ٩٢

قيس بن فريح الكثاني ١٣٨

قيس المكشوح المرادي ١١٥

كثير عزة ١٤٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ،

٢٤٥ ، ٢٧٢

كعب الأشقري ٢٢٥

كعب بن جعيل ١٥٥ ، ٢٣٠ ، ٢٩١

كعب بن زهير ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٤

الكحيت بن زيد الأسدي ٢٤٥ ،

٢٥٠ ، ٢٧٢

ليد بن ربيعة العامري ٢٤ ، ٧٤ ،

٧٨ ، ٨٧ ، ١٨٦

مالك بن أبي السمح (مغن) ١٢٣

مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري ٢٨٠

الملتصم ٢٥ ، ٨٤

متمم بن نورة اليربوعي ١٠٨

المتوكل بن عبد الله الليثي ١٥٦ ،

٢٨٢ ، ٢٩١

مجنون ليلى ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢

محارب بن دثار الدهلي ٢٥٢

محمد بن عبد الله النخعي ١٣٢

محمد بن يسار ٢٦٣

مرة بن محكان السعدي ١٨٢

مزد بن ضرار ١١١

مسعود بن كبير الجري ٢١٤

مسكين اللداني ٢٨٧ ، ٢٨٨

معاذ بن جوين بن حصين الخارجي ٢٣٦

معاوية بن أبي صفيان ١٤٤ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،

٢٩٥ ، ٢٩٦

معبدة (مغن) ١٢٣

مقاتل بن مسعود العبدي ٢٧

مهمل ٦٨

موسى شهوات ٢٦٣

ميسون بنت بحدل ١٤٤ ، ١٤٧ ،

ميسون بنت جندل الفزارية ١٤٧

الناطقة الجعدي ١٤٥

الناطقة الذبياني ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٩ ،

١٨٧ ، ٢٧٢

الناطقة الشيباني ٢٦

الناشي الأكبر ٢١٥

نشوان بن سعيد الحميري ٣٠٦

نصر بن سيار ١٢٦ ، ٢٦٠ ، ٣٢٦١

نصيب بن رباح ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٠

النعمان بن علي ٢٧٤

نهار بن توسعة ٢٧٠

هند بنت عتبة ٢٨٦

الوليد بن عتبة بن أبي صفيان ١٢٨

الوليد بن عثمان بن عفان ١٢٨

الوليد بن يزيد ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥

وهب بن منبه ٣١٢

يزيد بن معاوية ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦

يزيد بن مفرغ انظر : ابن مفرغ

يعلو الأحول بن مسلم اليشكري ١٨٣ ،

فهرست

صفحة	
٥	تقديم
١٥	مقدمة
	الباب الأول :
	١ - لفظ « الأدب » بحث عن معناه الأصلي وما تفرع منه من
٢١	المعاني المتعددة المختلفة
٥٥	٢ - تعريف تاريخ الآداب
٥٧	٣ - كيف ينقسم تاريخ الآداب العربية
٦٥	الباب الثاني : الآداب العربية في العصر الجاهلي
٧٢	١ - شعر أهل البادية
٨١	٢ - شعر الوثنيين الملازمين ملوك الحيرة و غسان
٨٨	٣ - شعر النصارى بالحيرة وفي مملكة غسان
٩٢	٤ - شعر أهل الحضر في مدن الحجاز
٩٥	٥ - النثر الجاهلي
٩٩	٦ - المسائل المتعلقة بالقرآن
١٠٣	الباب الثالث : الآداب في صدر الإسلام وأيام الخلفاء الراشدين
١٠٤	١ - الشعر في مدح النبي
١٠٨	٢ - شعراء المشركين الحاقدين على النبي
	٣ - الشعراء الذين أسلموا من غير أن يهتوا في أبياتهم
١٠٨	بأمور دينهم
١١٥	٤ - شعر الفتوحات
١١٦	٥ - الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب
١١٦	٦ - النثر

صفحة

١١٩	الباب الرابع : الشعر في عصر بني أمية
١٢٠	١ - الغزل في مدن الحجاز
١٣٥	٢ - النسيب عند الأعراب
١٤٢	٣ - الشعر على أسلوب فحول الجاهلية
١٨٥	٤ - الأراجيز
٢١٧	٥ - شعر الجنود
٢٢٥	٦ - شعر الفتن السياسية والدينية
٢٧٠	٧ - شعر أهل الحضر في ميدان العراق والشام
٣٠٥	٨ - الشعر القصصي اليمني
٣١٤	٩ - المراثي
٣١٥	فهرست الأعلام

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧٠

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ٦٩/٤٤٢٩

تاريخ الآداب العربية

لقد كان هذا الكتاب بحق سبباً في تكوين أعلام الأدب في عصرنا الحديث ، لقد وجد طلاب الجامعة المصرية القديمة في محاضرات ناليو في الأدب العربي وتاريخه شيئاً لم يألوه من قبل في الأساتذة أو في كتب الأدب القديمة . .

لقد فتح ناليو الطريق للدراسات جادة وصينة في الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي والشعر الأموي ، كما درس النثر ونصوره جاهلية وإسلاماً ، فهذهنا بذلك إلى شعر الفروع وشعر المشركين وشعر الغزل والشعر السياسي والشعر القصصي اليمنى وغيرهما من طريف الموضوعات .